

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
كلية اللغة العربية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

كلية اللغة العربية ، قسم : الدراسات العليا

الاسم (رباعي) :- جمعة بنت سفر بن سعيد الزهراني

في تخصص :- الأدب

الأطروحة مقدمة لنيل درجة :- الماجستير

عنوان الأطروحة : " الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح "

وبعد :-

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ١٤١٨/٢/١٠ هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .....

والله الموفق ....

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي


المناقش الداخلي

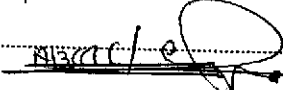
المشرف

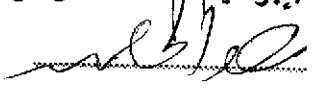
الاسم : د / حبيب بن حنش الزهراني

الاسم : د / محمد الحسين أبو سم

الاسم : أ.د / إبراهيم أحمد الحارثي

التوقيع : 


التوقيع : 

التوقيع : 

يعتمد

رئيس قسم / الدراسات العليا

الاسم : أ.د / سليمان بن إبراهيم العايد

التوقيع : 

المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
كلية اللغة العربية  
قسم الدراسات العليا العربية  
فرع الأدب



## الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

إعداد

الطالبة : جمعة بنت سفر سعيد الزهراني

إشراف

الدكتور : إبراهيم أحمد الحاردلو

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م



كما أسجل شكري للأستاذين الفاضلين : الأستاذ الدكتور/محمد الحسين  
أبوسم ، والأستاذ الدكتور/حبيب حنش الزهراني اللذين تفضلا علي بجزء  
من وقتهما للاطلاع على بحثي ومن ثم مناقشته آملة أن ينفعني الله بعلمها  
ويجزئهما عني خير الجزاء . أخيرا شكرا لكل من له يد في إظهار هذا العمل.

المقدمة

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين  
سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .  
وبعد :

"إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غير  
هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل  
ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء  
النقص على جملة البشر"<sup>(١)</sup>.

هذا القول ينطبق تماما على عملي هذا ، إذ ليس من السهل البحث في  
الإنسان ودرسه ، فمع كثرة الأبحاث والدراسات القائمة على الإنسان وحول  
أنماط سلوكه ومناشطه . أقول رغم استفاضتها إلا أن هناك جوانب كثيرة لم  
تدرس بعد ، فالإنسان هو المتأمل والمتأمل ، ولا يزال معين دراسة لا ينضب ،  
والحق أن دراسة الإنسان من وجهة أدبية أشق وأصعب من دراسته العلمية ،  
وقد كانت دراستي هذه حول الإنسان في رؤية شاعرين من أعلام الشعر  
العربي ، هما : ابن الرومي ، والمتنبي - بين المدح والقدح - حاولت أن  
أرسم ملامح شخصية الإنسان في العصر العباسي لتستقيم لي واضحة الملامح  
بينه القسمات من خلال صور الشاعرين سواء في المدح أو في القدح ، ومن  
ثم عرضها عرضا لائقا قدر ما أتيج لي من معرفة واستنباط ، مستأنسة قدر  
جهدي بما هياه الله لي وبما نالته يدي من المراجع .

وقد كانت دراستي تقوم على المنهج الوصفي التحليلي ، دون اهتمام  
بالمنهج التاريخي الذي يمثله معظم الدارسين لشعر ابن الرومي وحياته ودون  
اهتمام أيضا بالمنهج النفسي الذي سار فيه العقاد والمازني ومن حذا حذوهما.

## ( ب )

وقد بذلت جهدي لتخليص نفسي أثناء كتابة هذا البحث من عوامل الرضا والسخط ، ونوازع الحب أو الكره ، حتى تكون كلمتي في إنسان العصر العباسي موضوعية خالصة ، مبعثها الضوء الذي تجمع أمامي من حقائق أكدتها صور الشعارين الواضحة ودعمتها دراسات مستفيضة حول العصر العباسي ، وأثبتتها الموازنة والتحليل .

وكيفما كان الأمر ، فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد وخمسة فصول ، وخاتمة ، وقد خصصت التمهيد لعرض الدراسات السابقة حول الموضوع - الإنسان - فوجدت أن أهم مصدر عرض للإنسان هو القرآن الكريم ، وحاولت أن أعرض بعض صور الإنسان التي تحدث عنها القرآن الكريم في موضع الشناء الجميل أو التقريع والعقاب الشديد ، وهذه اللفتة الأصيلة هي التي تعزز موضوع بحثي ، ثم عرضت بعض الأعمال والمؤلفات حول الإنسان وهي على كل حال كثيرة ومتنوعة ، ولكنها تقريبا واحدة لاجديد فيها ، سوى العنوان .

وعرضت بعد ذلك موقف الإنسان في عصور التغير الاجتماعي ، وما يصيب قيمه وأخلاقه من تطور أو تدهور جراء ما يحدث في بيئته وينعكس على سلوكه وضربته مثلا من العصر الحديث لدور الأدب - الشعر أو النثر - في تصوير أحوال الإنسان ، وحاولت أن أدرس الإنسان في عصر قريب الشبه بعصرنا الحاضر ومن ثم استعرضت عصور التغير الكبرى في الأدب العربي فلم أجد عصرا يكاد يطابق عصرنا الحديث في معظم أحداثه وملاحظه إلا العصر العباسي باعتباره من عصور التغير الكبرى التي تزلزل القيم وتعصف بالكيان البشري .

فلامندوحة من إلقاء نظرة إلى ذلك العصر لنطلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية وتطور العقلية العربية من جهة ، وتدني الأخلاق وشيوع الفساد من جهة أخرى .

## ( ج )

والحق أن هذه العوامل والارهاصات كثيرة الأصول متشعبة الروافد ،  
وهيئات أن نحاول في هذه العجالة البحث عن كل أصل وكل رافد منها ..  
فإنها متصلة بأمور وأحداث تنوء بها كتب التاريخ والأدب ، وماقدمته في  
التمهيد ما هو إلا وصفاً إجمالياً للعصر العباسي الذي يمثل التجديد في كل  
شأن من شؤون الإنسان آنذاك .

بعد ذلك اخترت شاعرين من شعراء العصر العباسي لتقوم حول  
رؤيتهما للإنسان - مدحا وقدحا - دراستي ، وقد كان معولي في اختيارهما  
شهرتهما ، وأنهما أعمق من غيرهما أثراً في تاريخ الشعر العباسي ، ولا أقصد  
بذلك أنه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع إلى درجتهما أو ربما يفوقهما  
في بعض المناحي ، بل إنهما يمثلان العصر العباسي أفضل تمثيل وفي درسهما  
درس لذلك العصر والروح الشعرية فيه .

لذا آثرت دراسة صفات الإنسان من خلال صورهما - مدحا وقدحا -  
وقد تقدم ابن الرومي على المتنبي في الدراسة نظراً للسبق التاريخي حيث  
كان ابن الرومي في القرن الثالث وكانت الأحداث لما تبلغ بعد مابلغته في  
عصر المتنبي - القرن الرابع - ولم يكن لذيوع الصيت أو الشهرة موضع في  
هذا التقديم لامن قريب ولا بعيد ..

وفي الفصل الأول من الرسالة : قمت بدراسة الإنسان في رؤية ابن  
الرومي - مدحا - واشتمل الفصل على : الصفات الخلقية التي مدح بها ابن  
الرومي الإنسان في عصره . ونقصد بها الصفات الحسية الظاهرة ، من جمال  
وجسامة وغيرها . وكان أغلب مديحه بالصفات الخلقية موجهاً للمرأة -  
الغزل - .

ثم عرضنا الصفات الخلقية التي مدح بها من كرم وشجاعة وأمانة  
وحسن جوار ، وقد كان يكثر المديح بالصفات الخلقية مجتمعة في نص واحد



وقلما أفرد قيمة واحدة بنص مفرد أو أبيات خاصة بها دون غيرها من القيم الأخرى . ثم عرضنا في المبحث الأخير مدائحه بالصفتين معا - الخلقية والأخلاقية - ولم أتعرض للناحية النفسية لابن الرومي خلال دراستي لنصوصه التي مدح فيها إنسان عصره لعلمي أن هذا الجانب قد أشبع دراسة من قبل .

في الفصل الثاني : قمت بدراسة الإنسان في رؤية المتنبي - مادحا - وقد احتوى هذا الفصل كسابقه على : الصفات الخلقية في مدائح أبي الطيب ، كما احتوى كذلك على الصفات الخلقية أيضا ولكن لقللة النصوص والصور التي مدح فيها المتنبي بالصفتين مجتمعه لم أفرد تلك النصوص بمبحث خاص كما كان من أمر ابن الرومي ، ولكنني أجملت الحديث عنها من خلال الحديث عن الصفات الخلقية في مدائح المتنبي .

قد يقول معترض : كان الأجدري أن أضع فاصلا يوحى بالنقطة من جانب المديح إلى جانب - أو مقام - الهجاء - القدح - كأن أضع مثلا مبحثا أوضح فيه نتائج الفصلين السابقين وأبين رؤية الشاعرين للإنسان من خلال المدح .

ولكني آثرت أن أترك ذلك للفصل الأخير الذي يشمل الموازنة بين رؤية الشاعرين . وربما كان ذلك رغبة مني في إثارة حس القاريء وفضوله ومن ثم أحظى باطلاعه ومتابعته للمبحث كاملا وقراءة جميع فصول هذه الدراسة .

ثم جاء الفصل الثالث : وفيه تحدثت عن الإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا - وقد تباينت النماذج والصور التي قدح ابن الرومي في الإنسان من طريقها ، فوجدنا في هجائه نقداً وتهكما وسخرية للفرد والمجتمع على السواء ، وقد جاءت أهاجيه في بعض النواحي شبيهة بالهجاء المعروف في الشعر العربي خاصة تلك التي لم تخرج عن دائرة السب والشم ، فقد كانت فاحشة اللفظ بذئثة المعنى ، لكنه عرف أحيانا كيف يخرج من هذه

الدائرة ويتعد عن العموميات ليصبح شعره ملائماً لشخص مهجوه بشكله الخارجي ، أو بأصله وأخلاقه ، حتى نشعر أن مايقوله فيه حقيقة لامراء فيها. وطبعي بعد هذا الفصل يأتي الفصل الرابع يحمل عنوانه : الإنسان في رؤية المتنبي - قادحا - وقد كشف لنا عن الوجه الآخر لإنسان عصره فرأيناه يقدم نماذج تكاد تكون صورة للإنسان في كل عصر وكل مكان ، وقد ساعد المتنبي في تكوين صورته وآرائه في الإنسان ثقافة قوية واسعة المدى ، كما أنه نشأ في عصر هضمت فيه العلوم العقلية والفلسفية هضما ، وكان في نفسه ذكاء عجيب ، وتقلبت به أحوال الحياة المختلفة ، فذاق الحلو والمر ، وخبر الناس خبرة الذكي الواسع الإدراك ، فأحاط بكل أسرار الحياة ووصل إلى أعماق الإنسان كما تناول كثيرا من مظاهر الصراع الإنساني بالبحث والتحليل العجيب . وقد سار المتنبي في قدحه مع الطبع والعاطفة الناقمة المتفجرة حتى استنفد جميع ما في نفسه من احتقار وازدراء للجهل والكذب والردائل ممثلة في أشخاص يمثلون الإنسان عندما تنحط نفسه وأخلاقه فيتخلى عن إنسانيته بعد أن يفقد مثله ومبادئه .. هذا ماكان من أمر الفصل الرابع ، وأيضا أرجأت الحديث عن النتائج التي يفترض أن تخرج بعد الحديث عن الإنسان في مقام القدح .

الفصل الخامس : وقد عقدت فيه موازنة بين الشعارين في مجال الرؤية العامة للإنسان مستعينة في ذلك ببعض النتائج والأفكار التي كانت حصيلة الدراسة السابقة سواء في المدح أو القدح ، وكذلك الموازنة بينهما في القيمة الفنية لنصوصهما وصورهما التي قدما الإنسان من خلالها سواء مدحا أو قدحا .

وإن كنت قدمت من خلال الموازنة بعض الآراء والنماذج الشعرية التي ربما يفهم منها أنني فاضلت بين الشعارين مفاضلة عامة ، إلا أنني أقر أنها كانت مجرد وقفات عند أمور اتضحت لي من خلال البحث والدراسة التي ربما أجملت الموازنة بين الشعارين ليس غير .

أعقبت ذلك بخاتمة يفترض أن أقدم فيها النتائج أو ماتوصلت إليه من خلال بحثي . ومن ثم عرض توصيات واقتراحات ربما تفيد غيري .. وهذا ماجرت به عادة البحث العلمي - لذا لن أخرج عنه فيها -

وقد أطلقت لفظ - الإنسان - في العنوان لأن المراد الرجل والمرأة على حد سواء ، ولم يدخل في العنوان ذكر العصر العباسي لأن الشاعرين كانا في العصر العباسي .

اعتمدت في دراستي هذه على ديوان ابن الرومي بتحقيق عبد الأمير علي مهنا لأنه أول ما وقع في يدي ، وقد اطلعت على نسخة حسين نصار فلم أجد هناك كبير فرق بين النسختين .

وبالنسبة لديوان المتنبي فقد اعتمدت نسخة عبد الرحمن البرقوقي لعلمي أن هذه النسخة حوت فضائل النسخ السابقة وألمت بغريبها وتحققت من ذلك بالإطلاع على شرح الواحدي واليازجي والعكبري . أما بالنسبة لاختيار النماذج والصور الشعرية عند كلا الشاعرين وفي كلا المقامين - المدح والقدح - فقد تم الاختيار حسب أعلى النماذج وذلك بعد جمع النصوص وتصنيفها - فأرجو أن أكون وفقت في ذلك -

لم أتعرض أثناء دراسة النصوص لذكر الأشخاص والمناسبات لأن هدفي لم يكن التأريخ لتلك النصوص بل كان الإنسان وصفاته من خلال هذه الصور . كما لم أتعرض لعاطفة أي من الشاعرين لأنها لم تكن تعينني في هذه الدراسة ، والتي آمل أن تفيد غيري وتضيف لتراثنا العربي الخالد لبنة . والله من وراء القصد .

التحضير

( ١ )

## التمهيد

يتضمن :

- (١) الدراسات السابقة حول الموضوع .
- (٢) الإنسان باعتباره محورا مهما في عصور التغير الاجتماعي .
- (٣) التغيرات الاجتماعية ودورها في تغير القيم .
- (٤) العصر العباسي وأبرز ملامحه سياسيا واجتماعيا .
- (٥) ابن الرومي والمتنبي سبب اختيارهما .

(١) الدراسات السابقة حول الموضوع :

جَدَّ العلماء والأدباء في البحث عن الإنسان ، واستكشاف حقيقته ، وظنوا أن معرفتهم تفهمهم على باب اليقين ، وتقدرهم على ريادة الآفاق المجهولة .

فبحثوا عنه في عقله وقلبه ، في بدنه وسلوكه ، في مناشطه العقلية والوجدانية ، غفلوا عن أشياء كثيرة وأسرار ما برحت مخفية ، وظفروا مما يطمحون إليه بشيء ضمنوه مجلدات ضخاما ولعلي بعلمي المتواضع أضيف إلى لبناتهم لبنة .

(أ) الإنسان في القرآن الكريم :

إن أوّل مصدر عرض للإنسان سواء في خلقه وبنائه ، أو في المهمة المنوطة به - عمارة الأرض - والغاية من وجوده - عبادة الله - أو في سائر مناشطه ، هو القرآن الكريم ، فالإنسان هو المخاطب بكلام الله عز وجل ، وقد ورد ذكر الإنسان بلفظه الصريح في القرآن الكريم ٦٥ خمسا وستين مرة ، ما بين وصف وعرض لخلقهِ وبداية تكوينه ، وبين إشادة به وتكريم إن أحسن ، وذم له وتقريع إن أساء .

وليس أدلّ على منزلة الإنسان في الكون من أن الله جعله خليفة في الأرض ولم يجعل أحدا من ملائكته لحكمة يعلمها سبحانه . وقد أكد تكريمه لبني آدم في غير موضع من كتابه الكريم ، يقول سبحانه : {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} (١).

وفي مناسبات شتى عدّد نعمه عليهم ، وما وعد به المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وما وصفهم به في أنفسهم ، وفي سلوكهم الظاهر ، يقول سبحانه : {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (١).

وبينا يحبوا القرآن الكريم الإنسان المؤمن العامل بالثناء الجميل ، والإطراء الذي يمتع الروح ، نجد البيان النبوي يمضي على نفس السنن ، مؤكداً أن الإنسان لا يستحق الثناء والإطراء في دنياه ، والثواب في أخراه ، إلا إذا التزم بدستور القرآن والسنة النبوية .

وفي مقابل هذا الإطار الأسنى الذي يوشح المؤمن العامل ، نجد معادلاً آخر يزري بالإنسان ويصوره مهانا وضيعا يقول عنه القرآن : {إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} (٢).

يصوره غادرا ، فدما ندلا يخبر عنه القرآن بقوله : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ...} (٣).

كما يصوره أثراً فاجراً كذاباً {قَتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} (٤).  
وفاسقاً لا يؤمن جانبه {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} (٥).

عدواً لنفسه وللناس {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (٦).

- 
- (١) سورة الفرقان : آية ٦٣  
(٢) سورة الفرقان : آية ٤٤  
(٣) سورة البقرة : آية ٢٠٤  
(٤) سورة عبس : آية ١٧  
(٥) سورة المعارج : آية ٢١، ٢٠، ١٩  
(٦) سورة الأحزاب : آية ٧٢

والإنسان في البيان القرآني هو الذي يحمل الوصية ، وهموم المكابرة واقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني ، كما أنه الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ، ومحنة الغواية ، وهو في النهاية {أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا} (١).

وهل ثم أوفى وأدق بيانا من صورة إنسان أو ناس يكفرون بالله وبمنهجه ورسله ، وبالصراط الذي يُدعون إلى الاستقامة عليه ، فيخبر عنهم تبارك وتعالى بقوله : {حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً...} (٢).

بهذه الصورة استحالوا إلى مضغنة ، وفقدوا صلتهم بالإنسان ، وأهليتهم للتكريم ، فالإنسان في معرض القرآن والبيان النبوي ، مستعد للخير ، إن استجاب لدواعيه كان موزعا للثناء الجميل في الدنيا ، والثواب العظيم في الآخرة ، ومستعد للشر ، إن استجاب لدواعيه ناله القدح والتفريع في الدنيا ، والعقاب الشديد في الآخرة . وهذه لفظة أصيلة تعزز موضوع بحثي - الإنسان بين المدح والقدح - .

#### (ب) الإنسان في معرض المفسرين والباحثين :

كثيرة هي كتب التفسير التي عاجلت موقف الإنسان مستقيما أو منحرفا لكن أكثر هذه الكتب كانت تتراجع فيها صورة الإنسان وراء العناية بإبراز الأحكام ومسائل النحو والصرف والبلاغة ، ولأقل من قيمة البحث في هذه الفروع ، غير أنني أملت أن يبرز الأصل المستهدف في جهد المفسرين ، وإن كان للمرحوم سيد قطب خطوة رائدة في كتابه - في ظلال القرآن - فقد وصل الإنسان في القرآن الكريم بحياته الشخصية والاجتماعية .

(١) سورة الكهف : آية ٥٤

(٢) سورة البقرة : آية ٧



أما الباحثون الذين عناهم الإنسان فمنهم من بحث عنه في تكوينه ووظائفه من ناحية علمية ، ومنهم من ركز على بنائه العقلي ، ومميزاته النفسية أو الجسدية ، غير أن أقرب هذه الدراسات وأوثقها نسبيا مع بحثي هي تلك الدراسات التي كانت عن الإنسان في القرآن الكريم وأذكر منها تمثيلا لاحصرا :

(١) الإنسان في القرآن - عباس العقاد - نوّه فيه بالإنسان فيما لا يجاوز خمس صفحات!! ثم انتقل إلى آراء العلماء والفلاسفة حول حقيقة الخلق وماهية الروح والنفس ، مستأنسا في بعض المقامات بآيات متفرقة من القرآن .

(٢) الإنسان في القرآن الكريم - عبد الكريم الخطيب - وقد نهج فيه نهج العقاد تقريبا إذ تعرض لبداية الخلق ، وقصة آدم ، وللعقل والقلب والنفس ، والحياة ، والموت ، والعقاب ، والثواب ، مستعينا بآيات القرآن مثل سابقه .

(٣) القرآن وقضايا الإنسان - عائشة عبد الرحمن - وهو عرض جديد ، لمعلومات قديمة ، وحديث عن الإنسان وأمانة مسئوليته ، وتكاليف وجوده ، وشواغل دنياه ، وهو اجس أخراه ، وتعني به الإنسان العربي المسلم في العصر الحديث ، والجديد فيه محاولة ربط الإنسان في العصر الحديث بماضيه العريق .

(٤) الإنسان في الأدب الإسلامي - محمد عادل الهاشمي - وقد توقعت أن يكون قريبا من موضوع بحثي ، بما يوحي به عنوانه ، أما مادته فيبدو من طريقة عرضها حرص المؤلف على تأصيل دراسة الإنسان دراسة أدبية في إطار التصور الإسلامي ، كقصة خلق آدم عليه السلام ، ومالقي الإنسان المسلم عبر العصور من تحديات وصراعات ومحاولات ترمي إلى طمس ذاتيته المسلمة ، كحركات الشعوبية في العصر العباسي والتغريب في العصر الحديث .

(٥) ثمّ دراسات أخرى حول الإنسان عربية وأخرى مترجمة لم يكن للإنسان فيها سوى <sup>من حظ</sup> العنوان ، وقد حفلت بعض الدوريات القديمة بدراسات حول الإنسان في آفاق مختلفة .

## (٢) الإنسان باعتباره محورا مهما في عصور التغير الاجتماعي :

الإنسان وهو يتضخم ، ويتشاح ، ويتلمس أسباب القوة والتفوق ليبقى ، فيصارع ويتكالب ويطنغى ، ثم الإنسان وهو يفقد توازنه وقوته ، ويختل ، وتتحلل نفسه بالشنآن والتدابير والأحقاد ، والإسراف . إلى أن تهيىء علائقه الاجتماعية . هذه حال الإنسان من طفولة البشرية إلى أن أظلت حضارة العصر ، حضارة النور الساطع ، والظلام الدامس ، العلم العظيم والجهل المطبق ، اليقين القاطع ، والشك المدمر ، الغنى الفاحش ، والفقر المدقع ، الجمال الرائع الرفيع ، والقبح البشع الوضيع ، والتي هي مظهر لنشاط الإنسان ، تقوى بقوته ، وتنحل بانحلاله .

الإنسان هذا الكائن العجيب الذي استخلفه الله في أرضه ، ولكنه في غمرة أنانيته ، وشعوره بالسيادة والسيطرة ، ينسى مهمته ، فيختل توازنه ، وتستحيل آدابه وأخلاقه إلى أشكال ورموز منحطة ، ويتعد بذلك عن الصراط المستقيم ، فيضل ويغوى وينتهي أمره إلى مانمع ونرى من كثرة الفتن والحروب ، حيث صار الإنسان يغدر بأخيه ، ويقتل أباه ، ويختنن نفسه ..

(٣) التغيرات الاجتماعية ودورها في تغير القيم :

لا يضطرب الإنسان هذا الإضطراب ، إلا في المراحل التي تتصادم فيها الحضارات ، إذ ينجم عادة عن هذا الصدام تغير هائل في الشؤون الفكرية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفنية ، يتسرب هذا الصراع من حياة الإنسان الخارجية إلى أخفى خفاياه ومكوناته ، يتسرب إلى قيمه ومثله العليا ، إلى ذوقه ونظام معيشتته .

كما حدث للإنسان العربي إبان الصدام الحضارى المروع الذى حدث مستهل هذا العصر بين الحضارة العربية الإسلامية وحضارة أوروبا ، إضافة إلى دور الثورة التكنولوجية الحديثة التي لا تؤثر فقط على الإنتاج والنشاط المنتج ، بل إن الإنسان نفسه احتياجاته الثقافية ، مشاربه ، وكل أنماط حياته يتغير في ظل تأثيرات هذه الثورة التي تغطي الأحوال الاجتماعية المختلفة المحيطة بالإنسان<sup>(١)</sup>.

فإذا شمل التغير كل أحوال الإنسان الخارجية والداخلية ، فالمناشط الفنية التي تصدر عن الإنسان أخرى بالتغير ، فقد لحق التغير العادات ، والآداب ، والسلوك العملي للإنسان ، وانعكس أثره على الأدب كما انعكس على سائر الفنون .

يقول الشاعر<sup>(٢)</sup> مصوراً تغير القيم في العصر الحديث :

لَا تَكُنْ ضَيْفًا ثَقِيلًا      يَكْرَهُ النَّاسُ لِقَاءَكَ  
لَا تَكُنْ عِبْنًا عَلَيْهِمْ      لَا تَحْمَلُهُمْ عَنَاءَكَ

فقيمة الكرم التي من أهم القيم التي يحرص عليها العربي ، أصبح الناس ينظرون إليها على أنها آداب مخلقة ، وتطفل مرفوض . وقد كان النثر في فنونه<sup>(٣)</sup> أوفى وأمعن في تصوير أحوال الناس . فهذا

(١) انظر فالينتينيا ايفاشيفا ، الثورة التكنولوجية والأدب ، ترجمة فخرى لبيب ، ط/بدون .

(٢) محمد الهراوى .

(٣) المقالة ، القصة ، المسرحية ... الخ .

أحمد فارس الشدياق يصور هذا التغيير في "الوطني المزيف" يقول : "... من الناس من يببالغ في مدح وطنه ، ويحن إليه حينه إلى سكنه ، فيصف مروجيه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وربوعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله وثماره ، ودوحه وأطياره ، وطيب هوائه ولذة مائه ، ويزعم أنّ فصوله كلها كالربيع حسنا ، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمنا ، وأن شهرا فيه خير من ألف عام في غيره... فإن قلت له : كيف جارك الأدنى؟ لعله كان لك عوننا وخذنا!!

قال : ويلى ، إنه شر جار ، وهو على البلاد عار وشنار .

فكيف جاره الذي يليه؟ عسى أنه ممن تواليه وتصافيه!!

قال : إنه شر من أخيه .

فكيف أهل الحارة طرّا؟

قال : ويلى ، أنهم كانوا على شرا ، ولم أجد منهم إلا ضرا .

فكيف أهل البلد أجمعين؟

قال : ويلى ، مامنهم أمين معين ، فما كأنهم خلقوا من ماء وطن إنى

قد اختبرتهم جميعا ، فلم أجد لأحد منهم من خلاق ، وإن هم إلا جهلاء أغبياء، ينقادون لمن يأمرهم من الأغنياء .

فإن قلت له : ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن ، وأهلها

على هذه المساوىء والشوائن؟

قال : إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين ، فحراثوها وزرعوها ،

وأمرعوها ، ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة ، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة .

ولكن مامعنى فسد الزمان ، وهو لم يكن صالحا قط منذ خلق الإنسان؟

ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقا يشين ، فإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالا . كما قال الشاعر الحكيم :

وَمَنْ يَكْ ذَا فَمِ مَرِيضٍ      يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزَّلَالَا

فما أنت في طعنك على بني جنسك إلا مليم ، وإن امرءا يحسب جميع

أهل بلاده دونه لجدير بأن يشيعوا مفتونه ، ويذيعوا جنونه ، ويتجنبوا

محضره ويتنكبوا منظره ، فياللعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح إلى نفسه ، مع ذم قومه وجنسه ... " (١) .

ولم يسكت الشعر عما حاق بالإنسان و ما أحدثه العصر في أعماقه من عواطف متباينة ، وما برز بينه وبين أخيه من تطالم وتصارع ، فالشعر الذى قيل فى إنسان العصر كثير كثير لم يغادر من شئونه شيئاً ولكن!! ولما كان الإنسان فى الأدب الحديث أصعب درسا وأشق راجعت عصور التغير الكبرى فى تاريخ الأدب العربى أنشد عصرا قريبا من عصرنا هذا ، فاستوقفنى التغير الذى حدث للإنسان العربى إبان تحوله من الجاهلية إلى الإسلام ، فقد أحدث دين الإسلام تغيرات أساسية فى مفهوم الإنسان العربى ، وفى تصوره وعلائقه ، تعدت إلى آدابه ومعاملاته ، فأقصى منها ما أقصى ونقح منها مانقح وهذب . وطبعها بطابعه الخاص ، وعندما استجاب العربى بقلبه وعقله وسلوكه للدعوة الإسلامية بعد مقاومة عنيدة ، طفق الإسلام ينظم شئون الحياة الإنسانية بقيم جديدة .

فبعد أن كانت علاقة الدم فى القبيلة هى المحرك الأول لسلوك الجاهلى والتي جعلت كل جاهلى يقول بلسان الحال :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

أصبحت علاقة الدم والنسب لاتغنيان عن علاقة الإيمان ، تلك العلاقة

التي بها تنتظم الحياة الاجتماعية فى المجتمع الجديد .

ومن مداخل التغير الذى أحدثه الإسلام فى نفوس العرب ، أن عزة المجاهدين فيه غير عزة المقاتلين فى الجاهلية ، حيث كانت قبل عزة البطش والعدوان ، وأصبحت عزة الدفاع عن النفس وعن حرمان الحياة التى شرعتها ونظمتها العقيدة الجديدة . فالعصر عصر جهاد وتأسيس لالجيل بذاته ولابيئة خاصة ، إنما التأسيس للبشرية فى جميع الأزمنة .

(١) الجوائب ، عدد ٤٣٧ فى ٣ يونيو ١٩٧٠م ، نقلا عن محاضرات فى الأدب الحديث للدكتور محمود فياض ، مجموعة محاضرات أُلقيت على طلاب السنة التمهيديّة عام

والصِّراع محتدم بين الكفر والإيمان ، والناس قد خرجوا بقيمهم وعاداتهم عن الاستقامة التي شرع يرددهم إليها الإسلام ، وينظم حياتهم عليها ، وهو تنظيم لم يكن ليتم إلا بجدع الأنوف<sup>(١)</sup>.  
ولكنني أبحث عن عصر قريب من العصر الحديث كل ما حدث فيه زلزلة للقيم والآداب وليس تحولاً في العقيدة . ولعل العصر العباسي هو أقرب العصور إلى العصر الحديث .

#### (٤) العصر العباسي وأبرز ملامحه :

يضاهي العصر العباسي في بعض ملامحه العصر الحديث ، فقد تلاقت فيه الحضارة العربية الإسلامية بحضارات أخرى تعاملت معها في جميع المجالات - العلمية والفنية .

في عصور التغير لا تستقر النفوس على ما ألفت ، بل تضطرب وتتناقض تُسِفُّ وتترفع ، تنهالك وتطمح إلى القوة ، وتملك عليها الحيرة أقطارها ، وهذه حال النفس العربية في العصر العباسي فقد تعقدت الأمور الحياتية ، وتعقدت معها علاقات الناس بعضهم ببعض ، واختلت الأحوال بفساد النيات ، فزال الأمن واختل النظام ، وظهرت تيارات فكرية جديدة ذات اتجاهات مختلفة ، ولم تكن هذه الحركات والثورات في الأعم حركات سياسية تهدف إلى تقويض الدولة العباسية ، بقدر ما كانت إعادة لتشكيل نظمها الإجتماعية ، والسياسية ، والروح الداخلية للثقافة الإسلامية على مثال النظم والقيم الساسانية ، من تلك التيارات : التيار الفكري الاجتماعي الذي عُرف بالشعبوية .

(١) انظر د. محمود فياض ، محاضرات في أدب الدعوة الإسلامية ، بتصرف . مجموعة محاضرات مخطوطة أُلقيت على طلاب السنة التمهيديّة في عام ١٤١٢هـ .

وكان لهذه الشعوبية حماة ودعاة يعملون كثيرا بداعي العصبية القومية ، قاومها العرب ، كما قاومتها الأجناس الأخرى ، فكان صراع لغوي وديني ، وصراع عادات وتقاليد ، وكان صراع علمي ، وكان النصر في بعض الميادين لهذا وبعضها لذاك ، مما أوجد مادة قيمة للأدباء والفنانين ومن أهم أعلامها الشاعر بشار وأبو نواس ، وابن المقفع .

وقد تزامن مع هذه الحركة فتن أخرى كثيرة : ولعل أقربها حركة الزندقة التي عمل أصحابها على إحياء الديانات الفارسية ، ودبروا لتخريب المجتمع العربي ، وتشويه مثله ، ليتسنى لهم تقويض النظام الإسلامي ، وتخطيم الكيان العربي ، وتدمير الأخلاق والقيم العربية<sup>(١)</sup>.

وعملا بالقانون الطبيعي الذي يقول : "إن لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ، ومعاكس له في الاتجاه" نجد هناك رد فعل قوي تحرك في النفوس ولدته حياة اللهو والمجون والزندقة ، فاتجه بعض الشعراء وغيرا لشعراء إلى تيار آخر هو تيار الزهد ، الذي أضاء مصابحه من جديد ، وقاده في هذه الفترة أبو العتاهية<sup>(٢)</sup>.

والعصر العباسي بشهادة أهل عصره "خوى فيه نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، ولذات النفوس في اصطفاق المظاهر ، ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجُهل قدر المعروف وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزُهد في لسان الصدق"<sup>(٣)</sup>.

فالعصر العباسي من عصور الاضطراب التي تولد الشخصيات الفنية ، التي تحمل "ألم العصر" وتعب عنه .

(١) انظر : ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، ج ١ ، تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي ،

ج ٣ ، حسن إبراهيم ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ٤ ، جرجي زيدان .

(٢) يراجع تيار الزهد ، العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ، ط/سادسة ، ص ٨٣ ، دار المعارف .

(٣) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد الدالي ، ط/ثانية ١٤٠٦هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ص ٦ .

وقد أخرج لنا العصر العباسي فنانيين وأدباء شعروا بالاضطراب والخطر المحقق بالإنسان ، جرّاء هذه الفتن والقلاقل .  
 وإن كان هناك من لم يحس ذلك وإنما انصرف للملذات والقشور :  
 "فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا في مدح قينة ، أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله - عز وجل - بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالتكذيب وهو لا يدري من نقله ... هذا المعجب بنفسه ، الزاري على الإسلام برأيه ، طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وأخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - وصحابته ، وعلوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، واخرف عنه إلى علم قد سلّمه له ولأمثاله المسلمون ، وقلّ فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلامعنى ، واسم يهول بلاجسم" (١).

من هنا كان وجه الشبه بين العصرين - العباسي والحديث - في كثرة الحروب والفتن ، والصراعات الداخلية ، وتسرب كثير من العادات والآداب مع العناصر الوافدة من البلاد التي دخلها الإسلام والتي استقبلتها الحضارة الإسلامية ، وهضمتها وتمثلت منها ما لم يصادم أصلا مقررا .

على أنه لا يفوتني التنبيه إلى فارق جوهري بين العصرين ، إذ كان العرب في العصر العباسي أقوياء ، يجتارون ما يرونه متمما لحضارتهم ، وينفون ماعداه ، أما في العصر الحديث فالأمر جد مختلف ، حيث كان العرب ضعفاء متخلفين ، فنقلوا الغث والسمين ، بل ربما أغرتهم قوة القوي فنقلوا غثه متباهين ، وأطرحوا ثمينهم مستنكرين ، وهذا فارق له ماله في طبيعة المنقول ، وطريقة النقل .

(١) ابن قتيبة ، نفس المصدر ، ص ٧٦ .



ثم لما اتضحت الرؤية اخترت من العصر العباسي شاعرين كبيرين ،  
مختلفين في طريقة الاستقبال والتصوير وهما :

ابن الرومي (أبو الحسن علي بن العباس بن جريج ٢٢١-٢٨٣هـ)<sup>(١)</sup> .  
وأبو الطيب المتنبي (أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي  
٣٠٣-٣٥٤هـ)<sup>(٢)</sup> .

### (٥) سبب اختيار الشاعرين :

لكل عصر عظماءه ومشاهيره ، والعصر العباسي كان من أغنى العصور  
بالمشاهير والعظماء ، قادة ، وعلماء ، وأيضا أدباء وظرفاء ، ولكن عندما  
يكثُر العظماء لابد أن يتميز كل عظيم بمزايا تميزه عن غيره ، ومن بين شعراء  
ذلك العصر تميز شاعران عن غيرهما ، ولم يكن اختيارهما عبثا ، فقد كانا  
أكثر من غيرهما إحساسا بالإنسان ، وبمعاناته ، في عصرهما . اتفقا في النظرة  
إلى الدهر والناس ، كما التقيا في العديد من الأمور الأخرى ، وإن كان  
الأول - ابن الرومي - يمدّ خياله مَدًّا ، ويتريث أمام التفاصيل ، ويُعنى أكثر  
ما يعنى بالأوصاف الحسية ، إلا أن لديه قصائد طوالا تشعرنا برغبته في  
إصلاح العيوب ، وهداية الناس إلى مثل أخلاقية يود لو أصبحت حقيقة  
واقعة يرقى بها المجتمع ، ويسمو بها الإنسان .

فابن الرومي "صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على  
المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة ولا يترك  
المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية ..." <sup>(٣)</sup> .  
كما أنه كان "ضنينا بالمعاني حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد  
ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، دار صادر ، بيروت ، تحقيق احسان عباس ، ج ٣ ،

١٩٧٠ م .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ .

حتى يمينته ، ويعلم أنه لا مَطْمَح فيه لأحد ... " (١) .  
وهو "أولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه" (٢) .  
وقد كان ابن الرومي في عداد القلة من شعرائنا القدامى الذين نبهوا  
إلى آفات المجتمع ، وانتقدوا اختلاله .  
وقد أوتي حساسية مرهفة قادرة على التقاط أدق التفاصيل وأخفى  
الجزئيات ، كما أوتي دقة ملاحظة لا تخفها خافية .  
"وقلّ من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقاربه في دقة إحساسه  
بالجمال في جميع مظاهره وأشكاله" (٣) .  
أما القطب الآخر - أبو الطيب المتنبي - فهو شاعر جهير ، لا يداجي  
ولا يوارب ، مع أنه فنان عظيم موهوب إلا أنه كان حاد النظر لا يداجي في  
حبه أو كرهه ، ومن ثم كان يجري شعره في جدولين متوازيين : جدول من  
الحب بما فيه من نبل الرجولة وكبريائها ، وجدول من البغض بما يقتزن به  
من افتراس وتشف مع تركيز شديد في الصورة ، إن عبارة ابن رشيق التي  
وصف بها شاعرنا بأنه "ماليء الدنيا وشاغل الناس" (٤) ، تكشف عن المكانة  
الرفيعة التي احتلها شعر المتنبي في تاريخ الأدب العربي .  
والمتنبي "إذا خاض في وصف معركة ، كان لسانه أمضى من نصالها ،  
وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله مقام أفعاله ، حتى تظن الفريقين قد  
تقابلا ، والسلاحين قد تواصلوا ... " (٥) .

- 
- (١) ابن رشيق ، العمدة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ،  
ط/رابعة ١٩٧٢م ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .  
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .  
(٣) إبراهيم المازني ، حصاد الهشيم ، ط/سابعة ١٩٦١م ، ص ٢٨٦ .  
(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ١٠٠ .  
(٥) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي ، بدوى  
طباعة ، الفجالة ، مصر ، ت/طبدون ، ج ١ ، ص ١٦، ١٥ .

وَأَحْسَبُ أَنَّ شَاعِرِينَ هَذَا بَعْضُ مَا قِيلَ عَنْهُمَا فِي الْقَدِيمِ ، وَمَا قِيلَ عَنْهُمَا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ يَفُوقُ الْحَصْرَ ، جَدِيرَانُ أَنْ يُدْرَسَ الْإِنْسَانُ مِنْ خِلَالِ شِعْرِهِمَا . فَقَدْ كَانَا أَكْثَرَ شِعْرَاءِ عَصْرِهِمَا إِحْسَاسًا بِالْإِنْسَانِ وَاخْتِلَالِ قِيَمِهِ ، كَمَا كَانَ لِعَصْرِهِمَا أَثَرُهُ الْوَاضِحُ فِي شِعْرِهِمَا وَرُؤْيَيْتِهِمَا لِلْإِنْسَانِ ، وَسَاحَاوَلُ جَهْدِي أَنْ أَكُونُ صُورَةَ الْإِنْسَانِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ ، وَلِلْإِنْسَانِ بَعَامَةِ مَنْ خِلَالِ صُورِهِمَا مَدْحًا وَقَدْحًا ، وَكَيْفَ تَكُونَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ مِنْ خِلَالِ رُؤْيَيْتِهِمَا الْفَنِيَّةِ ، وَمَقْدَارِ مَا تَنَبَّضُ بِهِ مِنْ جَمَالٍ وَتَأْثِيرٍ .

الفصل الأول

الإنسان

في رؤية ابن الرومي - مادحاً -

## الإنسان في رؤية ابن الرومي - مادحا -

يتضمن :

أولا : الصفات الخلقية في مدائح .

ثانيا : الصفات الخلقية .

ثالثا : الصفات الخلقية والخلقية .

توطئة:

قد يندر من الشعراء من يجتمع له من المتناقضات النفسية مثل الشاعر ابن الرومي ، وربما يكون كثرة التردد من صفات الفنانين بعامة ، ولكنه لدى ابن الرومي ظاهر للعيان ، ولا يحتاج إلى برهان .  
يقول من ترجموا للشاعر :

إنه كان غريب الأطوار ، لا يستقر على حال واحدة ، فقد يمدح اليوم إنسانا ويذمه غدا ، وهو في متناقضاته وجمعه بين الأضداد متأثر بطبيعة عصره ، إلى جانب ماخص به من عناية ودقة في عرض صورته وبسطها ، فقد يلتقط التامة المستخفية فيجعلها مسموعة مدوية ، أو الصفة التي اندثرت في عصره فيجسدها لمدوحه ، "وهو وإن كان غرّد داخل سره في موضوع العديد من الصفات التي ألصقها بمدوحيه من مثل : الكرم ، والشجاعة ، الحكمة ، والعفة ، الذكاء ، وشرف المحتد ، إلا أن مدائح حافلة بالمقاطع التأملية في الحرص ، والإيمان ، والشرف ، وقيمة الناس ، وتقلب الدهر ، والمجتمع المتفاوت الطبقات ، الظالم الميزان"<sup>(١)</sup>.

وفي مقام الحديث عن الإنسان في رؤية ابن الرومي مادحا ، لا يجفئ علينا أن المديح : ثناء يسبغه الشاعر على مدوحه ، إما اعترافا بفضل ، أو رغبة في نوال . وابن الرومي يلتقي مع غيره من المداحين في الغرض وكذلك في بعض الصفات التي يمدح بها ، لكنه يختلف عنهم في التفاصيل والأسلوب - في الناحية الفنية - إضافة إلى أنه قد يلتفت إلى معان غابت عن الكثير من الشعراء ، فيمدح بها إنسان عصره ، رغبة منه في بعث هذه الخلال وترغيب الناس فيها ، ومن ثمّ السمو بالمجتمع وانتشاله من الوهدة التي يتردى فيها ، نتيجة للاختلاط والترف الحضاري .

(١) د. محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، دار الفكر اللبناني ، ط/أولى ، ١٩٩٤م ، ص ٩٩ .

وقد تأثر شاعرنا بثقافة عصره التي انعكست على شعره خاصة في مدائحه - فنحن نقرأ لابن الرومي مدائحه ونستشف منها روحاً حيّة تعلو بنا إلى عنان السماء ، واصفاً ممدوحيه بالكواكب والنجوم ، ثم يجول بنا في أرجاء النفس البشرية من خلال منطقته ورؤيته الشعرية ونظراته الخاصة بالحياة والناس ، فكثيراً ما نجد في شعره أقيسة وأدلة منطقية تدل على ثقافته الواسعة بعلم الفلسفة والمنطق اليوناني ، واهتمامه بعلمي الفلك والتنجيم ، ناهيك عن العلوم والمعارف السائدة في عصره من عربية وغيرها .

## أولاً : الصفات الخلقية في مدائحه :

مدح الشعراء العرب منذ الجاهلية بالصفات الخلقية ، وكان الجمال من أولى الصفات التي امتدحوها ، فهذا زهير<sup>(١)</sup> يشير في معرض مديحه إلى جمال وجه ممدوحه وبهاء طلعتة ، وغير زهير كثير<sup>(٢)</sup>.

فالعربي بطبعه يهوى الجمال في كل ما يحيط به ، والنفس مطبوعة على حب الجمال ، تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية ، وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة ، فطبعي ألا يغفل الشاعر العربي جانب الجمال في مدائحه لأن ذوق الجمال كان أدق وأيقظ ما يكون في الإنسان العربي .

وابن الرومي كغيره من الشعراء الفنانين عشق الجمال وسعى إليه فكان الجمال هدفا في حياته ، امتدح به وتذوقه ، وتأثر به سواء في الوجه أو الجسد أو الصوت والغناء الحسن الجميل ، الذي يدل على أن له ذوقا يستحسن الجميل وينفر من القبيح ، فله براعة في نعت الصوت الحسن تدل على صحة شعوره بالفن كأنه خبير بفن الغناء خبرته بفن الشعر .

وهو وإن اتفق مع سائر الشعراء العرب في بعض طبائع التقليد وميزاته فقد انفرد عنهم بطبيعة خاصة تفيض بالشعر عن خاطر ، فقد يتقيد أحيانا في شعره بالمعاني التقليدية ، لكنه يتحرر منها حيناً آخر<sup>(٣)</sup>.

وكثيراً ما نجد ذلك في مدائحه فهو حين يقول :

أَغْرُ أْبْلُجُ يَكْسُو نَفْسَهُ حَلًّا      مِنْ الْمَكَارِمِ لَا تَبْلَى عَلَى الْحَقْبِ

يمدح بمعنى مطروق من العصر الجاهلي فكثيراً ما مدح الشعراء بهذه المعاني الحسية ، لكن ابن الرومي تحرر من التقليد حين ربط بين المعنى الحسي - جمال الوجه ، والمعنى المعنوي - كريم الصفات والمكارم - بطريقة تدل

(١) أغر أبلج فياض يفكك عن أيدى العناية وعن أعناقها الربقا

(٢) بعد البعثة المحمدية هذا حسان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجمال فيقول :

(٣) د. محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المبعوث به بتصرف .  
أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد



على ذكائه ، فهو يدرك أن الجمع بين الجمال الحسي والمعنوي أبلغ وأعظم أثرا في النفس ، وكأنه رأى أن المدح بالجمال الحسي - فقط - نقص إذ لا يلبث الجمال الحسي أن يبلى ولكن جمال الروح والمحامد هي التي تخلد وتبقى مع الأيام .

وهذا ديدن ابن الرومي حين يمدح بالصفات الظاهرة الحسية ، لا بد أن يجمع بينها وبين الصفات المعنوية - الجمال الروحي - ، يقول في مقام آخر (١) :

وَقَدْ حُسِّنَتْ أَخْلَاقًا وَخُلُقًا      فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِصْبَاحَ الْقُلُوبِ  
فِي الْقَمَرِ يَنْيرُ بِلَأْفُولٍ      وَيَاشْمَسًا تَضِيءُ بِلَاغْرُوبِ

فهذه معاني مطورقة ولكن الجديد الذي أضفاه ابن الرومي عليها أنه قيدها فالعرب اعتادوا المديح بالقمر والشمس ولكن أن يلتفت شاعر كابن الرومي إلى صفة الاستمرارية فهذا شيء جديد ، فممدوحه كالبدنر إلا أن البدنر يتناقص في أبراجه ثم يأفل وهو مستمر لا يأفل ، وهو كالشمس إلا أنه يغيرها باستمرار نوره حيث لا يخبث (٢) . والتعبير الإنشائي الذي دبج به الشاعر مدحته هذه - أسلوب النداء - أضفى لونا نفسيا يوحى بالتقارب بين الشاعر والممدوح . وابن الرومي يدرك أنه متى بلغ الإنسان ذروة الجمال لا بد أن يسمو خُلُقًا وَخُلُقًا ، فأنزل ممدوحه بهذه الصفات منزلة المصباح الذي به تستبصر القلوب الجميل من القبيح ، فالناس بمثابة القلوب وهو مصباحها فما يألفه يألفه الناس وما ينفروا منه تنفروا منه الناس .

والعبرة في مدحه بالقمر والشمس ليست دلالة الجمال فقط ، بل العبرة الشمول والقوة ، والاعتداد بالممدوح .

فابن الرومي يدرك أن الجمال والخير لا يمكن انفصالهما ، فكأنه يؤكد هنا أن جمال الممدوح الحسي أوجب أن يشف عن جمال الخلق - المعنوي -

(١) ديوان ابن الرومي ، شرح وتحقيق عبد الأمير علي مهنا ، ط / أولى ١٤١١ هـ ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٢) أخذ هذا المعنى الشاعر - صفى الدين الحلبي - حين قال :  
كالشمس إلا أنه لا يخبث      والبدنر إلا أنه لا يخبث

فلا بد أن يرتبط الجمال بالخير ، والخير يرى شاعرنا أنه يكمن في الفضائل والأخلاق التي يتمتع بها ممدوحه .

وابن الرومي حين يمدح لا ينسى أن يضيف لمعانيه لونا خاصا من ثقافته وعلمه ، من تلك الألوان والعلوم علمه بالفلك والتنجيم فقد عاصر ابن الرومي حركة علمية واهتماما بالغا بالفلك حتى أصبح معظم معاصريه على دراية بعلم الفلك ومن المقطوعات التي ظهرت لنا فيها معرفته بالفلك قوله يمدح ويهنيء بمولود<sup>(١)</sup>:

أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَنْجَبَا	بَدْرٌ وَشَمْسٌ وَلِدَا كَوْكَبَا
لَأَبْدَلْتُ مِنْ مَشْرِقٍ مَغْرِبَا	ثَلَاثَةٌ تَشْرِقُ أَنْوَارَهَا
مَا نَارَعَتْ شَرَوَاهُ أُمَّ أَبَا	بَدْرٌ وَشَمْسٌ أَبَوَا مُشْتَرَا

بدر وشمس وكوكب .. ثلاثة من النجوم السيارة تزدان بهم السماء وتتباهى أمام أعين الناظرين . ابن الرومي أمعن النظر في حسنها وبهائها ، فجعل الشمس في دفعها ، والقمر في جماله وسحره ، أما وأبا تزوجا واتحدا فأنجبا كوكبا ، لا يقل عنهما بهاء وضياء ، هذه الكواكب تطل علينا وتستشير حواسنا بالتغني بنورها وإشراقها وحسنها ، أراد ابن الرومي أن يظهر ممدوحيه في أبهى منظر وأجمل حلة فلم يجد لهم شبيها سوى في كواكب السماء .

وهناك نص آخر قريب الشبه بهذا النص ويؤدي نفس المعاني حيث

ربط فيه بين الجمال الحسي والجمال المعنوي ، يقول <sup>(٢)</sup> :	
تَلُوْحُ فَوْقَ الْجَبِينِ غُرَّتُهُ	كَأَنَّهَا الْمُشْتَرِي أَوْ الزَّهْرَةُ
يَا حَسَنُ الْوَجْهِ وَالشَّمَائِلِ إِنَّ	رَدَّدَ فِيهِ مُرَدَّدُ نَظَرِهِ
يَا حَسَنَ الْهَدْيِ وَالخَلَائِقِ إِنَّ	كَرَّرَ فِيهِ مَكْرَرُ فِكْرِهِ
مَاذَا عَلَيَّ مِنْ يِرَاكٍ فِي بَلَدِ	أَنْ لَا يَرَى شَمْسَهُ وَلَا قَمْرَهُ؟

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٤٧، ٢٤٨ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٤٥-٤٦ .

وما على من يراك في زمني  
أن لا يرى نوره ولا زهره؟  
أنت السراج المنير والكلال  
سممرع حفت رياضه غدرة

كعادة ابن الرومي يستغرقه التفصيل ، فبعد أن امتدح وضاءة وجهه ممدوحه وإشراقه جبينه ، مشبها بياض جبينه بكوكبين من النجوم السيارة - المشتري والزهرة - عاد وربط الجمال الحسي بالجمال المعنوي فجعل الوجه وترداد النظر فيه بما يعود على النفس بالراحة والاستقرار مرتبطا - هذا الاستقرار - بالخلائق العظيمة والمكارم الحسنة ، فكأن جمال الوجه - المظهر - دليل قاطع على جمال الروح - المخبر - ثم ارتقى بهذا الجمال بحيث أصبح يغني أهل البلد عن رؤية الشمس والقمر ، فهو مصدر الإضاءة ، وبه كذلك يغني أهل الزمان عن النور - الثمر - والزهر ، فهو أهل لكل جميل بل هو مصدر الجمال الحسي ، والمعنوي بين أقرانه ومعاصريه .

وفي البيت الأخير يظهر لنا أثر العصر في شعر ابن الرومي فقد كثرت في العصر العباسي الرياض والحدايق والبرك والترع نتيجة لازدهار العمران وتقدم الحضارة ، ويظهر أثر الحضارة العمرانية والتقدم الحاصل في عصره على شعره في الخيال الذي يوالف بين معانيه ، وفي الصور التي يشتقها من مظاهر الحضارة التي تقع تحت حواسه .

يقول في معنى من المعاني التي تفرد بها حين نزه ممدوحه عن المثال<sup>(١)</sup>:

أصِفُ الحَبِيبَ وَلَا أَقُولُ كَأَنَّهُ  
كَلَّا لَقَدْ أَمْسَى مِنَ الْأَفْرَادِ  
إِنِّي لِأَسْتَحْيِي مَحَاسِنَ وَجْهِهِ  
أَلَّا أَنْزَهُهُ عَنِ الْأَنْدَادِ

ابن الرومي يرى أن في التشبيه نقص لأنه إلحاق ناقص بكامل في صفة ما ، وهو يرى أن محبوبه في الحسن فريد فكيف يوجد له شبيهه؟ ثم يفصل كعادته فيقول إن حسنه عام لكن كل عضو في وجهه حسن جميل بمفرده . وإذا استنطق هذه الأعضاء يرى لزاما عليه أن ينزهه عن الأمثال إذ لانظير لحسنه وجماله .

وقريب من هذا المعنى قوله (١):

كَأَنَّهُ شَمْسٌ إِصْحَاءٍ وَحَاشَى لَهُ      مِنْ أَنْ يُقَاسَ إِلَيْهِ بَدْرٌ إِعْتَامِ

هنا يشبه ممدوحه بالشمس ولكنه يقيد هذا التشبيه فليس التشبيه هنا

بأي شمس بل بشمس يوم صحو لاغيوم فيه ولاسحب حيث تكون أشد  
إضاءة وإشراقا ، ثم نفى أن يقاس إليه بدر ولو كان هذا البدر في ليلة  
معتمة شديدة الظلمة لأن وضاعة ممدوحه تفوق نور البدر حتى في أشد  
الليالي ظلمة وهذا المعنى طرقة في رثاء والدته حين قال عنها (٢):

مَا كُنْتُ إِلَّا كَوْكَبًا كَانَ بَيْنَنَا      فَبَانَ وَأَمْسَى بَيْنَ أَشْكَالِهِ نَجْمٌ

فكأنها كوكب في غير محله لأنها تختلف عن غيرها لأنها فوق مستوى

البشر ، ولكن بموتها خيل للشاعر أنها وجدت مكانها الطبيعي بين أمثالها من  
الكواكب والنجوم في السماء .

كثيرا ما قرن ابن الرومي بين المعاني الحسية والمعنوية مترفعا بذلك عن

التشبيهات ، ومن هذا الباب قوله (٣):

أَرَأَوْكُمْ وَوُجُوهَكُمْ وَسَيُوفُكُمْ      فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَّوْنَ نَجُومُ

مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِحٌ      تَجَلُّو الدَّجَى وَالْأَخْرِيَاتُ رُجُومُ

يرى أن آراء ممدوحه في السداد والحزم وصواب الحكمة تظهر في

الحادثات ، فصواب الرأي وبعد النظر تجعل الناس يلتفون حولهم ،

ووجوههم في الوضاعة والبياض كأنها مصابيح تمزق أستار الليل حتى تنجلي

عنه تلك العتمة ، هذه المصابيح - الوجوه - كالنجوم التي يهتدى بها ليلا .

أما سيوفهم فهي في وقت الحرب لاتنبو عنهم وتصيب أجساد الأعداء

كرجوم النجم على الشياطين .

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ١٥ .

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ٧٤ .

(٣) الديوان ، ج ٦ ، ص ١٠٤ .

هذه الصورة الحية جمعت الرأي ، الوجه ، السيف في صفات هي  
المضاء والصلابة والقوة ، جعلتنا نستشعر الصورة الجميلة التي وصف بها ابن  
الرومي ممدوحه ، مما يبعث في النفس راحة عظمى .  
وبعد هذا نستطيع القول :

إنه على الرغم من كل ما طرأ على المجتمع العباسي من تغير ، وتطور  
في نمط الحياة اليومية ، وفي العلاقات الاجتماعية ، والمادة الثقافية<sup>(١)</sup> إلا أن  
هناك موروثات لم يستطع الإنسان العربي خاصة الشعراء الخروج عنها أو  
تغييرها ، من ذلك مثلا الأغراض الشعرية المتوارثة فسار الشعراء على خطى  
الأولين ولكن كما هو معروف أن أي تقليد لا يمكن أن يبلغ مستوى الأصل  
مهما كانت درجة إتقانه ، من هذا الباب حاول ابن الرومي أن يخرج عن  
التقليد ولكن في إطار من صنعه ، بحيث يحقق من خلاله المعاني الموروثة وفي  
الوقت نفسه يضيف إليها شيئا من روح عصره وثقافته هو . كل ذلك نجده  
في أبياته التالية حين حاول أن يرقى بغزله ووصفه للمرأة إلى مرتبة لا ينافسه  
فيها غيره ، فنظر للمرأة من خلال الطبيعة والعكس .

يقول في وصف جارية مستخدماً ألوان الطبيعة<sup>(٢)</sup>:

أَجْنَتْ لَكَ الْوَجْدَ أَغْصَانٌ وَكَثْبَانٌ	فِيهِنَّ نَوْعَانِ تَفَاحٌ وَرُمَّانٌ
وَفَوْقَ ذَيْنِكَ أَغْنَابٌ مُهَدَّلَةٌ	سُودٌ لَهُنَّ مِنَ الظُّلْمَاءِ الْوَانُ
وَتَحْتَ ذَلِكَ عُنَابٌ تَلْوَعُ بِهِ	أَطْرَافُهُنَّ قُلُوبُ الْقَوْمِ قِنْوَانُ
غُصُونُ بَانٍ عَلَيْهَا الدَّهْرُ فَأَكْهَةٌ	وَمَا الْفَوَاكِهِ مِمَّا يَحْمِلُ الْبَانُ
وَنَرَجِسٌ بَاتَ سَارِيِ الطَّلِّ يَضْرِبُهُ	وَأَقْحَوَانٌ مُنِيرُ النَّوْرِ رِيَانُ
أَلْفَنٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ حَسَنٌ	فَهُنَّ فَأَكْهَةٌ شَتَّى وَرَيْحَانُ

(١) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي الرؤية والفن ، دار النهضة ، بيروت

ط / أولى ١٩٧٥ م ، ص ٣٤٢ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ١٧٣، ١٧٤ .

استند ابن الرومي كعادته إلى خيال يعرف كيف يمزج بين الألوان ويؤلف بينها ، اتجه للطبيعة فاستمد منها صوراً رائعة ، ففي هذه الصورة كأنه يصف حديقة لامرأة ، فلولا القرائن لما أدركنا إذا كان يصف حديقة أو امرأة لأن عناصر الجمال عنده واحدة سواء كانت في المرأة أو الطبيعة . فاللوحة هنا "صورة كُليّة تلاحمت من صور جزئية قوية متماسكة ، يفصل مفاتن الجسد فلاتدري أهى المحبوبة أم هي أوصاف لروضة غناء ، فهي كالغصن قدا ، وكالكثبان أردافا ، وكالتفاح خدودا ، والرمان ثديا ، وفوق ذينك أي فوق الثديين حلمتان كحبات العنب ، وفوق الخدين عينان كالعنب الأسود ، وتحت هذه المفاتن أطراف أصابع لونها أحمر قان لتزينها بالحناء ، فهذه الأوصاف كلها فتنة فوق فتنة ، موصولة بقلوب العشاق ، الهائمين بذلك القدر الذي يحمل جنة من الفواكه وعيونا ندية كعيون النرجس وثرغرا أحمر مشرقا ، عذب الرضاب ، طيب النشر كالأقحوان ، ماتركت هذه المحبوبة شيئا من جمال الرياض والحدائق إلا حوته"<sup>(١)</sup>.

وابن الرومي في هذه الصورة قد استقصى وتتبع كل جزئية في الصورة مع الترابط والتلاؤم بينها ومايموج فيها من ألوان وأصوات ، وظلال وأضواء ، وحركة ، وتشخيص ، في قول رائع وفهم دقيق لطباع العشاق وألوان الطبيعة وظلالها . فقد رسم لنا بكلماته لوحة فنية أبدعها بخياله وحسه .

الفنان يقف أمام الجمال - جمال المرأة أو الطبيعة - الذي يحسه ويشعر به فيحاول أن ينقل ذلك الشعور ، باللفظ والصورة ، لكنه يظل في حسرة من ذلك لأن العاطفة التي يستثيرها الجمال والتي قد نسميها نشوة أو

(١) د. على على صبح ، الصورة الأدبية في شعر ابن الرومي ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة في مجلدين اشرف د. خفاجي ، ١٣٩٣ هـ ، ص ٢٩١ .

بهجة تكون متداخلة ، متضاعفة<sup>(١)</sup>. وابن الرومي حين يصف أو يمدح جمال المرأة لا يخرج عن التقليد المتوارث ، اللهم إلا بعض المقاطع التي استخدم فيها الطبيعة وهو يصور لنا جمال المرأة مما يدل على أنه قد أفاد من عصره قدرة على التشخيص ورسم الملامح النفسية بالملامح المادية الخارجية يقول<sup>(٢)</sup>:

حَوْرَاءُ فِي وَطْفٍ ، قَنَوَاءُ فِي ذَلْفٍ      لَفَاءُ فِي هَيْفٍ ، عَجَزَاءُ فِي قَبَبٍ  
كَالشَّمْسِ مَاسْفَرَتْ ، وَالبَدْرِ مَا انْتَقَبَتْ      نَاهِيكَ مِنْ مُسْفِرٍ حُسْنًا وَمُنْتَقَبٍ

فهذه أوصاف مألوفة في الشعر العربي شأنها في ذلك شأن تشبيه الوجه بالشمس والقمر ، وابن الرومي جمع هنا صفات الحسن التي تغزل بها شعراء العربية . فهو يرى أنها قد جمعت محاسن الوجه والشعر والجسد وهي في حسنها كالشمس والبدر فيما يبدو منها سافرا أو منتقبا ، قد جمعت الحسن بأقطاره . وقد أسرف العقاد حين رأى أن ابن الرومي متأثر هنا بالجمال الاغريقي<sup>(٣)</sup> يستحضره ويمدح به . إذ أن هذه صفات المرأة العربية حيث لا يخلو ديوان شاعر جاهلي من هذه الأوصاف في الغزل والوصف الحسي . ونتيجة للتوسع في الفتح الإسلامي ودخول أجناس مختلفة في الدين الإسلامي أصبح المجتمع في العصر العباسي خليطا من هنود وفرس وروم وعرب ، وبالتالي كثرت الجوارى والمغنيات وكن كذلك خليطا من آثار الحضارات الكبيرة التي سادت في هذا العصر ، كان من بينهن الجميلات والمثقفات مما استرعى اهتمام الأدباء والشعراء بالإضافة لما حظين به من عناية واهتمام عليا القوم . وابن الرومي كفنان يستهويه الجمال في كل شيء ، حاول الربط بين جمال المرأة وجمال الطبيعة حيث رأى أن في كل منهما نموذجاً للجمال الحسي

(١) إيليا الحاوي ، في النقد والأدب ، الجزء الثالث ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط/أولى ١٩٨٠م ، ص ١٨٥ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن الرومي حياته من شعره ، ط/سابعة ١٩٦٨٩م ، دار الكتاب ، بيروت ، ص ٢٩٧ .

الصورة السابقة تقودنا إلى صورة لاحقة اتضح لنا من خلالها أن ابن الرومي كان يؤمن بالجمال ، ويتعشقه ، فقد جعله مصدرا لغزله وحبه ، يقول<sup>(١)</sup>:

غادة زانها من الغصن قد      ومن الظبي مقلتان وجيد  
وزهاها من فرعها ومن الخد      ين ذاك السواد والتوريد  
أوقد الحسن ناره في وحيد      فوق خد ماشانه تخديد

سار ابن الرومي على نهج الأوائل في وصف المرأة فقد استعار لها من الطبيعة مشبهات . فالقد كالغصن ، والمقلة والجيد استعارهما من الظبي ، وهذه معان طرقت من قبل وتعاورها الشعراء في غزلهم ، ولكن هذه المحبوبة تزهو بلونين واضحين هما اللون الأسود في الشعر دليل الأنوثة ، واللون الوردى في الخدود دليل الشباب والحيوية . ومن مبالغات ابن الرومي قوله : "أوقد الحسن ناره" ليدل على شدة وهج الشباب في خدها حتى لكأن الحسن والجمال نار مشتعلة في خد لم يغيره كثرة البكاء لتنعمها وجمالها في هذه الألفاظ ، وهذه الصور يصف الجمال بنعوت متوارثة وأفكار تقليدية يحرك بها حاسة البصر في الصفات الجسدية ولكنه يفصل ويشخص في قوله<sup>(٢)</sup>:

وغرير بحسناها قال : صفها      قلت : أمران ، هين وشديد  
يسهل القول : إنها أحسن الأش      ياء طرا ، ويعسر التحديد  
شمس دجن ، كلا المنيرين من شم      س وبدر من نورها يستفيد<sup>(٣)</sup>  
ظبية تسكن القلوب وترعا      ها وقمرية لها تغريد<sup>(٤)</sup>

أجمل ثم فصل . فقال : إنها بشكل عام جمعت الحسن كله ولكن وصفها سهل وعسير . فسهل القول : إنها أحسن الموجودات ، ولكن يصعب تفصيل هذا الحسن ، لأنه لا أحد لجمالها . فكلما أعاد النظر فيه تجلى له عن

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٣) الدجن : الغيم المطبق المظلم .

(٤) الظبية : الغزالة ، القمرية : نوع من الحمام حسن الصوت .



مفاتن جديدة فوجهها كالشمس بل يفيض نوره على الشمس والبدر جمع بين ألق الوجه واشعاعه ، وبين دجنة الشعر وحلكتة بتشبيه واحد . فهذه المحبوبة كالظبية في الحسن ولكن مقرها في القلوب - لا البراري - وهي كالحمامة التي تغني عذب الألحان ، ولم يقف ابن الرومي عند هذه المعاني ، فبعد أن حرّك حاسة البصر في وصف الجسد انتقل إلى حاسة السمع فحركها حين وصف الصوت .

وكانه يربط بين جميع الحواس من خلال عمل واحد يثير كل الحواس ويرهفها ، يقول في وصف صوت المغنية وحيد<sup>(١)</sup>:

تَتَغَنَّى ، كَأَنَّهَا لَا تُغَنِّي	من سكون الأوصال ، وهي تجيدُ
لَا تَرَاهَا هُنَاكَ تَجْحَظُ عَيْنٌ	لَكَ مِنْهَا ، وَلَا يَدْرُ وَرِيدُ
مِنْ هُدُوءٍ وَلَيْسَ فِيهِ انْقِطَاعُ	وَسُجُوءٍ وَمَا بِهِ تَبْلِيدُ
مَدَّ فِي شَأْوِ صَوْتِهَا نَفْسٌ كَافٍ	كَأَنَّفَاسٍ عَاشِقِيهَا مَدِيدُ
وَأَرْقَى الدَّلَالَ والغَنَجُ مِنْهُ	وَبَرَاهُ الشَّجَا فَكَادَ يَبِيدُ
فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا	مُسْتَلِدًا بَسِيطُهُ والنَّشِيدُ
فِيهِ وَشَيْءٌ ، وفيه حَلِيٌّ مِنْ	النَّغَمِ مَصُوعٌ يَخْتَالُ فِيهِ القَصِيدُ

هذه المغنية يتسم غناؤها بالتلقائية والحسن وعندما عرض ابن الرومي لوصف هذا الصوت وهذا الغناء فكأنه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للأنغام ألوانا وزخارف وأوشية ، تكاد تنطبع في صفحة الخيال ، أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها في قرارة الوجدان فهو هنا يصل بين الرؤية والسمع ، ويترجم بين الحاستين ، فينقل إلى لغة العيون ماتضمنته لغة الآذان<sup>(٢)</sup>.

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٦٦-٢٦٧ . ٣ : مقرر

(٢) العقاد ، ابن الرومي حياته من شعره ص ٢٩٠ .

فقد وصف الصوت أولا بدقة ، فلم يترك نبرة منه إلا وذكرها ، وأثبت كل تفاصيل هذا الصوت ، وتتبعه حتى أتى على كل النغمات التي تردت فيه وزاد على ذلك صلة السامعين به ، ولم يجعله صوتا مجرد بل جعله محلّ موسى حتى باتت تحتال فيه أبيات القصيدة .

في هذه الصورة كل لفظ في مكانها بحيث لا تُغني لفظة عن أخرى ، انظر لقوله : "فتراه يموت طورا ويحيا" فهذه المغنية تستشعر كل حواسها في غنائها بحيث يعلو ويقوى في موضع القوة ، ويرق في موضع الدلال والحب فهذه الأوصاف تنطبق على من يجيد فنه ولا يجد ابن الرومي أوصافا تنطبق على ذلك الصوت سوى ما جادت به قريحته في هذه الصورة . فقد أعطى شاعرنا اللقطة التصويرية حقها ، وأضاف إليها ما يتصل بها من ألوان وتنميق .

وله في هذا المجال تصوير رائع حتى يقال : إن شاعرنا استطاع أحيانا أن يرى بأذنيه ، ويسمع بعينيه ، بل قد يتوصل إلى ما يشبه تبادل الحواس إذ يمزج ما بين الشم والسمع واللمس والبصر ، وحتى الذوق ، يقول في وصف صوت إحدى الجوارى المغنيات<sup>(١)</sup>:

مَثَلَمَا هَزَّتِ الصَّبَا غُصْنَ بَانَ	ذَاتَ صَوْتٍ تَهْزُهُ كَيْفَ شَاءَتْ
فِي تَثْنِيهِ مِثْلَ حَبِّ الْجُمَانِ	يَتَثْنَى فَيَنْفُضُ الطَّلَّ عَنْهُ
ذَلِكَ الْغُصْنُ فِي الْعَيُونِ الرَّوَانِي	ذَلِكَ الصَّوْتُ فِي الْمَسَامِعِ يَحْكِي

غصن بان - يتثنى - حب الجمان - كل هذه الألفاظ تقطر بصفاء ذوقه وتذوب رقة في أشتات من مفردات اللغة ، نبتت من إحساسه في خيال جميل يحكي سحر النغم وعذوبة اللفظ ، ورقة الكلم وشفافية الصياغة ، والموسيقى الخفية ، لاتبوح بروعتها إلا لحس يزداد طربا ، من كتمانها وخفائها ، وأخرى خارجية تتجاوب معها الأعضاء في نشوة وطرب .

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٤٤ .

هذا الموقف أثار خيال شاعرنا فذهب كعادته إلى الطبيعة ليشكل منها صورة حية لهذا الصوت . فتذكر تمتع ناظره بمنظر غصن البان الرطب اللين حين تهزه الريح الرخاء - الصبا - فيتثنى نافضا عنه حبات الندى التي تشبه حب الجمان . هذا الجمال المرئي جنح بجيال شاعرنا ليصور جمالا معادلا له وهو الأثر الذي يقع في النفس عند سماع هذا الصوت ، فقد أسعفه الخيال في تصوير ذاك الأثر ، حين رأى أن صوتها لامثيل له إلا غصن البان بكل ما فيه . وهو بذلك يشبه المعنوي بالمحسوس ليترجم ماتدفق في نفسه ونفس السامعين من غير السعادة بعد سماع هذا الصوت وذاك الغناء .

من هنا نستطيع القول : أن الطبيعة قد أرهفت حس شاعرنا ، وعمقت وجدانه ، فكان خصيب الخيال ، رحب الأفق ، مستوفيا أركانها ، مستقصيا أجزاءها ، فأودعت في تصويره الأدبي سحر الكلم ، وروعة النسق ، وجلال الإيقاع ، والنغم ، لوحة رائعة تلاقت فيها خطوطها الفنية في حركة ولون وصوت وطعم ورائحة<sup>(١)</sup>.

في نص تابع للسابق يستطرد ابن الرومي إلى تمييز الأنغام فيقول<sup>(٢)</sup>:

جَهَّورِيٌّ بِلَا جَفَاءٍ عَلَى السَّمْعِ	مَشُوبٌ بَغْنَةً الْغِزْلَانِ *
فِيهِ بَمٌّ وَفِيهِ زَيْرٌ مِنَ النَّعْمِ	وَفِيهِ مَثَالِثٌ وَمَثَانِي *
فَتَرَاهُ يَجَلُّ فِي السَّمْعِ حِينًا	وَتَرَاهُ يَدُقُّ فِي الْأَحْيَانِ
رَخْمَتُهُ وَرَقَّقَتُهُ وَضَاهَى	فَعَلَهَا الْأَحْمَرَانِ ، وَالْأَسْمَرَانِ
فَهُوَ يَحْكِي تَرْقُوقَ النَّهْمِيِّ فِي	الرَّيْحِ لَعِينِي ذِي غُلَّةِ صَدْيَانِ *
يَلْجُ السَّمْعَ مُسْتَمِرًّا إِلَى الْقَلْبِ	بِلا آذِنٍ وَلَا اسْتِئْذَانِ *

(١) أصفية السوداني ، الوصف في شعر ابن الرومي ، رسالة ماجستير في الأدب

العربي ، ١٤٠٩ هـ ، ص ١٠٥ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٤٤ .

\* الأبيات مدوّرة .

استطرد ابن الرومي في وصف صوت إحدى الجوارى مستحسنا إياه فهو واضح بعيد عن الشذوذ ، تألفه الأذن العربية ، حين تسمعه ، متجملا بغنة تزيد هذا الصوت جمالا ورخامة ، فطبقاته تجعله صالحا لكل النغمات الموسيقية ، فمرة يرق وأخرى يعلو بلحن رائع صادر من مقاطعها الصوتية السليمة وكأنه جدول رقراق ينساب في دعة وهدوء .

وابن الرومي يدرك أن تشبيهه أثرًا بأثر يُرسخ الإحساس بالجمال ، فأثر هذا الصوت الجميل في النفس لاشبيه له سوى أثر منظر ماء النهر الذي تحركه الريح في عيني الظمآن . وهذا له وقع خاص في النفس لأن حاجة الظمآن للماء تفوق حاجة أي إنسان آخر وبقدر الحاجة يكون الأثر .

هذا الصوت الدافئ يصل إلى القلب بدون واسطة ، لما فيه من نشوة وترنيم ، وابن الرومي في وصفه هذا كان دقيقا مما دل على حسه المرفه القادر على تمييز الأنغام والأصوات الجميلة عن غيرها .

فابن الرومي في هذه الصورة وغيرها يلحظ الصلات بين الأشياء بدقة ويجمع بين الأشبات في يقظة وحذر ، تستقبل حواسه الألوان المختلفة في الطبيعة فتمتزج في معامل حاسته الفنية ، فتبرز لوحة فنية منسجمة الألوان ، تفيض عن قوة وبراعة بأضوائها وظلالها وإيماءاتها<sup>(١)</sup>.

هناك مواضع في شعر ابن الرومي تدل على أن إحساس الجمال لديه إحساس عادل . فالتنوع في الوصف يرسخ هذا الإحساس ، وابن الرومي نوع في وصفه فكما امتدح الصوت الحسن في الغناء أدرك أن الصوت الحسن نعمة من الله وقيمة عُليا يجب ترسيخها في نفس المتلقي ليحس بالجمال ، وبالتالي تسمو نفسه لكل جميل . يقول في وصف صوت قارئ للقرآن يمتدح حسن صوته وامتداد نفسه وأثره في نفس السامع<sup>(٢)</sup>:

(١) الوصف في شعر ابن الرومي ص ١٠٧ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٣ ص ٢١٣ - ٢١٤

صوتٌ نديٌّ، وأنفاسٌ مُسَاعِدَةٌ      كأنما نفسٌ مِنْهُنَّ أنفاسٌ  
يَظَلُّ سَامِعُهُ لَدُنَّا مَفَاصِلُهُ      كأنما فَتَرَّتْ أَوْصَالُهُ الكَاسُ

هذا الحسن يرجع إلى طراوة الصوت ونداوته ، فلم يختلط به حشرجة ولاغصة ، بل صوته ينساب كانسياب الندى الذي يتساقط في خفاء وقد أذيب في نسيم الصباح ، فصوته أشبه بنسيم الصباح الذي تفجر من الرياض روحا أو ريحانا ، ليدب سلسا في الأسماع ، وأنفاس هذا القارئ الرطبة الممتدة هي التي تمد نداوة هذا الصوت ، بل النفس الواحد يشتمل على عدة أنفاس عند غيره من عامة الناس ، وهذا التركيب يوحي بأن المقرئ أندى نغماً ، وأطول نفساً ، ثم يوحى ابن الرومي من وراء ستار إلى سحر أسلوبه وأثره في النفس (١).

فالسامع للقراءة لا يغيب عن نفسه بل تتيقظ جوارحه ليتدبر القرآن ولكن ابن الرومي يربط بين لذة السماع وتلك اللذة التي يجدها من يشرب كأساً لذلك يكون المقرئ في جمال صوته أمة وحده ، ورث الصوت عن أمم سلفت ، لأنه قد التقت في صوته كل المحاسن التي تفرقت في غيره ، مما يوحى أيضاً بأنه واسع الاطلاع عميق الثقافة له جولاته العلمية . فاستحسان القراءة والتغني بالقرآن الكريم أمر مندوب إليه فقد استحسنت عليه الصلاة والسلام قراءة ابن مسعود وحث على التغني بالقرآن .

(١) الصورة الأدبية في شعر ابن الرومي ، على على صبح ، ص ٤٩٦ بتصرف .

## ثانياً : الصّفات الخُلقية في مدائحه :

كل شيء في حياة العرب الأوائل متأثر بالصحراء ، نظام معيشتهم ، وطريقة تفكيرهم ، ونوع شعورهم ، وما اعتادوا من كريم العادات ، وذميمة الخصال ... فالصحراء هي التي جعلت العربي شجاعاً متفانياً في الشجاعة ، فخوراً إلى أبعد الغايات ، زاهياً بنفسه حتى الإغراق ، معجباً بقومه كل الإعجاب ، وهي التي جعلته سمح النفس ، ندي الكف ، يجود بأنفس مألديه في الوقت العصيب ... (١).

لكن العربي لصفاء ذهنه ، وبعد نظره استطاع أن يُشرّع لنفسه آداباً ومثلاً يعتز بها ويحمي بها حياته ، فجعل من تلك الآداب والأخلاق سياجاً تمنعه من العدوان . وأكبر كل من اتصف بتلك الأخلاق وامتدحه ، وذم من خرج عنها وعاداه ، وتغنى الشعراء بتلك الأخلاق وبيّنوا أن خلق العرب العز ، والشرف ، والمكارم ، يقرون الضيف ، ويجيرون الخائف ، ويوفون بالوعد .

فمكارم الأخلاق أصيلة يطبقها العربي بوازع داخلي .. فهتمتهم دائماً تتوق للوصول إلى المثل العليا . وعندما جاء الإسلام عرض لأخلاق العرب وتقاليدهم المتوارثة ، فأقرّ منها طائفة وشجع على كريم الأخلاق ، قال عليه الصلاة والسلام : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

وقد هذب الإسلام النظريات الأخلاقية ، فاستمرت تلك القيم عبر العصور ، وتوارثها العرب ، وأصبح التمسك بمكارم الأخلاق مطلباً يلحون عليه في تنشئة الفرد ، فالكرم والشجاعة والعفة والنجدة متأصلة في نفوس العرب ، وقد حدد الشاعر العربي جملة صفات يمتدح بها من يرى أنه الإنسان المثالي ، وعدها من مكارم الأخلاق .

(١) طه أحمد إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ١٥ بتصرف .

فالرجل الذي يتمتع بفضائل الاخلاق من شجاعة وكرم وحسن جوار  
ولين جانب وأمانة وحزم بالإضافة للحكمة والدين يكون أهلا لكل مدح  
وثناء ، وقد امتدح شعراء العصر العباسي كغيرهم من الشعراء العرب بقيم  
وأخلاق حث عليها الإسلام بل وتعارف عليها العرف العالمي على أنها من  
مكارم الأخلاق ، ومن القيم الخلقية السامية<sup>(١)</sup>.

أدرك ابن الرومي أن "الكثير من تلك القيم يعتبر من أهم الأسس  
القوية لبناء المجتمع السليم ، إذ لا بد للمجتمع الفاضل أن يؤمن أهله  
بالصدق والوفاء ، ولا بد أن يقدر أبناءه الأمانة وحسن الجوار ، حتى  
يتألف أفراد المجتمع ، لا بد من وجود الأنفس الأبية الشجاعة التي تعتمد على  
الجد والعمل في تحقيق الأمل ، ولا بد من الترابط الاجتماعي وتقوية  
العلاقات بين ذوي الرحم"<sup>(٢)</sup>.

تلك بعض القيم الأخلاقية التي امتدح بها ابن الرومي كغيره من  
الشعراء وهي إن كانت معاني متوارثة معروفة ، إلا أن لشاعرنا بعض  
اللمحات الشخصية التي يضيفها على معانيه - إضافة إلى أنه يمدح بصفات  
وخلال أغفلها غيره - فابن الرومي في معظم مدائحه يرمي إلى إحياء بعض  
القيم والأخلاق التي يرى أنها اندثرت في عصره وأهملت فبيعتها ترغيبا فيها.  
إضافة إلى أنه قد تنبه إلى تفشي بعض العادات والصفات الرديئة في  
عصره فنظر للجانب الآخر منها وحاول أن يظهر هذه الصفات بمظهر يدعو  
إلى الترفع عنها حين مدح بنفي هذه الرذائل عن ممدوحيه ، في محاولة منه  
للسمو بالإنسان والمجتمع إلى الصلاح والخير .

وابن الرومي حينما يتأثر بالمجتمع يفكر في الواقع الذي يعيشه ،  
ويعتزج بفكره وعاطفته ، فيستخلص من ذلك فكرة واتجاهها خاصا يهدم به  
المجتمع أو يبنيه ، أو يستنبط قيمة إنسانية يسمو بها الواقع ويرتفع، وأحيانا

(١) زهدى خواجا ، الجانب الخلقى في الشعر الجاهلي ، ط/أولى ١٤٠٤هـ ، ص ٣٠١  
بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

تنصهر هذه القيمة التي وصل إليها واستخلصها في نفسه مرة ومرة فيندفع المجتمع والإنسانية بها قُدماً نحو الغاية المنشودة ، وقد اتخذت لها شكلاً مبتكراً قويا وحيويا<sup>(١)</sup>.

في عرضي التالي للنصوص سأبدأ أولاً بالنصوص التي أجمل فيها ابن الرومي معظم الفضائل والحلال ، ثم أحاول أن أعرض النصوص الأخرى التي تحدث فيها عن بعض القيم مفردة - وبالله التوفيق -

المروءة ، والنجابة ، والصباحة ، والكرم ، والشجاعة من الحلال التي أدار عليها جمهرة شعراء العربية أوصافهم ، وابن الرومي من أولئك الشعراء الذين مدحوا بهذه الحلال إلا أنه يختلف عن غيره في الأسلوب والقيمة الفنية يقول<sup>(٢)</sup>:

أَخَا نِعَمٍ تَتِمُّ بِلا فَنَاءٍ	إِذَا كَانَ التَّمَامُ أَخَا الفَنَاءِ
شَهَدْتُ لَقَدْ لَهَوْتُ وَأَنْتَ عَفُ	مَصُونُ الدِّينِ ، مَبْدُولُ العَطَاءِ
تَغَنَّتْكَ القِيَانُ فَمَا تَغَنَّتْ	سِوَى مَحْمُولٍ مَدْحِكَ مِنْ غِنَاءِ
كَمَلْتَ فَلَسْتُ أَسْأَلُ فِيكَ شَيْئاً	يَزِيدُكَ المَلِيكَ سِوَى البَقَاءِ

هذا الممدوح ذو كرم وجود ونعم لانتهاه لها ، هو إن سمح لنفسه باللهو في وقت الأعياد إلا أنه حريص على دينه ممتنع عما لا يحل ، مترفع عما لا يجمل به .

وقد جعل ابن الرومي من صفات ممدوحه هذه بمثابة المثل الأعلى لكل الممدوحين ، إذا وصف بها شاعر إنساناً آخر ، أو تغنت بمثلها قينة فكأنما تتغنى بصفات هذا الممدوح ، فهو مثل أعلى قد كملت فيه الحلال والصفات الكريمة ، حتى لم يعد ينتقصه سوى طول العمر والبقاء أو الخلود .

(١) الصورة الأدبية في شعر ابن الرومي ص ٢٠ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٠ .



وقد أجمل لنا الشاعر هنا بعض مظاهر العصر العباسي ، من احتفالات بالأعياد الفارسية ، وكذلك كثرة الجواري والقيان وبالتالي شيوع الغناء .  
 قريب من هذا المعنى قوله (١) :

بَكَتْ شَجْوَهَا الدُّنْيَا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ      مَكَانَكَ مِنْهَا اسْتَبْشَرَتْ وَتَغَنَّتْ  
 لِتَسْتَمْتَعَ الدُّنْيَا بِوَجْهِكَ دَهْرَهَا      فَقَدْ طَالَمَا اشْتَاقَتْ إِلَيْكَ وَحَنَّتْ

هذا الممدوح اتصف بصفات عظيمة ، تفرح لها النفس وتتهلل ، حتى أن الدنيا - العصر العباسي - كانت تندب حظها لقللة العظماء والأبطال ، ولكنها عادت للبشر والغناء عندما أدركت وجودك بها ، لذا حُقَّ لها أن تقلع عن الحزن والبكاء فوجهك من أكبر متع الحياة ، والاستمتاع به بعد الشوق والحنين متعة ، نظراً لما شاع في العصر العباسي من لهو وغناء حتى أصبح التعبير عن أي فضيلة يكون بالغناء ، وهذا يعود لشيوع الترف وغلبته في ذلك العصر .

من النصوص الأخرى التي أجمل فيها ابن الرومي معظم الصفات والفضائل الخلقية قوله (٢) :

أَمْوَالُهُ فِي رِقَابِ النَّاسِ مِنْ مَنْ      لَأَفِي الْخَزَائِنِ مِنْ عَيْنٍ وَمِنْ نَشَبٍ (٣)  
 ذَاكَ الَّذِي بَيْنَ الْأَسْوَاءِ وَانْتَسَبَتْ      إِلَيْهِ بِيضُ الْأَيْدِي كُلِّ مَنْتَسَبٍ  
 أَحْمَى فَأَرَعَى وَأَوْى مَنْ يُطِيفُ بِهِ      فِي حَيْثُ يَأْمَنُ مِنْ خَوْفٍ وَمَنْ سَغَبٍ  
 فَضِيفُهُ فِي ربيعِ طَوْلٍ مَدَّتِهِ      وَجَارُهُ كُلِّ حِينٍ مِنْهُ فِي رَجَبٍ  
 كَالْبَحْرِ مُنْفَجِرًا مِنْ كُلِّ مُنْفَجِرٍ      وَالغَيْثِ مَنْسِكِبًا مِنْ كُلِّ مَنْسَكِبٍ  
 جَاءَ السَّوَادَانِ يَمْتَارَانِ فَاحْتَقَبَا      مِنْ عِلْمِهِ وَنِدَاهُ خَيْرَ مُحْتَقَبٍ  
 مُسَدَّدٌ فِي جَوَابَاتٍ يُجِيبُ بِهَا      كَأَنَّهَا أَبَدًا مَأْخُوذَةٌ الْأُهَبِ  
 فِيهَا حَلَاوَةٌ ظَرْفٍ غَيْرِ مُنْتَحَلٍ      إِلَى فَخَامَةِ عِلْمٍ غَيْرِ مُؤْتَشَبٍ (٤)

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ١٩٣-١٩٧ .

(٣) عين : الدنانير والذهب . ، تشب : مال

(٤) مؤتشب : مختلط .

تَعْضَلُ الْأَرْضُ ضَيْقًا عَنْ جَلَالَتِهِ  
سَاهٍ وَمَاتَتْ فِي الرَّأْيِ سَقَطَتُهُ  
فَدَهِيَهُ لِلدَّوَاهِي الرَّبْدِ يَدْمُغُهَا  
لَوْلَا عَجَائِبُ لَطْفِ اللَّهِ مَا نَبَتَتْ  
تُعْطِي وَوَجْهَكَ مَبْسُوطٌ يُصَانِعُنَا  
يَا مَنْ إِذَا مَا سَأَلْنَا اسْتَهَلَّ لَنَا

(١) وَيَسْلُكَ الْخُرْنَ عَفْوًا لُطْفَ مَنْسَرِبِ  
دَاهٍ وَمَا يُنْطَوِي مِنْهُ عَلَى رَيْبِ  
وَسَهْوِهِ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ وَالْغَيْبِ  
تِلْكَ الْفَضَائِلُ فِي لَحْمٍ وَفِي عَصَبِ  
كَأَنَّ كَفْكَ لَمْ تُفْضَلْ وَلَمْ تَهَبِ  
وَإِنَّ سَكَنَنَا تَجَنَّى عِلَّةَ الطَّلَبِ

ممدوحه كثير العطاء والبذل ، أمواله ليست في الخزائن فهو غير حريص على خزن الأموال لأنه يعلم أن المال وجد لينفق لا يلدخ ، يبذلها للسائلين لأنه كريم وافر العطاء ، مترفع عن السوء ، مهيب الجانب ، دياره مأوى لكل من يقصده ، بها يأمن الخائف لعظم سلطانه ، ويشبع الجائع ، لكثرة عطائه ، يقول : "ضيفه في ربيع" كنى بالربيع عن الخيرات والمسرات وكنى برجب في قوله : "وجاره كل حين منه في رجب" عن الإجلال والإعظام ، فكما هو معروف أن رجب من الأشهر الحرم التي تعظمها العرب وهذا الممدوح في الكرم والبذل كالبحر والمطر تعطي في كل وقت ، علمه ونداه مقتربان ، وهما في كل وقت مسموح بها لكل ، مصيب في قوله ، لأن علمه مفيد لا تشوبه شائبة ، مع كل هذا لم يعدم صفة دهره - الذكاء والحذق - لأنها صفة سائدة في عصر ابن الرومي .

وشاعرنا يدرك أن الحزم في الأمور من صفات العرب ، إذ التردد مرض نفسي يدل على عدم استقرار في تفكير الإنسان ، والحزم أصل الشجاعة ، والشخص الذي يستعين بالحيلة في مواطن الخطر شخص حازم ، فممدوحه إنسان حازم ، تضيق الأرض عنه لجلالة شأنه وعظم مكانته ، فهو مطمئن فيما يصدر عنه من رأي وحكمة .

هذا وقد أدرك ابن الرومي بعض الصفات الذميمة والأخلاق الرذيلة في مجتمعه تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي ، فنفاها عن ممدوحه ومدحه بضدها ، وهو يتمنى زوالها من المجتمع من تلك الرذائل الغيبة والنميمة

(١) تَعْضَلُ : تَضَيِّقُ . ، الْخُرْنُ : الثَّقْبُ .

والذكر السيء ، وهو في ذلك متأثر بقول رسول الهدى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم : \*

"لاتباغضوا ولا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تدابروا . ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا" . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فهذا الممدوح لا يستخدم دهائه إلا في الأمور التي تستدعي الدهاء - مع الأعداء - وغير ذلك فهو ساوٍ عن عيوب الناس لا يذكر عيب أحد ولا يسيء لأحد في غيابه ، وصفات هذا الممدوح عظيمة كأفضاله حتى استنكر ابن الرومي أن تجتمع تلك الفضائل في بشر لولا عجائب قدرة الله .

وقد تعارف العرب على الكرم كقيمة وفضيلة خُلقيّة محمودة ، ولكن غاية الكرم عند ابن الرومي أن هذا الممدوح يعطي العطية وهو مبسوط الوجه ضاحك الثغر يعطي بسخاء غير عابس ولا متذمر من هذا العطاء ، ومن كثرة السؤال إذ لا يكدر صفوه سوى غياب طالبي رفته ، فهو متعود العطاء والبذل وإذا صادف ولم يسأله أحد أخذ في استنباط العلل حتى يعطي . فكأنه يستدعي السؤال للطلب ، وكأنه لا تفرح نفسه وتتهلل إلا إذا كثر سائلوه وبالتالي عمت فضائله وكثر عطاؤه ، وهذا قمة الكرم .

في قوله : "داهٍ وما يُنطويٰ هُنه على ريب" .

تلميح لصفة عمت في العصر العباسي وهي الدهاء والمكر وقد تكرر هذا المعنى في غير ماموضع ، يؤكد هذه الصفة ابن الرومي وكأنه يفتقدها أو يشير لذلك في قوله (١) :

لَهُمْ حِلْمٌ إِنْسٍ فِي عَرَامَةِ جَنَّةٍ      وَبَأْسُ أُسُودٍ فِي دِهَائِهِ تَعَالِبِ

فبالرغم أن الصفة الممدوح بها هي صفة الحلم أو هكذا نتبين من الصورة ولكن في حقيقة الأمر أن ما يريد ابن الرومي توضيحه هو تفشي صفة الدهاء والمكر في أوساط المجتمع العباسي .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

\* انظر كتب الصحاح .

يقول في نص آخر جمع فيه لمدوحه بعض الفضائل وعلى رأسها الكرم<sup>(١)</sup>:

لَكَ الرَّأْيُ وَالْجُودُ اللَّذَانِ كِلَاهُمَا      زَعِيمٌ يَكْشِفُ الْمُطْبِقَاتِ الْكَوَارِبِ  
وَمَا زِلْتَ ذَا ضَوْءٍ وَنَوْءٍ لِمُجْدِبٍ      وَحَيْرَانَ حَتَّى قِيلَ بَعْضُ الْكَوَاكِبِ  
تَغِيثًا وَتَهْدِي عِنْدَ جَدْبٍ وَحَيْرَةٍ      بِمُحْتَفَلٍ ثَرٍ وَأَزْهَرَ ثَاقِبِ

جمع ممدوح شاعرنا بين حسن الرأي وصوابه وبين الجود والكرم وكل منهما يكشف كربه ، فالرأي السديد يفيد في التوجيه الحسن والنصح السليم ، وكذلك العطاء والجود يفيد في دفع المضرة وإزاحة الحاجة والفاقة ، وبذلك أصبح هذا الممدوح قريب شبه بالكواكب التي يهتدي بها الحيران في تلمس الطريق وبالتالي النجاة من الضلال والهلاك .

وكذلك النوء الذي يبشر بهطول الغيث وبالتالي يكون فيه حياة للأرض والحيوان والإنسان ويكون فيه نجاة لكل الأحياء من الهلاك جوعاً وقحطاً .

أبداع ابن الرومي صورته<sup>المستدة</sup> من الكواكب ، والضوء ، الرأي ، والجود وغيرها من الألفاظ التي توحى بالإيقاع الموسيقي المتحرك . ففي البيت الأخير أدت كل لفظة معناها تغيث - جذب - تهدي - حيرة . فالجذب لفظ يدل على الحاجة والقحط أتى له بلفظ مناسب وهو تغيث ، والحيرة لفظ يدل على الضلال وفقدان الأثر أتى له بلفظ تهدي ، ومن ثم جعل لكل لفظ مقابل له حين جعل النتيجة الحتمية لكل هذه الفعال هي الهداية ، والغوث وهذان الفعلان يحصلان بفعالين من أفعال الممدوح وهما - بمحتفل ثر - أي عطاء واسع لا يقتصر على ناس دون غيرهم - أزهر ثاقب - أي رأي سديد ثاقب صادر عن بصيرة وحكمة واعية .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

ومن مبالغات ابن الرومي في المديح قوله (١):  
 النَّاسُ أَذْهَمُ أَنْتَ فِيهِ غُرَّةٌ      جُعِلَ الْأَفَاضِلُ تَحْتَهَا تَحْجِيلًا  
 لَوْ كُنْتَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ      أَوْحَى إِلَهُ بِمَدْحِكَ التَّنْزِيلًا  
 فَتَّ الْعَدِيلِ فَمَا يُقَالُ كَأَنَّهُ      مَنْ ذَا رَأَى لَكَ فِي الْأَنَامِ عَدِيلًا؟

فهذا الممدوح لكرمه وجوده في الناس كالبياض الذي في جبهة الأدهم لو وجد هذا الممدوح في عصر النبوة لازل في فضله قرآن - مبالغة - لاشبيه له في الفضل والجود . لذا لا يقال في مدحه كأنه لعدم وجود شبيه له .

يقول في مقام آخر مصورا ممدوحه في أعظم صورة وأعلى مكانة (٢):  
 الْمَوْتُ مِنْ جَدِّهِ فَإِنْ لَعِبَتْ      كَفَاهُ فَالْجُودُ بِاللَّهِ لِعِبُهُ  
 لَا تَطَأُ الْأَسَدُ مَاحِمَاهُ وَلَا      تَلْقَاهُ إِلَّا مُوْطَأً عَقْبُهُ  
 مَصْبَاحُ نُورٍ يُرَى الْخَفِيُّ بِهِ      جَهْرًا ، وَلَوْلَاهُ طَالَ مَحْتَجِبُهُ  
 يُصَاوِلُ الْقِرْنَ أَوْ يَخَاتِلُهُ      جَلْدًا أَرِييًّا بَعِيدَةً سُرْبُهُ  
 كَاللَيْثِ فِي بَاسِهِ ، وَأَوْنَةٌ      مِثْلَ الشُّجَاعِ الْخَفِيِّ مُنْسَرِبُهُ  
 يَشْهَدُ مَا خَصَّكَ إِلَهُ بِهِ      أَنْكَ مُخْتَارُهُ وَمُنْتَخِبُهُ  
 ضَنَّ بِكَ الدَّهْرُ عَنْ حَوَادِثِهِ      فَأَنْتَ مَأْمُولُهُ وَمُرْتَقِبُهُ

بلغ ممدوح شاعرنا القمة في البطش والجود فهو في مقام الشجاعة فاتك يبطش بالعصاة دون رأفة ولارحمة ، وفي مقام الجود والكرم جواد كريم لا يلحق به أحد ، فهو قاس في وقت الشدة ، ولين في وقت اللين واللطف ، وكأنه يعمل بالقول " لكل مقام مقال " يعطي كل موقف حقه وقدره .

وهذا الممدوح في إرشاده وبيانه للخير كأنه مصباح نور يستدل به على الأشياء . لهذا الممدوح في لقاء خصمه طرق ومذاهب ، فهو في الشجاعة والبسالة كالأسد ، وفي الفطنة والمكر كالحية ، فضائله ومحامده تشهد بأنه تم

(١) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٥٦-٣٦٠ .

اختياره وانتخابه للملك من قبل الإله . وهو في مأمن من حوادث الدهر لعظم مكارمه .

جمال هذه الصورة يكمن في تناسب العلاقة بين أجزائها ، فالشاعر يصور بجياله الخصب شجاعة الممدوح وكرمه بالإضافة لبعض الصفات التي اشتهرت في عصره من علم ودهاء . انظر لصورته التالية يتضح منها كل هذه الصفات حين يقول (١):

أَنْتَ كَهْلُ الْكُهُولِ يَوْمَ تَرَى الرَّأْيَ  
لَكَ جَهْلٌ فِي غَيْرِ مَاخُفِيَةِ الْجَهْبِ  
وَسُكُونُ الشَّجَاعِ حِينَ يَدَاهِيهِ  
عِيٌّ وَيَوْمَ الْوَعْيِ مِنَ الْفِتْيَانِ  
لِي وَحِلْمٍ فِي غَيْرِ مَا إِدْهَانَ  
لِكَ مَدَاهِ وَسَوْرَةَ الْأَفْعَوَانِ

فهذا الممدوح يملك حكمة الشيوخ وشجاعة الشبان ، حلیم في غير ضعف وجاهل في وقت الغضب ، له دهاء يشبه فيه سكون الشجاع - نوع من الثعابين - في وقت يكون الدهاء فيه أصوب ، ولكنه في وقت الغضب لا يشبهه سوى الأفعوان في تمرده وإصراره على الأخذ بثأره والانتقام لكرامته . حرص ابن الرومي على إيراد الصفة وضدها ، وكأنه يشير للقول : بضدها تتمايز الأشياء -

عاصر ابن الرومي تقلبات في الأوضاع السياسية واطلع على أخبار السياسة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي ، فأثر ذلك في شعره ، وبات يتمنى لو تمتع الساسة جميعا بخلق الولاة الإسلاميين الأوّل حتى يسود السلام ويعم الأمن ويشمل العدل جميع الرعية . يقول مضميا على ممدوحه صفات مثلى في السياسة والحكم من عدل وتواضع وغيرها (٢):

مَلِكٌ ، إِذَا اعْتَسَفَ الْمُلُوكُ طَرِيقَهُمْ  
فِي مُلْكِهِمْ ، رَكِبَ الطَّرِيقَ السَّبَبَا

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٠٠ .

أَعْلَاهُ طَوَّلٌ أَنْ يُرَى مُتَكَبِّرًا  
 نَمَاتِحُ مِنْهُ حَاتِمِيًّا مَا جَدًّا  
 يَهْتَزُّ حِينَ يُهْزُ لُدْنَا نَاعِمًا  
 وَالْعَفْوُ مِنْهُ سَجِيَّةٌ لَكِنَّهُ  
 فَإِذَا جَنَى جَانٍ تَغَاضَتْ عَيْنُهُ  
 وَإِذَا تَتَابَعَ فِي الْخِيَانَةِ أَهْلُهَا  
 وَحَمَاهُ عِزٌّ أَنْ يُرَى مُتَسَجِّبًا  
 وَنَثِيرٌ مِنْهُ هَاشِمِيًّا قَلْبًا  
 وَإِذَا قُرِعَتْ قَرَعَتْ صَلْدًا ضَلْبًا  
 يَعْفُو إِذَا مَا الْعَفْوُ كَانَ الْأَصُوبًا  
 عَنْ ذَنْبِهِ فَكَأَنَّهُ مَا أَذْنَبَا  
 جَدَعَ الْأُنُوفَ مِنَ الْجِبَاهِ فَأَوْعَبَا

جمع هذا الممدوح في ملكه مقومات الحكم الإسلامي بالإضافة للأخلاق الحميدة ، فأول تلك المقومات في نظر ابن الرومي العدل والرحمة ، فمتى عم العدل في مجتمع ما سعد أهله وطالت مدة حكم هذا الوالي . وكأنه يشير إلى اندثار هذه القيمة الإسلامية التي حث عليها القرآن الكريم وجعلها من أهم صفات الوالي أو الحاكم المسلم .

ومن القيم الأخرى التي تدل على صلاح الحاكم التواضع في غير ذل . وهذا خلق الخلفاء وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ الكبر خلق منبوذ ومطرّح في الشريعة الإسلامية .

هذا الممدوح في الكرم ينسب إلى حاتم لجوده وسخائه ، وفي التقوى والورع ينسب إلى آل هاشم . يلحظ ابن الرومي الصفة وينظر لها من كلا جانبيها إذ يعمل فكره ويتدبر في القيمة الواحدة حتى لا يدع فيها مجالاً لغيره يقول واصفاً ممدوحه باللين والشدة في البيت الرابع أن هذا الممدوح ينطبق عليه القول : "لاتكن لنا فتعصر ، ولاقاسيا فتكسر" ، وكأنه هنا يصف ممدوحه بصفة الاتزان والوسطية إذ يجعل لكل موقف ما يقتضيه من اللين والشدة من سمات الحاكم المسلم في نظر ابن الرومي والتي تمتع بها ممدوحه العفو ، والصفح ، فمن طبع هذا الحاكم المسامحة ولكن في وقت يكون فيه العفو هو التصرف الأصوب والحكيم . يغضى عن المذنب ويصبر عليه حتى يرتد عن الخطأ ، فإذا تمادى في الغي والخيانة لم يكن له من عقاب سوى جدع الأنف من الجبهة . وهذا أقل ما يمكن أن يلقاه من عقاب .

في نص قريب الشبه بلوحة فنية ، لفنان متمكن ينسج ابن الرومي من الفضائل والأخلاق حُلّة رائعة يلبسها ممدوحه وكأننا أمام لوحة فنية متكاملة يقول (١):

أَبَى أَنْ يُرَى الْحَقُّ الَّذِي هُوَ بِأَخْسَنَ  
حَلِيمٌ عَلِيمٌ إِنَّ تَجَاهَلَ دَهْرُهُ  
فَتَى يَقْتُلُ الْأَمْوَالَ فِي سُبُلِ الْعَلَا  
ضُرُورٌ نَفُوعٌ عَاجِلُ النَّفْعِ ثَرُّهُ  
نَهَى جُودَهُ عَنِ كُلِّ سَمَحٍ وَبَاحِلٍ  
إِذَا مَا تَلَاقَى كَيْدُهُ وَعِدَاتُهُ

أَخَاهُ ، أَوْ الْعَهْدُ الَّذِي هُوَ نَاكِثُهُ  
جَوَادٌ كَرِيمٌ إِنَّ أَلْحَتَّ مَغَارِثُهُ  
لَتَوْرَثُهُ الْمَجْدَ السَّنِيَّ مَوَارِثُهُ  
عَلَى مَعْتَفِيهِ ، آجِلُ الضَّرِّ رَائِثُهُ  
شَذَى الْقَوْلِ حَتَّى أَحْسَنَ الْقَوْلِ رَافِثُهُ  
فَتَمَّ تَلَاقَى أَجْدَلُ وَأَبَاغِثُهُ

تدرج ابن الرومي في سرد صفات ممدوحه فبدأ بأعلاها شأنًا وهي الدين ، فممدوحه رجل على دين يُحق الحق فلا يهضم لديه حق فرد ما . ولا يبخس عنده حق لأنه عادل ، ومن صفات المؤمن الوفاء بالعهد والميثاق ، وهذه صفة تحلى بها هذا الممدوح كما أنه حلِيم ، عَلِيم ، إضافة للكرم والجود إذ يبذل المال في سبيل الثناء والذكر الحسن ، هذا الممدوح كثير النفع عاجله ، لعلمه أن خير البر عاجله فهو لا يترتب في نفع الآخرين بل يسعى لكل مكرمة يعرف أن من شأنها نفع المحتاج ودفع الحاجة ، وهو على العكس في مواقع الضرر لا يتسرع في إصدار حكمه بل يترتب حتى لا يوصف بالحُمق وحتى يصدر حكمه عن بينة ، فهو يُؤجّل العقاب ولا يقدم عليه حتى يتبين مصيره ، وهو من أهل السماحة ، والقول الحسن الطيب ، إذا استدعى المقام اللين كان ليناً ، أما في وقت الغضب فهو كالصقر إذا انقض على البغاث كيده كقوته عظيمة ، بكل هذه الصفات أصبح هذا الممدوح في نظر شاعرنا قدوة ومثلاً يُحتذى ، والبيت الثالث قد طرّق معناه ابن الرومي من قبل حين قال يمدح بالكرم والجود (٢):

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٧٥-٤٧٦ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٧ .



ذَلِكَ السَّيِّدِ الَّذِي قَتَلَ الْيَأْسَ ۲ بَدْرًا بِأَفْضَالِهِ وَأُحْيَا الرَّجَاءَ

فقد عمد لعنصر التشخيص فجعل اليأس شخصا يقتله الممدوح بالفضل والعطاء وهذه ميزة اختص بها ابن الرومي في معظم مدائحه - التشخيص . تذمر ابن الرومي من بعض الصفات والأخلاق التي سادت في عصره وحاول بالكلمة أن ينبه إنسان عصره لتلك الأوبئة والآفات وذلك عندما مدح بالجانب الآخر - المقابل - لتلك الأخلاق بُغية أن يتصف الناس بالصفات الحسنة المقابلة لهذه السيئات يقول (١):

تَذَمُّمٌ وَلَا مَعَاهِدُهُ رِثَاثٌ	حَكِيمٌ لَا مَعَاقِدُهُ ضِعَافٌ
وَلَا كَرَمٌ إِذَا خِيفَ انْتِكَاثٌ	فَلَيْسَ لَهُ انْتِكَافٌ عَن تَنَاءٍ
وَحَالَاهَا اضْطِرَابٌ وَالتِّيَاثُ	فَتَى صَلَحَتْ بِهِ الدُّنْيَا وَكَانَتْ
وَلَيْسَ كَمُعْشِرٍ جَارُوا وَعَاثُوا	أَقَامَ بَعْدَلِهِ الطَّرْفَيْنِ مِنْهَا

من خلق المؤمن الوفاء بالعهد والميثاق ، والشاعر رأى من خلال معاشته في عصر ساد فيه العنصر الأجنبي واختلطت الثقافات والعادات ، أن الأخلاق الإسلامية والقيم الاجتماعية الفضيلة قد اختلت وباتت نادرة ، مما يؤسف له فحاول بعثها في نفوس معاصريه وذلك من خلال مدائحه ، وهنا يمدح ببعض هذه الفضائل فيقول : إن ممدوحه بالإضافة لكونه وفياً بالعهد والميثاق كريم جواد صلحت الدنيا بوجوده وصحت الأمور برأيه ، فهو عدل لا يجور في حكمه ولا يظلم ، وهو في البيت الأخير يندد بطائفة أو فئة من المجتمع عاثوا وجاروا مستغلين سلطتهم الدنيوية ، ولم يصلحوا .

كما يرى شاعرنا أن القوة مطلب حيوي في عصر لا بد أن يتصف من يعيش فيه بالقوة والدهاء ، ولكنه يؤمن أن القوة تأتي في مواضع كثيرة حين يتصف صاحبها بالأخلاق والفضائل ومنها الحكمة وسداد الرأي . يقول (٢):

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٧٨ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

مَمَّنْ إِذَا أَبَتِ الْخُطُوبُ أَوْ التَّوَتَّ  
عَاجَ الْأَبِيِّ بِهِ وَقَامَ الْأَعْوَجُ  
لَا عَيْبَ فِي نِعْمَاهُ إِلَّا أَنَّهَا  
لِلْخَاطِبِينَ وَغَيْرِهِمْ تَبَرَّجُ  
أَضْحَى الْمُلُوكُ وَهُمْ مَجَازٍ نَحْوَهُ  
لِلطَّالِبِينَ الْخَيْرُ وَهُوَ مُعَرَّجُ

فهذا الممدوح ملاذ لكل من طلب النصح لأن له حكمة صائبة في معالجة الشدائد ومواجهة المصائب ، بالإضافة لكرمه وجوده ، فهباته مثل العروس التي تلفت الأنظار بزینتها وتستلب العقول ، إلا أن نعماء وهباته تختلف عن العروس في كونها مبذولة للجميع فالكل يطمع في نوالها والظفر بها سواء المحتاج أو غيره ، فهذا الممدوح مآل لطالبي الخير ، إذا أقفل الملوك أبوابهم في وجوه السائلين فبابه مفتوح لكل طالب وكل محتاج .

طبيعة العرب التفاخر بالقوة والشجاعة سواء قوة الفرد أو قوة القبيلة والقوم . وابن الرومي عندما يشيد في مدائحه بصفات وفضائل أخلاقية يستشف منها القوة لأن النفس البشرية تشعر بالقوة والراحة حينما تتجسد هذه الفضائل في شخص يمثل لها شيئاً ، وابن الرومي يستمد القوة من ممدوحه لذلك نراه يسبح على ممدوحه جملة من الفضائل تدل وتؤدي كلها للقوة يقول (١) :

مُبَارَكُ الْوَجْهِ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُهُ  
يُورِي الزَّنَادَ بِكَفَيْتِهِ إِذَا قَدَحَا  
مُعْطَى لِسَانِ فَمٍ ، مُعْطَى لِسَانِ يَدٍ  
إِنْ أَجْمَلَا فَصَلَا أَوْ فَسَّرَا شَرَحَا  
فَتَى . إِذَا شِئْتَ . لِأَجْهَلَا وَلَا سَفَهَا

كَهَلَا . إِذَا شِئْتَ . لِأَشْيَبَا وَلَا جَلَحَا  
فَتَاهُ شَرَحُ شَبَابِيٍّ ، وَكَهَلُهُ  
حِلْمٌ ، إِذَا شَالَ حِلْمٌ نَاقِصٌ رَجَحَا  
فِي وَجْهِهِ رَوْضَةٌ لِلْحَسَنِ مُونِقَةٌ  
مَارَادًا فِي مِثْلِهَا طَرْفٌ وَلَا شَرَحَا  
يُعْطِي الْمِزَاحَ ، وَيُعْطِي الْجِدَّ حَقَّهُمَا  
فَالْمَوْتُ إِنْ جَدَّ ، وَالْمَعْرُوفُ إِنْ مَزَحَا

إِنَّ قَالَ : لَا ، قَالَهَا لِلْأَمْرَيْنِ بِهَا  
 وَلَمْ يَقُلْهَا لِمَنْ يَسْتَمْنَحُ الْمِنَحَا  
 مَاضِي الْأَدَاتَيْنِ مِنْ سَيْفٍ وَمِنْ قَلَمٍ  
 كَبَشَ الْكِتَابَةَ ، كَبَشَ الْحَرْبِ إِنَّ نَطَحَا  
 لَيْثٌ إِذَا زَارَ اللَّيْثُ الْهَزْبِرُ لَهُ  
 لَمْ يَحْسِبُ اللَّيْثُ إِلَّا ثَعْلَبًا ضَبَحَا  
 فَاضَتْ يَدَاهُ إِلَى أَنْ خَلَتْ سَيِّبَتَهَا  
 بَحْرَيْنِ جَاشَا لِحِينِ الْمَدِّ فَانْتَطَحَا  
 وَجَادَ جُودَيْنِ : أَمَّا الْكَفُّ فَانْبَسَطَتْ  
 بِمَا أَنَالَ ، وَأَمَّا الصَّدْرُ فَانْشَرَحَا

هذا الممدوح محمود المختبر ، ذكي الفؤاد ، قد جمع بالإضافة لحسن  
 الوجه حسن الرأي فقلوه حسن وفعله كذلك ، فيه صفات الشباب ، من  
 جرأة وبسالة وإقدام ، وكذلك صفات الشيوخ من حكمة وحلم ، دون أن  
 يبلغ سن الكهولة ، جميل لامثال له في البشر لكل موقف لديه حقه فلا يخلط  
 الجد بالهزل ، اعتاد العطاء والبذل بسخاء فلا يرد سائليه ، بعد هذه الصفات  
 المتداولة تنبه ابن الرومي إلى صفة قلما مدح بها ، وهي تجويد الكتابة  
 والمعرفة بالأدب ، فهذا الممدوح لا يضاها في الكتابة والأدب كما أنه  
 لا يبارى في الشجاعة والنزال ، فهو في الشجاعة يفوق الأسد إذ الأسد العظيم  
 في جواره كالثعلب ، وقد فاق كذلك البحر في العطاء والجود .

ومع هذا العطاء وهذه السعة في البذل لا يضييق بسائليه بل يزداد  
 انبساطا وسعة في اليد والصدر ، ليس كغيره ممن يتجهم عند السؤال .  
 المثل الأعلى للإنسان مستقر في وجدان ابن الرومي يعبر عنه في  
 المواقف المختلفة بمعان متشابهة ، متقاربة ، وإنما الاختلاف يكمن في الأسلوب  
 والألفاظ ذات الإيحاء المختلف يقول (١) :

وَالرَّأْيُ رَأْيٌ مُّحَنِّكَ جَحَّجَاحٍ  
 وَسَمْتَهُ بِالسَّفَاحِ وَالنَّفَّاحِ  
 أَحَدٌ تَعَوَّذَ مِنْهُمَا بِوَجَاحِ  
 أَبْصَرْتَ سَطْوَةَ قَابِضِ الأَرْوَاحِ  
 أَبْصَرْتَ زَهْدَ مُحَافِئِ الأَمْسَاحِ  
 أَبْصَرْتَ حِكْمَةَ صَاحِبِ الأَلْوَاحِ  
 أَجْنَاكَ صَفْوَوِ وَدَائِعِ الأَجْبَاحِ

أَمَّا التَّدَى فَنَدَى غَرِيرٍ نَاشِئٍ  
 يُحْيِي وَيُهْلِكُ فِي يَدَيِّ ذِي قَدْرَةٍ  
 طَوْفَانٌ مَعْرُوفٍ وَنُكْرٍ مَانِجَا  
 فَإِذَا تَبَسَّلَ لِلْعِدَا فِي مَاقِطِ  
 وَإِذَا أَرَاكَ نَدَاهُ يَوْمًا زَهْدَهُ  
 وَإِذَا أَشَارَ أَوْ ارْتَأَى فِي خُطَّةِ  
 وَإِذَا أَرَاكَ مُزَاحَهُ مِنْ جِدِّهِ

هذا الممدوح في حبه للعطاء وسعة بذله كالشباب في مقتبل العمر لا يفكر في عواقب الأمور فهو ينفق بغير حساب ، ولكنه في مقابل هذا له رأي وحكمة تفوق حكمة الشيوخ وصواب آرائهم .

وبعد ذلك قابل بين فعلين وصفيتين لهذا الممدوح فهو يجي بالبذل والعطاء ونتيجة لهذا العطاء والمنح الذي يجي به يصفه بالنفاح ، فكأنه ببذله هذا نفح الحياة لغيره ، ثم هو يهلك عند لقاء الأعداء لاتأخذه بهم رافة ولارحمة ، فينتج عن ذلك كثرة القتلى حتى يلقب هذا الممدوح في هذا الموقف بالسفاح .

وهو في كلا الفعلين - العطاء ، البأس - كالطوفان لاحد له ، شجاع مغوار في الحرب ، كأنه ملك الموت ، ومقابل هذه الصورة الكريهة الموحية بالشدة والقساوة ، نجد صورة أخرى لهذا الممدوح تفيض بالرحمة والأنس واللطف وذلك في موطن الكرم والرخاء ، وهو مع كل هذه الأوصاف - كرم - شجاعة - على جانب كبير من التدين والزهد حتى لاشبيهه لزهده سوى من يلبس كساء من شعر لشدة تقشفه .

وفي صواب رأيه وحكمته لاشبيهه له سوى موسى عليه السلام -

في كل الأحوال - المزاح - الجد - أخلاق هذا الممدوح كالعسل طيبا

وحلاوة .

اختلفت الحياة في العصر العباسي نظراً لاختلاف الأجناس وتعدد الهويات ، وقد أضحى تأثر العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى - فرس - هنود - ترك ... واضحاً وملموساً في كل مناحي حياتهم وسلوكهم اليومي . فاختلقت من جرّاء ذلك بعض القيم التي اعتادها العربي ، واندثرت بعض المكارم التي تاقّت لها النفس العربية ، غير أن هناك قيمتان من أولى القيم في المجتمع العربي رأى شاعرنا أنها بدأت تقل في ناس عصره وهي البأس والجود، وقد حاول غير مرة أن يلفت نظر معاصريه إليها ، ويحث عليها من خلال مدائح . وهذه محاولة على نفس السنن لبعث هذه الخلال يقول (١) :

شَخْصٌ يَحُوزُ مَحَاسِنَ الْأَجْنَاسِ	جَمَعَ السَّلَامَةَ وَالشَّهَامَةَ ، إِنَّهُ
أَنْدَى وَأَبْرَدٌ مِنْ نَدَى الْأَغْلَاسِ	لَذِكَاؤُهُ لَهَبُ الْحَرِيقِ ، وَحِلْمُهُ
فِي دَهْرِنَا ، وَيَجَلُّ فِي الْمِقْيَاسِ	فِيهِ اثْنَتَانِ يَقِلُّ مَنْ يَحْوِيهِمَا
أَكْرَمُ بِذَلِكَ مِنْ ذَكُورِ نَاسِ	يَنْسَى صَنِيعَتَهُ ، وَيَذْكَرُ وَعَدَّهُ
يَسِرُّ الْخَلَائِقَ ، مَحْصَدُ الْأَمْرَاسِ	وَكَذَا عَهْدَتُكَ لِنَا ذَا مِيعَةٍ
وَتُرَاعَ مِنْهُ الْأُسْدُ فِي الْأَخْيَاسِ	مَمَّنْ تُرَاعِي الْوَحْشَ حَوْلَ فَنَائِهِ
قَدَمَاكَ فِي يَوْمِ عِرَاكِ عِمَّاسِ (٢)	كَمْ خَفَّ نَهْضُكَ لِلدُّعَاةِ وَكَمْ رَسَتْ
لَاظِلْمَ غَصَابٍ وَلَا بَخَاسِ	لَكَ عَدْلٌ ذِي تَقْوَى وَظَلَمٌ أَخِي نَدَى
وَإِذَا حَكَمْتَ وَزَنْتَ بِالْقِسْطَاسِ	فَإِذَا وَهَبْتَ ظَلَمْتَ مَالَكَ مُحْسِنًا

جمع ابن الرومي لممدوحه في هذا النص من الخلال والصفات الحميدة ما يفوق به أي إنسان سواه ، فهو ذكي ، حلیم ، جواد ، شجاع ، وقد تميز عن غيره بخلتين نادراً ما يجوزهما إنسان في ذاك العصر ، هما نسيان الصنعة أو المعروف الذي يقدمه ، فهو يعطي العطية ثم لا يذكرها ولا يمين بها ، بينما يذكر وعده ويفي به ، وكان الشاعر هنا يعرض بالناس وأخلاقها في عصره حيث قل الوفاء ، وندر الكرم ، أخلاق هذا الممدوح طيبة ، في جواره يأمن الخائف حتى الوحش لا تخافه ، بينما في الغضب تخشاه حتى الأسد في غاباتها لعظم شأنه وقوة جبروته .

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٧٣-٢٧٥ .

(٢) عماس : معركة في يوم شديد الظلمة .

هذا الممدوح فيه خلة أخرى ورثها عن أجداده العرب وهي إجابة الداعي ونجدة الملهوف فهو لا يتوانى عن تلبية النداء بل يغيث الملهوف سريعاً وهذه الأقدام التي تسرع يصاحبها لإغاثة الملهوف هي ذات الأقدام الراسخة في أرض المعركة حيث لا يولي الزحف بل يثبت في أرض العراك لبسالته وشجاعته ، له في حكمه عدل التقى الذي يراعي الله في أحكامه بينما في العطاء ظالم ، لأنه مسرف لا يقتصد ، فكأنه يظلم ماله بالإسراف وهو يقصد الإحسان لغيره وحكمه عادل .

في النص السابق نجد صوراً قمة في الروعة مع عدم تكلف من الشاعر حيث أتى بالمعاني الجسيمة في رقة وسلاسة وألفاظ ذات إيحاء خاص في قوله :  
**لَذَكَؤُهُ لَهَبُ الْحَرِيقِ ، وَحِلْمُهُ أَنْدَى وَأَبْرَدُ مِنْ نَدَى الْأَغْلَاسِ**  
قابل بين خلقين من أخلاق ممدوحه هما الذكاء والحلم ، وذهب يبحث لهما عن شبيهين فوفق أيما توفيق حين لجأ كعادته للطبيعة يستمد عنها صورته ومشبهاته ، فجعل ذكاء الممدوح في الصفاء والانتقاد كأنه لهب الحريق لما عهد عن النار من حرارة وانتقاد ، ولم يجد في مقابل هذه الصورة الحية سوى صورة أشفى للنفس وهي صورة الندى - وأي ندى - الندى في وقت الغلس ، وكلنا يعلم الفرق بين الندى في أي وقت والندى في وقت الغلس - قبيل الفجر - حيث يكون أشد برودة وأعظم أثراً في النفس ، فحلم ممدوحه كهذا الندى في ذلك الوقت ، والعظمة تكمن في تشبيه الشاعر للأمر المعنوي بالأمر المحسوس ، هذا عدا المقابلات والجناس والطباق في بقية أجزاء الصورة .

والمقابلة الرائعة في قوله :

**لَكَ عَدْلٌ ذِي تَقْوَى ، وَظَلْمٌ أَخِي نَدَى**      **لَا ظَلْمٌ غَضَابٍ وَلَا بَخَاسٍ**

فقد امتدح هنا بالعدل وأي عدل . عدل التقى الذي يخاف ربه لأن المرء إذا خاف ربه كان عدله قائماً على الخوف والحذر فلا يظلم خشية عقاب الله ، وعاد وامتدحه بصفة تقابل صفة العدل ولكنه تحرز وقيد المعنى حين

قال وظلم أخير ندئ ، فممدوحه ظالم في العطاء لأنه يعطي بإسراف فيظلم ماله حين ينفقه عن آخره ، وهذا أمر محمود في نظر الشاعر .

يؤكد ذلك احترازه حين قال : لاظلم غصّاب ولابخاس ، فهو ظلم مطلوب بل محمود ليس بالبخاس ولاالغصاب .

وهذا النص يذكرنا بنص آخر تطرق فيه ابن الرومي لنفس المعاني والمكارم وإن كانت الألفاظ التي استخدمها يختلف إيجاًؤها إلا أن الغرض نفسه (١) :

يَا مَنْ وَجَدْنَاهُ فَرْدًا فِي سِيَاسَتِهِ  
إِنْ صَالَ عَدْلٌ مَيْلًا أَوْ قَضَى عَدْلًا  
يَا مُؤْنِسَ الْإِنْسِ وَالْوَحْشِ الَّتِي ذُعِرَتْ  
وَمَنْ أَخَافَ الْأَسْوَدَ السُّودَ وَالْجَبَلَا

فهذا الممدوح فرد لاشبيه له سواء في حكمه ، أو في قضائه وعطائه ، به يأنس الناس ولا تذعر منه الوحوش ، وهو كذلك في الغضب يخيف الأسود في الغابات .

من المعاني التي طرقها ابن الرومي بألفاظ متقاربة وإيجاء مختلف قوله يمدح بالكرم (٢) :

هُوَ الرَّجُلُ الْمَشْرُوكُ فِي جُلِّ مَالِهِ      وَلَكِنَّهُ بِالْخَيْرِ وَالْحَمْدِ مُفْرَدٌ  
هذا الممدوح لا يبقى ماله في يده لأنه تعود العطاء حتى كأن الناس شركاء له في أمواله ، وكأن لهم حق فيه ، ولكن هذا الممدوح وإن أشرك الناس جميعاً في ماله إلا أنه تفرد بالحمد والخير لأنه هو الباذل وهو معطي المال ، لذا وجب أن يعود الشكر والحمد له وحده دون شريك وقريب من هذا قوله (٣) :

(١) الديوان ، ج ٥ ، ص ١١١ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

يَأْمَنُ غَدَا مَالَهُ فِي النَّاسِ مُشْتَرِكًا      وَمَنْ تَحَلَّى مِنَ الْآدَابِ أَحْسَنَهَا  
وَمَنْ تَوَحَّدَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْفَرَدَا      كُنْ عِنْدَ أَخْلَاقِكَ الزَّهْرَ الَّتِي جُعِلَتْ

فهذا الممدوح لا يجتزن الأموال بل ينفقها حتى عد الناس شركاء له فيها غير أنه انفرد عنهم بالمعروف والأخلاق الحسنة التي كأنها موقوفة عليه دون سائر الناس ، حتى لا يرى غيره متمتعا بهذه الأخلاق ، وكأنها وجدت له دون غيره ، وقريب من هذين المعنيين معنى ثالث أو صورة ثالثة لنفس المعنى في قوله (١) :

مَازَلْتَ تَشْرِكُ فِي ثَرَايِكَ حَاسِدًا      حَتَّى غَدَوْتَ وَلَسْتَ بِالْمَحْسُودِ  
إِلَّا عَلَى مَا لَسْتَ تَمْلُكُ بِذَلِكَ      مِنْ صِدْقِ بَأْسٍ أَوْ بَرَاعَةِ جُودٍ

فهذا ممدوح آخر يعطي بسخاء حتى لم يعد له حساد لأنه يعطيهم من ماله ، حتى صفى قلوبهم من الحسد ، ولم يعد يحسد إلا على ما لا يستطيع أن يشرك فيه أحد لأن الأمر ليس بيده ، فكأن هذه الصفات التي لا يشترك معه فيها أحد - الشجاعة - والجود - وقف عليه حيث لا يوجد له مثل فيها . مع أن المعنى واحد في جميع الصور السابقة إلا أن عظمة الشاعر ظهرت حين نوع أسلوبه ، وجعل لكل صورة من الصور الثلاث دلالة خاصة وإيجاء يختلف عن سابقه ، وهذا ديدن ابن الرومي حين يتعرض لقيمة ما يقلبها على كل وجه ويعرضها في كل صورة وفي كل مرة نحس لها وقعا يختلف عن سابقه وتؤدي غرضا مغايرا يظل أثره في النفس أبلغ .

شأن ابن الرومي شأن شعراء عصره يبالغ في مديحه فيقول (٢) :

كَلَّمَا يَدَيْكَ يَمِينٌ لَأَشْمَالَ لَهَا      مَخْلُوقَتَانِ لِأَمْجَادٍ وَإِنِّجَادِ  
يَدَانِ لَا يَفْتَرَانِ الدَّهْرُ مِنْ صَفْدِ      يُغْنِي فَقِيرًا ، وَلَا مِنْ فَكِّ أَصْفَادِ  
تُعْطِي الْجَزِيلَ بِلَاوَعْدٍ تَقَدَّمَهُ      وَلَا تَعَاقِبُ إِلَّا بَعْدَ إِعَادِ

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .



لكثرة عطاء هذا الممدوح وبذله للمال كأنه لم يخلق إلا للعطاء والحرب فيداه من كثرة عطائها وكثرة بلائها في الحرب كأنها يمين لأن العمل لا يحسن إلا إذا أدي باليمين ، فعطاء هذا الممدوح للفقير يغنيه ، وعفوه عن الأسير يطلقه لا يمين ولا يماطل في عطائه ، يترث في إصدار حكمه وعقابه ، لأنه لا يعاقب قبل أن ينذر ، وابن الرومي هنا يشير إلى قيمة إسلامية غاية في النبل والرفق الذي تميز به التشريع الإسلامي مأخوذة من قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم : {وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} (١).

إذ لا بد من إعلام العدو أولاً بنقض العهد ومن ثم قتاله حتى لا يكون هناك خيانة ، وقريب من ذلك قوله مؤكدا على صفة العفو عند ممدوحه ولكنه في هذه المرة يقيّد العفو ، إذ أن ممدوحه يعفو في غير ضعف حينما يكون العفو هو الأصوب (٢):

يُعَاقِبُ مَا أَدْنَى الْعِقَابِ مِنَ التَّقَى وَيَعْفُو فَلَا يَعْفُو قَعُودًا عَلَى ضَمَدٍ

فهذا الممدوح حكيم صائب الرأي لا يتخذ قرارا حتى يفكر فيه جيدا فلا يظلم أحدا يعفو حين يكون العفو هو الأصوب ولكن دون ضعف ولا خور في حكمه لا يظلم ولا يجور أبداً.

في صورة مختلفة يعبر عن نفس المعنى السابق حين يقول (٣):

وَيَغْفِرُ لِلهَافِينَ غَيْرَ مُقْصِرٍ وَلَا جَاهِلٍ مَا قَدَّ اتَّوَا حِينَ يَغْفِرُ  
وَلَكِنْ يُثِيبُ الْمُحْسِنِينَ مَثُوبَةً يَنَافِسُهُمْ فِيهَا الْمُسِيءُ فَيَقْصِرُ

هذا الممدوح يغفر للمخطئين ليس سهوا منه ولكنه عالم ما قد جنوا ورغبة منه في الإصلاح دون عقاب ، يثيب المحسنين مشوبة تجعل هؤلاء المخطئين يتراجعون عن الإساءة ويندمون على فعلتهم ، وهذا أسلوب عال لا يستخدمه إلا من له إلمام بعلم النفس والتربية .

(١) سورة الأنفال : آية ٥٨

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٠٥-١٠٦ .

من المعاني القريبة من النصوص السابقة والتي عالجها ابن الرومي  
بصور مختلفة قوله يمدح بنفس القيم السابقة ولكن بايقاع وإيجاء مختلف<sup>(١)</sup>:  
لَهُ مَوَاعِيدُ بِالْخَيْرَاتِ نَاجِزَةٌ      لَكِنَّهُ يَسْبِقُ الْمِيعَادَ بِالصَّفْدِ  
يُعْطِيكَ حَقَّ غَدٍ فِي الْيَوْمِ مُبْتَدَأً      وَلَيْسَ يَجْهَلُ بَعْدَ الْيَوْمِ حَقَّ غَدٍ

فهذا الممدوح يسبق عطاؤه وعده لسعة علمه بالمحتاج وحبه الشديد  
للذل والعطاء ، لا يماطل ولا يسوّف في وعوده. يعطي العطية اليوم وفي نفس  
الوقت يعطي حق غد وكأنه يستعجل الأيام في العطاء حتى لا يربى محتاجا  
ولاصحاب فاقة ، فهمّه أن يغنى الجميع .

يقول في موضع آخر عارضا نفس المعاني بطريقة مختلفة<sup>(٢)</sup>:

أَخُو الرَّأْيِ وَالْعَزْمِ الَّذِينَ كِلَاهُمَا      شَهَابٌ سَمَاوِيٌّ وَأَبْيَضُ قِصَالُ  
لَهُ عَزَمَاتٍ لَا تَفَاتُ بِفُرْصَةٍ      وَفِيهِ أُنَاةٌ قَبْلَ ذَاكَ وَإِمْهَالُ  
يُبَادِرُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مَرْهِقٍ      وَيُمْلِي فَلَا إِمْهَالُ إِذْ ذَاكَ إِمْهَالُ

هذا الممدوح له رأي وبأس كأنهما شهابان من السماء لسدادهما  
وقوتهما وهو ذو عزيمة وإصرار مع حلم وأناة فليس بالضعيف ولا المهمل ،  
بل لكل مقام لديه مقال ، وهو رجل في كل موقف ، يتخذ الفعل المناسب  
للمقام المناسب دون ضعف ولا إهمال . وهذا يذكرنا بقوله<sup>(٣)</sup>:

طَوِيلُ التَّائِي لَ الْعَجُولُ وَلَا الَّذِي      إِذَا طَرَقَتْهُ نَوْبَةٌ تَبَلَدُ  
لَهُ سَوْرَةٌ مَكْتَنَةٌ فِي سَكِينَةٍ      كَمَا اكْتَنَ فِي الْغَمْدِ الْجُرَازُ الْمُهَنْدُ

فهذا الممدوح معروف بحسن تصرفه وتقليبه الأمور فلا يصدر رأيا حتى  
يتأني فيه فليس بالمتسرع الذي يصدر آراءه عن هوى وحماسة .

وهو في النوقب **بنفسه** ليس بالبليد الذي تعجزه الأمور ، بل الحكيم  
العالم بالفضائل يخفي غضبه ويكتمه بالسكينة التي يتحلّى بها حتى لا يوصف

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٨٢ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

بالحمق ، فهو في ذلك كالسيف الذي يغمد ولكنه معروف ، رغم أنه مكنون إلا أنه حاد ماض مهند ، في وقت الضرب يعمل بكفاءة .

فساد النيات ، وشيوع الفواحش ، وانتشار الخبائث في المجتمع دليل تدهور وانحلال هذا ما حاول ابن الرومي أن يشير له حينما تذر من بعض الصفات الكريهة في مجتمعه ، نتبين ذلك من مدائح التي يظهر فيها عكس هذه الخلال فهو يمدح بصفات كريمة ويؤديها بطريقة نادرة حين يقول (١):

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي طَهَّرْتَ  
بِهِ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ بَغْدَادُ  
وَمَنْ غَدَا وَهُوَ لِلْخَبَائِثِ تَرَكَ  
لَكَ وَاللَّطِيَّاتِ أَخَذُ  
مُبَارَكٌ فِي يَدَيْهِ لِلْمَالِ إِهْلَا  
لَكَ وَلِلْهَالِكِينَ انْقَادُ

فهذا إمام عادل صالح ، لا يوجد للعمل الخبيث في أفعاله أثر فهو لا يقبل الخبائث ولا يقرها ، بل العكس أفعاله طيبة وتصدر عن طيب ، هذا الممدوح بذال للمال جواد به ، ينقذ المدقعين والمعوزين بكثرة عطاياه وكريم سجاياه ، وقد سُدَّ شاعرنا في اختيار الألفاظ والصور ذات الإيجاء الديني والاجتماعي ، تأمل معي هذه الإشارة "طَهَّرْتَ بِهِ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ بَغْدَادُ" لا يقول هذا إلا إذا فَشَتْ هذه المنكرات وعمّ الحس بها ... نتيجة الاختلاط والبذخ والترف الذي ساد في العصر العباسي .

وكان ابن الرومي ضاق ذرعا بهذه الأحوال والأخلاق الفاسدة فذهب يُفتش عن شخص يعيد للحياة برمتها طهرها ونقاءها ، فما أن عثر عليه في ممدوحه هذا حتى أضفى عليه صفات وأسبغ عليه من المكارم ما ترتفع بصاحبها إلى درجات الأتقياء الذين بهم يعم النفع وتسود الطمأنينة في المجتمع .

واستخدم صيغ المبالغة - تراك - أخاذ - حتى يظهر لنا ممدوحه في أجل صورة ، ووشح صورته بهذا الأسلوب الإنشائي - النداء - يأيها - مما يسترعى الانتباه ويترك أعظم الأثر في نفوس السامعين .

الإسراف في كل شيء مذموم ، نهى عنه الباري جل علاه حين قال :  
 {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} (١).  
 وابن الرومي بحكم ثقافته وتجاربه وعي هذه الحقيقة وعلم أن الجمال  
 الراسخ لا يتأتى من طريق المفسدة .. ولكن أمامنا نص مدح فيه شاعرنا  
 بالإسراف مبينا أن إسراف ممدوحه يعد مكرمة لاعصيان فيه لأنه مسرف في  
 الكرم يقول (٢):

إِلَىٰ أَيْنَ مِنِّي؟ لَاتَ حِينَ مَنَاصِ	جَوَادٌ يُنَادِي الْهَارِبِينَ عَطَاؤُهُ
وَلَيْسَتْ مَعَاصِي مَا جِدَّ بِمَعَاصِي	عَصَىٰ اللَّهُ فِي الْإِسْرَافِ غَيْرَ مُعَانِدٍ
وَحَاصِّصَتْهُ فِي الْجُودِ أَيَّ حِصَاصِ (٢)	فَضَلَّتْ أَخَاكَ الْغَيْثَ بِالْعِلْمِ وَالْحِجَىٰ
سَمَاؤُكَ مِدْرَارًا وَرَوْضُكَ وَاصِي (٤)	عَلَىٰ أَنَّهُ يَمْضِي وَأَنْتَ مُخَيِّمٌ

أراد الشاعر أن يصل بممدوحه - في الكرم - منزلة لايدانيه فيها أحد  
 فنعتته بالجوود ثم استخدم ألوان البديع حتى يمكن لصورته في النفوس ، فجعل  
 عطاء هذا الممدوح يتحدث وينادي الهاربين - إلى أين مني؟؟ ثم يجيب  
 سريعا - لات حين مناص - أي لاجمال لكم فمهما ذهبتم فمصيركم إلى لاني  
 سألحق بكم في كل مكان ، كل هذا تشخيص للكرم فهي استعارة مكنية  
 حيث شبه العطاء بالإنسان حذف المشبه به وأتى بأحد لوازمه ، وهي خصيصة  
 النداء - أو الكلام - وكأن العطاء هو الذي يطلبهم ، فهو المحتاج لهم .  
 مع كل هذا يرى شاعرنا أن المعنى لا يكتمل في هذه الصورة ، إذ يريد  
 أن يبين عظم كرم ممدوحه وجزالة عطائه ، فوصفه بالإسراف - ومعروف  
 بالإسراف من ذم - لأن فيه معصية للخالق ، وخروج عن السنة الشريفة .  
 فحين قال : عصى الله في الإسراف ، استدرك فقال - غير معاند - أي أن

(١) سورة الإسراء : آية ٢٩  
 (٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٩٨ .  
 (٣) حاصصته : شاركته حصاة بحصة .  
 (٤) واهي : كثير ، متصل .

إسرافه في العطاء ليس مجرد إسراف للمعصية ولكن حبه للعطاء والإنفاق يجعله يسرف ، لذا عدّ فعله هذا مكرمة لامعصية فيه .

جرت العادة أن يشبه الشعراء بالغيث في الكرم ولكن ابن الرومي يؤكد هنا فوقية ممدوحه ، فحين جعل الغيث أخاً لممدوحه عاد وبين أن ممدوحه قد فاق أخاه - الغيث - بالعلم والرأي السديد ، فهذه من خصائص الإنسان ولكن هذا الممدوح شارك الغيث في خصيصة العطاء والجود ، فأخذ حصته وافية ، بل وزاد عليها بأن جعلها مستمرة لاتنقطع . في حين أن المطر له أوقات محددة ثم يمضي وسماء هذا الممدوح دائمة المطر وروضة مونق دائم الخضرة ، فالاستمرارية هي الصفة الخاصة بعطاء الممدوح .

في مقابل هذه الصورة التي أشاد فيها شاعرنا بإسراف ممدوحه في العطاء والجود ، نجد له صورة أخرى يشيد فيها بقيمة التوازن ، وهو يقرب المعنى ويعيد النظر فيه فيحن لهذه العادة وهي عرض المعنى بأكثر من صورة وفي أكثر من إيجاء ، وفي هذا النص يمدح بقيمة التوازن مرغبا فيها وداعيا لها يقول (١):

شَهِدْتُ لَقَدْ نَادَمْتَهُ فَوَجَدْتَهُ	سَمِيعًا ، فَفِيهِ الْقَلْبُ عَنْ كُلِّ سَائِلٍ
أَصَمُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْعَدْلِ فِي النَّدَى	طَوِيلُ التَّمَادِي فِي شِقَاقِ الْعَوَازِلِ
يَجُودُ فَيُعْطِي مَالَهُ فِي حَقْوَقِهِ	عَلَى مَنَهَجٍ بَيْنَ السَّبِيلَيْنِ عَادِلِ
هُوَ النَّيْلُ يَجْرِي فِي سِوَاءِ سَبِيلِهِ	فَلَا تَنْتَحِي عَنِ قَصْدِهِ لِمَعَادِلِ

فطبيعة العصر وماحصل فيه من تقدم علمي وفكري فرضت على معاصري ابن الرومي التزود بالعلم والثقافة والتبحر في أمور الدين والدنيا . فهذا الممدوح إضافة لعلمه وفقهه وخبرته بالأمر ، زاد عن غيره بالترفع عن الفواحش حتى عد كالأصم عند الحديث الفاحش فهو لا يصغي للفحشاء عاملا بالآية الكريمة التي تشيد ببعض صفات المؤمنين {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} (٢).

(١) الديوان ، ج ٥ ، ص ٢٦٠ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٣

بالإضافة لترفعه عن الفحشاء ترفع وأصم أذنيه عن العذل في الكرم والجود ، فمن يعذله في العطاء يعاديه لعلمه أن كرمه متوازن معتدل ، لا يسرف ولا يقتصر وحتى في إشادة شاعرنا بقيمة التوازن لم يجد بدا من الولوج للطبيعة باحثا عن شبيه لتوازن ممدوحه في العطاء والبذل فوقع في حسه نهر النيل ومايجود به من الخيرات في غير إسراف يؤدي للغرق والموت ولاشع يؤدي للجفاف والهلاك .

في قوله : طويل التماذي في شقاق العواذل ، يذكرنا بقوله في نفس المعنى<sup>(١)</sup>:

قَوْمٌ يَرَوْنَ النَّصْحَ فِي أَمْوَالِهِمْ غِشًّا ، فَقَدْ سَخَطُوا عَلَى النَّصَّاحِ

فهؤلاء قوم يرون أن المال وجد للإنفاق لا للكتز ، لذا فهم يعيبون على من يعذله في الكرم والجود ، ويرون نصحه ضرباً من الغش ، ولايملكون سوى السخط عليه لأنه في رأيهم يمنعهم من مكرمة تخلد ذكرهم ويدعوهم لنقيصة وهي البخل .

النفس الإنسانية تستبشر وتتهلل عند رؤية شخص ما يحمل صفات الخير وفضائل الأخلاق ، وابن الرومي كفنان تاقت نفسه لهذه الصفات والمكارم ، فبحث عنها في إنسان عصره ، ولكنه في كل مرة كان يعود صفر اليدين ، وبطبعه العبقري حاول جمع تلك الفضائل وتنسيقها بألفاظ وعبارات ممتزجة بخلجات نفسه ومن ثم اسباغها على ممدوحه ليحث عليها ويرغب فيها ، يقول<sup>(٢)</sup>:

فَاتَقِيَ الرَّتْقِيَّ ، رَاتَقِيَ الْفَتَقَهِيًّا ضِيَّ أَخِي الْبَغْيِيِّ جَابِرِي الْمِنْهَاضِ  
حَامِلِي الثَّقَلِ ، وَاضِعِي كُلِّ ثِقَلٍ يَنْقُضُ الظَّهْرَ أَيَّمَا أَنْقَاضِ  
لَهُمْ عِزَّةُ الْمَصَاعِبِ . إِنْ شِئْتُ . ذِلَّةُ الْأَخْفَاضِ  
وَإِذَا دُوفِعَتْ بِهِمْ حُجَجُ الْبَاسِ طَلَّ كَانَتْ رَهَائِنَ الْإِدْحَاضِ

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

هؤلاء القوم من ممدوحى ابن الرومى يبدأون بالعداوة - إن شاءوا -  
ويلمون الشعث ويقلون عثرة الضعيف ، يتحملون المسؤوليات الخطيرة ،  
والأمور الجسيمة ، عمن لا يستطيع النهوض بها ، هؤلاء القوم أشداء في وقت  
الشدة ، لطفاء في وقت الرخاء ، رأيهم وقولهم ، حجة تدحض الباطل  
وتزهقه .

وقد أعطى شاعرنا الصورة حقها وأضاف إليها ما يتصل بها من غير  
تكلف ، فقد عبر بألفاظ سهلة وإيقاع محبب عن معاني حسنة وقيم اجتماعية  
مرغوب فيها .

كثرة المحسنات البديعية من طباق وجناس ومقابلة ، أضفى على  
الصورة لونا خاصا ، وترك لها أثرا في النفس مشجعا على اعتناق هذه  
الخلال والاتصاف بهذه المكارم . قريب من هذا المعنى قوله (١):

قَوْمٌ سَمَّاحَتُهُمْ غَيْثٌ ، وَنَجَدَتُهُمْ	غَوْتُ وَأَرَأُوهُمْ فِي الْخَطْبِ شَهْبَانُ
إِذَا رَأَيْتُهُمْ أَيقِنْتَ أَنَّهُمْ	لِلدِّينِ وَالْمُلْكِ أَعْلَامٌ وَأَرْكَانُ
لَا يَنْطِقُ الْإِفْكَ وَالْبَهْتَانَ قَائِلُهُمْ	بَلْ قَوْلُ عَائِبُهُمْ إِفْكَ وَبَهْتَانُ
وَلَا يَرَى الظُّلْمَ وَالْعَدْوَانَ فَأَعْلُهُمْ	إِلَّا إِذَا رَأَى ظُلْمًا وَعَدْوَانُ

فهؤلاء قوم سماحتهم وسرعة نجدتهم وسداد آرائهم مشهورة بين  
قومهم ، همهم إقامة أركان الدين والملك ، لا يكذبون ولا يقولون الإفك لأن  
فيهم ترفع عن تلك الرذائل ، لا يظلمون ولا يعتدون على أحد وإن حاول  
معتد الاعتداء عليهم أو ظلمهم ردوا عليه ظلمه وعدوانه ، لأنهم لا يسكتون  
على ظلم ولا يقبلون الضيم .

وفي نص آخر يمدح ابن الرومى قوماً آخرين بفضائل تكاد تكون نفس  
الفضائل السابقة ولكن في ثوب جديد وإيقاع مختلف وأثرها كذلك لا بد أن  
يختلف يقول (٢):

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ١٧٩ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٥٧ .

فَرَضًا يُؤَدِّيْ وَالسُّوْأَى مَرَايِضُ  
وَهُمْ مَقَاوِمٌ فِي الْجُلَى مَنَاهِيضُ  
أَيْدٍ قِصَارٌ ، وَأَبْصَارٌ مَغَاضِيضُ  
إِذَا تَحَيَّفَتِ الرَّيْشَ الْمَفَارِيضُ  
وَفِي وَعِيدِهِمْ بِالشَّرِّ تَمْرِیضُ

قَوْمٌ مَفَارِيضٌ لِلْحُسْنَى يَفْضِلُهُمْ  
تَلْقَاهُمْ قَعْدًا عَن كُلِّ فَاحِشَةٍ  
لَهُمْ مَعَ الْعِزِّ عَن مَوْلَى صَنِيعُهُمْ  
لَا يُعَدُّمُونَ أَثْبِتَ الرَّيْشَ جَارَهُمْ  
وَمِنْهُمْ كُلُّ تَصْحِيحٍ إِذَا وَعَدُوا

يعرض الشاعر الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة في غير ماموضع وبشتى الطرق ، فتارة يلصقها بجماعة وأخرى يفردها لشخص بعينه ، وغرضه في ذلك كله ترغيب قومه في هذه الخلال وإبرازها في مجتمع قلت فيه المثل واندثرت القيم ، فمدح جماعة بأنهم كرام يقرضون الأمر الحسن ويرفضون السيء ، لا يقدمون على فاحشة أو سوء ، بل ينهضون لعظائم الأمور ، ويتصدون لها ، وهم مع كثرة بذلهم وعظيم صنائعهم إلا أنهم لا يمتنون بها على أحد ، يعضون أبصارهم وهذه صفة شحيحة في عصر راجت فيه الفتن وانتشرت الفواحش .

بلغوا غاية الكرم مع جيرانهم ، إذا تجهم الزمان ، وعز الكرماء ، في وعدهم بالجوود شفاء لمن يقصدهم وهو معدم محتاج ، وفي وعيدهم المرض والبلاء للأعداء لشدة بأسهم .  
يقول مؤديا معناه مكرراً بألفاظ متقاربة في البيت الثاني يعيد نفس المعنى في قوله (١) :

وَيَلْقَى الْمَنَايَا مُقَدِّمًا غَيْرَ نَاكِصٍ  
وَيَدْرِعُ الْمَعْرُوفَ دُونَ الْقَوَارِصِ  
عَلَى شَرَفِي رِفْدٍ ، وَمَوْتٍ مُغَافِصِ

جَبَانَ عَنِ السُّوْءَاتِ عَنْهُمْ نَاكِصٌ  
جَسُورٌ عَلَى الْأَهْوَالِ يَحْسِرُ لِقُنَا  
يَظَلُّ مُعَادِيَهُ وَطَالِبُ رِفْدِهِ



فهذا مديح بما يشبه الذم ، يقول إن ممدوحه جبان ، ولكن جنبه هذا عن السوء والمنكر ، وهو جبن محمود لأن فيه خوف من الله ، لا يقدم على السيئات نتيجة لخوفه من الله ، أو لأنه يترفع بشخصه عن مواطن الزلل فلا يدنس شرفه بتلك السيئات ، ولكنه مقابل هذا الجبن المحمود ، في مواطن القتال والنزال بطل جسور لا يقارعه الأبطال لجسارته وإقدامه ، وهو يحمد له الإقدام ويذم الجبن ، فالعطاء - الجود - والبسالة والإقدام في الحروب هما خلتاه اللتان امتاز بهما عن غيره .

كثيرة مكارم الأخلاق التي يحرص الشاعر في أي عصر على نسبتها لذاته أو قومه أو السادة الذين يقصدهم بالمديح حامدا فعالهم ، ومجسدا صفات الكرم ، والنجدة والوفاء ، وصواب الرأي ، وغيرها .

ولكن ابن الرومي يضيف لهذه الخلال صفة رأى أنها منتشرة في عصره وهي الدهاء ، حيث غلبت على الناس في العصر العباسي يقول (١) :

لَوَذَعِيٍّ ، لَهُ فَوَادٌ ذَكِيٍّ	مَالَهُ فِي ذِكَائِهِ مِنْ ضَرِيْبٍ
يَقِظُ فِي الْهِنَاتِ ، ذُو حَرَكَاتٍ	لِسَكُونِ الْقُلُوبِ ذَاتِ الْوَجِيْبِ
الْمَعِيٍّ يَرَى بِأَوَّلِ ظَنٍّ	آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيْبِ
لَا يُرَوِّي وَلَا يَقْلِبُ كَفًّا	وَأَكْفَ الرَّجَالِ فِي تَقْلِيْبِ
حَازِمُ الرَّأْيِ لَيْسَ عَنْ طَوْلِ تَجْرِيْبِ	جِيْبٍ ، لِيَيْبٌ وَلَيْسَ عَنْ تَلْيِيْبِ
وَأَرِيْبٌ ، فَإِنْ مُرِيغُوا نَدَاهُ	خَادَعُوهُ رَأَيْتَ غَيْرَ أَرِيْبِ
يَتَغَابَى لَهُمْ ، وَلَيْسَ لِمَوْقٍ	بَلْ لِلْبِّ يَفُوقَ لَبَّ اللَّيْبِ
ثَابِتَ الْحَالِ فِي الزَّلَازِلِ ، مُنْهَاهُ	لِلسَّوَالِهِ انْهِيَالِ الْكَثِيْبِ
لِيَنَّ عِطْفَهُ ، فَإِنْ رِيْمَ مِنْهُ	مَكْسِرَ الْعُودِ كَانَ جِدًّا صَلِيْبِ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) مريغوناه : الذين يودون كرمه وعطائه .

(٣) الموق : المحقق ، اللب : العقل .

(٤) ريم : قصد وأريد .

هذه صورة من أكثر صور ابن الرومي جدة وطرافة ، وإظهارا  
لكوامن التفرد في الذات ، فقد أسبغ على ممدوحه معظم الفضائل والمكارم ،  
فهو حكيم ، ماهر ، لامثيل له ، مقدم يحل الأمور الصعبة ويعرف نهايات  
الأمر من بداياتها ، لا يعرف التردد في الأمور كلها ، واثق من نفسه ، عاقل  
لييب فطن ، يتظاهر بالغباء لمن يخدعه ، ليس لضعف أو جهل ولكن لحلم  
وحكمة ، صامد للمصائب والبلايا ، جم العطاء ، كريم النفس ، امتاز عن  
غيره بسعة الصدر ، فإذا أريد له الذل كان صلبا لا يثني ولا يكسر .

البيت الثاني طرق فيه ابن الرومي نفس المعنى في هذه الصورة حين

قال (١) :

فَتَى كُلُّ عِلْمٍ فَهُوَ فِي سَكَنَاتِهِ      وَكُلَّ ذِكَاةٍ فَهُوَ فِي حَرَكَاتِهِ  
يُعْبَسُ وَالْإِنصَافُ تَحْتَ عُبُوسِهِ      وَيَضْحَكُ وَالْإِنْسَانُ فِي ضَحِكَاتِهِ

فقد تعرض شاعرنا هنا لسلوك الإنسان المتلبس بالمعنويات فمدح بالعلم  
وبين أن هذا العلم يظهر في حركات وأفعال هذا الممدوح فلا يصدر له فعل  
إلا ويدل على ذكائه وعلمه وفطنته للأمر ، وهو عادل حتى في غضبه لأن  
الحق مستقر في ذاته - لك الله يا ابن الرومي - أي إنسان ممدوحك هذا  
بحيث يجمع تلك الفضائل كلها دون أن تخل إحداها بالأخرى .

جرت العادة أن يمدح الشعراء بالكرم والجود ويشبهون الكريم بالبحر  
والغيث ، ولكن دون تفصيل ، وابن الرومي هنا يشبه جود ممدوحه بالبحر  
ولكنه كعادته ينظر للأمر من زاويتي الحسنه والضارة ، فيحذر الشاعر طالبي  
رغد هذا الممدوح بأنه كالبحر في كلا حاله - الخير والشر - فكما أن فيه ري  
وغنى فيه غرق وهلاك ، وهذا حال الممدوح كذلك يقول (٢) :

أَلَا فَارِجُهُ وَآخِشَهُ ، إِنَّهُ      هُوَ الْبَحْرُ ، فِيهِ الْغِنَى وَالغَرَقُ  
أَلَا فَارِجُهُ وَآخِشَهُ ، إِنَّهُ      هُوَ الْغَيْثُ ، فِيهِ الْحَيَا وَالصَّعَقُ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .

مُضِرٌّ بِمَلْتِمَسِ ضَرِّهِ  
هُوَ السِّيفُ إِنْ أَنْتَ أَنْحَيْتَهُ  
هُوَ الْمَاءُ فَاشْرَبْهُ ذَا غُلَّةٍ  
هُوَ النَّارُ فَاصْطَلْهَا وَاسْتَضِيءْ  
وَفِيهِ لِمُرْتَفِقٍ مُرْتَفَقٌ  
لِرَأْسِكَ أَوْ رَأْسِ قِرْنٍ فَلَقٌ  
وَذَا غُصَّةٍ ، وَتَوَقَّ الشَّرْقُ  
بِهَا فِي الدُّجَى ، وَتَوَقَّ الْحَرَقُ

هذا الممدوح في الخير والشر مثل البحر فيه غنى بالصيد واستخراج الخيرات منه وفيه غرق لمن لا يعمل بأصول النجاة والسلامة ، وهو كذلك مثل الغيث فيه حياة للأرض والناس والحيوان ، وفيه كذلك هلاك بالبروق والصواعق المهلكة .

وهذا الممدوح يجعل لكل موقف قدرا فهو في وقت الشدة شديد وهو عند اللين والرخاء لطيف رقيق ، وهو في فعله هذين مثل السيف ماض قاطع لا يفرق بين أحد ، وهو كذلك مثل الماء يحتاجه الناس في جميع الأحوال فيطفئ به الصديان ظمأه ويشربه من أصيب في أكله بغصه ليسهل بلع طعامه ولكن على كثرة فوائده هذه قد يهلك به الإنسان في حال الشرق به ، وهو مثل النار كذلك في فوائدها ومضارها ، فبها يستضيء الناس ويستدفئون وفيها كذلك هلاك بالحريق ، فهذا الممدوح قد جمع صفات عدة ففيه الصفة وضدها وهو في كل ذلك مثل عناصر الطبيعة التي لا غنى للإنسان عنها وإن كانت تحل في جانب منها بالخير وفي الجانب الآخر الشر والضرر ولكن لا بد من وجودها ، وانتفاع الناس بها ، ومع ذلك لا ينجون من مضارها وشرها .

وفي هذه الصورة دعوة صريحة من ابن الرومي لقيمة إسلامية عظيمة لا بد من الإلتزام بها حتى يتمكن الإنسان من العيش بسلام وهي قيمة "التوازن" والاعتدال في كل أمور الحياة .

وكما أدت السعة في البذل والعطاء إلى أن يشبه الممدوح بالبحر والغيث أدت كذلك إلى أن يصف الشاعر ممدوحه بتلين الوجه وبشره ، وطراوة الكف ولينها ، فكأن ذات الممدوح حين تكون قادرة على الجود

والعطاء داحرة للشح والبخل والأثرة تصبح لينة عطوفا ، يقول في كل ذلك<sup>(١)</sup> :

يُعْطِي الرِّغَائِبَ جُودًا مِنْ طَبِيعَتِهِ      لَا كَالْمُتَاجِرِ بِالْمَعْرُوفِ أَحْيَانًا  
لَا يَسْتَثِيبُ بِبَذْلِ العُرْفِ مَحْمَدَةً      وَلَا تَرَاهُ بِمَا أَسْدَاهُ مَنَّانًا

الكرم في ممدوحه طبيعة وسجية من سجاياه وهذا خلق لا يوجد في غيره ، وشاعرنا يعرض ببعض معاصريه الذين يعطون العطية ولهم من ورائها مقاصد شخصية ، بينما ممدوحه لا غاية له من وراء بذله وجوده فكأن هذا الخلق ميزة له دون غيره ، وإن وجد في غيره فهو تبع له أو مجرد قشور ومظاهر ، لاتتصل بالطبع والمزاج كما هي طبيعة ممدوحه الذي لا يمين ولا يذكر ما أسداه من نعم أبدا .

وقريب من هذه الصورة قوله<sup>(٢)</sup> :

جَدْتُمْ فَلَا جُودَ إِلَّا دُونَ جُودِكُمْ  
وَنَلْتُمْ مِنْ عَظِيمِ الجُودِ مَا شَطْنَا  
أَنْتُمْ غِيُوثٌ نَدَى تَرْجَى وَأَسْدٌ وَعَشَى  
تُخَشَى ، وَأَقْمَارٌ لَيْلٍ تَكْشِفُ الدُّجْنَ

لاشبيه في نظر ابن الرومي لجود ممدوحيه لأنهم فاقوا بذلك كل جواد فهم مثل الغيوث التي ترجى لتحيي البلاد ، وهم كذلك كالأسد التي تخشى لقوتها ، وهم كذلك مثل الأقمار في العلو والهداية ، حيث يهتدي بهم قومهم وبآرائهم في كشف الملمات والكرب الشداد ، مثل ما يهتدي الضال بالنور الذي يصدره القمر ويبصر به طريقه في الليل المظلم .

إن مضامين المديح عند ابن الرومي لم تقف عند الجانب الخلقى أو الخلقى ولم تقف عند حدود الحصال المألوفة التي أصبحت محدودة المعنى قاصرة الأداء ، بل هناك مضامين جديدة أدخلها ابن الرومي في مدائحه ،

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ .

لأنه تنبه لقيم جديدة فرضت نفسها في العصر العباسي منها قيمة العلم والأدب ، وجودة الكتابة ، وقد حاول من خلال مداخه بهذه القيم أن يرفع الشعار المناسب لعصره يقول (١):

وَالهَوَىٰ وَالْعُقُولَ طَوْعَ اقْتِيَادِهِ	جَلَّ نُبْلًا وَدَقَّ لُطْفًا وَأَضْحَىٰ
يُطْمَعُ فِي نَسْفِهِ ، وَلَا اسْتِيفَادِهِ	جَبَلُ الحِلْمِ ، لُجَّةُ العِلْمِ ، لَا
وَتَقَرَّرَ البِحَارُ لاسْتِمْدَادِهِ	تَسْتَفِيدُ الوُقَارَ مِنْهُ الرِّوَاسِي
كُلَّ حِلْمٍ . عَمَّرُوا الدَّهَاءَ ، زِيَادِهِ	أَحْنَفُ الحِلْمِ قَيْسِهِ . حِينَ يَهْفُو
وَيَدَا مَنْ بَغَاهُ فِي أَصْفَادِهِ	صَفْدُ المَسْتَمِيحِ مَا فِي يَدَيْهِ
مَا كَفَىٰ مِنْ ذُعَافِهِ وَشِهَادِهِ	فِيهِ سَهْلٌ ، وَفِيهِ حَزْنٌ وَفِيهِ

أخلاق هذا الممدوح فوق الوصف ، لا يصدر في أحكامه عن هوى ، بل الهوى والعقل مقودها بيده ، في النبل جليل وفي اللطف دقيق ، يقابل بينهما بطريقة بليغة ، هذا الممدوح حلیم ، حلمه كالجبال ، وعلم لا يغنى من العلم بل يطلب الزيادة باستمرار ، فاق بوقاره الجبال ، ويجوده البحار ، في الحلم لامثيل له إلا الأحنف بن قيس لشهرته بالحلم ، وهو في الدهاء لا يقارن إلا بعمر بن العاص داهية العرب ، وزياد بن أبيه لما شهر عنهما من الدهاء. هذا الممدوح يعطي السائل ويجود بما في يده له ، بينما يكبل يد الباغي بالأصفاد ، ويعود كعادته فيأتي بالوصف ومقابله لدقة التصوير عنده فيبين أن هذا الممدوح فيه لين وشدة حين يقول : فيه سهل ، وفيه حزن ، وحين يشبه أخلاق هذا الممدوح بالشيء ومقابله فيقول إن أخلاقه كالعسل أحيانا وكالسم أخرى . يقول في مقام آخر (٢):

الرَّاجِحِ العَفِّ فِي كِتَابَتِهِ	إِذْ فِي سِوَاهُ نَقِیصَةٌ وَشَرَّةٌ
أَحَاطَ عِلْمًا بِكُلِّ خَافِيَةٍ	كَأَنَّهَا الأَرْضُ فِي يَدَيْهِ كُرَّةٌ

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

العرف الغالب في المديح أن يكون بالبأس والجود ، أما في هذا النموذج فالمدح كله منصب على النواحي المعنوية من صفات الرجل كالعفة عن التبذل في الكتابة ، والطموح والوقار ، وحسن السميت .

لعل عصر ابن الرومي قل فيه التروي وتحكيم العقل في الأمور العامة مما كان له أثره في نفوس الناس ومنهم شاعرنا الذي مدح بصفات يرجو تمثلها في قومه<sup>(١)</sup>:

حَكِيمٌ ، عَلِيمٌ ، يَغْمُرُ النَّاسَ حِلْمُهُ	إِذَا فَرَطْتُ مِنْ جَهْلٍ قَوْمٍ فَوَارِطُ
عَلَى أَنَّهُ مِمَّنْ يَهَابُ عَدُوَّهُ	شَذَاهُ ، كَمَا هَابَ الْقَتَادَةُ خَارِطُ
لذِيدٌ عَلَى الْأَفْوَاهِ مَرَّ مَسَاغُهُ	إِذَا هُوَ رَامَتَهُ الْحُلُوقُ السَّوَارِطُ
مَتَى ذِيْقَ لَمْ يَلْفِظْهُ مِنْ فِيهِ ذَائِقُ	وَعَزَّ فَلَمْ يَسَرِّطْهُ إِذْ ذَاكَ سَارِطُ
ضَعِيفٌ عَلَى الْمَرْءِ الضَّعِيفِ وَإِنَّهُ	لَأَشْوَسَ عَدَاءً عَلَى الدَّهْرِ قَاسِطُ
فَتَى خُلِقَتْ كَفَاهُ لِلْجُودِ آلَةٌ	فَأَطْلِقْنَا مَدْ أَطْلَقْتَهُ الْقَرَامِطُ
هُوَ النَّخْلَةُ الطُّولَى أَبَتْ أَنْ تَنَالَهَا	يَدَانِ ، وَلَكِنْ يَنْعَهَا مُتَسَاقِطُ

نادرا ما نجد الإنسان العليم الذي لا يند عنه فعل دون حلم وروية ، إذ فقد الحلم في عصر ضاع فيه العلم ، ولكن ابن الرومي كعادته يحاول بعث القيم التي يرى أنها بدأت تندثر فيمدح بها مرغبا فيها خاصة الحكام والوزراء يقول : إن ممدوحه لعلمه يحكم حلمه في الأمور كلها خاصة المستعصية ، حين يجهل غيره ، ويفرط في الجهل ، وهذا الممدوح مهاب الجانب شديد البأس في ذكره حياة لأوليائه ، لأن فعالة كلها طيبة فهو كريم جواد ذو خلق حسن ، وكذلك في ذكره موت لأعدائه لقوة بأسه يهابه الأعداء ويخشونه ، رحيم بالضعفاء ، شرس على الأعداء ، معادٍ للدهر وتقلباته ، طبعت نفسه على الجود وأخذت يدها على العطاء فكأنه ولد وهو يعطي لاشبيه له - في رأي الشاعر - سوى النخلة العالية البعيدة ، حيث ترتفع وتتناول في السماء وجنيها قريب يتناوله الكل مع طيب ثمارها .

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٦٩-٧١ .

كعادة ابن الرومي يقلب المعنى الواحد على كل وجه ويعيد النظر فيه فيوجز ويجمّل ، أو يشرح ويفصل ، يقول في صورة مختلفة يعرض نفس المعاني السابقة تقريبا من كرم وحلم وعلم وغيرها<sup>(١)</sup> :

أَخُو خَمْسٍ خُلَّتْ حِسَانِ رَوَائِعُ	قد اتسقت فيه اتساق البراجم
جَمَالٌ وَإِفْضَالٌ وَظَرْفٌ وَنَجْدَةٌ	ورأي يريه الغيب لارجم راجم
فَتَى يَرَأَمُ الْمَوْلَى وَيَشْمَخُ لِلْعِيدَا	بأنف حمي لا يذل لخارم
يَلِينُ بِعِطْفٍ غَيْرِ كَرٍّ لِعَاطِفٍ	ويأبى بعطف غير لدن لهاضم
حَلَا لِيَشْفَاهِ الذَّائِقِينَ وَإِنَّهُ	لكالصاب في أحلاقهم والبلاعم
يَرُوحُ وَيَغْدُو مَانِحًا غَيْرَ تَارِكٍ	شماس المحامي ، مانعا غير حارم
عَطَارِدُ الْحَلْوِ الظَّرِيفِ مُسَالِمًا	وبهرام الشريير غير مسالم

لقد امتزجت براعة المعاني وسعة الخيال مع دقة التصوير ، وتناغمت كلها في إحياء هذه الصورة الأدبية فيحس قارئها بالراحة النفسية من خلال موسيقى الأبيات ، وتهتز نفس القارئ إجلالا لهذه المكارم ، والصفات . هذا المدوح امتاز بخمس خصال متناسقة متكاملة من جمال خِلقة وخلق فيه عطاء وجود وخفة حضور ونجدة ، وإغاثة الملهوف ، والرأي الصواب يعطي كل ذي حق حقه ، لين لأوليائه شديد قاس مع أعدائه ، يجلو ذكره لأوليائه ، ويغص بذكره الأعداء ، في العطاء والجود لا يجرم أحدا في السلم مثل كوكب عطارد القريب في الرخاء والفرح ، وفي الغضب لاشبيه له سوى كوكب المريخ في البعد .

تنوعت أساليب ابن الرومي وتعددت صورته التي مدح بها وإن كانت معانيه متقاربة - إن لم تكن واحدة - ومع هذا فإن صورته تأسرتنا ولا نملك إلا الإشادة بها إذ نقف معه في كل صورة على إحياء جديد وعرض مثير لقيمة معروفة ومكررة في مدائح ، انظر له يقول<sup>(٢)</sup> :

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٤٠-٤١ .

(٢) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

. وَحَاشَاهُمْ . مَا زَالَ لِلأَرْضِ زَلْزَالٌ  
فَلَوْ فُورِقُوا مَا فَارَقَ النَّاسَ بَلْبَالٌ  
وَلَكِنَّهُمْ بِالرَّفْقِ وَاللِّينِ أَبْطَالٌ  
وَإِنَّ طَوْلِبُوا بِالْحِلْمِ يَوْمًا فَأَجْبَالٌ  
مَلِيًّا بَأَنَّ يُجْبَى لَهُ الْحَمْدُ وَالْمَالُ

هُمْ جَبَلُ اللَّهِ الَّذِي لَوْ أزالَهُ  
وَهُمْ آمِنَاتُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ  
وَلَمْ يُخْلَقُوا أَبْطَالٌ عَسْفٍ وَشِدَّةٍ  
عَلَى أَنَّهُمْ جُودًا بِحَارٍ زَوَاخِرُ  
مَيَامِينٍ يُضْحِي مَنْ تَوَلَّوْا أُمُورَهُ

فهؤلاء القوم - في نظر الشاعر - وبالنسبة للناس تمتعوا بصفات وأخلاق تجعلهم كالجبال بالنسبة للأرض دعائم لا تستقر غيرها ، فكذلك الناس بغير هؤلاء القوم لاستقرار لهم ولادعامة ، إذ بهم يأمن الناس من المخاوف والمصائب ، ولولا وجودهم لم يفارق الناس الخوف والهلع ، وهم ليسوا أشداء متعسفين ، بل رفقاء لينين ، وكأني بابن الرومي يعرض هنا بفئة من الحكام والوزراء في عصره اتبعوا سياسة الشدة والتعسف ، دون تفريق بين الحق والباطل . ممتدوحوه في الجود بحار وفي الحلم جبال ، كرام ومن يواليهم يضمن الحمد والغنى لسعة جودهم وعظم أحلامهم . قريب من هذا قوله (١) :

شِيخَانُ صِدْقٍ وَللهِجَاءِ فِتْيَانُ  
وَهُمْ لَدَى الرَّوْعِ آسَادٌ وَجِنَانُ  
عَنْ ذِكْرِهَا وَأَيَادِي النَّاسِ أَحْدَانُ

لِلْحِلْمِ وَالرَّأْيِ فِيهِمْ حِينَ تَخْبِرُهُمْ  
جُودُ الْبِحَارِ ، وَأَحْلَامُ الْجِبَالِ لَهُمْ  
قَوْمٌ أَيَادِيهِمْ مَثْنَى بِصَفْحِهِمْ

ففي حلمهم وحكمتهم شيوخ لما عهد في الشيوخ من الحكمة وصواب الرأي لخبرتهم وهم في الحروب لبسالتهم وإقدامهم شبان شجعان ، هم في الجود بحار ، وفي الحلم جبال ، في الحروب ولدى الوقائع لاشبيه لهم سوى الأسود الضارية والجن الطائرة ، عطاياهم تتضاعف لأنهم يكتمونها ولا يتحدثون بها ، وهنا يشير لقيمة إسلامية حميدة وهي كتمان الصدقة ومالها من أجر وثواب .



ضياع القيم وفقدان الاستقرار نتيجة لاضطراب الأمور ، وتقلب الأحداث أدى إلى الاختلال في كل شيء وفقدت الحياة معناها ، كل هذا أوحى لابن الرومي أن يمتدح بتلك القيم الاجتماعية رغبة في إحيائها وبعثها من جديد في نفوس العباسيين يقول (١) :

لَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ  
عَلَى أَنَّكَ الْمُذَكِّي عَلَى كُلِّ خُطَّةٍ  
وَأَنَّكَ مَنْ سَاسَ الْأُمُورَ بِحِكْمَةٍ  
وَلَكِنَّكَ الْمَخْدُوعُ صَفْحًا وَنَائِلًا  
وَإِنَّ غِيظَتِ الْأَكْبَادِ حَتَّى تَصَدَّعَا  
تَضُمَّتْهَا قَلْبًا مِنَ الْجَمْرِ أَصْنَعَا  
فَمَارِيْمَ مَا أَحْمَى وَلَا ضَيْمَ مَارَعَى  
فَتَصَفَّحَ وَضَاحًا ، وَتَمَنَّحَ أَرُوعَا

يعلم ابن الرومي كما يعلم غيره أن المثل الأعلى لا بد أن يجوز على صفات وأخلاق يفضل بها غيره حتى يكون قدوة ، وممدوحه هنا في مقام المثل الأعلى لكل الناس وإن غيظ بعضهم ، ثم برر ذلك بأنه لم يصل لهذا المقام إلا لكونه تمتع بكمارم الأخلاق ، وامتناز عن غيره بفكر متقد وذكاء ثاقب ، كما أن رأيه وتصرفه حكيم ، لا يضام لديه أحد لأنه يعطي الأمور حقها ، لا يضيع لديه حق ، يصفح ويسامح المسيء حتى يدرك الخطأ فيرتدع عنه ، ويعطي الجزيل دون مطل ولامنة .

يقول في صورة بليغة :

لكنك المخدوع - صفحا ونائلا - مستشيرا سمع المخاطب حتى يعي

القيمة الممدوح بها .

يقول في مقام آخر ممتدحا بالعفة إضافة للجود والشجاعة (٢) :

نَظِيفِ السَّرِّ عَفًّا حِينَ يَخْلُو  
لَهُ خُلُقَانٍ مِنْ بَأْسٍ وَجُودٍ  
يَنَادِي بِاسْمِهِ غَيْثٌ وَلَيْثٌ  
جَمِيلِ الْجَهْرِ حُلُوًّا حِينَ يَبْدُو  
يَسُوسُ كِلَيْهِمَا الرَّأْيُ الْأَسَدُ  
هَزَبْرُ يَفْرِسُ الْقَصْرَاتِ وَرُدُّ

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

ففي البيت الأول يشير إلى أن الرقيب لابد أن يكون داخل الإنسان وهذا سينعكس على تصرفاته وأفعاله حتماً فمن حسن سره حسن جهره ، هذا الممدوح إضافة لعفته وعلو همته له خلقان يحسن بالمرء التحلي بهما وهما الجود والشجاعة الناتجة عن رأي صائب حتى تكون محمودة .  
وهو في هذين الخلقين يفوق الغيث والليث ، جوداً وشجاعة .  
معاني مكررة ومألوفة ولكن ابن الرومي يلبسها من الصياغة الفنية ما يجعلها متجددة .

"ابن الرومي شخصية عظيمة بالتجدد ، وذوقه عظيم الاستقلال ، وهو لهذا من الشعراء القليلين في العربية ، الذين جاءوا بمجديد حقا ، والذين أضافوا إلى ثروة تجاربنا الإنسانية عمقا أدبيا وأثرا فنيا" (١).

فهو حين يعبر عن قيم أخلاقية يدعو لها في مديحه ، لأنه آمن بها قيما كانت سائدة في المجتمع العربي ، ثم اندثرت وشهد في عصره تحلي الناس عنها ، فلم يجد بدا من إحيائها عن طريق الشعر والمديح بها ، يقول (٢):

مُتَسَرِّبِلٌ ثَوْبَ الشَّبَابِ وَلَمْ يَزَلْ	بِالْحَزْمِ فِيهِ وَالْوَقَارِ تَكَهَّلُ
فِيهِ إِذَا افْتَرَضَ الْبِدَارَ تَسْرَعُ	وَلَهُ إِذَا حُذِرَ الْعِثَارُ تَرَسَّلُ
حَمَّالٌ أَنْقَالٍ يَقُومُ بِحَمْلِهَا	كَالطَّوْدِ لَيْسَ بِجَانِبِيهِ تَخْلُجُلُ
هُوَ جَوْهَرٌ وَالنَّاسُ أَعْرَاضٌ وَهُمْ	يَتَبَدَّلُونَ وَلَيْسَ فِيهِ تَبَدُّلُ
وَتَرَى نَوَافِلَ مَا أَتَيْتَ فَرَائِضًا	وَالْفَرَضُ عِنْدَ بَنِي الزَّمَانِ تَنْفُلُ
مُتَغَافِلًا عَنْ ذِكْرِ مَا أَسَدَيْتَهُ	وَإِذَا وَعَدْتَ فَذَاكَرُ لَا تَغْفُلُ
مُتَوَاضِعًا أَبَدًا وَقَدَّرَكَ يَعْتَلِي	مُتَضَائِلًا أَبَدًا وَأَمْرُكَ يَعْجَلُ
فَقَتِ الْأَنَامَ صَنِيعَةً وَصَنَائِعًا	لَا زِلْتَ تَسْتَعْلِي وَقِرْنُكَ يَسْفُلُ

(١) د. محمد النويهي ، ثقافة الناقد الأدبي ، ط/ثانية ١٩٦٩م ، بيروت ، ص ٢٦٣ .

(٢) الديوان ، ج ٥ ، ص ٢٥٣-٢٥٥ .

هذا الممدوح فيه حكمة الشيوخ ووقارهم ، مع أنه شاب ، فهو رجل مواقف يحمل الثقل ويفك الأسرى ، وهو في كل ذلك كالجبل الضخم ، هو كالجوهر والناس كالأشكال لأنه لا يتغير ، ولا يتبدل ، إذا كان من صفات الناس التبدل والتحول ، وهو يعمل الصنعة ويقدم المعروف ، ويرى أنها فرض عليه ، ينسى ذكرها ولكنه لا ينسى وعده بالعطاء ، وهذان البيتان في صميم ماننشد عن إنسان عصر ابن الرومي ، وقد وعى شاعرنا جوهر ذلك الإنسان وعرض هذه الحقيقة في إطار فني مناسب ، فهذا الممدوح على عظم شأنه وعلو قدره ، متواضع وتواضعه هذا لا يزي به ، بل يعليه ويرفع من قدره ، فقد فاق أقرانه في الخلق والأخلاق ، فلامجال للمقارنة بينه وبينهم .

حوت هذه الصورة من المعاني الإسلامية الكثير منها : صدقه السر في قوله "متغافلا عن ذكر مأسديته" ، ومنها الوفاء بالوعد "وإذا وعدت فذاكر" والتواضع ، كل هذه الفضائل دعت لها شريعة الإسلام وأرشد لها كتاب الله العزيز وحثت عليها السنة الشريفة في غير ماموضع .

عرف الناس الوشم في عصر ابن الرومي لكن أي ناس هم الذين عرفوه!! حاول الشاعر أن يظهر لنا صورة تدل على الوشم وجماله ، فأظهر ذلك من خلال مديحه الذي يقول فيه<sup>(١)</sup>:

فَتَى حَسَنَتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ	فَأَضَحَتْ بِهَا أَيْدِي الْكَوَاعِبِ تَوْشَمُ
فَتَى كَمَلَتْ فِيهِ الْفَضَائِلُ كُلُّهَا	هَنِئِنَّا لَهُ الْحِظُّ الْوَفَاءُ الْمُتَمَّمُ
فَلَا خَلَّةٌ مِنْهَا أَضْرَّتْ بِخُلَّتِي	عَلَى أَنَّهُ فِي كُلِّهَا مُتَقَسَّمُ
حَلِيمٌ ، إِذَا مَا الْحِلْمُ أَحْمَدُ غَبَّهْ	وَأَدَّى إِلَى الْعُقْبَى الَّتِي هِيَ أَسْلَمُ
جَهُولٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ جَهْلُ نِكَايَةٍ	يَدَاوِي بِهِ جَهْلُ الْجَهُولِ فَيَحْسَمُ
عَفْوٌ ، إِذَا مَا الذَّنْبُ لَمْ يَعُدْ حَدَّهُ	إِلَى الْوَتْرِ تَبَاعٌ قَفَا الْوَتْرِ أَرْقَمُ

هذا الممدوح حسن الصفات والأخلاق مشهور بها ، فكان هذه الأخلاق لجمالها وشهرتها وشم تحلي به الفتيات كغوفهن .

وكعادة شاعرنا يقلب المعنى على كل وجه فهامو يعيد نفس المعنى السابق ولكن في صورة جديدة وبألفاظ لها إيجاؤها الخاص يقول :

فَتَى حَسَنَتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ فَأَضَحَّتْ وَشُومًا فِي بَطُونِ الْمَعَاصِمِ

ولكنه زاد على هذا المعنى معنى آخر يزيده قوة ويكون له أثره في النفس فقال :

وَلَوْ وَسَمَ النَّاسُ الْجِبَاهَ بِمَدْحِهِ إِذَا لَأَسْتَلَذَّ النَّاسُ لَذَعَ الْمِيَّاسِمِ

ومن الذى يطبق لذع النار - أو ماتوسم به الماشية - حتى يستلذه ولكن مبالغة الشاعر وحرصه على إظهار تلك المعاني بالمظهر الذى يرى أنه ملائم جعله ينطق بهذه الصورة ، فهذا الممدوح لعظم مكارمه وصفاته ، اجتمعت في شخصه كل الفضائل والخلال بحيث لا يطفى جانب منها على الآخر ، فكلها متوازنة .

كذلك رأى ابن الرومي أن صفة الحلم والعتو بدأت تندثر في عصره فحاول تصويرها وتجسيدها لممدوحه حتى يلفت نظر معاصريه لها ويرغبهم في التحلي بها ، فهذا عصر مليء بالعنف والقسوة والبطش ، الأحكام فيه جائرة ومتسرة ، نادرا ما نجد الإنسان الحليم المتروي الذى يزن الأمور بميزان العقل والحكمة ، ولكن ابن الرومي يعود للاحتراز فيؤكد أن هذه الصفة مطلوبة دون إسراف أو ضعف يُطمع السفهاء في الممدوح بل هو رجل موافق يعرف متى يكون العفو والحلم في مكانه ولكن إذا جهل عليه يقابل الجهل بجهل أعظم ، يعفو عن المخطيء إذا لم يتعد الأخذ بالثأر .

كثيرا ما خلط الناس بين كرم العطاء وكرم الطبع والأخلاق وفي أحيان كثيرة يكون كرم الخلق والمعاملة هما الكرم الحقيقي ، إذ التهلل والبشاشة في وجه الضيف يكون لها الأثر النفسي العظيم ، فقد يكتفي السائل باستقبال حافل وبشاشة صادقة . وقد لحظ شاعرنا هذه الصفة ومالها من عظيم الأثر في نفس الضيف فمدح بها حين قال (١) :

فِيهِ بَشَاشَةٌ وَصَالٍ وَرَوْنَقُهُ  
 وَزَيْرُ سَلْمٍ وَحَرْبٍ لَأَكْفَاءَ لَهُ  
 إِذَا ارْتَأَى الرَّأْيَ فِي خُطْبٍ أُتِيحَ لَهُ  
 فَلَمْ يَهْمُ بَيْنَ انْكَارٍ وَمَعْرِفَةٍ  
 كَمْ اشْتَرَى بَكْرَى عَيْنِيٍّ مِنْ سَهْرٍ

قمة الكرم في رؤية ابن الرومي الاستقبال الحافل والبشاشة في وجه الضيف ، وهذا الممدوح يهش لضيوفه ويبش في وجوههم ولكنه في الحرب لا يعرف تلك البشاشة بل يعرف الشدة والتجهم ، يجمع بين سداد الرمي بالرمح وسداد الكتابة بالأقلام فهو ذو فكر ورأي سديد ، بل هو كذلك صاحب علم ومعرفة وإقدام وبسالة في الأمور كلها ، جمع مقومات الرجولة وأسباب السيادة التي جعلت منه حاكما وقائدا بارع الأوصاف حميد الخصال وهذا الممدوح مع كل هذه الصفات له صفة خاصة بالعظماء الذين امتازوا عن الغير بها وهي طاعة الله وذلك من خلال عمل يفوق كل الأعمال وهو قيام الليل . حين ينام الناس وينعمون بالفراش الوثير يقوم هو عابدا لله في ظلمات الليل ، وهو لا يتبع نفسه هواها فكم باع من ملذات وهوى ابتغاء رضوان الله .

قريب من هذا المعنى قوله يمدح قائدا من قواد العصر العباسي مضافاً عليه من صفات القادة والعظماء ما يتمنى المرء لو وجدت في شخصه حين يقول<sup>(١)</sup>:

فَتَى هَاجَرَ الدُّنْيَا وَحَرَّمَ رِيْقَهَا      وَهَلْ رِيْقُهَا إِلَّا الرَّحِيقُ الْمَوْرَدُ؟  
 أَبَاهَا ، وَقَدْ عَنَّتْ لَهُ مِنْ بَنَاتِهَا      كَوَاعِبُ يُصِيبِينَ الْحَلِيمَ ، وَنُهْدُ

أتى بالمعنى مجملا في الشطر الأول ، ثم فصله حين بين أن هذا الريق هو الخمر فهو يمدح هنا كبرياء الرجل وعزته ومن ثم ترفعه عن اللذات

والتهالك عليها ، ومع أن الدنيا لم تتركه فقد تعرض عليه صوراً تغرى<sup>١</sup> وتسلب اللب وتستغوي غيره إلا أن ترفعه عن تلك الملذات جعلت منه إنساناً مثلاً في القيادة والعظمة .

وفي الصورة السابقة عرض لنا ابن الرومي قيمة أخلاقية محمودة ولكن بطريقة فنان يعرض الأشياء متلبسة بلباس الزينة التي تثير الأذواق وتجذب الانتباه في صورة خيالية تجعلنا نقف أمام هذه الصورة معجبين بها وبطريقة عرضها - القيمة الفنية - .

من الناس من يأسرنا بحسن حديثه ، إذ نجد لكلامه وقعا خاصا في أنفسنا ، وقد نحن للحديث معه في مواضع شتى وأمور مختلفة .

وابن الرومي يعي هذه الحقيقة فيمدح بها ولكنه يختار من الناس من هو أهل لهذه الصفة فرأى أن هناك من جمع بين صفات الخير وفضائل الأخلاق مع رفعة مكانه وعظيم سلطانه حين قال<sup>(١)</sup>:

مَلِكٌ حَلَا مَخْبُورُهُ وَرِوَاؤُهُ	فَحَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ وَالْأَفْوَاهِ
عَذْبُ اللِّسَانِ وَلَنْ تَرَاهُ كَلِيلُهُ	عَضْبُ اللِّسَانِ وَلَيْسَ بِالْعَضَاءِ <sup>(٢)</sup>
نَاهِيكَ مِنْ صَمْتٍ بِلَاعِيٍّ بِهِ	وَكَفَاكَ مِنْ لَسَنِ بَغِيْرٍ سَفَاهِ
مُتَقِظٌ أَبَدًا لِفَعْلٍ كَرِيْمَةٍ	وَعَلَى الطَّلَابِ لَشُكْرِهِامُتْسَاهِي
مَلَكْتُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ	فَكَأَنَّهُ سَاهٍ وَلَيْسَ بِسَاهِي
عَفَا وَعَامَلَ بِالْأَنَاةِ عَدُوَّهُ	فَكَأَنَّهُ لَاهٍ وَلَيْسَ بِلَاهِي
مَا زَالَ يُؤْنِسُهُ جَمِيلُ فِعَالِهِ	قَدَمًا وَيُوحِشُهُ مِنَ الْأَشْبَاهِ <sup>(٣)</sup>

فهذا ممدوح ذو حديث عذب لا يميل قد جمع بين حسن المظهر والمخير أرهفت له الأسماع ، وسهل ذكره وجرى على الأفواه لأنه متحر للصدق لا يكذب ، ولا يئم ، صمته إن صمت عن حكمة لاعبي ، وحديثه إن تحدث عن بلاغة لاسفاهة .

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٣٥٢-٣٥٣ .

(٢) العَضَاءُ : الكذاب والنمام والساحر ، ومنه (العَضِيْرَةُ) : أي البستان والزور .

(٣) يُوحِشُهُ : يُفْرَهُ . أي أفضاله يجعله وحيداً بين أبناء جنسه .

وقد طرق هذا المعنى من قبل حين قال<sup>(١)</sup> :  
 صَمُوتٌ بِلَاعِيٍّ ، لَهُ مِنْ بَلَائِهِ نَوَاطِقُ تَسْتَدْعِي الرَّجَاءَ وَتَزَادُ  
 هذا الممدوح يعمل الخير ولا يطلب عليه الشكر ، ذو سكينه غير  
 متعجل في الأمور وليس بالساهي الغافل ، وكذلك له أناة وحلم حتى يظن  
 من يراه أنه لاه وليس باللاهي ولكنه يجعل لكل موقف حقه الذي يستحق ،  
 أفعاله تجعله وحيدا بين أبناء جنسه لطيب أخلاقه وتفرد صفاته .  
 "الإعجاب بالفضيلة وبمن يتحلى بها والمشاركة الفعالة في تكييف المعاني  
 وبلورة المثل العليا ، والدعوة الصريحة إلى الالتزام بها واعتناقها ، وتوجيه  
 الإنسان العربي نحو التقيد بهذه القيم في أخلاقه وتصرفاته ، وعلاقاته  
 وارتباطاته ، هذه الصورة كانت هدفاً أساسياً في إصلاح المجتمع"<sup>(٢)</sup> .  
 وقد طرق ابن الرومي هذه الوسيلة حين مدح بصفات مندثرة وهو  
 يحاول بعثها ونشرها بين الناس من ذلك قوله<sup>(٣)</sup> :

فَلَيْسَتْ بِالسَّمَارِ وَلَا الشَّهَابِ	فَتَى صَرَحَتْ خَلَائِقُهُ قَدِيمًا
وَلَكِنْ هُنَّ مِنْ أَرِيٍّ وَصَابِ	وَلَمْ يُخْلَقَنَّ مِنْ أَرِيٍّ جَمِيعًا
وَكَانَا مَا جَدِينِ بِنِي انْتِشَابِ	وَمَا مِنْ كَانَ ذَا خُلُقَيْنِ شَتَّى
كَذَبَ النَّحْلُ عَنِ عَسَلِ اللَّصَابِ	لَهُ حِلْمٌ يَذَّبُ الْجَهْلَ عَنْهُ
وَيَخْشَنُ لِلْمُخَاشِنِ ذِي الشَّغَابِ	يَلِينُ مَلَايِنًا لِمَلَايِنِيهِ
وَيَأْبَى الْكُسْرَ مِنْ عَطْفِيهِ أَبِ	كَخَوْطِ الْخَيْرَانِ يُرِيكَ لِينًا

فهذا الممدوح سيد في قومه ، إذا ذكر اسمه انتهت إليه الفضائل ،  
 ووقفت المكارم عليه ، لشمائله الخالصة من الرياء ، وأخلاقه الصريحة ، التي  
 لم تمسها شائبة فهي ليست سهلة لينة ، أو سائغة عذبة ، ولكنها حلوة  
 للخلان والأصدقاء ، مرة على الأعداء والخصوم ، ولا يدل التقاء المتناقضين

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٢) د. نوري حمودي القيسي ، الأديب والالتزام ، دار الحرية ، بغداد ١٤٠٠ هـ ، ص ٨٢ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

عنده من المرارة والحلاوة على اختلاط في النسب ولكن عن قدرة وكفاية ، فهو لا يتصف بالحلم الدائم الذي يطمع السفهاء من الناس فيه ، بل إن حلمه كما يغري بالطمع يدفع عنه السفه ، كالنحل الذي يذب العشاق لعسله عن خلاياه في الوادي .

هذه الصورة تفيض بالسيادة والشرف ، والشمائل الصريحة ، والخلق الخالص ، والهيبة النابعة من نفس اشتملت على الحلاوة والمرارة ، والحلم المحمود الذي يجمع بين الرغبة والرغبة<sup>(١)</sup> قريب من هذا قوله :

فَتَى نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنِ التَّقْبِيحِ وَالْقُبْحِ

فالإنسان عندما يحسن خلقه يترفع عن القبيح والسيء من الأعمال لانه يرى أن من غير اللائق أن يلحق بخلقته ما يشينها ، وهذه دعوة صريحة من ابن الرومي للتخلي بفضائل الأخلاق وحميد الصفات .

أن تجتمع الفضائل كلها في شخص ما فهذا حسن وأن يكون الدين أول الفضائل فهو الأحسن هكذا يقول ابن الرومي في مديحه التالي<sup>(٢)</sup>:

فَتَى ، وَإِنْ كَانَ كَهَلًا فِي جَلَالَتِهِ  
كَهْلٌ ، وَإِنْ كَانَ غَضًا غَضُّهُ خَصْلًا  
مَاظَنَّ يَوْمًا بِهِ إِتْيَانُ سَيِّئَةٍ  
حَقَّتْ ، وَلَاظَنَّ فِيهِ صَالِحٌ بَطْلًا  
وَمَارَجَا فَضْلَهُ رَاجٍ فَأَخْلَفَهُ  
وَلَا تَمْنَاهُ إِلَّا قَالَ : قَدْ حَصَلَا  
إِذَا التَّقَى سَيِّئُهُ وَالطَّالِبُونَ لَهُ  
لَا قُوَّةَ بَحْرًا ، وَلَا فَيْئَ شُكْرُهُمْ وَشَلَا

فممدوحه شاب لازال في ريعان شبابه ولكن له هبة الشيوخ وحكمتهم ، مترفع عن كل شائنة لا يفسد الصالح من أعماله كغيره من الشباب الذين يخلطون الصالح بالفساد ، هو أهل لكل مكرمة لا يخلف الوعد ولا يماطل بالعطاء ، يعطي من يرجوه ويفي بعهده ، عطاؤه كالبحر ، ولكن شكر سائله مقابل عطاءه لا يعد شيئاً .

(١) الصورة الأدبية في شعر ابن الرومي ص ٦٥٤-٦٥٥ .

(٢) الديوان ، ج ٥ ، ص ١١٠ .



من الصور الفريدة في مديح شاعرنا قوله (١):

لَاتَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى شِبْهِهِ	لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ
وَتَذَعُرُ الْأَحْدَاثُ عَنْ نَهْجِهِ	تَسْتَضْحِكُ الْأَمَالُ عَنْ بَشْرِهِ
مَتَى تُغَازِلُ غَيْرَهُ تُلْهِهِ	لَمْ تُلْهِهِ عَنْ سُؤْدِدِ لَذَّةٍ
يَغِيبُ بِالْبَرِّ عَلَى كُرْهِهِ	أَكْثَرَ شَكْوَى ضَيْفِهِ أَنَّهُ

بدأ صورته بأسلوب المديح الذي يشبه الذم حين نفى عنه العيوب ثم احترز بقوله - سوى أنه - ولكن العيب الذي فيه أن لا مثيل له فقد تفرد بأعماله وأخلاقه ثم عمد لأسلوب الاستعارة فجعل الآمال تضحك والأحداث تذعر ليسند لمدوحه من عظيم الخصال وحميد الصفات ما يفوق بها غيره . فهو رجل همته في تعال لا يتلهى عن المجد حين يتلهى سواه ، ومهما عرضت عليه اللذات والملاهي لا يلتفت لها بينما غيره بمجرد أن تعن له اللذة سرعان ما ينغمس فيها ضاربا عن المجد والسؤدد .

هذا الممدوح كريم جواد لا يشتكي ضيفه سوى إجباره له على البر به وإكرامه ، وهذا منتهى الكرم والجود .

أن يمدح ابن الرومي إنساناً بالكرم أو البأس أو رجاحة العقل فهذا أمر معهود توارثه الشعراء كإبراهيم عن كابر ، ولكن أن يأتي بالصفات التي تولدت عن تطور المجتمع فيسبغها على ممدوحه فهذا هو الجديد . وقد التفت شاعرنا لصفات قلما يمدح بها الشعراء فصاغها في ألفاظ مناسبة ودلالة خاصة ، من تلك المعاني والقيم "قيمة العلم" يقول في ذلك (٢):

أَيُّهَا الْحَاكِمُ الَّذِي إِنْ نَقَلَ فِيهِ	١	لَهُ نَقْلٌ مُكْتَرًا وَمُطِيبًا
وَالَّذِي لَا يَخَافُ مَادِحَهُ الْإِثْمَ	٢	مَ لَدَى مَدْحِهِ وَلَا التَّكْذِيبَا
وَالَّذِي لَمْ يَزَلْ يَجَارِي ذَوِي	٣	الْفَضْلِ فَيَسْتَتَبِعُ الثَّنَاءَ جَنِيبَا
يَمَلَأُ الْقَلْبَ صَامِتًا وَتَرَاهُ		يَمَلَأُ الصَّدْرَ سَائِلًا وَمُجِيبَا

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٣٥٦ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

٢ . . . عَلَ أَعْيَا ، أَوْ قَالَ قَالَ مُصِيبًا  
 ٣ . . . يَتْلُو الْعَقِيبُ مِنْهَا الْعَقِيبَا  
 زَائِدًا كُلَّ رَاغِبٍ تَرغِيْبًا  
 ٢ . . . إِنْ قَضَى طَبَقَ الْمَفَاصِلَ ، أَوْسَا  
 ٣ . . . مَالِكٌ بَعْدَ مَالِكٍ ، وَكَذَا الْأَنْجُمُ  
 كُلُّ يَوْمٍ يُعَلِّمُ النَّاسَ عِلْمًا

لقد امتزجت براعة المعاني وسعة الخيال ودقة التصوير ، وتناغمت كلها في إيجاء هذه الصورة الأدبية ، مما يشعرنا براحة نفسية عظيمة نحسها من خلال موسيقى هذه الأبيات ، ونشعر معها بالعظمة ، فهذا الممدوح يحسن القول فيه لأنه أهل للمديح ، لمجاراته ذوي الفضل فالثناء عليه كثير وقور في صمته ، عظيم في كلامه ، إذا حكم عدل ، وإذا أفتى قال الحق لا يجيد عنه ، في صفاته هذه لأشبيه له سوى الإمام مالك ، فهو في العلم والفقہ والعدل مثله والعلماء بين الناس كالنجوم في السماء يهتدي بها الناس ليلاً في كل يوم لهذا الحاكم علم يعلمه الناس ولا يكتمه مما يزيد الناس ترغيباً في العلم والفقہ .. وهذه فضيلة العلم إذا أحسن صاحبها استخدامها .

وفي هذا يقول مشيداً بفضيلة العلم ومادحا بها أحد أبناء عصره (١):  
 وَلَسْتَ تَلَاقِي عَالِمًا ذَا بَرَاةٍ . . . بِأَبْرَعٍ مِنْهُ فِي الْعُلُومِ وَأَرْسَخَا  
 فهذا ممدوح فاق أقرانه في العلوم حتى لا يوجد له مثيل وليس في عصره من هو أبرع منه في العلم ، وليس علمه مؤقتاً ، بل راسخ ثابت يعي ما يتعلم .

كان العصر العباسي مزيجاً من الترف والبؤس ، والسعة والضيق ، والمروءات والحساسات ، كما كان عصر تقلب وقسوة ، وقلة وفاء بالإضافة لكونه عصر التدين والانحلال ، والمعنى أنه كان عصر الإسراف في كل شيء وقد وجه شاعرنا نظره نحو الدين ومن يتصف بالتدين ، فرأى أن صورة الإنسان التقى البر المتدين صارت شحيحة بل نادرة ، على الرغم من كثرة المتظاهرين بالدين إلا أن الحقيقة كانت عكس ذلك فنادر ما يكون الباطن

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

موافقا للظاهر ، نتيجة لكثرة الملل والطوائف في ذلك العصر ، ولكن كعادة ابن الرومي يتمدح بالقيمة رغبة منه في لفت الأنظار لها والتمسك بها يقول<sup>(١)</sup>:

وَمَا فَاتَهُ فِي الصَّوْمِ فِطْرٌ لِأَنَّهُ      مَدَارِسُ عِلْمٍ ، وَالذَّرَاسُ غِذَاءُ  
وَلَا فَاتَهُ فِي الْفِطْرِ صَوْمٌ لِأَنَّهُ      مُوَاصِلُ صَوْمٍ عَقَّبَتْهُ سَوَاءُ

فهذا الممدوح وقته بين الصيام والعلم ، وصومه بذلك موصول لأن أيامه ولياليه بين هاتين الفضيلتين : الصوم ومدارسة العلم ، فقد جعل مدارسة العلم عبادة بمنزلة الصيام ، وبهذا يكون صومه متصلا وعاقبة كل من الصيام وطلب العلم واحدة ، إذ تؤدي إلى تربية النفس والتحلي بكريم الخصال وعظيم الصفات .

ومن الصور التي صور فيها ابن الرومي الإنسان المتدين تصويرا بارعا قويا ، أضحى عليها لمسات عبقرية ، ورسم إنسانا خلّاق قوله<sup>(٢)</sup>:

وَذُو طَاعَةٍ لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ      وَمَعْصِيَةٍ لِلنَّفْسِ عِنْدَ عُنُودِهَا  
صَدُوعٌ بِأَحْكَامِ الْكِتَابِ مُعَوِّدٌ      عَزَائِمَهُ التَّوْقِيفَ عِنْدَ حُدُودِهَا  
أَتَانَا وَدُنْيَانَا عَجُوزٌ فَأَصْبَحْتُ      بِهِ نَاهِدًا فِي عُنْفُونِ نُهُودِهَا

فهذه صورة إنسان متدين قوي بالحق ، مطيع لله ، لا يتبع هوى نفسه لاتأخذه في الحق لومة لائم ، لعلمه بالحدود وإقامة أمور الدين لا يتعدى حدود الله ، صلحت به أمور كثيرة حتى باتت الدنيا بوجوده كأنها صبية حسنة ، لما فيه من أخلاق كريمة وصفات حسنة تبهج الذين حوله وتجعله قدوة لغيره .

في صور أخرى يعتمد ابن الرومي على عنصر التشبيه فيشبه ممدوحه في النسك والعبادة بشهر رمضان ، ثم يشبه عطاءه وجوده بشهر الفطر ،

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

وهذه ميزة أخرى لابن الرومي وهي ملاحظة الصلات بين الأشياء ، ومن ثم الربط بينها بدقة وبراعة يقول (١) :

ذَهَبَ الصَّوْمُ وَهُوَ يَحْكِيكَ نُسْكَاً      وَأَتَى الْفِطْرُ وَهُوَ يَحْكِيكَ جُوداً

في محاولة من ابن الرومي لإظهار ممدوحه في مظهر الرجل المتدين الذي لا يغفل عن أمر دينه ودنياه ، ركن إلى تشبيه رأي فيه الجودة إذ ليس هناك شهر يفوق شهر رمضان عبادة ، وتقرباً إلى الله بالطاعات ، فجعل من ممدوحه لكثرة عبادته وإخباته فضل شهر رمضان على بقية الشهور في الدين ، وجعله في الجود والعطاء ، وما يترك بذله وسخاءه في نفوس السائلين من فرح وغبطة ، فضل عيد الفطر لما عرف عن أيام الفطر من فرح وبهجة .

ثم يستخدم التشبيه المقلوب مؤدياً نفس المعنى إذ يقول (٢) :

أَقْبَلَ الْفِطْرُ وَهُوَ يَحْكِيكَ جُوداً      مُطْعِماً ، مُطْلِعاً عَلَيْكَ سَعُوداً

وهنا يشبه أيام الفطر في الفرح والبهجة وألوان الطعام بعد الصيام بالممدوح في العطاء والبذل دون حساب ولامنة .

ثم يعود ثانية ويمدح بنفس الفضائل السابقة ولكن في صورة جديدة فيقول (٣) :

جَاءَ شَهْرٌ تُحِبُّهُ يَا بَنَ يَحْيَى	لَا لِمَا فِيهِ مِنْ سَجَايَا الْمَنُوعِ
بَلْ لِمَا فِيهِ مِنْ وَفَاقِكَ فِيمَا	يَصْحَبُ الدِّينَ مِنْ تَقَىٍّ وَخُشُوعِ
وَصَلَاةٍ تُقِيمُهَا كُلُّ إِنِّي	مِنْ سُجُودٍ تُطِيلُهُ وَرُكُوعِ
وَعَفَافٍ فِي الْقَلْبِ وَالطَّرْفِ	وَالْأَطْرَافِ عَنِ كُلِّ مُحْرَمٍ مَمْنُوعِ
رَهْبَةٍ لِلَّهِ بَلْ رَغْبَةٍ مِنْكَ	بِقَدْرِ عَنِ الْخَنَا مُرْفُوعِ

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

فقد لحظ الشاعر أن هناك وجوه شبه بين الممدوح وشهر رمضان من تقى ، خشوع ، وطاعات من نوافل ، وصلاة وعفاف عن المحرمات رهبة للخالق ، ورغبة من الممدوح في الترفع عن الدنيا والخطايا ، وهذا الشهر يجبه الممدوح ليس لما فيه من سجايا المنوع ، أي الامتناع عن الأكل والشرب والملذات ، بل لأن فيه خلال توافق خلال هذا الممدوح ولا يخفى علينا في هذا المقام أن ابن الرومي يمتدح بقيم إسلامية ، يتمنى بعثها ونشرها في أوساط مجتمعة قد لا تكون هذه القيمة موجودة في ممدوحه ولكنه يمدح بها ترغيباً فيها وبعثاً لها في نفوس الناس .

"طبيعة المجتمع العباسي أفسحت المجال لكل التيارات ، واستطاع أن يستوعب المجون ، والزهد في وقت واحد ، فقد عم المجتمع العباسي - كما نعلم - ثراء فاحش يتيح الاستمتاع بكل الملذات ، وفي الجانب المقابل فقر مدقع وفئات مغلوبة على أمرها فكان طبيعياً أن تنشأ في هذه الأوساط نزعة إلى الزهد ، يفرضها الواقع نفسه من جهة ، وتكون بمثابة صوت احتجاج سلبي على ما أصاب أهلها المترفين من الخلال خلقي"<sup>(١)</sup> واجتماعي ، ولم يغفل ابن الرومي هذا الجانب في شعره فهاهو يصف لنا جماعة من الزاهدين في صورة تنطق بالجمال حيث يقول<sup>(٢)</sup>:

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ	عَنْ وَطِيءِ الْمَضَاجِعِ
كُلَّهُمْ بَيْنَ خَائِفِي	مُسْتَجِيرِ وَطَامِعِ
تَرَكُوا لَذَّةَ الْكَرَى	لِلْعُيُونِ الْهَوَاجِعِ
وَرَعُوا أَنْجُمَ الدُّجَى	طَالِعاً بَعْدَ طَالِعِ
لَوْ تَرَاهُمْ إِذَا هُمْ	خَطَرُوا بِالْأَصَابِعِ
وَإِذَا هُمْ تَأَوَّهُوا	عِنْدَ مَرِّ الْقَوَارِعِ

(١) عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي الرؤية والفن ص ٢٩٩ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

بِالْخُدُودِ الضَّوَارِعِ  
فَائِضَاتِ الْمَدَامِعِ

وَإِذَا بَاشَرُوا الثَّرَى  
وَاسْتَهَلَّتْ عَيُونُهُمْ

يقول الأستاذ روفون جيست : "الأمر الذي يثير بعض الدهشة أن نجد ابن الرومي من المعجبين بالزهد ، ولكن ربما كانت تجذبه الأعمال التي وراء قدرته ، فيذكر الزهاد كثيرا في إعجاب ، مؤكدا إخلاصهم ومخاوفهم في صلواتهم طلبا للمغفرة والخلص ..."(١).

بينما نقول نحن: أن ابن الرومي عندما يعجب بالزهد ويصور حال الزهاد إنما يذكر بقيمة إسلامية ، موجودة ولكنه يعرضها بطريقة فنية جديدة عن طريق الإيحاء ، وهذا الإيحاء وتلك الدلالات تفصح عن الروح الإسلامية عند شاعرنا .

وأهم ما استوقفنا في هذه الصورة خلوها من التكلف ، فهي سهلة المأخذ والمأثي ، تنساب في عذوبة ، أتت ألفاظ هذه الصورة وتراكيبها موافقة للمشاعر الإيمانية ، ففيها جاذبية وبساطة تمثل الروح والقيم الإسلامية. ليس مهما أن يقرر ابن الرومي في مدائحه واقعا لمسه ولكن من الجائز أن يصبو لواقع يتمناه ، فيعمد للقيمة ويجسدها لممدوحه ، ترغيبا فيها ، ومن تلك القيم - كما مضى - القيم أو المعاني الإسلامية من ذلك قوله (٢):

تَتَحَسَّرُ الْأَيَّامُ عَنْكَ وَكُلُّهَا	يَشْكُو فِرَاقَكَ آسِفًا مَفْجُوعًا
رَحَلَ الصَّيَّامُ وَشَهْرُهُ وَكِلَاهُمَا	لَهَجَ بِذِكْرِكَ مَا يَفِيْقُ نَزُوعًا
أَقْسَمْتُ بِالشَّهْرِ الَّذِي أَخْضَلْتَهُ	بِالْجُودِ وَالتَّقْوَى نَدَى وَدُمُوعًا
لِلْبَسْتَةِ لُبْسًا أَطَابَ نَسِيمَهُ	يَا بَنَ الْأَطْيَابِ مَحْتِدًا وَفُرُوعًا
وَخَلَعْتَهُ خَلَعَ العَرُوسِ شِعَارَهَا	قَدْ رَدَعْتَهُ مِنَ العَبِيرِ رُدُوعًا

(١) روفون جيست ، ابن الرومي حياته وشعره ، ترجمة د. حسين نصار ، دار الثقافة بيروت ، ص ٧٤ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

وَرَفَدَتْ فِيهِ كُلَّ أَشْعَثِ بَائِسٍ  
أَحْيَيْتَ فِي الشَّهْرِ الْمُبَارِكِ لَيْلَهُ  
بِيدٍ إِذَا قَسَتْ الْأَنَامِلُ فَجَرَّتْ  
مَازَالَ عَن طَلْبَاتِهِ مَدْفُوعًا  
وَفَقِيرَهُ وَقَتَلْتَ عَنْهُ الْجُوعَا  
مِن كُلِّ أُنْمَلَةٍ لَهَا يَنْبُوعَا

لطيب أخلاق هذا الممدوح وجوده طابت به الأيام حتى عز عليها فراقه حتى شهر رمضان رحل بعد أن عمره هذا الممدوح بالأعمال الصالحة من تقوى وصلاح ، وكان الشهر إنسان يليسه هذا الممدوح من التقوى والأعمال الصالحة ثابا طيبة كما يمتدح أصله ونسبه العريق في الصلاح والتقى .

وحين انتهى شهر الصيام شبه بدثار العروس الطيب الرائحة ، فالأعمال الطيبة التي قدمها الممدوح في هذا الشهر كالعطر الذي وشح به دثار العروس ، وقد أحسن هذا الممدوح في شهر الخير إلى كل محروم بئس وأحيا ليل هذا الشهر بالذكر والدعاء ، فقد أحسن إلى الفقراء بقتل الجوع بالعطايا والهبات التي كان يسبغها على الفقراء حتى عد ذلك حياة لهم ، وهو في سخائه يفوق معظم الأغنياء الذين يجمعون الأموال ويبخلون بها على الفقراء والمحتاجين بينما ينفقها هو حتى عدت يده في ذلك ينابيع .

ثم يستعين ابن الرومي بالتشبيه حرصا منه على إظهار المعنى بصورة لائقة بمقام المديح ، حين يقول (١) :

ذَهَبَ الَّذِي كَانَ الصَّيَامَ شِعَارَهُ  
فَكَأَنَّهُ رَمَضَانُ فِي إِخْبَاتِهِ  
ذَهَبَ الَّذِي مَا كَانَ يَمْتَلُّ وَعَدَهُ  
مَلِكٌ تَنَافَسَتْ الْعُلَا فِي عُمَرِهِ  
أَسَدٌ مَضْرُؤٌ وَتَخَلَّفَتْ أَشْبَالُهُ  
يَازِينَةَ الدُّنْيَا وَزِينَةَ أَهْلِهَا  
وَلِضَيْفِهِ الْإِنْزَالُ وَالْآكَالُ  
وَكَأَنَّهُ فِي جُودِهِ شَوَالُ  
وَلَهُ إِذَا جَارَى السَّمَاحَ مِطَالُ  
وَتَنَافَسَتْ فِي يَوْمِهِ الْأَجَالُ  
وَعَلِيٌّ أَنْ تَسْتَأْسِدَ الْأَشْبَالُ  
وَتَمَالٍ مَنَ أَعْيَا عَلَيْهِ ثَمَالُ

(١) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٤٦-١٤٧ .

هذا رثاء في مقام المدح حيث ينعي الشاعر مرثية ، ولكنه يمدحه بصفات وأخلاق تمجد ذكره فإن كان ذهب هذا الممدوح فمكارمه ومحامده لاتزال تذكر به ، فقد كان صواماً قواماً ، كان يبخل على نفسه ليكرم ضيفه فلامثال له في التقى والصلاح إلا شهر رمضان ، وكذلك لامثال لجوده وكرمه إلا شهر شوال ، هذا الممدوح شهر بالحلم والتروي فقد كان لايتسرع في العقاب ، بل كان يصفح سريعاً فريد في حياته وكذلك فريد في مماته . ثم شبه هذا الممدوح بالأسد الرئبال ، وبنوه كالأشبال ، طبعي أن تصبح الأشبال أسوداً وهذا الممدوح بالنسبة للعالم والناس زينة وبهجة . والعبرة هنا ليست بعناصر الصورة مجتمعة ، بل الأثر الذي تركه في نفوسنا وجمال الصورة في النص السابق ، نابع من اعتماد الشاعر على التشبيه والاستعارة .

يتبع هذه الصورة ، صورة أخرى يمدح فيها ابن الرومي في مقام الرثاء وهي الصورة التي رثى فيها والدته فأسبغ لها من الصفات والفضائل مافاقت به غيرها حتى عد هذا الرثاء من أجل مدائحه فقد كان فيه صادق العاطفة مع براعته المعهودة في تصوير المعاني ، طرقت شاعرنا في الصورة التالية معاني عظيمة بطريقة رائعة تشعر قارئها بعظمة المنشئ والمرثي .

يقول في رثاء والدته مضمياً عليها معظم صفات المديح<sup>(١)</sup>:

لَقَدْ فُجِعَتْ مِنْكَ اللَّيَالِي نَفُوسَهَا	بِمُحْيِيَةِ الْأَسْحَارِ حَافِظَةِ الْعَتَمِ
وَلَمْ تَخْطِءِ الْأَيَّامَ فِيكَ فَجِيعَةً	بِصَوَامَةٍ فِيهِنَّ طَيِّبَةُ الطَّعْمِ
وَفَاتَ بِكَ الْأَيْتَامَ حِصْنُ كِنَافَةٍ	دَفِيءٌ عَلَيْهِمْ لَيْلَةُ الْقُرِّ وَالشَّبْمِ
رَجَعْنَا وَأَفْرَدْنَاكَ غَيْرَ فَرِيدَةٍ	مِنَ الْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ وَالْخَيْرِ وَالْكَرَمِ
فَلَاتَعْدَمِي أَنْسُ الْمَحِلِّ فَطَالَمَا	عَكَفْتِ وَأَنْسَتِ الْمَحَارِبَ فِي الظُّلْمِ

يمتدح الجانب الديني ويشني على أخلاق والدته ، فقد كانت على دين وبر ، قائمة بالليل تصلي وتطلب ربها ، وبالنهـار صائمة تـرجو المغفرة ، تطعم



الطعام للمحتاج وتضمن به عن نفسها ، تكرم الأيتام وتعطف عليهم ، أعمالها الطيبة تؤنسها في القبر ، لأنها طالما قدمت أعمال خير من صلاة بالليل وصيام بالنهار ، والإحساس بالفقد يوجع النفس بقدر إلفها للفقيد ، وطبيعة علاقتها به ، وابن الرومي هنا يصور مشاعر فئة معينة - الأيتام - لفقدها .

وَفَاتَ بِكَ الْإِيْتَامَ حِصْنُ كَنَافَةٍ      دَفِيءٌ عَلَيْهِمْ لَيْلَةُ الْقُرِّ وَالشَّبْمِ  
حيث جعلها في حنانها وعطفها على الأيتام مثل الحصن الذي يلجأ إليه الناس في الشتاء فيقيهم برد الليل وحر النهار .

وفي قوله :

أَفْرَدْنَاكَ غَيْرَ فَرِيدَةٍ      مِنْ الْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ وَالْخَيْرِ وَالْكَرَمِ  
يشير للمعنى الإسلامي الذي حث على العمل الصالح والتزود به للآخرة ومستدلاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :  
"إذا مات العبد يتبعه ثلاثة : أهله ، وماله ، وأعماله . فيرجع اثنان ماله وأهله ، ويبقى عمله" أو كما قال عليه الصلاة والسلام \*.

"شعر المديح يعبر عن موقف الاحترام ، ونظرة الإعجاب والاعتزاز ، ويعبر عن موقف الاقتداء والاهتداء والتمثل ، وهو في جانبه مرحلة إنسانية لها أبعادها في مجال النظرة الواقعية والمستقبلية ..."<sup>(١)</sup>

ولكن أن يدرك الشاعر ويفرق بين وظيفة الوالد والوالدة ودورهما في حياة الأبناء ، ومن ثم يمدح بهذه الوظيفة فهذا شيء أدركه ابن الرومي ولعله أول من مدح بهذه الوظائف يقول<sup>(٢)</sup>:

حَلِيمٌ ، عَلِيمٌ ، لِلرَّعِيَّةِ نَاطِرٌ      رَوْوْفٌ بِهِمْ ، يَحْنُو عَلَيْهِمْ كَوَالِدٍ  
يُرِيحُهُمْ إِتْعَابَهُ نَفْسَهُ لَهُمْ      وَيُسَهِّرُهُ إِصْلَاحَ أَحْوَالِ هَاجِدٍ

(١) الأديب والالتزام ، نوري حمودي القيسي ، ص ٨٣ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

\* انظر كتب الصحاح .

فشاعرنا هنا يفصل بين وظيفة الأم والأب ، ويحاول تحقيق هذه الوظيفة من خلال مديحه ، فيرى أن دور الأب ووظيفته هي الحنو على الأبناء والرأفة بهم يتعب في سبيل راحتهم ، ولا يضجر من هذا التعب لأن راحته في تحقيق السعادة لأبنائه ، وابن الرومي هنا يمتدح حلم هذا الممدوح وعلمه بالإضافة لحنوه ورأفته بالرعية فهو ينظر لهم كنظرة الوالد الذي يتعب نفسه في سبيل راحة أبنائه ، ويسهر على إصلاح أحوالهم وكأنه يلفت نظر الولاة والحكام إلى مهمة الخليفة المنوطة به .

مقابل هذه الصورة التي يشبه فيها ابن الرومي دور الخليفة بالوالد نراه يعرض صورة أخرى يشبه حرص ممدوحه وخوفه على أوليائه بحرص الأم ووظيفتها في حياة الأبناء<sup>(١)</sup>:

فَدَتِكَ نَفُوسُ النَّاسِ مِنْ ذِي حَيَاظَةٍ  
تَظَلُّ مِنَ الْأَمْرِ الْمَخُوفِ وَغَيْرِهِ  
فَأَشْفَاقُهَا مِنْ أَنْ يَمُوتُوا مِنَ الْغِنَى  
كَأَشْفَاقِهَا عَنْ أَنْ يَمُوتُوا مِنَ الْفَقْرِ  
غَدَوْتَ لَهُمْ أُمَّ مَمْهَدَةَ الْحَجَرِ  
تَضُمُّ بَنِيهَا بِالْيَدَيْنِ إِلَى النَّحْرِ

يمثل لنا ابن الرومي من خلال صورته هذه وظيفة الأم ، وهي الخوف والحرص على أبنائها إزاء الأمر البسيط أو الأمر العظيم ، ويشبه ممدوحه في خوفه وحرصه على جماعته بالأمر التي تخاف على بنيتها فتضمهم إلى صدرها ، رغبة منها في تحمل الأذى ودفع الضرر عنهم ، وكأنه يريد أن يبين أن الإسراف في كل شيء مهلكه ، فالحياسة والخوف الزائد يؤديان للموت ، حين قال أن هذه الأم تشفق على بنيتها أن يهلكوا من الأمر الهين قبل الأمر العسير وأشار بكلمة الغنى والفقير لهذين المعنيين .

بعد أن فرق بين وظيفة الوالد والوالدة ومدح بكل وظيفة على حده ، عاد وجمع بين الوظيفتين وصرح بهما في نص واحد حين قال<sup>(٢)</sup>:

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ١٤٢ .

مَلِكٌ غَدَاً فَوْقَ الْبَرِيَّةِ  
كَالْوَالِدِ الْبَرِّ الرَّؤُوفِ  
لَيْثُ اللَّيُوثِ إِذَا الْحُرُوبِ  
غَيْثُ الْأَنْامِ إِذَا الْغَيُْوثِ  
خَفَّتْ خَطَاهُ إِلَى الْوَعَا  
لَمْ تُلْهُهُ خَمْرُ الْمَرَاشِفِ  
وَالْأَخْشَةَ فِي الْخَطُومِ  
بِنَا وَكَالْأُمَّ الرَّءُومِ  
تَسَعَّرَتْ قِرْمَ الْقُرُومِ  
بَخِلْنَ فِي السَّنَةِ الْأَزُومِ  
وَالْحَلِمِ أَرْجَحَ مِنْ يَسُومِ  
لَا . وَلَا خَمْرَ الْكُرُومِ

فهذا الممدوح ارتفع عن غيره بأفعاله الكريمة وخصاله الحميدة ، حتى غدا بالنسبة للرعية كالوالد والوالدة للأبناء ، لا يستغني عنهما ، لكل منهما دوره ووظيفته ، وهذا الممدوح جمع بين الوظيفتين ، هذا الملك في الحرب مثل الأسد القوي ، شجاعة واقداما ، بينما في العطاء غيث أو كالغيث الذي يكون في سنة الجذب . فيه حياة لا يتخلف عن القتال ولا يتباطأ في الحروب . حلیم يزن الأمور بعقله وحكمته . لم ينشغل عن المعالي والمكارم كغيره بالنساء أو الخمر . وقد عبر عن النساء بخمر المراهف ، وعن الخمر بخمر الكروم . وهو في هذا البيت يعرض مجال بني عصره الذين اشتغلوا عن المكارم والفتوح بالتغزل ومخالطة النساء ، أو عكفوا على الخمر وأدمنوا شربها . وهذه أمور شاعت في العصر العباسي وانتشرت نتيجة اختلاطهم بغيرهم من الأمم . وكأن ابن الرومي يتمنى أن ينطبق على معاصريه جميعا قوله (١) :

يَاشْقِيقَ النَّدَى وَتَرَبَ الْمَعَالِي  
كَثُرَتْ مِنَ الْعُلَا مَعَانِيكَ حَتَّى  
أَنْتَ عِيدَ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ عِيدٍ  
وَسَرَاجَ الْهُدَى بِكُلِّ مَكَانٍ  
أَعَوَزْنَا أَسْمَاءَ تِلْكَ الْمَعَانِي  
بَلْ لَعَمْرِي فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ

فهذا الممدوح لجوده جعله شقيقا له ، ولسعة علمه وفقهه جعله سراجا يهدي للمكارم . هذا الممدوح جمع الكثير من الفضائل والمعاني حتى حير مادحيه في أسمائها ، وجعله بمثابة العيد للناس في كل وقت ، الكل يبتهج ويفرح بعطائه وعلمه .

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢١١ .

### ثالثا : الصِّفَات الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة فِي مَدَائِحِهِ :

كان ابن الرومي يزاوج في بعض مدائحه بين الجانب الأخلاقي والجانب الخُلُقِي ، ويوائم بين الصورة والواقع ، ومن الصور التي مدح فيها بالجانبين معاً قوله (١) :

مَعْرُوفَهُ لَا يُحْجَبُ	مَلِكٌ أَغْرٌ مَحْجَبٌ
يَحْمِيهِ مَالٌ مِنْهُبٌ	يَغْدُو بِعَرَضٍ وَافِرٍ
مَقْرُونًا إِلَيْهِ كَوَكَبٌ *	بَدْرٌ ، كَأَنَّ الْبَدْرَ
مَقْرُونًا إِلَيْهِ مِذْنَبٌ *	بَحْرٌ ، كَأَنَّ الْبَحْرَ
نَاجِيَةٌ وَوَجْهٌ مُضْرَبٌ *	سَيْفٌ لَهُ مِنْ كُلِّ
جَارِحَةٌ وَعَضُو مِخْلَبٌ *	لَيْثٌ لَهُ فِي كُلِّ
الْمَحَاسِنِ خِلْعَةٌ لَا تُسَلَبُ *	خَلَعَتْ عَلَيْهِ مِنْ
مِنَ الْعَذُوبَةِ يُشْرَبُ *	عَذِبَتْ خَلَائِقُهُ فَكَادَ

جرت عادة الملوك والحكام أن يتخذوا حجابا ، إما للحراسة ، أو لمجرد الهيبة والسلطة ، ولكن ممدوح ابن الرومي حجابه كانوا في الظاهر فقط ، أما معروفه فلا حاجب عليه لأنه تعود البذل والعطاء ، له وجه مشرق متهلل ، يفيض جمالا وحسنا فهو بدر ، إذا اقتزن به البدر بدا كوكبا صغيرا لأن هذا الوجه يفوقه في الوضاعة والإشراق ، وهو في العطاء بحر بل أعظم من البحر ، إذا اقتزن به البحر بدا مذنبا - خليج صغير لا يضاويه -

وهو كذلك في المضاء والبت في الأمور سيف يقطع من كلا جانبيه ، إضافة إلى أنه في الشجاعة والقوة أسد ولكنه يختلف عن غيره من الأسود بأن له في كل عضو مخلب ، دليل القوة .

هذا الممدوح ألبسته المكارم - جانبا خُلُقِيَا - والمحاسن - جانبا خَلْقِيَا - حلة وثيابا لا تسلب منه ، لأنها لا تصلح لغيره .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

\* الأبيات مدوّرة .

رقت طبائع هذا الممدوح حتى غدا كالماء العذب ، وهنا تظهر براعة ابن الرومي حين يحول التصوير المعنوي إلى حسي ، ثم يتمادى في السمو بذلك حتى تستوعبه الأذهان وتعيه القلوب ، فقد ربط بين المعاني الحسية والمعنوية بطريقة فنية رائعة .

"عندما يثق ابن الرومي في ذوق ممدوحه ، ويطمئن إلى عمق إدراكه وصحة فهمه ، يعطيه صوراً رائعة من أعماق ذاته ، وفيض وجدانه" (١).  
ومن تلك الصور قوله مازجا بين كريم الطباع والأخلاق وبين حسن الصورة وجمال الهيئة (٢):

وَيْدٌ لَتَأْسُو جَرَحَ كُلِّ جَرِيحٍ	خَلَقْتَ يَدَاهُ يَدٌ لَتَجْرَحَ فِي الْعِدَا
سَهْلُ الْمَبَاءَةِ ذُو عِرَاضٍ فِيحِ	طَلَقَ الْمُحْيَا وَالْيَدَيْنِ سَمِيذَعُ
تَسْتَنْطِقُ الْأَفْوَاهَ بِالتَّسْبِيحِ	ذُو صُورَةٍ قَمْرِيَّةٍ بَشْرِيَّةٍ
أَنْ لَا يَعْرِضَهُنَّ لِلتَّقْبِيحِ	بَرَعَتْ مَحَاسِنَهُ فَأَقْسَمَ صَادِقَا
وَتَقَتَ لَدَيْهِ بِعَاجِلِ التَّسْرِيحِ	مَلِكٌ إِذَا الْحَاجَاتُ شَدَّ عِقَالُهَا
فِي الرَّمْسِ تَحْتَ جَنَادِلٍ وَصَفِيحِ	أُحْيِيَتْ مَيْتَ الشَّعْرِ بَعْدَ ثَوَائِهِ
هَذَا الْمَسِيحِ ، وَوَلَاتَ حِينَ مَسِيحِ	حَتَّى نَقَالَ النَّاسُ فِيكَ فَأَكْثَرُوا

اعتاد ابن الرومي أن ينظر للأمر من كلا وجهيه وهنا يمدح بالأمر وضده فبعد أن بين أن من خلق ممدوحه الشدة والقسوة على الأعداء ، عاد وأكد أنه رحيم لطيف بأوليائه - مقابلاً بين - تجرح وتأسو .

فهذا ممدوح كريم بالإضافة لجماله وجسامته ، واسع المنزل رحب الفناء . صورة وجهه لعظم جماله لا يملك الإنسان إذا رآه إلا التسبيح لحكمة خلقه وجماله ، لعلم هذا الممدوح بجماله وحسن خلقته ارتفع عن كل قبيح وسىء حتى لا يدنس خلقه وخلائقه . وهنا يدعو الشاعر بني عصره للتأمل وكأنه ينصح من حسنت صورته أن لا يضيف لها ما يشوبها من الأفعال السيئة

(١) الصورة الأدبية في شعر ابن الرومي ، على على صبيح ، ص ٣٨٦ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٦٦-٦٩ .

ومن قبح شكله ألا يضيف للقبح قبحا باقتراف القبيح من الأعمال . هذا الممدوح له رأى صائب ، وحكمة رشيدة ، فهو أهل للمديح إذ بكريم أخلاقه وعظيم أفعاله أصبح للشعر معنى حين ينشد بمدحيه ، لأفعاله الجسيمة ولعودة الحياة للشعر عند امتداحه قال عنه الناس هو المسيح ، لأنه أحيا الشعر بعد موته كما أحيا المسيح عازر .

"كان ابن الرومي يفترض في عمله جميع العلل ، وشتى الاحتمالات ، فإذا أحس أن المعنى غير مكتمل ، وأن الفكرة ناقصة ألح عليها بصرفها على كل وجه ، وإذا شعر بأن صورته الشعرية غير مستوية شفعها بلفظ أو صورة ثانية ، فلاتند عنه شاردة ، ولايترك واردة ، فقد يعرض المعنى في أكثر من صورة" (١).

وفي كل مرة نجد إيجاء جديدا لمعناه ووقعا مختلفا ، وفي هذه الصورة نراه يعرض نفس المعاني السابقة ولكن في ثوب جديد (٢):

مَنْ وَجَّهَهُ الْوَجْهَ الْجَمِيلُ	وَشَخَّصَهُ الشَّخْصَ الْجَهِيرُ
مَنْ مَنَّهُ الْمَنْ الْقَلِيلُ	وَفَضَّلَهُ الْفَضْلَ الْكَثِيرُ
مَنْ جَوَّدَهُ الْجُودَ الشَّهِيرُ	وَبَدَّلَهُ الْبَدْلَ السَّتِيرُ
مَلِكٌ غَدَّتْ أَفْعَالُهُ	وَالْعُرْفُ فِيهَا وَالنَّكِيرُ
يَوْمَاهُ يَوْمٌ نَدَى	وَيَوْمٌ رَدَى عَبُوسٌ قُمْطَرِيرُ
فِي ذَا وَذَاكَ كِلَيْهِمَا	خَيْرٌ وَشَرٌّ مُسْتَطِيرُ
جُمِعَتْ لَهُ أَشْيَاءٌ لَمْ	يُخْلَقْ لَهُ فِيهَا نَظِيرُ
فِيهِ الْوَسَامَةُ ، وَالنَّدَى	وَالْحِلْمُ ، وَالرَّأْيُ الزَّبِيرُ
فَإِذَا بَدَأَ فِي مَوْكِبٍ	فَكَأَنَّهُ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ
وَإِذَا تَهَلَّلَ بِالنَّدَى	فَكَأَنَّهُ الْغَيْثُ الْمَطِيرُ

(١) الصورة الأدبية في شعر ابن الرومي ، على على صبيح ، ص ٤٣٢ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١١-١٣ .

جمع ابن الرومي لمدوحه في هذا النص فضائل وصفات خلقية وخلقية . فهو جميل الهيئة خليق بالمعروف ، بالإضافة لكرمه فهو لا يمن على من يعطي جوده مشهور بينما بذله ستير عملا بالمعنى الإسلامي الذي يدعو ويحث على إخفاء الصدقة . تتميز أفعال هذا الممدوح وأقواله بأنها تحمل العرف والوعد للأولياء ، والتهديد للأعداء ، وتتميز أيامه بأنها متقابلة ، فيوم للعطايا والهبات ، وآخر للحروب والغزوات ، وفي كليهما خير وشر ، فبالعطاء تحيا أنفس ، وترقى عقول ، وبالقتال يأمن من في الدولة من العدوان الخارجي تفرد هذا الممدوح بمعظم الصفات والخلال الكريمة التي لا ينافس فيها أحد فكأنها وقف عليه منها الوسامة والكرم والحلم ، والرأي السديد ، فهو مثل القمر نورا وبهاء ورفعة ، ومثل الغيث عطاء وجودا . جرت العادة في الرثاء أن يؤلف الشاعر الفضائل ، ويزورها ، كما جرت على المبالغة في كل الوجوه ، حتى يصبح الميت مثالا أعلى للكمال كما تتمثله فضائل العصر ، فلم يكن الشاعر يلتفت للميت نفسه ، بل يقتبس من ذاكرته ما يعرف من خصال حميدة ، فينظمها بأشكال مختلفة ، وينسبها للميت وابن الرومي من خلال رثاء خاله يمدحه ويسبغ عليه من الفضائل والمكارم ماتفرح له النفس . فمن القيم التي رثاها وهو يرثي خاله ما هو ظاهري ، وما هو معنوي يقول (١) :

فَأَعْوَزَ مَنْ يُوفِي بِذِمَّةِ جَارِهِ  
وَكُلُّ عَطَاءٍ نَقْدُهُ كِضْمَارُهُ  
وَحَاشَاهُ مِنْ أَسْرَارِهِ وَبِدَارِهِ  
وَكَالَأَسَدِ الرَّبَّالِ فِي ظِلِّ دَارِهِ  
مَضَى نَصْفًا قَدْ لَاحَ شَيْبُ عِذَارِهِ  
فِيَأْسَفًا هَلَّا لِحِينِ سِرَارِهِ

أَلَا مَاتَ مَنْ مَاتَ الْوَفَاءُ بِمَوْتِهِ  
أَلَا مَاتَ مَنْ مَاتَ السَّمَّاحُ بِمَوْتِهِ  
فَتَى كَانَ يَهْدِي الْجُودُ قَصْدَ سَبِيلِهِ  
فَتَى كَانَ كَالْعِذْرَاءِ فِي ظِلِّ خِذْرَاهَا  
مَضَى قَدْ تَنَاهَى سُوْدُودًا غَيْرَ أَنَّهُ  
خَبَا قَمْرُ الدُّنْيَا لِحِينِ اتِّسَاقِهِ

بِنَفْسِي مَنْ لَمْ يُؤْذِنَا بِأَيْنِهِ      وَلَمْ يُؤْذِرْ جَارِيَّ بَيْتِهِ بِجَوَارِهِ  
تَبَلَّجَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَابْيَضَّ وَجْهُهُ      تَبَلَّجَ ضَوْءَ الْفَجْرِ عِنْدَ انْفِجَارِهِ

الوفاء والسماحة والعطاء ، في رأي ابن الرومي ماتت واندثرت بموت هذا الممدوح ، وكأنها كانت وقفا عليه دون غيره . فقد اتصف بالوفاء والكرم الشهير ، مع حفاظه على السر وكتمانه له ، لا يحمل في قلبه حقدا ولا غدرا ، لأنه يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه . اتصف هذا المرثي كذلك بالحياء وهي صفة نادرة في ذلك العصر فقد كان كالعذراء في الحياء ، وهنا يحوم مرة أخرى على المعنى الإسلامي "الحياء شعبة من الإيمان" ولكنه في المعارك كالأسد شجاعة وإقداما .

جمع هذا المرثي من صفات الخير والسؤدد الكثير ، ومات وهو في قمة شبابه كالبدن الذي يخسف دون أن يصل لوقت السرار ، وقد تميز هذا المرثي عن غيره عند موته ، كما تميز في حياته ، فلم يكثر الأنين بل كان صابرا وعندما مات غشاه بياض مثل بياض الفجر عند طلوعه . وهذا دليل على راحة هذا المرثي عند موته . فلم يعان سكرات الموت ، وكان ابن الرومي يريد الإشادة بخاله وأن أفعاله وأعماله كلها خير وبالتالي لم يعان عند موته . يقول في مقام آخر مازجا بين الصفات الخلقية والخلقية<sup>(١)</sup>:

كُلُّ الْخِلَالِ الَّتِي فِيكُمْ مَحَاسِنُكُمْ      تَشَابَهَتْ مِنْكُمْ الْأَخْلَاقُ وَالْخَلْقُ  
كَأَنَّكُمْ شَجَرَ الْأُتْرَجِ طَابَ مَعَا      حَمَلًا وَنُورًا وَطَابَ الْعُودُ وَالْوَرَقُ

هؤلاء قوم جمعوا بين حسن الخلق وحسن الخلق فلاشبيه لهم إلا شجر الأترج الطيب الثمار والرائحة - وهو أول من شبه بشجر الأترج . وقد اعتمد ابن الرومي في هذه الصورة على التشبيه الصريح لحرصه على ذكر الأداة فيه .

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ .



ومن الصور الفريدة التي مزج فيها ابن الرومي بين الصفات الخلقية والصفات الخلقية قوله يمدح بصفات كريمة يتمنى وجودها في أبناء عصره (١):

كأنه بين أحوال تداوله  
أحيا به الله قوماً بعد هلكهم  
كالبحر أروى بني الدنيا وأغرقهم  
كأنه وحده جيش له لجب  
للأريحية مشي في مفاصله  
ذو الفضل في دهره لا عند ناقصه  
ياكوكب الدهر قدماً في غياهبه

هذا الممدوح مثل البدر في العلو والإضاءة ، بكرمه وجوده أحيا أناساً بعد فقرهم وعوزهم ، وببسالته وقوته ، ودهائه أباد قوماً من الأعداء فهو بذلك يجمع بين الفعل وتقيضه : النفع + الضرر كالبحر يروي الناس منه ويغرق فيه ناس آخرين . هذا الممدوح في القوة والبأس كأنه جيش عرمرم . لا يشرب الخمر لذلك فعقله دائماً متيقظ . له أريحية تغنيه عن الخمر وهذه صفات القادة العظماء لا يذهبون عقولهم ، ولا يفسدون بها الخمر .

فضله على الناس كلها فلا يختص ناقص عن كامل ، بل الناس عنده سواسية كما أنه حسن فعالة ووضاعة جماله مثل الكوكب في الظلام وكالعلم في المجهل يهتدي به ويستدل على الطريق والفعل الحسن .

فهذه معظم الأخلاق الجليلة التي تطلبها أي أمة في مسئولها ، وراعيها وإن محاولة تأكيد ذكرها من شاعرنا هي توعية غير مباشرة وتوجيه فطن لأبناء عصره لهذه الأخلاق والتحلي بها ، ومن ثم السمو بالمجتمع ، لأعلى الفضائل .

كثيرا ما حام شاعرنا حول المعنى الإسلامي فتارة يورد القيمة الإسلامية بارزة وأخرى يلمح لها من خلال اقتباس بعض الألفاظ والمعاني من الكتاب الكريم والدليل قوله يمدح بطريقه تدل على تأثره بمعاني القرآن وأسلوبه (١):

أَبْلَجِ الْوَجْهَ كَالْهَلَالِ بَلِّ الْبَدْرِ	بَلِّ الشَّمْسِ بَلِّ فَقِيدِ الْمَثَالِ
لَا يُضَاهِيهِ فِي الْمَحَاسِنِ إِلَّا مَا	تُسَدِّيه كَفَّهُ مِنْ فِعَالِ
أُرِيحِيَّ يُعْطِي الْعَطِيَّةَ فِي	الْعُطْلَةَ أَضْعَافَ أُخْتِهَا وَهُوَ وَالِ
مُحَسَّنٌ مُجَمَّلٌ وَلَيْسَ بِيَدَعِ	ذَاكَ مِنْ مِثْلِهِ وَلَا بِمُحَالِ
أَحْسَنَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَبَدَاهُ	فِي انْتِسَاخِ لِحُسْنِهِ وَامْتِثَالِ
لَيْسَ مِمَّنْ إِذَا أَلْحَ شَفِيحٌ	أَخْلَقَ الْوَجْهَ عِنْدَهُ بِابْتِذَالِ

يذكرنا ابن الرومي في ترده وهو يشبه ممدوحه تارة بالهلال ثم بالبدر وأخيرا بالشمس . ثم يعرض عن تلك المشبهات كلها ويقرر أن لا مثيل له في الحسن والبهاء . فأول ماتبادر لذهنه الهلال . ثم رأى في الهلال نقصا فهناك فترة يكون الهلال فيها أشد وضاءة وهي فترة تمامه حين يصبح بدرا فشبّه بالبدر . ثم رأى أن الشمس أشد إضاءة من البدر حيث يستمد البدر منها ضوءه ، فعدل عن البدر إلى الشمس ، وهو في هذا التردد والبحث عن المثال الأكمل يذكرنا بالآيات التي وردت على لسان أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام حين حكى عنه القرآن {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا . قَالَ : هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَأَحِبُّ الْأَفْلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ... } (٢).

فمعروف أن أشد الكواكب السيارة إضاءة هي الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، ولكن الشمس أنور من القمر وأضوأ من غيره ، وأكبر جرما ،

(١) الديوان ، ج ٥ ، ص ٢١١ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٧٦-٧٧-٧٨

وأعم نفعا ، والشاعر يبحث لممدوحه عن شبيه كامل في الحسن ، فرأى أن لامثيل له سوى فعاله الحسنة فهو جواد كريم ، يعطي في كل وقت ، وكل فعل حسن يأتيه ليس بدعا أو محالا عليه لأنه أهل لكل جميل ، فكما أحسن الله خَلْقَهُ أحسن خُلُقَهُ .

لا يعبس في وجه سائليه ، ليس كغيره ممن يضجر بالسائلين ويبخل عليهم ، وعلى الرغم من حرصه على تجلية القيمة الاجتماعية في النص ، فإنه يعينني أيضا طريقة الشاعر في أدائها ، وابن الرومي وفق في إبراز القيم الممدوح بها جميلة مؤثرة بطريقة ساعدت المتلقي على استكشاف تلك القيم ، والاحتفال بها .

قلنا إن الأذهان العربية في العصر العباسي بدأت تهتم بناحية فرضتها الحضارة وهي الفلسفة والتنجيم . وقد عرض ابن الرومي ذلك في شعره يقول مادحا بجملة صفات خَلْقِيَّة وخُلُقِيَّة<sup>(١)</sup>:

وَالشَّمْسُ رَأْيٌ وَالهِلالُ جَبِينُ	يَا مَنْ غَدَا وَالْمُشْتَرِي جَدُّ لَهْ
وَالْبِرُّ خِدْنٌ ، وَالوفَاءُ قَرِينُ	وَالحِلْمُ سَمْتُ وَالعَفَافُ طَوِيَّةٌ
حَتَّى اسْتَوَى الْجَبَّارُ وَالْمَسْكِينُ	وَمَنْ اسْتَفَاضَ بَعْدِلِهْ وَبِقُضْلِهْ
فَكَأَنَّهُ بَعْدَ الْوِلَادِ جَنِينُ	وَمَنْ اسْتَجَنَّ مِنَ الْحَوَادِثِ جَارُهُ
عِنْدَ السُّؤَالِ وَاللِّخِيلِ أَنْيْنُ	تَبْدُو وَوَجْهَكَ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ
وَيَطِيعُهُ التَّعْمِيرُ وَالتَّمْكِينُ	لَا زَلَّتْ أَفْضَلَ مَنْ يَطِيعَ إِلَهَهُ

هذا الممدوح حظه كبير وهو في الرفعة والعظم مثل كوكب المشتري ورأيه نافذ ساطع مثل الشمس في السطوع والوضوح ، فكما أن في ضوء الشمس حياة فكذلك الرأي الصائب به حياة ، هذه الصفات المعنوية لم تمنع شاعرنا من التنبيه للناحية الشكلية لممدوحه فنعت جبينه بالهلال ، في الشكل ثم عاد ليبين أن الحلم علامة مميزة لهذا الممدوح ، كما أن العفة صفة والبر

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٦٢ .

صاحب ورفيق له في جميع تصرفاته وفعاله ، وعرف عن ملازمة الوفاء لشخصه إضافة إلى عدله الذي اشتهر به فلا يظلم لديه أحد .  
ومن الصفات الحميدة التي تميز بها هذا الممدوح حسن الجوار حتى عد بالنسبة لجاره كالحيمة التي تظله وتحميه من ظروف الجو وقسوته .  
فهو لكرمه وجوده وبره بجاره كأن جاره رغم وجوده في هذه الحياة لم يولد ، ولكن هذا الممدوح يستره ويحميه من حوادث الدهر وتقلباته فكأنه جنين في بطن أمه ، لا يصل إليه الأذى ، وابن الرومي يحوم مرة أخرى على المعنى الإسلامي الذي يحث على البر بالجوار وحسن الجوار .  
هذا الممدوح لا يضجر عن السؤال بل يعطي وهو ضاحك مستبشر ليس كالبخلاء الذين إذا أعطوا كان لهم أنين وعبوس .  
على كثرة الفضائل والمحامد التي اتصف بها هذا الممدوح إلا أن هناك ميزة عظيمة وهي الدين ، فهو إنسان متدين يعرف حق الله عليه .  
قال الله تعالى في صفة داود عليه السلام : { .. وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ }<sup>(١)</sup> أخذ هذا المعنى ابن الرومي وجعله من المعاني الإسلامية التي أكثر منها في مدائمه ، فهذا ممدوح امتاز عن غيره بالزيادة في الأخلاق حيث يتحلّى بأكرمها وأفضلها ، وكذلك في الخلقة حيث اكتملت له صفات الحسن والجمال . يقول عنه<sup>(٢)</sup> :

فتى زِيدَ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْخَلْقِ بَسْطَةً  
بَأَمْثَالِهَا نَالَ الرِّجَالُ الْمَعَالِيَا  
أَتَمَّ لَهُ الْإِحْسَانُ حُسْنَ رُؤَايِهِ  
وَأَضْحَى مِنْ الْإِحْسَانِ وَالْحُسْنِ حَالِيَا

(١) سورة البقرة : آية ٢٤٧

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ .

يَقُولُ لِمَنْ يَلْحَاهُ فِي بَدَلِ مَا بِهِ  
أَنْفَقَ أَيَّامِي وَأُمْسِكُ مَا لِيَا؟؟  
نَسَبْنَاهُ وَالْقَوْمُ الْكِرَامُ إِلَى الْعُلَى  
فَكَانَ صَرِيحًا وَالْكِرَامُ مَوَالِيَا .

فأخلاق هذا الممدوح وصفاته واسعة كريمة لا يمتلكها غيره تم له الحسن وكذلك الإحسان في كل حال .

لجوده وحب نفسه للعتاء يرى أن المال لم يوجد إلا للإنفاق إذ لا بد من بذله كما تبذل الأيام .. فاق الكرام وأصبح عليهم سيّدا .

نخلص من هذا الفصل إلى :

\* امتزاج الغزل والرثاء بالمديح ، وهذا أمر بدهي إذ أن الشاعر يعدد فضائل المرأة - المحبوبة - كما يعدد فضائل الشخص المرثي .

\* لا يخفى علينا أن مديح ابن الرومي كان موجهًا لشخصيات بعينها في عصره كما لا يخفى علينا أن غرضه الأول هو الاستجداء فطبعي أن تكون عاطفته في مدائح غير صادقة ، عدا عاطفة الرثاء .

\* سهولة الألفاظ والمعاني وقربها من الانفعال العربي في مدائح ابن الرومي ، فقد يشترك مع غيره من الشعراء في المعاني ولكنه يتفرد عنهم بأسلوبه الخاص وحسن معالجته لتلك المعاني .

\* وجود ظاهرة التعليل وتكرار المعنى الواحد في وجوه متعددة في مدائح ابن الرومي والاهتمام بجزئيات الصورة وتكاملها .

## الفصل الثاني

### الإنسان

في رؤية المتنبي - مادحاً -

## الإنسان في رؤية المتنبي مادحا

يتضمن :

أولا : الصفات الخلقية في مدائحه .

ثانيا : الصفات الخلقية .

## توطئة

تتعاقب أحقاب التاريخ وشعر المتنبي ما برح يدوي في سمع الزمان ويلح على المثقف العربي إلحاحا ، وهناك من يعتبره المثل الأعلى للشعر العربي ذوقا وروحا وطموحا للمجد ، فالعقل فيه يطغى على الوجدان ، ومن ثم كثر الجدل حوله بين المحبين والمبغضين من أيام "الوساطة بين المتنبي وخصومه" التي نهد إليها القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني إلى عصرنا هذا ، إذ أن شعر المتنبي "يمثل أحاسيس العرب ويترجم عن نفسياتهم ويعرب عن عواطفهم ونزعاتهم ، كما أن شعره يترجم عن الرجولة ومضاء العزيمة ، وعن الشمم والإباء ، والخلق الرصين ، عن النظرة الجديدة للحياة ، والعزوف عن السخف والهزل ، وعن اللهو والمجون"<sup>(١)</sup>.

من هنا أحب العرب شعر المتنبي ، واهتموا به ، كما كان للمتنبي "وضعا أخلاقيا يجعله متميزا على سائر شعراء العربية خلقا وسلوكا ، وبعد غاية ، وسمو همة ، لقد كان أبو الطيب ينادي بهذه القيم جميعا ، وصاغها شعرا كأجمل ما يكون الشعر ، ودبجها قصيدا كأعظم ما يكون القصيد ، حتى صار شعره مدرسة جامعة في دروس الحكمة والأخلاق ، من استمساك بالعزة والكرامة ، وترفع عن الصغائر والدنايا ، ودعوة إلى القوة في أسمى صورها ودفع إلى الهمة في أرفع معانيها"<sup>(٢)</sup>.

من هنا نميل إلى القول بأن المتنبي أول من أبرز ملامح البطولة في المقاتل العربي المسلم ، وأبرز من خلالها مكارم الأخلاق ، وخلال الكرم والعفة ، والسؤدد وما إليها ، إذ كان يقصد بمدائح إنسانا بعينه ثم يخرج بمعانيه إلى الإنسان بعامة ، في أروع وأنبل وأشجع ما يكون عليه الإنسان ، لذلك تقيده شعره في الظاهر بممدوح ولكنه تجرد وسما إلى الإنسانية في كل عصر .

(١) د. جمال الدين الألوسي ، المتنبي شاعر كل العرب ، مجلة العربي ، عدد ٢٢٦ رمضان ١٣٩٧هـ ، ص ٣٧ .

(٢) د. مصطفى الشكعة ، أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ، عالم الكتب ، ط/أولى ١٤٠٣هـ ، ص ٤١٠ .



لذا كان شعره موضع اهتمام الكل حتى المستشرقون اهتموا به وقارنوه  
 بمن عندهم ، ولازال الناس حتى اليوم يحفظون شعره كأنه عِلْمٌ بمستقبل كلامه  
 فقال (١):

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُوَاةٍ قَصَائِدِي  
 إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا  
 فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يُسِيرُ مُشَمَّرًا  
 وَغَنَى بِهِ مَنْ لَا يَغْنَى مَغْرَدَا

ولنا أن نرى الإنسان في رؤية المتنبي من خلال ثلاثة مباحث .  
 أولاً : المديح بالصفات الخلقية، ثم بالصفات الخلقية ، وأخيراً المديح  
 بالصفات الخلقية والخلقية في آن معا . \*  
 \* \* \* \* \*

(١) الديوان ، شرح وتحقيق عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت ، ط/ثالثة ١٤٠٧هـ ، ج ٢  
 ص ١٤ .

\* لقلة النصوص التي جمع المتنبي فيك بين الصفتين - آثرنا عدم إفرادها  
 بمجئ فاص .

## أولا : الصّفات الخلقية في مديح أبي الطيب المتنبّي :

الجمال ، أحس العرب الأوائل به إحساسا قويا ، واهتموا بوصفه بأحسن العبارات ، وأجمل التشبيهات ، وقد انصب إعجابهم على الجمال المعنوي ، جمال الخصال والمآثر ، إضافة لجمال المظهر الخارجي وتغنوا بذلك في أشعارهم . وقد نبه القرآن إحساس الإنسان بالجمال في مظاهره الكثيرة التي لا حصر لها ولا حدود ، سواء في ذلك جمال الطبيعة المتمثل في السماء الصافية بالنجوم اللامعة ، والجبال الشاهقة ذات الألوان المتنوعة ، والحدائق ذات البهجة التي تسر الناظرين ، قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } (١).

وكذلك الأنعام الجميلة النافعة للإنسان والتي قال فيها سبحانه وتعالى : { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } (٢).

وأیضا الإنسان بصورته الجميلة المتنوعة المحاسن : { فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّأَشَاءَ رَكَّبَكُ } (٣).

وقد حض القرآن على تأمل الجمال المعنوي المتمثل في العمل والسلوك والأخلاق والفضائل ، كما حض على تأمل الجمال الظاهر للعيان المتفتح في الطبيعة ، وآيات القرآن تدلنا على ذلك .

"وقد كان رسول الإنسانية المثل الأعلى للجمال ، يدركه ويحبه ويعجب به ، وذلك لما للجمال من تأثير على إحساس الإنسان ، وما يقدمه له من لذات جمالية تختلف عن مستوى اللذات الحسية ، ويتعد عن الأشياء المستنكرة غير الجميلة ، كما كان يحب جمال الحديث ، وعذوبة الإيقاع ،

(١) سورة فاطر : آية ٢٧

(٢) سورة النحل : آية ٦٥

(٣) سورة الانفطار : آية ٨

نظرا لما كان يتمتع به عليه السلام من بساطة النفس التي تعتمد على الخلق القويم ، الذي يجمع بين الخير والجمال"<sup>(١)</sup>.

والمتنبي بحكم ثقافته الواسعة وتجاربه في الحياة أدرك هذه الفضائل كلها، كما تنبه بشاعريته وفنه إلى أن الجمال في ذاته حيثما يكون قوة . والقبح ضعف . وشاعرنا - شاعر القوة - حين يرسم الجمال ويتغنى به في مدائح ، وحين يحبه ويهفو إليه إنما يحب القوة في الإنسان . من هذا المنطلق نجد المتنبي لايهمل الجمال الحسي - الظاهر - بل يمدح به ويصوره تصويرا لائقا بشاعر يبحث عن القوة في أبسط أشكالها - الجمال - .

وكما مدح المتنبي بالصفات الخلقية فقد مدح كذلك بالصفات الخلقية وهو يعني الجمال المعنوي ويبحث فيه كذلك عن القوة . وأخيراً نجد له نصوصاً أخرى اعتمد فيها المبحثين - الصفات الخلقية والخلقية - في آن معا . أفاض المتنبي كما قال الأستاذ السباعي بيومي<sup>(٢)</sup> في وصف آيات الحسن والجمال ، فلم يدع شيئاً من محاسن المرأة إلا تناوله ، كاشفاً عن وجه الحسن فيه وجاعلاً لعقله وخياله من هذا الكشف نصيباً . فمن مظاهر الحسن التي راقته وأعجبتة : إضاءة الوجه وإشراقه في سواد الشعر وحلوكته ، لأنه يرى في الجمع بين الأضداد زيادة في الفتنة ، وقوة في الألم . قال يصور هذا<sup>(٣)</sup>:

كَشَفْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا      فِي لَيْلَةٍ فَأَرَّتْ لِيَالِي أَرْبَعًا  
وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا      فَأَرَّتَنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا

(١) د. صلاح الدين بسيوني رسلان ، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ،

١٤١٠هـ ، القاهرة ص ٧٦، ٧٧ .

(٢) غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه ، صحيفة دار العلوم ، السنة الثالثة

١٣٥٥هـ ، العدد الأول ص ١٣٢ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٤ .

فهو يمتدح سواد شعرها ويشبّهه بالليل ، ويمتدح بياض وجهها وجماله مشبها إياه بالقمر . وهو حين يصور تعدد الليل بتعدد ذوائبها ، وتعدد القمر بوجهها لا يخرج عن عادة الشعراء في وصف جمال المرأة . فهذه أوصاف متعارف عليها متوارثة في الشعر العربي .

إلا أن المتنبي يضم لهذا كله عجب من قامه كالغصن النابت على رفلتي فلاة حين قال<sup>(١)</sup>:

غُصْنٌ عَلَى نَقْوَى فَلَاةٍ نَابَتْ      شَمْسُ النَّهَارِ ثِقْلٌ لَيْلًا مَظْلِمًا  
لَمْ تَجْمَعْ الْأَضْدَادُ فِي مُتَشَابِهِ      إِلَّا لِتَجْعَلَنِي لِعَرْمِي مَغْنَمًا

فهو يمتدح دقة قامه هذه المحبوبة وبياض وجهها مع سواد الشعر فقد جمعت هذه المحبوبة محاسن عدة متضادة .

"ويكرر المتنبي هذه الصورة ، ويتضح فيها من فنه المتشعب بروح العصر ، وفي الكون نجد ما يريد ، في ظلمة الليل وشروق القمر ، إزاء ذوائب من شعر الحبيبة ووجهها الواضح ، ومن ثم يجمع تلك المتناقرات ويقابل بينها متكئا على مقدرته الفنية .

ويبدو أن هذه الصورة أعجبت شاعرنا ، فعاودها مع إضافة زادتها روعة ، فوجه المحبوبة شمس النهار وتقل شعرا أسود كليل مظلم ، وهي كالغصن في اعتدالها نابت على كثيبي رمل .

فهو بعد أن عثر على الألوان المتضادة في حياها وشعرها ، قام بتشكيل صورة أخرى محسوسة ، استقاها من دقة قامتها ، وثقل رديها ، وكل هذه المتناقرات اجتمعت في متكامل الحسن ، متناسق الأعضاء"<sup>(٢)</sup>.

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

(٢) د. حسن الشماع ، المرأة في غزل المتنبي ، ط/أولى ١٤٠٠هـ ، الرياض ، ص ٨١، ٨٢ .

وهناك من المعاني ما يدور في كل خاطر ، ومن الأشباح ما يقع أمام كل ناظر ، ولكن لأبي الطيب افتنان ومهارة ينفثان السحر في معانيه البديهية كما يقول<sup>(١)</sup> حسن علوان فيجعلها جديدة طريفة ، شديدة الوقع ، عذبة اللحن في أذن السامع كقوله<sup>(٢)</sup> :

مِنْ كُلِّ أَحْوَرٍ فِي أَنْيَابِهِ شَنْبٌ      خَمْرٌ يَخَامِرُهَا مِسْكٌ تَخَامِرُهُ  
نُعْجٌ مَحَاجِرُهُ دَعَجٌ نَوَاطِرُهُ      حَمْرٌ غَفَائِرُهُ سُودٌ غَدَائِرُهُ  
أَعَارِنِي سَقْمُ عَيْنِيهِ وَحَمَلَنِي      مِنْ الْهَوَى ثِقَلُ مَا تَحْوِي مَآزِرُهُ

جمع صفات الحسن التي إن وجدت في المرأة كانت مضرباً للمثل في الحسن ، في العيون والجسم والشعر . وفي هذه الصورة اعتمد المتنبي على التقسيم فقد أتى بأربع صور كلها في حركة إيحائية ذات إيقاع جميل . فرقة الألفاظ ، والموسيقى الهادئة المعبرة عن هدوء الصحراء وصفائها ، والإيقاع المنبعث من الحركة الرتيبة ، والنغم الجميل مصدره حسن التقسيم وانسجام التقطيع ، فكأنه يضرب على أوتار القلوب<sup>(٣)</sup> .

مع أن ماجاء في الأبيات السابقة من معان لا يخرج عن نطاق المعاني المتوارثة فماذا فيها ، غير أنها بيضاء المحاجر ، سوداء النواظر ، حمراء القناع ، حمة الشعر؟ كما قال الأستاذ حسن علوان . ولكن الجمال فيها جاء من السبك الحسن والموسيقى البديعة . شأنه في كل صورته وإن كان له بعض الصور لا بد أن يقرن الجمال فيها بالقوة ليتم عنده الحسن والجمال مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

(١) المرأة في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، السنة الثانية محرم ١٣٥٥ هـ ، الجزء

الرابع ، ص ١٨٨ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٣) المرأة في غزل المتنبي ، د . حسن الشماع بتصرف ص ٣٧ .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

فَرَأَيْتُ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي قَمَرِ الدُّجَى  
عَدْوِيَّةٌ بَدْوِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا  
مُتَأَوِّدًا غُصْنَ بِهِ يَتَأَوَّدُ  
سَلَبُ النَّفُوسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوَقَّدُ

فهذه المحبوبة جمعت بين حسن الشمس والقمر وبين اعتدال الغصن  
وتمايله وزادت على ذلك بأنها من قوم لهم عزة وكرامة يدافعون عنها  
بالمقتال والحروب . فكأنها جمعت الحسن من أقطاره مما يشعر بالقوة .  
وقد اعتمد شاعرنا على التجنيس لتقوية المعنى في - متأودا - يتأود .

العناصر البدوية في الشعر العربي تكسبه ضرباً من الجلال والروعة ،  
وقد فطن المتنبي لذلك . إذ يشعر قارىء ديوانه بأنه يجذبه من حياته  
المتحضرة المعقدة وما فيها من تكلف إلى البداوة والبساطة وأحضان الطبيعة .  
يقول مفضلاً البدويات على الحضريات (١) :

مَا أَوْجَهُ الْحَضْرَ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ  
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيهِ  
أَيْنَ الْمَعِيزِ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةٌ  
أَفْدِي ظَبَاءَ فَلَاقَ مَا عَرَفْنَ بِهَا  
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةٌ  
كَأَوْجِهِ الْبَدْوِيَّاتِ الرَّعَائِبِ  
وَفِي الْبَدَاوَةِ حَسَنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ  
وَعَبْرٌ نَاطِرَةٌ فِي الْحَسَنِ وَالطَّيْبِ  
مَضْغُ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغُ الْحَوَاجِبِ  
أُورَاكَهْنَ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ

تغنى شاعرنا بالطبع وفضله على التطبع وامتدح البدويات وجمالهن  
الطبعي فهن لا يصطنعن الجمال . فجمالهن خلقة ، كما أنهن لا يعرفن التكلف  
كالحضريات اللاتي يحتلن على الحسن ما قدرن على الاحتيال . وهو هنا لا ينتكر  
للزينة ، فهو حين يفضل البدويات ويندد بتطرية الحضريات وتكلفهن ،  
لا يثور على التزين بل على التصنع والمبالغة فيه ، فلأمانع من التحلي ، ولكن  
اللوم يقع على الإفراط فيه ، ومحاولة القبيحة أن تجمل نفسها مزيفة حقيقتها .  
ولعله يدعو هنا إلى قيمة إسلامية - التوازن - فهؤلاء الأعرابيات ليس من  
عادتهن أن يشددن خصورهن كلما برزن من الحمام لتشخيص أوراكن كما

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٩١-٢٩٢ .

تفعل نساء الحضرة . كما أنهن فصيحيات لا يمضغن الكلام غنجاً ولا يعرفن صبح  
الحواجب طلباً للزينة كما تفعل نساء الحضرة (١).

فأين جمال الحضريات اللاتي كالمعيز في الألفة من جمال البدويات  
النافرات كالآرام . كل هذه الصفات والشمائل يجيها الشاعر الفارس ، ويأنس  
بها ولا يرى كثيراً منها متوفراً عند معظم الحضرة ، لذلك فضل الأعرابيات على  
الحضريات لأنه رأى في البدو بساطةً وبعداً عن التكلف امتدحه من خلال  
غزله بالأعرابيات ، فإذا لم يكن للمرأة بد من بعض مظاهر التجميل ، لم ير  
أبو الطيب في ذلك تجملاً بل حياءً واحتشاماً .

فإذا لبس الحسان الوشي لم يلبسنه تجملاً ، بل صيانة لجمالهن ، وإذا  
ضفرن غدائرهن لم يكن ذلك زينة ، بل خيفة أن يختفين في الشعر لطوله  
وكثافته .

ولعل هذه الأوصاف من مبالغات شاعرنا في وصف الجمال والتغني به  
يقول (٢):

لِبَسْنَ الْوَشِيِّ لَامْتَجَمَلَاتٍ      وَلَكِنَّ كَيْ يَصْنُ بِهِ الْجَمَالَ  
وَضَفَّرْنَ الْغَدَائِرَ لِالْحُسْنِ      وَلَكِنَّ خِفْنَ فِي الشَّعْرِ الضَّلَالَ

فهؤلاء المحبوبات غنيات بحسنهن عن التجميل ولكنهن يصن جمالهن  
لبس الديباج . فهو ينفي عن محبوباته لبس الوشي للتجميل ، كما ينفي  
عنهن تظفير الغدائر للحسن . ويثبت أن ذلك في الأول لستر الجمال ، وفي  
الثاني خشية الضلال ، مبالغة في وصف شعر النساء بالكثرة والطول ،  
وما أبدع ذلك حسن تعليل .

كما قال في موضع آخر ينسب إلى العواذل الإعراف بحسن محبوبته (٣):

(١) المرأة في غزل المتنبي ، حسن الشماع ص ٧٢ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٣٨-٣٣٩ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَى بِلَيْلِ عَوَازِلِي      فَكُلْنَ نَرَى شَمْسًا وَمَاطَلَعَ الْفَجْرُ  
رَأَيْنُ التِّي لِلْسُّحْرِ فِي لَحْظَاتِهَا      سَيُوفٌ ظُبَاهَا مِنْ دَمِي أَبَدًا حَمْرُ  
تَنَاهَى سَكُونُ الْحُسْنِ فِي حَرَكَاتِهَا      فَلَيْسَ لِرَأْيٍ وَجْهَهَا لَمْ يَمُتْ عُدْرُ (١)

فالمتنبي هنا لم ير بأسا في تغيير ناموس الحياة ليصل إلى هدفه ، فانتقل بنا إلى عالم آخر حيث تشرق الشمس ليلاً ، والفجر لم يطلع بعد ، ونحن نقف أمام هذه الظاهرة مبهورين ، ونعيش مع الشاعر كما يقول الدكتور حسن الشماع " في أجوائه الغربية مأخوذين بسحر الإشراق في وجه الحبيب حيث أضاء ظلمة الليل المتمثل في شعرها وقد خص العوازل لأنه إذا اعترفن له بهذا مع إنكارهن عليه حبها كان هذا أدل على حسنها فعيون هذه المحبوبة قاتلة كما أن حسنها قاتل .

وفي البيت الثالث جمع بين صورتين متنافرتين ليستخلص منهما مثالا للجمال جامعاً السكون والحركة في وجهها ، فهي ساكنة متحركة ، ومن هذا التداخل والتفاعل يصل إلى الفن الجميل ليشكل صورة لمجاز عميق قد يصل حد الفلسفة" (٢).

يبالغ المتنبي في وصف محبوبته بالحسن ، فهو حسن فائق ليس للناس عهد بسحره وفتنته فيقول (٣):

وَلَوْ رَأَاهَا قَضِيبُ الْبَانَ لَمْ يَمْسِ (٤)      خَرِيدَةٌ لَوْ رَأَتْهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ  
وَلَأَسْمَعْتُ بِدِيَاكِجِ عَلِي كُنْسِ (٥)      مَا ضَاقَ قَبْلُكَ خَلْخَالٌ عَلَى رَشِيٍّ

فهو يعلو بحبيبه عن الشمس طلعة ، وعن قضيب البان تشبهاً ، ويعجب كيف يضيق عليها الخلخال ، ويغطي هودجها الديباج ، إذ هي ظبية وماعهد هذا في الظباء .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) المرأة في غزل أبي الطيب ص ٩١ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٤) الخريدة : المرأة الخفرة الحبيبة

(٥) كنس : الغزال .



ثم يجعل لكلام هذه المحبوبة قوة جاذبية تستهوى الطير إليها حين قال (١):

تَكَلَّفَ لَفْظَهَا الطَّيْرُ الْوَقُوعَا	رَسَّ رَسَّ رَدَّ رَدَّ رَدَّ رَدَّ رَدَّ رَدَّ
فِيَقِيْ مَنْ وَشَاحِيهَا شُوعَا	مَنْعَمَةٌ مَمْنَعَةٌ رِدَاحٌ
يَظُنُّ ضَجِيْعَهَا الزَّنْدَ الضَّجِيْعَا	تُرْفَعُ ثُوبَهَا الْأُرْدَافُ عَنْهَا
يُضِيءُ بِمَتْعِهِ الْبَدْرَ الطَّلُوعَا	ذِرَاعَاهَا عَدَا دَمَلَجِيْهَا
	كَأَنَّ نِقَابَهَا غَيْمٌ رَقِيْقٌ

فهذه المحبوبة ضخمة ممتلئة الجسم ، حسنة الألفاظ عذبتها ، عظيمة الأرداف والذراعان ، جميلة الوجه حتى أن نقابها يضيء بضوء وجهها كما يضيء الغيم الرقيق بضوء البدر . "المتنبي هنا يفرد الوجه عن الشعر ولكنه يقرن به بديلا يزيده فتنة وجمالا ، كأن يصور عليه قناعا يحد من ضوئه كحد الغمام الرقيق في ضوء البدر ولكنه يستفيد منه" (٢).

والمرأة التي يصفها المتنبي هي نفس العربية في الشعر الجاهلي ، الأثني الممتلئة ، الناعمة المنعمة الطرية ، هذه الحسناء ممتلئة الجسم ، ذات ردف ثقيل ، بيضاء ، سمراء الشفتين تحمل المحاسن والأضداد كلها يقول عنها (٣):

بَانُوا بِخُرْعُوبَةٍ لَهَا كَفَلٌ	يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقَعِدُهَا
رَبِحَلَّةٌ أَسْمَرٌ مَقْبَلُهَا	سَبِحَلَّةٌ أَبْيَضٌ مَجْرَدُهَا

فالمتنبي يقابل بين الصفة وضدها مظهرها حسن المرأة العربية في غير إفراط .

مما استهواه فأحسن التصرف في نعته وأبدع التخيل فيه : الثغر ومابه من أسنان وريقه ، وما يصدر عنه من نكهة وكلام . قال يذكر كل هذا (٤):

- 
- (١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٥٨-٣٥٩ .  
 (٢) غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه ، السباعي بيومي ، صحيفة دار العلوم ص ١٣٣ .  
 (٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٠-٢١ .  
 (٤) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٦٧-١٦٨ .

فَتَاةٌ تَسَاوَى عِقْدَهَا وَكَلَامُهَا      وَمَبْسَمُهَا الدَّرِي فِي الحُسْنِ وَالنَّظْمِ  
وَنَكَهَتْهَا وَالْمَتَدَلِّي وَقَرَقُفٌ      مُعْتَقَةٌ صَهْبَاءُ فِي الرِّيحِ وَالطَّعْمِ

وهو وإن امتدح ثغر محبوبته ، ووصف طيب رائحته ، وجمال أسنانها إضافةً إلى حسن حديثها ، إلا أنه قد يضمن في مواضع أخرى بريقها أن يكون ضرباً حين يقول (١) :

مَظْلُومَةٌ القَدِّ فِي تَشْبِيهِهِ غُصْنًا      مَظْلُومَةٌ الرِّيقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرْبًا  
بِيضَاءُ تَطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا      وَعَزَّ ذَٰلِكَ مَظْلُوبًا إِذَا طُلِبَا  
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعِي كَفَّ قَابِضِهِ      شَعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

فهذه المحبوبة ريقها أحلى من العسل ، وقدما إن شبه بالغصن ظلم ، ثم يوضح لون محبوبته ، فيقف أحياناً عند البياض الظاهر ، يردفه بما يغري بمستوره أو يطمع فيه ، ثم يجعل هذا الطمع بعيد التحقيق . فهذه المحبوبة وبياضها كالشمس شعاعها قريب ظاهر للعين بعيدة عن المنال .

ويشط به الخيال فيجعل بشرتها من بشر الدر الذي قلده ، فكان على نحرها المشرق كالشهب على البدر في قوله (٢) :

وَفَتَانَةٌ العَيْنِينَ فَتَالَةَ الهَوَىٰ      إِذَا نَفَحَتْ شَيْخًا رَوَّاحُهَا شَبَا  
لَهَا بَشْرُ الدَّرِّ الَّذِي قَلَدَتْ بِهِ      وَكَمْ أُرْ بَدْرًا قَبْلَهَا قُلْدُ الشُّهْبَا

فهذه المحبوبة ساحرة العينين ، ذات جمال أخاذ ، تعيد بروائحها وطيبها الشيخ شاباً . وفي هذه الصورة مبالغة تتجلى في اللفظتين . فتانة قتالة وتلك القدرة الخارقة في روائحها حيث تعيد للشيخ صباه كما أنها فاقت البدر في الضياء والبياض .

فقد يلفت نظر شاعرنا في محبوبته إضافةً للحسن الظاهري حسن الرائحة وطيب الحديث . ويرى أن هذه أهم مقومات الجمال في الأنثى .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

الزيادة في المعاني أبدا دأب المتنبي ، انظر إلى قوله يصف جمال محبوباته<sup>(١)</sup> :

عَمَرَكَ اللَّهُ هَلْ رَأَيْتَ بَدُورًا      طَلَعَتْ فِي بَرَاقِعِ وَعُقُودِ  
كُلَّ خَمَّصَانَةٍ أَرَقَّ مِنْ      الخَمْرِ بِقَلْبِ أَقْسَى مِنَ الْجَلْمُودِ  
ذَاتَ فَرَعٍ كَأَنَّمَا ضَرَبَ العَنْبَرُ      فِيهِ بِمَاءِ وَرْدٍ وَعُودِ  
حَالِكٍ كَالغَدَا فِ جَثَلِ دَجُوجِي      أَثِيثٍ جَعْدٍ بِلَا تَجْعِيدِ  
تَحْمِلُ المِسْكَ عَنَ غَدَائِرِهَا      الرِّيحُ وَتَفْتَرَّ عَنَ شَنِيبِ بَرُودِ

"ينوع المتنبي مصادر صورته المتعارضة ، فهو يصف النساء بأنهن كالبدور في الحسن ناعمات الأجسام قاسيات القلوب ، فيستقي صورته الأولى من صورة مادية تتمثل في ضمور خصرها ورقتها ، ويقابلها بأخرى معنوية يجدها في قسوة قلبها ، فقد قابل بين الرقة التي أراد بها نعومتها وصفاء لونها مع الصلابة والشدة"<sup>(٢)</sup>.

ثم يفرد الشعر عن الوجه ويقرنه كذلك بيديل كتضمخه بالطيب مثلا فهذه المحبوبة طيبة رائحة الشعر ، شعرها أسود كثير جعد ، من طيب رائحتها كأن الريح إذا مرت بها تحمل المسك من غدائرها .

وقال ينسب ظلم هذا الحسن الذي جمعته حبيته له ، كظلم متنيها لخصرها<sup>(٣)</sup> :

فَلَمْ أَرُ بَدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا      وَلَمْ تَرِ قَبْلِي مَيِّتًا يَتَكَلَّمُ  
ظُلُومٌ كَمَتْنِيهَا لَصَبٌ كَخَصْرِهَا      ضَعِيفٌ القَوِيُّ مِنْ فِعْلِهَا يَنْظَلِمُ  
بِفَرَعٍ يَعِيدُ اللَّيْلَ وَالصُّبْحَ نَيْرًا      وَوَجْهٌ يَعِيدُ الصُّبْحَ وَاللَّيْلَ مُظْلِمًا

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٩-٤٢ .

(٢) د. حسن الشماع ، المرأة في غزل المتنبي ص ٩٠ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

هذا يشير إلى ذوق الشاعر كما قال الدكتور حسن الشماص<sup>(١)</sup>: "وربما ذوق العصر نفسه ، فالمرأة الجميلة هي التي يدق خصرها ويعظم ردفها ، وهذه صورة تضع لونا للمرأة المثالية ، فالتى يفضلها شاعرنا على غيرها ، بيضاء مشرقة المحيا ، ذات شعر أسود كالليل ، ومن تفاعل هذين اللونين يخرج علينا بصورة فنية رائعة تظهر كفاءته وتفوقه في هذا الفن - الغزل - فالحببية تنشر فرعها على وجهها المشرق فتحيله ليلاً مظلماً ، ثم تكشف عنه فإذا به كنور الصباح ، فالظلمة والإشراق وجدا مادتهما في شعرها الأسود ، ووجهها المشرق ، فهي ضياء تبدد الظلام حيثما حلت ، وتهزم فلوله أينما استقرت " .

وهذا يذكرنا بقوله حين جمع لمحبوبته صفات الحسن كلها في بيتين<sup>(٢)</sup>:

بَدَتْ قَمْرًا وَمَالَتْ خُوطُ بَانَ      وَفَاحَتْ عَنَبْرًا وَرَنْتُ غَزَالًا  
وَجَارَتْ فِي الْحُكُومَةِ ثُمَّ أَبَدَتْ      لَنَا مِنْ حُسْنِ قَامَتِهَا اعْتِدَالًا

فهذا إلى حد ما نفس معاني الصورة السابقة ولكن بتنوع بسيط في الأسلوب كعادة المتنبي .

"قد يستغرب العقل الحديث جعل المتنبي ممدوحه جميلاً ، لامعنوياً فقط بل جسمياً أيضاً ، فإذا كنا نستطيع رد تشبيهه ممدوحيه بالشمس والقمر وحديثه عن بياض وجوههم إلى الجوانب المعنوية أحياناً"<sup>(٣)</sup>.

فإننا نجد أبياتاً يظهر فيها الحسن الجسمي واضحاً بل صارخاً منها قوله<sup>(٤)</sup>:

شَمْسٌ إِذَا الشَّمْسُ لَاقَتْهُ عَلَى فَرْسِي      تَرَدَّدَ النُّورُ فِيهَا مِنْ تَرَدُّدِهِ  
إِنْ يَقْبَحُ الحُسْنَ إِلَّا عِنْدَ طَلْعَتِهِ      فَالْعَبْدُ يَقْبَحُ إِلَّا عِنْدَ سَيِّدِهِ

(١) المرأة في غزل المتنبي ص ٧٩ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ .

(٣) سهيل عثمان ومخير كنعان ، المحصول الفكري للمتنبي ، دار الإرشاد ، بدون ، ص ١٥٨ .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

فهذا الممدوح شمس تستمد منه الشمس نورها ، وكل حسن إلى جواره قبح لأنه يفوق الحسن ، ومن الأبيات التي يهيب بأحد ممدوحيه أن يخاف الله ويستتر جماله ببرقع إذ يقول<sup>(١)</sup>:

خَفَّ اللَّهُ وَاسْتُرَ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقَعٍ

فَإِنْ لُحَّتْ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقِ

فالمتنبي يصور جمال هذا الممدوح ، وينعته بأنه فاتن يهلك عشقاً ، ويظهر في هذه الصورة الأثر البدوي في شعر المتنبي . حيث وردت بعض المصطلحات والألفاظ البدوية ، أو المتعارف عليها في البيئة البدوية مثل البرقع والخدور .

ويمدح المتنبي باعتدال القامات وحسن الوجوه ويجعلها من أمارات الفروسية والنسب العريق ، والطبع السليم ، فحين يمدح بجمال الوجه لا بد أن يشير إلى اقتران جمال المظهر بجمال المخبر ، فهؤلاء رجال يمتدح جمال وبهاء طلعتهم حين يقول<sup>(٢)</sup>:

كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ مِنْهَا الشَّمْسُ وَلَيْسَ فِيهَا الْمَشْرِقُ

فهم في الحسن والجمال مثل الشمس نوراً وإشراقاً . وهم كالشمس علواً وشهرةً ، كل هذا يدل على تقدير المتنبي للحسن والجمال الجسمي ، إضافة إلى أن له أبياتا يهجو فيها بالقبح والنواقص الجسمية .

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

عقب هذا التفصيل نتساءل ما الذي كان يروق المتنبي من جمال الإنسان بوجه عام وجمال المرأة بشكل خاص؟ أله ذوق خاص فيما يطريه ويستحسنه؟ أم أنه الذوق العربي العام إزاء القيم الجمالية التي يستحسنها كل الشعراء؟

قبل أن نحاول إجابة هذا السؤال لا يغيب عن أذهاننا أن المتنبي قد عاش في "عصر ساده فساد سياسي ، واقتصادي ، فسأت أحوال المجتمع فاندفع الناس إلى تلبية المتطلبات الفردية أولاً ، والعمل على هدم المنغصات الاجتماعية لإيجاد عدل اجتماعي ، بأن يوفر كل فرد فرص العدل الاجتماعي لنفسه ، ولكن المتنبي هدفه المجتمع بأسره ، فركز على الأخلاق الفاضلة ، وعدم الاغترار بالمظاهر ، فالخلق الطيب كما يقول خير رداء يتجمل به الفرد: وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَائِقِ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ أفعال الفتى وأخلاقه حسنة جميلة فليس يشرف بحسن وجهه وجمال شكله" (١).

فالجمال عند المتنبي لا بد أن يكون داخلياً قبل أن يكون في الشكل . إذ أن جمال الظاهر لا يغني عن جمال الباطن ، وإنما يبدأ التجميل من القلب من داخل النفس أولاً ، ليأخذ الإنسان سمته الواثق إلى تحقيق الكمال الإنساني المنشود . وقد استطاع المتنبي أن يعيش مع الجمال ويتكون به ، ومن ثم جعلنا نبحت معه عن الجمال في كل شيء حتى تقوى نفوسنا ، على اعتبار أن الجمال مظهر من مظاهر القوة . ونلمس هذا الجمال في مواطن أخرى عندما يمدح المتنبي بالصفات الخلقية . نحس الجمال من خلال الألفاظ التي عبر بها عن المعاني الخلقية "فقد تميز شعر المتنبي بقوة الألفاظ وفخامتها وروعة المعاني وإبداعها ، وسمو الخيال ، وإشراقه وعظمة البناء وابتكاره ، وإذا كان البلاغيون قد جعلوا أركان المدح أربعة : وهي العقل والعفة

(١) د. زهدى صبرى الحواجا ، موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي ، وفي شعر أبي العلاء المعري ، دار الأصالة ، الرياض ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٤٧-١٤٨ .

والعدل والشجاعة ، بحيث من ألم بها في قصيدة مدح متجنباً عيوب الكلام يكون قد أصاب الذروة والتوفيق ، فإن أبا الطيب يعتبر من هذه الناحية إماماً في المديح لإصابته هذه المعاني في كل مديحه ، بل وزاد عليها زيادات كثيرة كلها فطنة في الفكر ، وجزالة في اللفظ" (١).

ومن هنا نرى مداخه بالصفات الخلقية والتي يحاول فيها بعث القيم

العربية كما قال (٢):

أَحْيَيْتَ لِلشُّعْرَاءِ الشُّعْرَ فَأَمْتَدَّحُوا      جَمِيعَ مَنْ مَدَّحُوهُ بِالَّذِي فِيكَ  
وَعَلَّمُوا النَّاسَ مِنْكَ الْجُودَ وَاقْتَدَرُوا      عَلَى دَقِيقِ الْمَعَانِي مِنْ مَعَانِكَ

(١) د. مصطفى الشكعة ، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، عالم الكتب ، بيروت ،

ط/ثانية ١٩٨١م ، ص ١٩٧ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

## ثانيا : الصفات الخلقية في مديح المتنبي :

التطلع إلى القدوة أو المثل الأعلى ، وتجسيد الفضيلة والخير والنبيل في الإنسان العربي ، تلك هي نظرة المتنبي لإنسان عصره ، فقد حاول من خلال مداخله أن يوقظ في الإنسان العربي ، قيمه وأخلاقه ، حاول المتنبي أن يوقظ الإنسان المتعالي الكامن في أعماق كل عربي ، من أجل تجسيد القيم الإنسانية السامية في مجتمع إنساني سليم ، يحلم به كل عربي كما يحلم المتنبي الذي عاش في ظل ظروف افتقد فيها العربي قيم البطولة ، فالذات العربية بكل قيمها وأخلاقها "كادت أن تضيع في القرن الرابع بين ذوات أخرى أعجمية ، تحاربها لتطمس معالمها بشتى الطرق ، وبين ضعف أصاب هذه الذات العربية فلم تعد تمثيلاً لقيم الفروسية التي مجددها العرب في أشعارهم ، في هذه الظروف نشأ المتنبي يفتقد قيم البطولة فلا يجدها ، ويبحث عن المثل الأعلى لطموحاته وتعالیه فلا يعثر عليه"<sup>(١)</sup> ، فكان لشعره انتفاضة على عوامل الفساد ، وتوكيداً للقيم المثلى ، فبنى شخصية ممدوحه على قيم مثلى يعتبرها نموذجاً للبطولة والرجولة ، وعنواناً للكمال الإنساني ، وكان أول عناصر هذه الشخصية ، الخلق النبيل ، الذي يدفع إلى الأعمال الجليلة ، وكأنه بذلك يريد أن يخلق من أهل عصره رجالاً سناضلين .

على أن شاعرنا وهو يبعث تلك القيم ويحث معاصريه على التمسك بها له رأيه في الأخلاقيات ، يظهر في كل قيمة يمتدحها ، فالكرم والجود والشجاعة والعفة ، والحلم والعفو . كل تلك القيم لأبي الطيب نظريته فيها ، نظمها فكره في عقيدته ، ونثرها لسانه في شعره ، هي ذات سياسة موحدة ، لاتناقض فيها ولا اضطراب ، وشاعرنا لا يدعي أنه مبتكر هذا الرأي ، فقد حث عليه الإسلام في غير موضع ، غير أنه - المتنبي - لم يعالج هذه الفكرة معالجة شاعر يتجاوز عنها إن اضطره نفاق لممدوح ، أو ينقضها إذا ألح عليه

(١) أيمن محمد زكى العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفنى ، دار النهضة العربية ، ط/أولى ١٩٨٣م ، ص ٧٢ .



حسن تعليل جميل ، بل صدر عنها في كل شعره بأصولها وفروعها غير ملتائه<sup>(١)</sup>.

ولعل في مدائح بالصفات الخلقية ما يظهر ذلك ، وسنحاول أن نعرض بعض النصوص التي يمتدح فيها شاعرنا قيماً وأخلاقيات يظهر من خلالها رأيه في تلك القيم ، بعفوية وسهولة .

الشجاعة والكرم فضيلتان إذا وجدتا في المرء دلنا على حسن سيره ، وكاننا سياحه عن دفع ما يتسرب إليه من ضرر ، وصد ما يلحقه من قدح وذم ومديح شاعرنا يعتمد هاتين الفضيلتين أكثر من سواهما يقول<sup>(٢)</sup>:

إِنَّ حَلَّ فَارَقَتْ الْخَزَائِنُ مَالَهُ      أَوْ سَارَ فَارَقَتْ الْجُسُومَ الرُّوسَا  
مَلِكٌ إِذَا عَادَيْتَ نَفْسَكَ عَادِهِ      وَرَضِيَتْ أَوْحَشَ مَا كَرِهَتْ أَنْيَسَا  
الْخَائِضِ الْغَمْرَاتِ غَيْرَ مُدَافِعٍ      وَالشَّمْرِيِّ الْمَطْعَنِ الدَّاعِيَا

لقد صور المتنبي ممدوحه في بيت واحد صورتين مختلفتين في كثير من الألوان ، فالصورة الأولى تبين ممدوحه كريماً ذا هيبة ووقار ، وتوضح الثانية صورة البطل المقدم الذي لا يعرف للهزيمة مطرحاً ، ولا تقنع نفسه بغير النصر ، وقد كان لغنية المتنبي وطريقة عرضه الخاصة أثر في إبراز هذه الصورة على الوجه الحسن ، وقد عودنا المتنبي صياغة المعاني المعروفة في قوالب فنية خاصة به ، انظر إلى هذه المعاني التي استطاع أن يكسوها شاعرنا حلة خاصة<sup>(٣)</sup>:

يُعْطِيكَ مُبْتَدِرًا فَإِنْ أَعْجَلْتَهُ      أَعْطَاكَ مُعْتَذِرًا كَمَنْ قَدْ أَجْرَمَا  
وَيَرَى التَّعْظِيمَ أَنْ يَرَى مُتَوَاضِعًا      وَيَرَى التَّوَاضِعَ أَنْ يَرَى مُتَعَزِّمًا

(١) محمد مهدي علام ، فلسفة المتنبي من شعره ، صحيفة دار العلوم ، العدد الأول ، ص ٦٠ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٤٥-١٤٩ .

يَأْمَنُ لِحُجُودِ يَدَيْهِ فِي أَمْوَالِهِ      نَقَمٌ تَعَوَّدُ عَلَى الْيَتَامَى أَنْعَمَا  
حَتَّى يَقُولُ النَّاسُ مَاذَا عَاقِلًا      وَيَقُولُ بَيْتُ الْمَالِ مَاذَا مُسْلِمًا

الجود في العطاء ، والتفضل قبل السؤال خلق عظيم ، وقيمة حميدة كما أن تجمل النفس بالخضوع والتواضع ، ومنعها من الترفع على الناس ، وعدم الكبر على أحد. خصلة عظيمة تدل على طهارة النفس وسلامة الذوق . وهذا ما أثنى به المتنبي على ممدوحه في هذه الصورة وإن كانت معان متداولة إلا أن صياغة شاعرنا لها واعتماده المقابلة والتجنيس أمر له اعتباره مما أخرج لنا هذه المعاني في صورة حسنة ، ثم يتبع تلك المعاني بأن صور لنا ممدوحه جواداً ليس كغيره من الكرام ، فهو يتبع الناس ليعطيهم ، وهو متلاف للمال حتى كأن بينه وبين المال عداوة ، هذه العداوة في تفريقه للمال تعود أنعماً على اليتامى وإحساناً لهم يتصرف بسخاء ويفرط في الجود حتى ينسبه الناس إلى الجنون ، ويشك الناس في إسلامه لأنه لا يكاد يدخل بيت المال شيء لأنه يجود به قبل أن يصل للبيت ، وبالتالي يشك الناس بإسلامه شكهم في عقله .

يكاد المتنبي أن ينظر إلى الإنسانية بأجمعها من خلال بعض الأفراد الذين يعدون في نظر شاعرنا قمة الأخلاق والقيم . فلم يكن يستهدف الشخص بقدر ما كان يستهدف المثل الأعلى أو القيمة التي كانت تنبع من ذات الشاعر في مديحه يقول (١):

إِنَّمَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحَابٌ      هَطِلٌ فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ  
إِنَّمَا بَدْرٌ رَزَايَا وَعَطَايَا      وَمَنَايَا وَطِعَانٌ وَضِرَابٌ  
مَا يُجِيلُ الطَّرْفُ إِلَّا حَمْدَتَهُ      جَهْدَهَا الْأَيْدِي وَذَمَّتْهُ الرِّقَابُ

فهذا الممدوح نفاع ضرار ، مثله في ذلك مثل السحاب فيه هلاك لقوم وحياة لآخرين ولكثرة وقوع تلك الأفعال من ممدوحه عدها الشاعر وإياه

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

كالشيء الواحد ، ثم يبالي فيقول (١) :

مآبه قتل أعاديه ولكن  
فله هيبه من لا يترجى  
طاعن الفرسان في الأحداق شزرا  
باعث النفس على الهول الذي  
يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب  
وله جود مرجى لأيهاب  
وعجاج الحرب للشمس نقاب  
ليس لنفس وقعت فيه إياب

الذي تعارف عليه الناس - كما يقول عبد القاهر - "أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم ، وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليس ملكه ويصفو من منازعاتهم ، والمتنبى يرى أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك ، فالمتنبى يبالي في وصف ممدوحه بالسخاء والجود ، وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبه أن يصدق رجاء الراجين ، وأن يجنبهم الحية في آمالهم قد بلغت به هذا الحد" (٢) ، وإن كان من يرجوه ذئاب تقتات بجثث أعدائه ، فقد عودها ذلك ، وهذا الممدوح مهيب كل الهيبة ، جواد غاية في الجود ، كما أنه متعود على الحرب والقتال ، يحمل نفسه على ركوب الأمر العظيم .

هذه نظرة المتنبى للرجل الشجاع المقدم يعلل أفعاله وفي كل علة نجد ممدوح المتنبى يختلف عن غيره ، فأفعال كل ممدوح في نظر المتنبى لها علل خاصة به لا تنطبق على غير ممدوحه أو هكذا أراد المتنبى .

في هذه الصورة اهتم شاعرنا بالطباق والمقابلة بين الألفاظ والمعاني في البيت الأول مقابلة بين ثواب ، عقاب ، والبيت الثاني في رزايا وعطايا ، وفي البيت الثالث مقابلة في حمدته ، ذمته . كما أن هناك من الجناس والطباق في بقية الصور الكثير مثل الجناس في البيت الرابع يترجى ومرجى .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) عبد القاهرة الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تحقيق محمود محمد شاعر ، دار المدني بجدة

ط / أولى ١٤١٢ هـ ، ص ٢٩٦ .

ثم هناك صورة فنية بديعة حين استعار للشمس نقاب ، وهذا النقاب عبارة عن الغبار الذي تثيره الحيل وفرسانها في ساحة المعركة ، فهذه صور المتنبي دائماً تنقع الغلة وتبعث في النفس الراحة والجمال ، ومن ثم توحى بالقوة .

"تنوعت شخصية الممدوح أمام أنظار المتنبي ، غير أن ملامحه لم تتبدل فالفروسية هي الصبغة الطاغية على مديحه ، وكان عصره عصر فروسية وحرب دائمة ، وقد عرف أن الشجاعة أبرز الصفات ، والنعوت التي تهز نفس الممدوح وتدفعه إلى السخاء"<sup>(١)</sup>. يقول المتنبي في مقام المدح بهذه القيم العربية مضمياً عليها من خياله وثقافته مايلفت الأنظار<sup>(٢)</sup>:

فَتَى يَشْتَهِي طُولَ الْبِلَادِ وَوَقْتَهُ	تَضِيقُ بِهِ أَوْقَاتَهُ وَالْمَقَاصِدُ
أَخُو غَزَوَاتٍ مَا تَغَبَّ سَيْوْفُهُ	رِقَابُهُمْ إِلَّا وَسَيْحَانُ جَامِدُ
وَمِنْ شَرَفِ الْإِقْدَامِ أَنْكَ فِيهِمْ	عَلَى الْقَتْلِ مَوْمُوقٌ كَأَنَّكَ شَاكِدُ
وَأَنَّ دَمًا أَجْرَيْتَهُ بِكَ فَاخِرٌ	وَأَنَّ فَوْادًا رُعْتَهُ لَكَ حَامِدُ
نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ	لَهَنَّتْ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ
فَأَنْتَ حَسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ	وَأَنْتَ لِوَاءِ الدِّينِ وَاللَّهُ عَاقِدُ

توافرت في هذا الممدوح كل قيم الفروسية العربية ، فهو أمير عربي ، شريف الأصل ، كريم معطاء ، يجاهد ويناضل عن الإسلام ، كثير الغزوات عظيم الانتصارات ، تضيق الأوقات بهمته وفضله ، شجاع ، والشجاع محبوب حتى عند من يقتله ، حتى أن الدم الذي يسفكه هذا الممدوح يفخر بأنه سفك بيده ، وكذلك القلب الذي يخيفه هذا الممدوح ، يحمده إعجاباً بشجاعته وإقدامه ، يقول الأستاذ علي الجارم<sup>(٣)</sup>: "نعرف أن الناس يمدحون الملوك بالشجاعة والإقدام ، وكثرة الغزوات ، وأن النصر معقود بلوائهم ،

(١) د. محمد التونجي ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، عالم الكتب ، ط/ثانية

١٤١٣هـ ، ص ١٦٢ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٩٨-٤٠٠ .

(٣) سر نبوغ المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ، السنة الثانية ، ص ٦٧ .

ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناوله صغار الفنانين ويصعد في المدح بهذه المعاني إلى أفق أعلى ، تظهر فيه خصائصه ، وتتميز مواهبه فيجعل قتل الأعداء نهباً لأعمارهم ، واغتصاباً لها ، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة ، اتصل بعضها ببعض ، فكانت عمراً طويلاً غير محدود ثم يصعد إلى أوج أسمى ، فيتخيل أن ممدوحه ، حاز هذه الأعمار غير المتناهية ، والتي انتزعها من أعدائه ، ولا يكتفي بالحكم بأن هذا يصل به إلى الخلود ، بل يدعي أن الدنيا بمن فيها وما فيها تنهأ بهذا الخلود ، ثم ما أجل تصوير النصر المحقق في البيت التالي .. فقد أورد أفكاراً إسلامية وانطباعات من القرآن الكريم ، ففي قوله "والله ضارب" معنى مستوحى من الدين في قوله تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } (١).

لكي يستجمع المتنبي ويؤلف لممدوحه سائر الفضائل يمتدحه بغاية القوة وغاية الرحمة معاً فيقول (٢):

هُوَ الْبَحْرُ غَضَّ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا      عَلَى الدَّرِّ وَاحْذَرُهُ إِذَا كَانَ مُزِيدًا  
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَحْرَ يَعْثُرُ بِالْفَتْحِ      وَهَذَا الَّذِي يَأْتِي الْفَتْحَ مُتَعَمِّدًا

يصف ممدوحه بالجود والبطش معاً في تشبيهه بالبحر في حالتي الهدوء والهياج ، لأن البحر إذا كان هادئاً أمكن اقتناص الدر من قاعه ، وإذا كان مزبداً ألقى بمن فيه إلى مورد التهلكة ، بل إن هذا الممدوح أشد فتكاً من البحر لأن البحر يغرق الفتى من غير قصد ، وأما هو فيهلك بقصد وعمد ، وتشبيه الممدوح بالبحر كما قال الأستاذ إيليا الحاوي : "أدى للشاعر فضيلتين يمتدحه بها ، فضيلة الكرم في حال السلم ، وفضيلة الصخب والعنف في حال الحرب ، فإذا رأيت هادئاً راضياً أقبل عليه . واغترف من درره وكرمه ، وأما إذا وجدتته مغتاضاً فابتعد عنه ، فإنه يريدك ويهلكك ، وتأليف الشاعر لهذه الفضائل المتناقضة ، هو سبيله لإبداع صورة الكمال لممدوحه" (٣).

(١) سورة الأنفال : آية ١٧

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣) في النقد والأدب ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

على أن عظمة هذا الممدوح قد تجاوزت الدهماء ، وشجاعته قد أخضعت له الملوك الذين يلقونه سجداً يقول في ذلك (١):

تَظَلُّ مُلُوكَ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ  
وَتُحْيِي لَهُ الْمَالَ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا  
وَذَكِي تَظْنِيهِ طَلِيْعَةً عَيْنِيهِ  
وَصَوْلٌ إِلَى الْمُسْتَضْعَبَاتِ يَخِيْلُهُ  
تَفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجَّداً  
وَيُقْتَلُ مَايْحِيِي التَّبَسُّمَ وَالْجَدَا  
يَرَى قَلْبُهُ فِي يَوْمِهِ مَا تَرَى غَدَا  
فَلَوْ كَانَ قِرْنَ الشَّمْسِ مَاءً لَأُورِدَا

المتنبي فان في مدائحہ ، لأنه يجعل من ممدوحه بطلاً عظيماً ويضفي عليه من الصفات العالية ما يجعل سادة الناس حتى ملوكهم يتضاءلون أمام عظمتہ ، هذا الممدوح لا يقاتل في سبيل الغنائم . فما يناله منها يبذله في الكرم والمعروف . وهو إلى ذلك فائق الذكاء ، لا ينفذ إلى ما يطالعه في يومه وحسب ، بل يستدرك ما سوف يطالعه به غده ، قبل أن يقع ، ومهما تألبت عليه الصعاب فإنه يقتحمها ويجتازها ، حتى أنه لا يأنف ولا يجزع من الارتقاء إلى النجوم . وهنا يؤكد عزم وإصرار ممدوحه على بلوغ هدفه وغايته حتى لو كان الهدف في الشمس لوصل إليه .

في البيت الثاني "جعل الزيادة والوفرة حياة للمال ، وتفريقه في العطاء قتلاً" ، ثم أثبت الحياة فعلاً للصوارم ، والقتل فعلاً للتبسم من باب المجاز" (٢).

ويصل شاعرنا إلى قمة البراعة الفنية ، والذوق الرفيع عندما يدح بقوله (٣):

هَنِيئًا لَكَ الْعِيدَ الَّذِي أَنْتَ عَيْدُهُ  
وَلَا زَالَتْ الْأَعْيَادُ لِبُسْكَ بَعْدَهُ  
وَعِيدٌ لِمَنْ سَمَى وَضَحَّى وَعَيْدًا  
تُسَلِّمُ مَخْرُوقًا وَتُعْطِي مَجْدًا

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) انظر عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص ٣٧٢ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٧ .

فَذَا الْيَوْمِ فِي الْأَيَّامِ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى  
كَمَا كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدًا كَانَ أَوْحَدًا

جعل من الأعياد زياً جميلاً لممدوحه ، وهذا الممدوح مثل الأيام  
الغراء في جبين الدهر الناصع ، ثم جعل ممدوحه عيداً أكبر من العيد يقول  
إن هذا اليوم - العيد - في فرحته ونشوته مثل هذا الممدوح في الناس بأساً  
وشجاعةً وكرماً .

فيوم العيد شبيهه بالممدوح في تفردته على سائر الأيام ، كما تفرد هو  
على سائر الناس .

ثم يصف ممدوحه بالحلم الجميل عن قدرة وقوة لاعن ضعف وخوف  
فيقول (١) :

رَأَيْتَكَ مَحْضَ الْحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ      وَلَوْ شِئْتَ - كَانَ الْحِلْمُ مِنْكَ الْمُهَنْدَا  
وَلَكِنَّ تَفُوقَ النَّاسِ رَأْيًا وَحِكْمَةً      كَمَا فَقَّتَهُمْ حَالًا وَنَفْسًا وَمَحْتَدَا  
يَدُقُّ عَلَى الْأَفْكَارِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ      فَيَتْرُكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخِذُ مَا بَدَا

يؤكد المتنبي كعادته أن القوة في مواطن القوة حكمة والعفو والحلم في  
مواضع العفو قوة ، ثم ينثني إلى تركيز المدح على شخص ممدوحه ووصفه  
بالحكمة البالغة التي فاق بها جميع الناس ، كما فاقهم بخلقه أو محتده ، حتى  
جعل أفعاله وتصرفاته فوق مستوى العقول والأفكار ، حتى أن كثيرا من  
الناس لاتفهم من فضله إلا الظاهر وتترك الحفي .

يشير المتنبي في هذه الصورة إلى فضائل إسلامية سامية ، فقد أمر  
الإسلام المؤمنين أن يتجاوزوا عن إساءة المسيء في سبيل الإئتلاف والمودة .  
كما أن أخلاق المؤمن الذي يألف ويؤلف ، توجب عليه العفو عند المقدرة  
فبالحلم تستأصل جذور العداوات من النفوس ، وتستل الخصومات من  
القلوب ، والمتنبي وهو يمدح بتلك الفضائل لا يغيب عن أذهاننا أنه يدعو

أبناء عصره إلى تلك القيم الإسلامية والتي منها التعامل بالمعروف في غير صلف ولا كبرياء ، آخذين بقوله تعالى : { خُذْ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }<sup>(١)</sup>. هذه الأخلاق التي دعا إليها المتنبي وتمنى أن يتحلى معاصروه بها محافظة على القيم والمكارم العربية والإسلامية ، بعد أن اندثرت في عصره

وإن كان في الأبيات " يغري ممدوحه بالذين عفا عنهم فأبطرهم العفو واصطنع معهم الحلم فظنوه عجزاً ، وهو يعجب من أناة ممدوحه وحلمه ، ويتق برأيه في كلام يملؤه الوعيد "<sup>(٢)</sup>.

أعجب المتنبي بالخلق الحميد ، والشجاعة الفائقة ، والكرم الواسع ، فامتدح بهذه الصفات وأثنى بها على من توسم فيهم مثالا للإنسان العربي الأصيل يقول<sup>(٣)</sup>:

وبالورى قلّ عندي كثرة العدد	لما وزنت بك الدنيا فملت بها
أذاقها طعم تكليل الأم للولد	ملك إذا امتلأت مالا خزائنه
بقلبه ما ترى عيناه بعد غد	ماضي الجنان يريه الحزم قبل غد
ولالسماح الذي فيه سماح يد	ماذا البهائم ولاذا النور من بشر
حتى إذا افترقا عادت ولم يعد	أي الأكف تباري الغيث ما اتفقا

كشف المتنبي في هذه الصورة وغيرها من الصور كما يقول الأستاذ أيمن العشماوي<sup>(٤)</sup>: عن إعجاب بقيم ومثل جعلت من ممدوحه الإنسان الأمثل الذي لانظير له في عين شاعرنا ، والذي يريد أن يوضحه أمام الرأي العام في عصره بوصفه رمزا للقيمة المتقدمة التي يجب على العرب أن يتمسكوا بها ، فوصف شجاعة هذا الممدوح وكرمه وصفاً يخرج بهما عن

(١) سورة الأعراف : آية ١٩٩

(٢) طه حسين ، مع المتنبي ، دار المعارف ، ط/١٢ بدون ، ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٧١-٧٣ .

(٤) قصيدة المديح عند المتنبي ص ١١٧ بتصرف .



كونه مجرد وصف لصفات تستدعي المدح إلى حديث زهو وإعجاب .. ولكنه يبالغ حين يقول إن هذا الممدوح أجل من أن يكون بشراً لعظم صفاته ونبل فضائله .. كما قال مبالغا<sup>(١)</sup>:

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ      بِأَحْسَنِ مَا يَثْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ  
أَيَّ أَسَدًا فِي جِسْمِهِ رُوحٌ ضَيِّغَمٌ      وَكَمْ أَسَدٌ أَرْوَاحَهُنَّ كِلَابُ  
جَرَى الْخَلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنْكَ وَاحِدٌ      وَأَنْكَ لَيْثٌ وَالْمُلُوكُ ذُنَابُ

رفع المتنبي ممدوحه إلى ما لا يطمع فيه الملوك ، إذ جعله فوق كل مدح يثني عليه به ، وامتدح قوته تلك القوة التي شغف بها شاعرنا فرأى أن قوة ممدوحه وهمته ماهي إلا قوة الأسود وبطشها ، على أن هناك أسودا بأرواح كلاب ولا يوجد لهذا الممدوح شبيهه فهو ليث وغيره من الملوك ذئاب ، كما قال<sup>(٢)</sup>:

فَتَى يَمْلَأُ الْأَفْعَالَ رَأْيًا وَحِكْمَةً      وَنَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ  
تَزِيدُ عَطَايَاهُ عَلَى اللَّبْثِ كَثْرَةً      وَتَلْبُثُ أَمْوَاهُ السَّحَابِ فَتَنْضَبُ

كما أحب المتنبي القوة وحث عليها أحب كذلك العقل والحكمة والتريث ومدح بهما ، فهذا الممدوح حلیم وأفعاله تتسم بالعقلانية والحكمة في رضاه وغضبه ، كما أن جوده وكرمه عظيم يفوق جود السحاب وفضلها .

تظل الصورة المثلى للبطولة تعتمل في كيان المتنبي ، وقد رسم في مدائحها كلها ملامح واحدة لبطولة خارقة ، رأى فيها سمات الطبيعة العربية ، وأراد لها التحقق والحياة ، من ذلك قوله يمدح قوة وبطولة قائد عربي<sup>(٣)</sup>:

وَفَوَارِسٌ يُحْيِي الْجِمَامُ نَفُوسَهَا      فَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَوَانِ  
مَا زِلْتَ تَضْرِبُهُمْ دِرَاكًا فِي الذُّرَى      ضَرْبًا كَأَنَّ السَّيْفَ فِيهِ اثْنَانِ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٣١٨-٣٢٦ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣١٤-٣١٦ .

خَصَّ الْجَمَاجِمِ وَالْوَجُوهَ كَأَنَّمَا  
قَدْ سُوِّدَتْ شَجَرِ الْجِبَالِ شُعُورَهُمْ  
وَجَرَى عَلَى الْوَرَقِ النَّجِيعُ الْقَانِي

ينطلق شاعرنا من منطلق إسلامي فيرى أن قتلى المسلمين في المعركة شهداء يدخلون الجنة {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ} (١). يقول المتنبي : إن هؤلاء الأبطال المسلمين الذين يستشهدون في الميدان فرحون بما نالوا من الشهادة ، وكأن في الموت حياة لهم ، ثم يخاطب ممدوحه القائد في تلك المعركة ، ويصف إقدامه وإيقاعه بالأعداء فيقول : "إنك تضربهم في أبدانهم ضرباً متتابعاً ، وكأن السيف الواحد وهو يضرب سيفان ، ثم خص بالضرب الرؤوس والوجوه ، لأنها أشرف الأعضاء . ثم وصف قتلى الأعداء فقال : كثر قتلاهم حتى أطارت الريح شعورهم وتناثرت على الجبال فغيرت خضرة الأشجار سوادا ، فكان الغربان وقعت عليها ، ولشدة القتل جرت الدماء على ورق الشجر ، فاحمر وصار لحمته كأنه ثمر النارج معلقة بالأغصان" (٢).

ترى كيف يكون صدى هذه الصورة على المتلقين؟؟ أغلب الظن أن العجز والهوان والصغار كان قد دب دبيبه في النفوس ، وتحولت آمالهم وشهواتهم من السماء إلى الأرض ، ولكن أثرها لم يكن قاصرا على مجرد التسرية والتلهية عند قائلها ، فهي الممتنى الذي انفعلت به نفسه وتلظت شوقا للاقتراب منه وتحقيقه في أبناء عصره .. طمعا في القوة وبعثا للهمم العريية وإحياء للقيم الأصيلة . ولا يخفى علينا ما في هذه اللوحة من الصور البيانية المعبرة والمؤدية للمعنى في سلاسة ووضوح . ونادرا ما نجد مثل هذه الصور القوية المعبرة عن القوة في أسمى معانيها - الجهاد في سبيل الله - .

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٩

(٢) محمود حسن أبو ناجي ، الحرب في شعر المتنبي ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

أخلاق السادة التي توطد للإنسان القوي نفوذه ، تتمثل في حب المخاطرة ، والقوة واحتقار الضعف ، وهذا خلق شاعرنا ، أو هي الأقنعة التي تحدث عنها النقاد المعاصرون في شعر المتنبي أضفاها على ممدوحه في قوله (١) :

فَهْلُ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا	وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ الْأَعَادِي
تُرْدُّ بِهِ الصَّرَاصِرَ وَالنَّعِيَا	تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْهَا فِي حَدِيثِ
حِدَادًا لَمْ تُشَقِّ لَهَا الْجُيُوبَا	وَقَدْ لَيْسَتْ دِمَاءَهُمْ عَلَيْهِم
خَلَطْنَا فِي عِظَامِهِمُ الْكُعُوبَا	أَدَمْنَا طَعْنَهُمُ وَالْقَتْلَ حَتَّى
تُسْقَى فِي قُحُوفِهِمُ الْحَلِيْبَا	كَأَنَّ خَيْوَلَنَا كَانَتْ قَدِيمَا
تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالْتَرِيْبَا	فَمَرَّتْ غَيْرَ نَافِرَةٍ عَلَيْهِم

يحدث المتنبي عن نفسه أولاً بأنها لاتهدأ ولاتسكن إلا إلى قتل الأعداء ثم يتمنى على ممدوحه بصفته محباً للغزو ، معترفاً بقوته ، أن يغزو غزوة تشفي قلب هذا الشاعر ، فصور معركة يكثر فيها القتل حتى تجتمع الطيور على جثث القتلى ، وكله ثقة في ممدوحه لما عرف عن هذا الممدوح أنه قاس على نفسه ، لايحفل بنعم الحياة ، نعيمه في القوة والانتصار ، في هذه المعركة يصور شاعرنا القتلى من كثرة الطعن كأن دماؤهم وقد تلطخت بها الطير ثياب حداد على هؤلاء القتلى ، تعد القوة في هذه الصورة مبدأ الحياة الأول عند المتنبي ، خاصة في معاملة الأعداء ، فهو يصور شدة الطعن والقسوة في القتال حتى اختلطت كعوب الرماح بعظام القتلى ، ثم صور خيلهم وهي تدوس جماجم الأعداء وصدورهم ، وفرسانها عليها ، حتى يظن المرء أن هذه الخيول وهي تدوس جماجم هؤلاء الأعداء كانت تسقى الحليب في قحوفهم فهي متعودة عليهم لاتنفر منها ، وهذه من أبشع صور القتل ، بينما يراها المتنبي قمة الشجاعة والنيل من الأعداء ، فالقسوة مع العدو والقوة في قتالهم مطلب مهم في عصر المتنبي .

أثنى المتنبي على ممدوحه في صورة أخرى بحب القتال وسفك الدماء  
حين قال (١):

مَلَّتْ مُقَامَ يَوْمٍ لَيْسَ فِيهِ      طِعَانُ صَادِقٍ وَدَمٌّ صَبِيبُ  
وَأَنْتَ الْمَلِكُ تَمْرِضُهُ الْحَشَايَا      لِهَمَّتْهُ وَتَشْفِيهِ الْحُرُوبُ

لقد اعتاد هذا الممدوح الجلاد وسفك الدماء ، حتى أنه إذا امتنع يوماً واحداً عن هذه العادة يشعر بالملل ، هذا الممدوح لبعدهمته وإقدامه لا يرى شفاءه إلا في ممارسة الحروب ، بينما الجلوس والنوم على الحشايا في نظره مجلبة للأدواء ، ولكن يؤخذ على شاعرنا أنه لم يحدد غاية هذا الممدوح من القتال ، بل صورته أنه محب للقتال والحرب ، والإسلام ينهى عن سفك الدماء بغير حق .

وقد أحسن المتنبي تصوير المعركة في النص الأول حتى أننا نتصور أشلاء القتلى متناثرة ، والخيول تدوس جماجمهم وصدورهم ، والطيور الجارحة تنهش ما بقي من أعضائهم ، وكأننا نقف مع المتنبي في هذه المعركة .

المتنبي في مديحه لمن آمن بفضائلهم وأخلاقهم ، ينقلنا إلى جو فني رفيع ، نلمس فيه جوانب البطولة ، ونحيا معانيها ، ومرتفع معه إلى مستوى إنساني ، نلتقي فيه مع الإنسان المثل . فالممدوح عنده بطل مثالي ، يتميز بكل صفات المثل الأعلى (٢). وصفات البطولة عند شاعرنا كل متماسك ، منبثقة عن شخصية البطل الكامنة في ذاته يقول (٣):

لَقَدْ أَمِنْتَ بِكَ الْإِعْدَامَ نَفْسٌ      تُعَدُّ رَجَاءَهَا إِيَّاكَ مَالًا  
وَقَدْ وَجَلَّتْ قُلُوبٌ مِنْكَ حَتَّى      غَدَّتْ أَوْجَالُهَا فِيهَا وَجَالًا

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٢) إنعام الجندي ، دراسات في الأدب العربي ، ط / ثانية ، بيروت ١٩٦٧م ، ص ٢٥٦ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ .

سُرُورُكَ أَنْ تَسْرَّ النَّاسَ طَرًّا      تَعَلَّمَهُمْ عَلَيْكَ بِهِ الدَّلَالَا  
إِذَا سَأَلُوا شَكَرْتَهُمْ عَلَيْهِ      وَإِنْ سَكَتُوا سَأَلْتَهُمُ السُّؤَالَ

كل نفس ترجو عطاء هذا الممدوح آمنة لأنها تعلم أنه جواد لا يجيب قاصديه ، هذا في حال السلم والدعة ، أما في حال الحرب والقتال فقد تخافه القلوب حتى يخاف خوفهم ، وتوجل أوجالهم ، لعلم أعدائه بشدته وقوة بأسه هذا الممدوح من الطيبة والكرم بحيث لا يحصل له السرور والفرح إلا إذا سر الناس جميعا ، وكأنه بذلك يعودهم الدلال عليه والطمع في كرمه وطيبته ، هذا الممدوح لكرمه يجب العطاء ، ويشكر على السؤال ، وهذا يذكرنا بقول ابن الرومي (١):

يَأْمَنُ إِذَا مَا سَأَلْنَاهُ اسْتَهْلَ لَنَا      وَإِنْ سَكَتْنَا تَجَنَّى عِلَّةَ الطَّلَبِ

جميل أن يجود الإنسان بما لديه في كل وقت والأجمل أن لا يجوج الناس إلى سؤاله ، وهذا ماتغنى به شاعرينا ، فكل واحد منهما امتدح بفضيلة الكرم . وزاد أن جعل من كرم ممدوحه أنه يحتال ويستنبط العلة كي يسأله المحتاج فيعطى ويجود في عصر شحت فيه الأنفس وبخل الأغنياء . فالمتنبي هنا مدح بالكرم والبأس ، وهذه صفات تهما ، ونقف متدبرين لها ، فهل اندثرت هذه الصفات في عصر شاعرنا؟ مما دفعه للمديح بها وإظهارها في صور جمالية ، وصياغتها صياغة حسنة حتى يعيد للإنسان العربي قيمه الأصيلة ويحثه على التمسك بها والحفاظ عليها تحقيقا للمجد والعظمة ، وعرض تلك القيم بطريقة تدل على موهبة شاعرنا الفنية إضافة إلى تفرده في ذلك العرض ، وكأنه بذلك يلزم نفسه تحرير الناس من كل ما يعانون ، لأنه يرى أنهم بطبيعتهم أنبل وأقوى من أن يجرفهم تيار الفساد. التنغي بالفضائل الإنسانية والمدح بالمآثر كان دأب المتنبي وصولاً إلى

هدف أسمى هو مدح القيمة نفسها وبعثها في نفوس معاصريه يقول (٢):  
ضُرُوبٌ لِهَامِ الضَّارِبِي الهَامِ فِي الوَعْيِ      خَفِيفٌ إِذَا مَا أَثْقَلَ الفَرَسَ اللَّبْدُ

(١) ديوان ابن الرومي ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٠٦-١٠٨ .

بَصِيرٌ بِأَخَذِ الْحَمْدِ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ  
وَلَوْ خَبَّأَتْهُ بَيْنَ أُنْيَابِهَا الْأُسْدُ  
بِتَأْمِيلِهِ يَغْنَى الْفَتَى قَبْلَ نَيْلِهِ  
وَبِالذَّعْرِ مِنْ قَبْلِ الْمَهْنَدِ يَنْقُدُ

وجد المتنبي في ممدوحه صفات تؤهله لتسم المجد ، وتجعله يختلف عن معاصريه ، مثل الكرم والشجاعة حتى غدا هذا الممدوح في نظر شاعرنا نموذجاً يحتذى ومثلاً للإنسان العربي الأصيل ، فامتدح شجاعته وفروسيته وكذلك حسن بصيرته ، وكرمه الذي لا يجيب مؤمليه ، كما أنه لقوته وشدة بأسه يرهبه العدو ويتقطع من خوفه قبل قتله بالسيف هذا الممدوح تخلق بالمكارم وهو بعد ناشئ كما يقول المتنبي<sup>(١)</sup>:

أَرَى الْقَمْرَابْنَ الشَّمْسَ قَدْ لَبَسَ الْعَلَا  
رَوَيْدَكَ حَتَّى يَلْبَسَ الشَّعَرَ الْخَدُ  
وَبَاشَرَ أَبْكَارَ الْمَكَارِمِ أَمْرَدَا  
وَكَانَ كَذَا أَبَاؤُهُ وَهُمْ مُرْدُ

يمتدح المتنبي هنا بالقيم الخلقية من جمال الوجه ، وتشبيهه بالقمر ، وكذلك يمدح القيم الخلقية ، فهذا الممدوح تخلق بالمكارم التي ابتدعها ، وهو بعد ناشئ ، فأشار المتنبي بلفظ أبكار المكارم ليدل على ذلك ، وقد تعرض لهذا المعنى في غير موضع وإن كان الاختلاف في اللفظ ، فتارة يقول : عذارياً ، وتارة يقول : أبكارا وكلها بمعنى أن هذا الممدوح يأتي بالمكارم ابتداءً ، لم يسبقه أحد إليها ، ولعل هذه الصورة تؤدي بنا إلى الصورة التي امتدح فيها المتنبي نفسه من خلال صحبه ورجاله التي يقول فيها<sup>(٢)</sup>:

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَايِخِ  
كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُّوا مُرْدُ  
ثِقَالٌ إِذَا لَاقُوا خِفَافٌ إِذَا دُعُوا  
كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا  
إِذَا شِئَتْ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَائِحِ  
رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

فصحب شاعرنا أهل للحرب محنكون ، وطأتهم على العدو شديدة سريعوا الإجابة للنجدة ، يسد الواحد منهم مسد الجماعة ، هؤلاء الرجال يستعذبون الموت فداءً لشاعرنا .. وكأني بالمتنبي في مديحه هذا يثني على نفسه فهتمته العالية ، ونفسه الكبيرة لاترضى بصحبة غير معادلة له ، فالقرين

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٠٦-١٠٨ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

بالمقارن يقتدي ، وهؤلاء الرفاق لا بد أن هناك صفات وأخلاق تجمع بينهم وبين شاعرنا ، ولعل في هذه الصورة من المعاني بعض ما في الصورة السابقة فكلتاهما وصف للرجال في مواطن اللقاء .

كان المتنبي يعشق البطولة ، ويفتن بالمغامرين ، ومن كانت هذه شمائله يعجب بالأبطال ويتوق إلى الإتصال بهم والتعرف عليهم ، فيمدحهم ويمجد فعالهم ، ويخلد مآثرهم ، من الأبطال الذين أعجب بهم ومدحهم فاتك "فقد أعجب المتنبي بشجاعته وسخائه ، وقد أوحى له فكره ماشاء أن ينسبه إليه من كرم وشجاعة وفضل ونبل وغالى في ذلك أيما مغالاة حتى قال" (١) :

كَفَاتِكِ وَدَخُولِ الْكَافِ مَنْقَصَةٌ      كَالشَّمْسِ قُلْتُ ، وَمَالِ الشَّمْسِ أَمْثَالُ

هذا الممدوح لامثيل لجوده وكرمه ، مثل الشمس التي لامثال لها ، ومع هذا لم ينس أن يرد على من يلقبه بالمجنون بقوله :

وَقَدْ يُلَقَّبُهُ الْمَجْنُونُ حَاسِدُهُ      إِذَا اخْتَلَطْنَ وَبَعْضُ الْعَقْلِ عَقَالُ

فقد احتال المتنبي هنا لتأويل لقب ممدوحه "المجنون" على أحسن الوجوه فقال : إنما جنونه إذا تزاومت السيوف ، واختلطت الصفوف ، فحاسده يلقبه بهذا اللقب ، لما يراه من شجاعته وإقدامه ، مع أن العقل في مثل هذه الحال لا يحمد ثم يفسر ذلك بقوله :

إِذَا الْعِدَا نَشَبَتْ فِيهِمْ مَخَالِبُهُ      لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمْ حِلْمٌ وَرَبَّالُ

يقول : هو في الحرب أسد ، والأسد لا يعرف الحلم ، بذلك لا يلام في عدم حلمه كما لا يلام الأسد ، ولا يسمين مجنونا ، لأنه قد تحول في الحرب عن طبيعة الإنسان إلى طبيعة الأسد (٢) ، ثم أكمل بقية فضائله في قوله (٣) :

- 
- (١) أحمد أحمد بدوى ، المتنبي في مصر ، صحيفة دار العلوم ، السنة الثانية ، الجزء الرابع ، ص ١٠ .
- (٢) علي بن سيده الأندلسي ، شرح مشكل شعر المتنبي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، المأمون للتراث ، ط/بدون ، ص ٣٠٤ بتصرف .
- (٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ .

تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمَفْتَخِرٍ      فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالٌ  
لَطَفَتْ رَأْيِكَ فِي بَرِّي وَتَكْرِمَتِي      إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْعَلِيَاءِ يَحْتَالُ  
حَتَّى غَدَوْتَ وَلِلْأَخْبَارِ تَجْوَالُ      وَلِلْكَوَاكِبِ فِي كَفْيِكَ آمَالُ

هذا الممدوح محمود الأفعال والأقوال ، وليس يحمده دونه أحد ،  
يحتال على العلياء لشدة كرمه ، وعظيم عطاياه ، حتى غدا هذا الممدوح  
والأخبار تجول في الآفاق بحسن ذكره والثناء عليه ، وصار لكل أمل في  
نوال كفيه حتى الكواكب .

والمتنبي في هذا المقام كعادته قد احتفى بصورته الشعرية ، فأتت  
جديدة تطرب الأذن لسماعها ، وتتوق النفس للاستزادة منها ، وهذا دأب  
المتنبي حين يمدح بشرح النفوس بطريقة عرضه للأخلاق والفضائل الإسلامية  
التي نصب نفسه للدفاع عنها وبعثها في نفوس أبناء عصره ، تقديرًا منه  
للذات العربية وقيمها الجليلة .

الشاعر عادة ينظر إلى الممدوح ، ويستلهم من تأثير شخصيته فيه  
مدائحه أما المتنبي فإنه يمدح الشخصية المثالية التي في خياله فيقول (١) :

وَمَا حَارَتْ الْأَوْهَامُ فِي عَظْمِ شَأْنِهِ      بِأَكْثَرِ مِمَّا حَارَ فِي حُسْنِهِ الطَّرْفُ  
وَلَا نَالَ مِنْ حَسَادِهِ الْغَيْظُ وَالْأَذَى      بِأَعْظَمِ مِمَّا نَالَ مِنْ وَفْرِهِ العُرْفُ  
تَفَكَّرَهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حُكْمٌ      وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظُرْفٌ

هذا الممدوح بلغ الغاية في العظمة والحسن ، فالمتعامل معه يدهش  
ويحترق في عظم شأنه ، كما يحترق الطرف في جمال خلقه وعظيم صفاته ،  
إضافة إلى علمه وحكمته ، فالشروع في الأعمال بعد التفكير فيها ،  
والوقوف على عواقبها ، ثم السير فيها مع التأييد - الروية والتؤدة - هي  
حال الممدوح لذا فالسلامة حليفه لأنه يضرب في الأمور بفكر حاضر وجنان  
ثابت ، وهذه الأعمال كلها نابعة من داخله الذي ينطوي على دين قوي ،



وما يظهره للناس من الكياسة ، والظرف هو انعكاس لأخلاقه الحسنة ومبادئه القويمة .

وفي معظم مدائح المتنبي دعوة للقوة ، تلك القوة الواعية الحكيمة الخالية من الطيش والتهور ، والتي يعلن من خلالها شاعرنا عظمة الإسلام في شخص ممدوحه ، مثيراً للحماسة وحاملاً على أعداء العقيدة يقول (١):

أَرَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ	إِمَّا لِعَجْزٍ وَإِمَّا رَهْبٍ
وَأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِي جَانِبٍ	قَلِيلِ الرَّقَادِ كَثِيرِ التَّعَبِ
كَأَنَّكَ وَحَدَّكَ وَحَدَّتَهُ	وَدَانَ الْبَرِيَّةَ بِابْنِ وَأَبٍ

الجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صورهِ ، جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين ، والإسلام منهج تكافلي إيجابي ، لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد ، بل أمرهم بمحاربة المفسدين ، والمتنبي بعاطفته الإسلامية الغيورة ألمه ضعف المسلمين في عصره ، واجتماعهم مع المشركين ، ومعاونتهم ، بدلاً من قتالهم ، إما لخوف أو لعجز ، فتحدث عن ضرورة ترابطهم ضد أعدائهم ، ورأى في ممدوحه أمل المسلمين يدافع عن كرامتهم وعن دين الله ، ينزل على أمر الجهاد ولا ينام مع كثرة تعبهِ وعظم مسؤولياته ، وكأنه وحده الموحد لله وسائر الناس يدينون بدين النصارى .  
وصورة المتنبي هذه ليست من مبتكرات الخيال ، بمقدار ماهي ثمرة من ثمار تجربته ، إنها حاجة عميقة في نفس شاعرنا أملتها عليه ظروف مجتمعه وحالة الناس في عصره ، وبعدهم عن الدين وتخليهم عن قيمهم ومبادئهم الأصيلة .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

"تحولت قيم الفروسية ومعاني البطولة التي تغنى بها العرب في جاهليتهم وإسلامهم إلى صور جديدة ، وقيم ، ودلالات جديدة عند المتنبي ، حيث تعمق المتنبي فلسفة هذه القيم مستهدفاً بث روح الشجاعة والتضحية والفداء ونبذ الشعور بالهوان الذي أوشك أن يسيطر على عقلية الإنسان في عصره" (١) من الصور التي مدح فيها بكل تلك القيم والمعاني أو بعضها قوله (٢):

وَشَيْخٌ فِي الشَّبَابِ وَلَيْسَ شَيْخًا      يَسْمَى كُلَّ مَنْ بَلَغَ الْمَشِيئًا  
قَسَا ، فَالْأَسَدُ تَفَزَعُ مِنْ قَوَاهِ      وَرَقٌّ فَتَحْنُ نَفَزَعُ أَنْ يَذُوبًا  
أَشَدَّ مِنَ الرِّيَّاحِ الْهَوَجِ بَطْشًا      وَأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوبًا  
وَقَالُوا ذَاكَ أَرْمَى مَنْ رَأَيْنَا      فَقُلْتُ رَأَيْتُمْ الْغَرَضَ الْقَرِيئًا

ينتهز شاعرنا الفرصة كما يقول سهيل عثمان ورفيقه (٣): "كي يشيد بقوة الشباب ، بل الفتيان على السيادة والوصول إلى أعلى المراتب ، وهي عند المتنبي دليل العقل الراجح ، والإرادة القوية ، والطبع الممتاز" . فهذا الممدوح الشاب يعد برأيه وحكمته شيخا ، في حين لا يكون كل من بلغ المشيب شيخا ، وهذا الممدوح كذلك شجاع قاس في الحرب لا تأخذه بعدوه رأفة ولا رحمة ، في حين أنه مع أوليائه في ساعة السلم رحيم رقيق حتى أنه يخشى عليه من هذه الرقة أن يذوب ، في الوغى وساعة التزال يكون هذا الممدوح أشد من الريح العاتية بطشا بأعدائه بينما يكون في الكرم والجود أسرع من هبوبها ، وكذلك فاق أقرانه ومعاصريه في الرماية حتى قالوا : عنه أرمى من رأينا ، ولكن المتنبي يفخر بممدوحه ويرد عنه ذلك بأن مارأى القوم من قوته وتسديد رمايته ، كل ذلك أقرب الأغراض لممدوحه . إذ أن هناك أغراضاً لم يدركها بعد قومه منها آباء هذا الممدوح وأجداده الذين ورثوه كل تلك القيم يمدحهم المتنبي فيقول (٤):

(١) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفنى ، ص ١١٥ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٣) المحصول الفكرى للمتنبي ، ص ١٥٥ .

(٤) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

أَلَسْتَ ابْنَ الْأَوْلَى سَعِدُوا وَسَادُوا      وَلَمْ يَلِدُوا أَمْرَاءَ إِلَّا نَجِيبًا  
وَنَالُوا مَا اشْتَهَوْا بِالْحَزْمِ هَوْنًا      وَصَادَ الْوَحْشُ نَمْلَهُمْ دَبِيبًا

فآباء هذا الممدوح وأجداده مثالا<sup>(١)</sup> في الحزم والقوة والطيب ، يوجه المتنبي تساؤلا لممدوحه والغرض منه التقرير وتأكيد تلك الفضائل والقيم التي أسبغها على ممدوحه ، فهو يعلل لها بأنها وراثه توارثها أهل هذا الممدوح فالنجابة والحزم من صفاتهم ، ويبالغ حين يجعل نمل هؤلاء القوم لعظمتهم وشجاعتهم يصيد الوحش كناية عن قوتهم .

قيم الإنسان العربي الأصيل تتمثل في الشجاعة ، والشهامة ، والكرم ، والتضحية ، والعفة ، والصبر ، والحق والجمال ، كل هذه القيم في حقيقتها قيم إنسانية خالصة ، والمتنبي يجمع تلك الفضائل كلها ليمدح بها في صورة واحدة تمثل الإنسان العربي الأصيل يقول<sup>(١)</sup>:

عَفِيفٌ تَرَوْقُ الشَّمْسُ صُورَةَ وَجْهِهِ      وَلَوْ نَزَلَتْ شَوْقًا لِحَادِ إِلَى الظِّلِّ  
شُجَاعٌ كَأَنَّ الحَرْبَ عَاشِقَةٌ لَهُ      إِذَا زَارَهَا فَدَتَّهُ بِالخَيْلِ وَالرَّجْلِ  
وَرِيَانٌ لَا تُصْدِي إِلَى الخَمْرِ نَفْسُهُ      وَعَطْشَانٌ لَا تَرَوِي يَدَاهُ مِنَ البَذْلِ  
فَتَى لَا يَرْجَى أَنْ تَتَمَّ طَهَارَةٌ      لِمَنْ لَمْ يُطَهَّرْ رَاحَتِيهِ مِنَ البُخْلِ

في عصور التغير الاجتماعي تندثر القيم المثالية ، فنبحث عن العفة فلا نجدها ، ولكن ممدوح المتنبي عفيف عن كل شيء مكروه أو محرم ، ولو نزلت الشمس شوقا إليه لحاد إلى الظل ، وهو متعاهد مع الحرب بينه وبينها رابطة الحب القوية ، فهو يعشقها وهي تعشقه ، ورغم شجاعته وحبه للحرب إلا أنه لا يقتل لأن الفرسان والرجالة يفدونهم فيها ، كما أن من عفة هذا الممدوح أنه لا يشرب الخمر ولا تصدى إليها نفسه لما هو عليه من صيانة وترفع عن المحارم ، كما أنه مجبول على الكرم والبذل والجود فكأن يديه عطشى لا تفتقر عن العطاء ، هذا الممدوح يمقت البخل ولا يرى ميرا من الدنس إلا من جانب البخل وتطهر منه ، فالمتنبي في هذه الصورة أحب قيما وتوحد بها ، وسعى إليها ومجدها ، ومن خلالها تعامل مع كل شيء .

قريب من هذا النص قوله يمدح بمعظم القيم التي سبقت بصورة أخرى<sup>(١)</sup>:

وَأَعِفَّةٌ فِي سَيْفِهِ وَسِنَانِهِ      وَلَكِنَّهَا فِي الْكَفِّ وَالْفَرْجِ وَالْفَمِ  
فَأَحْسَنَ وَجْهِ فِي الْوَرَى وَجْهَ مُحْسِنٍ      وَأَيَّمَنُ كَفًّا فِيهِمْ كَفًّا مُنْعِمِ  
وَأَشْرَفَهُمْ مَنْ كَانَ أَشْرَفَ هَمِّهِ      وَأَكْبَرَ إِقْدَامًا عَلَى كُلِّ مُعْظِمِ

رأى المتنبي أن اجتناب ما لا يحل ولا يجمل ، وصد النفس عن تتبع الشهوات الدنيئة عفة ، وعفة ممدوحه لا تكون في الحرب والقتال ، بل في كفه فلا يأخذ من مال غيره ، وفي فرجه فلا يقرب الزنا ، وفي لسانه فلا يقول إلا الحق ، لا يأكل حراما فقد ملك عنان نفسه ، وقبض على زمامها ، وجه هذا الممدوح أحسن الوجوه لإحسانه ويده أيمن الأيدي لإنعامه وجوده ، هذا الممدوح خال مما يمدح به الملوك من نسب وشرف ، لأنه استحدث لنفسه شرفا بعلو همته .

والمتنبي يميل بطبيعته الفنية إلى إبراز الصورة في أكمل محاسنها ، وأسمى معانيها ، مما يؤدي إلى تهيئة الحس لتصور واقع الإنسان العربي من خلال مثله وقيمه التي يدافع عنها شاعرنا ويحاول بعثها .

القضاة هم أقدر الناس على أمانة التقوى ، وأقدرهم على النهوض بالتبعية وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور . المتنبي فطن لذلك ولم يفته أن يمدح القضاة بما يجب أن يتخلق به القاضي المسلم فقال<sup>(٢)</sup>:

قَاضٍ إِذَا التَّبَسَّ الْأَمْرَانِ عَنْ لَه      رَأَى يَخْلَصُ بَيْنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ  
غَضُّ الشَّبَابِ بَعِيدٌ فَجَرُّ لَيْلَتِهِ      مَجَانِبُ الْعَيْنِ لِلْفُحْشَاءِ وَالْوَسَنِ  
شَرَابُهُ النَّشْجُ لِالْرِّيِّ يَطْلُبُهُ      وَطَعْمُهُ لِقَوَامِ الْجِسْمِ لِالسَّمَنِ

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٦٦-٢٧١ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

القَائِلُ الصِّدْقَ فِيهِ مَا يَضُرُّ بِهِ      وَالْوَاحِدُ الْحَالَتَيْنِ السَّرَّ وَالْعَلْنَ  
 الْفَاصِلُ الْحُكْمَ عَنِ الْأَوْلُونَ بِهِ      وَالْمُظْهِرُ الْحَقَّ لِلسَّاهِي عَلَى الذَّهْنِ  
 أفعاله نَسَبٌ لَوْ لَمْ يَقُلْ مَعَهَا      جَدِّي الْخَصِيبُ عَرَفْنَا الْعِرْقَ بِالْغُصْنِ

ممدوح شاعرنا في هذه الأبيات قاض ذكي فطن ، له رأي وحكمة يدلي بالقول الفصل ، ويحسن توجيه الأمور ، وتبين حلول المشكلات في القضايا التي تهمة ، هذا الممدوح يطيل السهر في كسب الدين والعلم ، بينما تسهر عينه في طلب العلم والدين ، يغض بصره عن النظر فيما لا يحل ، فكما أن عينه مجانية للنوم كذلك مجانبه للفحشاء ، شأن هذا الممدوح شأن الحكماء والزهاد ، فهو لا يسرف في أمور حياته ، من ذلك أكله وشرابه لا يقصد بالشراب والطعام سوى قوام الجسم والاستعانة على القيام بأمور دينه ودينه ، لا يطلب من ذلك السمنة ، شأن معاصرنا الذين بات جل همهم الإسراف في المأكل والمشرب ، حتى أثقلتهم السمنة عن مسؤولياتهم ، والعرب تعرف أنه ليس في الأخلاق خلق أحسن بالإصلاح والنظام من الصدق فهو رأس الفضائل وأس المروءة ، وقد رأى المنتبى أن ممدوحه تحلى بالصدق فكملت صفاته وسمت أخلاقه ، كما أن أفعال هذا الممدوح حميدة حتى أنه لا يجمل منها فما يأتيه في السر والعلانية سواء ، لأنه يستمد أفعاله من خلقه الإسلامي وعقيدته الراسخة ، هذا القاضي يظهر الحق ويحكم بالعدل ، وكثيراً ما أظهر حق الخصم الغبي على الخصم الذكي ، لأنه يعمل بكتاب الله أفعال هذا الممدوح كريمة ، وخصاله حميدة ، تدل على كرم أصله ، وتقوم له مقام النسب ، حتى لو لم يقل جدي فلان ، لكانت أفعاله كافية للدلالة عليه ، كما يستدل بالغصن على الأصل .

هذا الممدوح يقبل على الزائرين إقبالاً يفرحون به ، فيزول حزنهم ، وتنبسط وجوههم ، وكأني بالمنتبى وقد ضايقه تصرف بعض الحكام في الاحتجاب عن الزائرين ، وعدم البشاشة في وجه الضيف ، مما دعاه لدفع هذه المذمة عن ممدوحه ولفت نظر معاصريه لقيمة الابتسام والبشاشة ،

عملاً بقول الرسول الكريم\* : "تَسْمُكُ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ" ، فقال هو (١) :

لِلنَّاطِرِينَ إِلَى إِقْبَالِهِ فَرَحٌ      يُزِيلُ مَا يَجِبَاهُ الْقَوْمُ مِنْ غَضَنٍ

نظر المتنبي نظرة شمولية واسعة تستهدف القيم الإنسانية الشاملة ، ومن ثم كانت مدائحُه تشوفاً إلى قيم إنسانية عالية ، وقد وجد في ممدوحه أصدق ممثل لتلك القيم السامية فامتدحه وأثنى عليه بقوله (٢) :

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيْتَهُ      عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤِيدَاتٍ قَوَائِمُهُ  
فَأَبْصَرْتُ بَدْرًا لَا يُرَى الْبَدْرُ مِثْلَهُ      وَخَاطَبْتُ بَحْرًا لَا يُرَى الْإِبْرَ عَائِمُهُ  
غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ      بِلَاوَاصِفٍ وَالشَّعْرَ تَهْزِي طَمَاطِمُهُ  
تُحَارِبُهُ الْأَعْدَاءُ وَهِيَ عَبِيدُهُ      وَتُدْخِرُ الْأَمْوَالَ وَهِيَ غَنَائِمُهُ  
وَيَسْتَكْبِرُونَ الدَّهْرَ وَالِدَّهْرُ دُونَهُ      وَيَسْتَعْظُمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ خَادِمُهُ

يخبر المتنبي أنه خاض حوادث الزمان حتى وصل إلى ممدوحه ، فوجده بدمراً في الصباحة ، وجرأ في العلم والسخاء ، ثم تعجب غاضباً لانصراف الشعراء عن التغني بقيم هذا الممدوح من فروسية وكرم وعلم ، إذ لمثل هذه القيم يكون الشعر الذي يتصوره شاعرنا ، ولا يستطيع غيره من الشعراء تصوره ، فهم مشغولون بالأمر الجزئية التي فقدت الدلالة والمعنى ، ثم يبالح في مديحه حين يجعل من أعداء هذا الممدوح عبيداً له ، يحاربونه عبثاً لأنه سيدهم ، ويملك رقابهم ، وهم يدخرون الأموال التي هي من أسلابه في الحرب التي يغنمها بإقدامه وشجاعته ، ثم يصور شاعرنا هذا الممدوح بأنه أعظم من نكبات الدهر ومصائبه ، ومالموت إلا خادم له ينفذ مراده في قتاله للأعداء (٣).

في موضع آخر جعل المتنبي من أبرز صفات ممدوحه ابتعاده عن أجواء المجون ، والحلاعة ، وترفعه عن الدنيا ، من ذلك إعراضه عما انتشر

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ . \* انظر الصحاح

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٥٨-٦٠ .

(٣) الحرب في شعر المتنبي ، ج ٢ ، ص ١٣٦ بتصرف .

في عصره يقول (١):

لَا تَجِدُ الْخَمْرُ فِي مَكَارِمِهِ      إِذَا انْتَشَى خُلَّةً تَلَفَاهَا  
تَصَاحِبُ الرَّاحُ أَرْيَحِيَّتَهُ      فَتَسْقُطُ الرَّاحُ دُونَ أَدْنَاهَا  
تَشْرِقُ تَيْجَانُهُ بِغُرَّتِيهِ      إِشْرَاقُ أَلْفَاظِهِ بِمَعْنَاهَا

هذا الممدوح جواد كريم ، وليس ممن إذا شرب الخمر تلافى خلة عنده ، إذ مكارم هذا الممدوح عظيمة بحيث لا تتلف الخمر منها شيئاً ، كما أن فعل أريحيته يفوق فعل الراح ، لأن كرمه وجوده لحدود لهما ، هذا الممدوح إذا وضع التاج على رأسه أشرق تاجه بإشراق وجهه كما تشرق الألفاظ بمعانيها حين ينطق بها .

هذا هو المتنبي يطوع المعاني كلها لمديحه ، سواء منها المقبول وغيره ، فكأن المعاني كلها سخرت لخدمة غرض شاعرنا .

الإنسان مطبوع على سبعة أخلاق كما قال الإمام الترمذي (٢): "مطبوع على الغضب ، والرغبة ، والرغبة ، والرغبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك \* فأراد أن يجعل من تلك الأخلاق موضوعاً لمديحه نراه يمتدح غضب ممدوحه مع فضائل تطغى عليه (٣):

يَقُومُ مَقَامَ الْجَيْشِ تَقْطِيبُ وَجْهِهِ      وَيَسْتَعْرِقُ الْأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ  
وَإِنْ فَقَدَ الْإِعْطَاءَ حَنَّتْ يَمِينُهُ      إِلَيْهِ حَنِينُ الْإِلْفِ فَارَقَهُ الْإِلْفُ  
أَدِيبٌ رَسَتْ لِلْعِلْمِ فِي أَرْضِ صَدْرِهِ      جِبَالُ جِبَالِ الْأَرْضِ فِي جَنْبِهَا قَفُ  
جَوَادٌ سَمَتْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَفَهُ      سُمُورًا أَوْدَ الدَّهْرُ أَنْ اسْمَهُ كَفُ

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٤١١ .

(٢) الإمام أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم ، م ٣٢٠ هـ ، أدب النفس ، تحقيق د. أحمد عبد الرحيم السايح ، ط / أولى ١٤١٣ هـ ، ص ٨٢ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

\* الشرك : المقصود هنا الشراكة بين الخلق والآخرة . لا الشرك في العبادة .

فالحديث هنا عن الأخلاق ، وليس العصيدة .  
وربما يكون قد وقع خطأ مطبعي في الكتاب والمقصود الشرك والله أعلم .

للمتنبى قدرة عجيبة في تحويل الأمر الكريه إلى أمر مستحب ، وهذا يتضح من وصفه لغضب ممدوحه وطريقة تناوله لهذه الصفة ومن ثم امتداحها حين أراد التعبير عن هيبة ممدوحه ، فإذا عبس روع الناس غضبه فلجأوا إلى الطاعة فقام ذلك مقام الجيش ، وإذا قال قام القليل من كلامه مقام الخطب الطوال ، فهو لبلاغته يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، والمتنبى يصل هذه الميزة في ممدوحه بمزايا وفضائل أخرى تطفئ على الغضب منها الكرم وحب هذا الممدوح وتعوده العطاء ، حتى ألفت يده الإعطاء فلو لم يعط يوماً لأشتاقت يده إلى الإعطاء وحت له كما يجن الإلف إلى إلفه إذا فارقه ، وهذه صورة توحى بكرم هذا الممدوح وسخائه ، ومن المزايا الأخرى التي مدح بها شاعرنا في هذه الصورة العلم والأدب . فهذا الممدوح ليس كغيره في العلم "فقد استعار شاعرنا لعلمه اسم الجبال لكثرتة وزيادته على علم الناس ، وشدة رسوخه وامتانته ، ولما استعار لعلمه اسم الجبال ، استعار لصدرة الأرض لأن الجبال لا تكون إلا على الأرض ، ثم فضلها على جبال الأرض . فضل الجبال على القفاف يعني أن جبال الأرض تصغر في جنب جبال العلم التي في صدره ، إضافة لهذا كله فإن لكف هذا الممدوح الذكر العالي وفي كل خير لأوليائه ، وشر لأعدائه ، حتى إن الدهر يتمنى أن يسمى كفا ليشارك كفه ، في الاسم ، لأن كفه مجمع الخير والشر ، وهي فيهما أغلب من الدهر" (١).

بهذه الفضائل كلها مجتمعة كان ممدوح المتنبى هو الإنسان المثال .. أراد شاعرنا أن يبعث في نفوس معاصريه هذه الفضائل فمدح بها وأسبغ عليها من روحه وطموحه الكثير الكثير .

(١) عبد الرحمن البرقوقي ، هامش شرح ديوان المتنبى ، ج ٣ ، ص ٢٩ .



بعد كل هذه المزايا ، والتي يرى فيها غير المتنبئ أوجه المديح كلها ، لا يقف شاعرنا بمدحه عندها بل يضيف عليها مكارم أخرى ، فالصدق والمساواة ، والحرية والكرامة ، والعدل والعلم . قيم أخلاقية تدفع هذه القيم وكثير غيرها الإنسان إلى تغيير واقعه وحاله ، تطلعا إلى الكمال المنشود ، وتأتي على رأس هذه الفضائل قيمة الشجاعة ، وقد توسم المتنبئ في ممدوحه كل هذه الفضائل فقال فيه (١):

قَبْلَ نَوَالِهِ ، وَيُنِيلُ قَبْلَ سَوَالِهِ	وَيُمِيتُ قَبْلَ قِتَالِهِ وَيَبِيشُ
أَغْنَاهُ مَقْبَلُهَا عَنِ اسْتِعْجَالِهِ	إِنَّ الرِّيحَ إِذَا عَمَدْنَ لِنَظِيرِ
حَتَّى تَسَاوَى النَّاسُ فِي إِفْضَالِهِ	أَعْطَى وَمَنْ عَلَى المُلُوكِ بَعْفُوهُ
حَسَدٌ لِسَائِلِهِ عَلَى إِقْلَالِهِ	وَكَأَنَّما جَدَّوَاهُ مِنْ إِكْثَارِهِ

هذا الممدوح اتصف بصفات تختلف عن صفات معاصريه ، فقد جمع إضافة للكرم والشجاعة ، عفواً عن الأسرى والمذنبين ، فالعدو يخافه فيموت قبل لقائه ، والسائل يفرح لسؤاله لأنه يبش له قبل أن يعطيه ويعطيه قبل سؤاله ، فهو كالرياح لا يحتاج في الكرم إلى محرك بعطاياه ، وعفوه عن الأسرى والمذنبين ، تساوى الجميع في فضله ، مفرط في الجود والعطاء . تضخمت ذات هذا الممدوح ، وأصبح في نظر شاعرنا مثالا للقائد العربي المحنك فقد تجسدت قيم أجداده العرب في شخصه ، يقول المتنبئ مادحاً شجاعته (٢):

فِي قَلْبِهِ وَيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ	الجَيْشُ جَيْشُكَ غَيْرَ أَنَّكَ جَيْشُهُ
وَتُنَازِلُ الأَبْطَالِ عَنِ الأَبْطَالِهِ	تَرُدُّ الطَّعَانَ المَرَّ عَنِ فَرَسَانِهِ
يَأْمَنُ يُرِيدُ حَيَاتَهُ لِرِجَالِهِ	كُلُّ يُرِيدُ رِجَالَهُ لِحَيَاتِهِ

يصور لنا المتنبئ ممدوحه قائداً محنكاً ، يعرف قيمة فرسانه ويضن بأرواحهم أن تذهب إلا في سبيل تحقيق الأهداف ، لذا فهو يقاتل عن رجاله

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٨٥-١٩٠ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٨٥-١٩٠ .

حتى عد هو جيش للجيش فمكانه غير معروف تارة يكون في قلب الجيش وأخرى في الميمنة ، وساعة في شماله وهذا شأن القائد البطل يتحرك في كل أرجاء المعركة لأنه مقدم لايهاب الموت ، جرت عادة القواد أن يقدموا الفرسان لحمايتهم ، ولكن هذا القائد يضحى بنفسه فداء فرسانه ورجاله ، وهذا قمة الكرم والشجاعة ، وقد خلع شاعرنا على ممدوحه هذا المعنى في صياغة رقيقة ناعمة .

لم تكن الشجاعة والتضحية هي قيم الفروسية الوحيدة التي تمثلها المتنبي في مدائحه . بل كانت تساندها قيم أخرى منها الأنفة والكبرياء وعلو الهمة ، إضافة إلى غزارة العلم والانشغال بالمعالي . من ذلك قوله (١) :

فَارِسِيٌّ لَهُ مِنَ الْمَجْدِ تَاجٌ      كَانَ مِنْ جَوْهَرٍ عَلَى أَبْرُوازٍ  
نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلِ شَرِيفٍ      وَلَوْ أَنِّي لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازِي  
وَكَأَنَّ الْفَرِيدَ وَالذَّرَّ وَالْيَأْسَ      قُوَّتَ مِنْ لَفْظِهِ وَسَامُ الرِّكَازِ  
شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ الْمَعَالِي      عَنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ  
بَلَغَتْهُ الْبَلَاغَةُ الْجَهْدُ بِالْعَفَا      وَوَنَالَ الْإِسْهَابَ بِالْإِيجَازِ  
حَامِلُ الْحَرْبِ وَالذِّيَاتِ عَنِّ الْقَدَا      سَوْمٌ وَثَقُلِ الدِّيُونِ وَالْإِعْوَازِ

هكذا يبدو التعبير عن الصورة المثالية للإنسان المثل كما حاول شاعرنا أن يتمثلها في شخصية ممدوحه ، فلم يكن النص مجرد عرض لصفات يمدح بها الشاعر ، يقول الأستاذ أيمن العشماوى : إنما أصبحت إعادة حياة ونظام مجتمع بأكمله ، إعادة واسترجاع لكل التقاليد المرتبطة بقيم عصر يعنى به الشاعر كل العناية ، ويحاول أن يجسده بكل مكوناته أمام معاصريه ، حتى على استرجاعه ، وبعثاً للقيم المندثرة فيه ، ومن ثم المحافظة عليها ، والتمسك بها طلباً للقوة والعزة (٢).

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

(٢) قصيدة المديح عند المتنبي ص ١٢٠ بتصرف .

تلك القوة التي تعيد الحق إلى نصابه وتخلص الأمة مما هي فيه ،  
والهمة التي ينبغي أن تكون في المعالي وينشغل بها الإنسان الممدوح عن  
غيرها من ألوان الترف والنعم الملهية .

إضافة إلى هذه الفضائل كلها فقد أثنى شاعرنا على ممدوحه بصفات  
إنسانية نبيلة متمثلة في الشجاعة والكرم ، والأمانة والحلم ، والرحمة والعفو  
وأيضاً الإحسان للخصم يقول (١) :

فَتَى لَا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عَفْوَهُ الْأَسْرَى الْوِثَاقَا  
يُقَصِّرُ عَنْ يَمِينِكَ كُلَّ بَحْرٍ وَعَمَّا لَمْ تُلِقْهُ مَا الْأَقَا

فالعدالة مع العدو قبل الصديق خلق إسلامي حميد ، وهذا الممدوح  
إذا قتل عدوه لم يأخذ سلبه ترفعاً عن ذلك ، ولكن عفوه يسلب أسراه  
قيودهم ، فهو يعفو عنهم ويطلقهم ، كما أنه جواد لا يبلغ البحر شأوه في  
الجود ، فما يمسكه البحر من مائه على كثرته أقل مما جاد به ولم يمسكه هذا  
الممدوح .

فالكرم والشجاعة والرحمة والعدالة مع العدو ، والأمان لكل الناس  
بل لكل المخلوقات أفرع لشجرة الإيمان التي امتدت جذورها في خبايا النفس  
الإسلامية ، كشجرة طيبة ثمارها هذه الأخلاق الفاضلة التي مجدها المتنبي ودعا  
إليها وإلى التمسك بها من خلال مدائح .

فالأخلاق الكريمة ، والشيم الحميدة ، سبب كل سعادة ، والأخلاق  
السيئة والطباع الدنيئة ، أصل كل شقاء ، من هنا ينطلق المتنبي في مديحه  
فيقول (٢) :

رَجُلٌ طِينُهُ مِنَ الْعَبْرِ الْوَرِّ      رِ وَطِينُ الْعِبَادِ مِنْ صَلْصَالِ  
فَبَقِيَّاتِ طِينِهِ لَاقَتْ الْمَاءَ      عِ فَصَارَتْ عَذُوبَةً فِي الزَّلَالِ  
وَبَقَايَا وَقَارِهِ عَافَتْ النَّاسَ      سِ فَصَارَتْ رَكَائِهِ فِي الْجِبَالِ

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٤٦، ٤٧ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣١٥-٣١٧ .

\* الأبيات مدورة

ممدوح المتنبي عمل على إصلاح نفسه ، وتجميل بكريم الطباع ،  
وتكامل بجميل الخصال ، وبالتالي تحلى بأفضل السجايا ، وتخلّى عن النقائص  
الدنيايا ، فهو بذلك متمسك بدينه ، عامل بما يرضي الخالق ، حتى فاق الناس  
طهراً ونقاءً ، فكأنه خلق من العنبر في حين خلق الناس من الصلصال ،  
وكأن هذه العذوبة التي في الماء ماهي إلا من بقايا طينته ، وما بقي من حلمه  
ووقاره ترك الناس وحل في الجبال فاستمدت الجبال رزانتها وثباتها من بقية  
حلمه ، بهذه الخصال وهذه المحامد أصبح ممدوحه موضع احترام وتبجيل  
عند كافة الناس .

يعود المتنبي بعد ذلك للجمع بين صفتين متباعدتين شأنه في ذلك شأنه  
في بقية صوره ، فيقول (١) :

أَنْتَ طَوْرًا أَمْرًا مِنْ نَاقِعِ السَّمِّ      وَطَوْرًا أَحْلَى مِنْ السَّلْسَالِ  
إِنَّمَا النَّاسُ حَيْثُ أَنْتَ وَمَا      النَّاسُ بِنَاسٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْكَ خَالِ

هذا الممدوح رغم ما حوت نفسه من الفضائل والمحامد ، إلا أن له  
حالين حال في وقت الحرب وأمام الأعداء وحين تعامله معهم يعد سما ،  
وهذا الوصف ومرارة خلقه مع عدوه ، يقابله وصف آخر عذب ، حين  
يكون هذا الممدوح مع أوليائه وصحبه يكون حلو الأخلاق والشمائل ، هذا  
الممدوح لما اتصف به من كريم الخصال ، عده الشاعر كل الناس ، لأنه رأى  
فيه جميع الخصال والأوصاف الكريمة المتفرقة في الناس ، ثم قال إن الناس  
ليسوا بناس في مكان لست فيه ، فقد سلب الناس إنسانيتهم إذا ما وجد فيهم  
صفات هذا الممدوح . يكرر هذا المعنى فيقول (٢) :

تَحَلُّوْا مَذَاقَتَهُ حَتَّى إِذَا غَضِبَا      حَالَتْ فُلُوْا قَطْرَتْ فِي الْمَاءِ مَا شَرِبَا  
وَتَغْبَطُ الْأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَلَّ بِهِ      وَتَحْسِدُ الْخَيْلُ مِنْهَا أَيُّهَا رَكِبَا

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣١٧ . \* البيت ممدوح .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

فهذا الممدوح كسابقه عذب الأخلاق . فيه حلاوة لأوليائه ومرارة لأعدائه ، فالأرض يغطى بعضها البعض الذي يحل فيه ، والخيل يحسد بعضها البعض الذي يركبه ، وقد أتى شاعرنا في هذه الصورة من المعاني الجسيمة ما يجعل المرء يتوقف أمامها بعين الرضا في هذه الألفاظ الطيبة السهلة مما يدل على اختيار المتنبي للألفاظ والتراكيب التي يسبق بها غيره في أداء المعاني وتصويرها .

ليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدح بها العربي ، فالعفو عند المقدرة ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، إضافة للكرم والشجاعة ، والوفاء والأمانة ، كل هذه القيم تغنى بها العرب ، والمتنبي هنا يرى أن ممدوحه تمثل هذه الخصال في أقوى صورها ، فأصبح بهذه المروءة سيداً في قومه وشيخاً عليهم ، يقول مصوراً فضائل هذا الممدوح (١):

إِلَى الثَّمَرِ الحَلْوِ الَّذِي طَبِيءٌ لَهُ	فُرُوعٌ وَقَحْطَانٌ بِنُ هُوْدٍ لَهُ أَصْلٌ
إِلَى سَيِّدِ لَوْ بَشَّرَ اللَّهُ أُمَّهُ	بِغَيْرِ نَبِيِّ بَشَّرْتَنَا بِهِ الرَّسُلُ
إِلَى القَائِضِ الأَرْوَاحِ وَالضَّيْغَمِ الَّذِي	تُحَدِّثُ عَن وَقْفَاتِهِ الخَيْلُ وَالرَّجَالُ
إِلَى رَبِّ مَالٍ كَلَّمَا شَكَّتْ شَمْلُهُ	تَجَمَّعَ فِي تَشْتِيْتِهِ لِلْعُلَا شَمْلُ

جعل المتنبي ممدوحه كالثمر الحلو في جوده وحسن خلقه ، ثم رفع منزلة هذا الممدوح فقال : إن الله لا يبشر عباده بأحد من الخلق إلا أن يكون نبياً ، فلو كان يبشر بغير نبي ، لبشرنا به على لسان الرسل ، ثم وصف ممدوحه لكثرة غزواته وقتله الأعداء بقابض الأرواح ، أو الأسد ولكن وقفاته وأفعاله تفوق فعل الحيوان والأسد لأن الخيل والرجال تحدث عن بطولاته ، ومواقفه الحميدة ، هذا الممدوح كلما جمع مالا من غزواته أو فرقه على أوليائه ، تجمع له شمل المعالي .

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

الدنيا في نظر الشجاع قوامها المضاء في الأمور كلها وهذا مارآه شاعرنا  
في ممدوحه حين قال (١):

هُمَامٌ إِذَا مَا فَارَقَ الْغِمْدَ سَيْفُهُ  
وَعَايِنْتَهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا النَّصْلُ  
رَأَيْتَ ابْنَ أُمِّ الْمَوْتِ لَوْ أَنَّ بَأْسَهُ  
فَشَا بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ لَانْقَطَعَ النَّسْلُ

فهذا الممدوح يمضي في الأمور كلها مضاء السيف ، فإذا جرد سيفه من  
غمده لم تدر أيهما السيف ، لكثرة غزواته جعل أخاً للموت ، فلو كان  
للناس بأسه لكانوا كلهم شجعانا . وعندها يقتل بعضهم بعضا فينقطع النسل  
لكثرة القتل ، إضافة لهذه الشجاعة وهذا الإقدام اتصف هذا الممدوح بالحلم  
والكرم والوفاء نجد ذلك في قوله (٢):

وَلَوْلَا تَوْلِيَّ نَفْسِهِ حَمَلُ حِلْمِهِ  
وَنَادَى النَّدَى بِالنَّائِمِينَ عَنِ السَّرَى  
وَحَالَتْ عَطَايَا كَفَّتْهُ دُونَ وَعْدِهِ  
فَأَقْرَبُ مِنْ تَحْدِيدِهَا رَدُّ فَائِتِ  
عَنِ الْأَرْضِ لَانْهَدَّتْ وَنَاءً بِهَا الْحَمْلُ  
فَأَسْمَعَهُمْ هُبُوا فَقَدْ هَلَكَ الْبُخْلُ  
فَلَيْسَ لَهُ إِجْزَاؤُ وَعْدٍ وَلَا مَطْلُ  
وَأَيْسَرُ مِنْ إِحْصَائِهَا الْقَطْرُ وَالرَّمْلُ

شيوخ ندى هذا الممدوح يستحث القاعدين عنه على طلبه ، فكأنه  
يناديهم ، ويبشرهم بهلاك البخل . وقد اعتمد المتنبي هنا على الاستعارة  
المكنية لأداء المعنى ، عطايا هذا الممدوح لم تدع مجالاً للوعد لأنه يعطيها  
معجلة ، ومن ثم لا يعزى إليه إنجاز ولا مطل ، فعطاياه لا يقدر على تحديدها  
أحد ، فرد الفأيت أقرب من تحديدها ، كما أن إحصاء المطر والرمل وهما  
لا يحصيان أيسر من إحصاء عطايا هذا الممدوح ونعمه . فأى كرم هذا الذي  
فاق المطر والرمل إحصاء؟

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥-٣٠٧ .

القيم بعامة في العصر العباسي أصبحت عرضة لتهديد خطير - كما نرى في العصر الحديث - نبعت هذا التهديد التحول الاجتماعي الحاصل في المجتمع ، مما أدى إلى الاضطراب في مقياس القيمة ومستوياتها التي تحظى بالقبول ، كل هذا امتزج بحس شاعرنا واستشعر الخطر فأخذ يدافع عن تلك القيم ببعثها في نفوس الناس من خلال مدائحهم يقول (١):

مَلِكٌ سِنَانٌ قَنَاتِهِ وَبَنَانِهِ      يَتَبَارِيانِ دَمًا وَعُرْفًا سَاكِبًا  
يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لَوْفِهِ      وَيَظُنُّ دِجْلَةَ لَيْسَ تَكْفِي شَارِبًا  
كَرَمًا ، فَلَوْ حَدَّثَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ      بِعَظِيمٍ مَا صَنَعْتَ لَظَنِّكَ كَاذِبًا

هذا الممدوح شجاع مقدام . كريم جواد ، لكرمه يستصغر الشيء العظيم لمن يقصده ، لخروج أفعاله عن طوق المقدرة لو حدثه أحد بهذه الفعال لظنه كاذباً ، فأفعاله ومكارمه قلما تجد من يقوم بها في زمن شح فيه العظماء وندر الأوفياء ثم يتابع مديحه بقوله (٢):

أَسَدٌ فَرَأَيْتُهَا الْأَسْوَدُ يَقُودُهَا      أَسَدٌ تَصِيرُ لَهُ الْأَسْوَدُ ثَعَالِبًا  
وَدَعَاؤُهُ مِنْ فَرَطِ السَّخَاءِ مُبَدَّرًا      وَدَعَاؤُهُ مِنْ غَضَبِ النَّفُوسِ الْغَاصِبَا  
هَذَا الَّذِي أَفْنَى النَّضَارَ مَوَاهِبَا      وَعِداَهُ قَتْلًا وَالزَّمَانَ تَجَارِبَا  
وَمُخَيَّبَ الْعَدَالِ فِيمَا أَمَلُوا      مِنْهُ وَلَيْسَ يَرُدُّ كَفًّا خَائِبًا

شبه جنود هذا الممدوح بالأسد القوية وجعل الممدوح أشد قوة من كل هؤلاء فهو كالأسد العظيم ، والأسود الأخرى قياساً به كالشعالب . والممدوح بالنسبة لغيره من القواد يعد مثل هذا الأسد الهزير ، ثم امتدح كرم هذا الممدوح وسخاءه . وبين أنه مسرف في العطاء حتى دعاه قومه مبذراً كما دعوه من شدة فتكه وقتله للأعداء بالغاصب . وكأنه يلمح إلى ملمح خطير في عصره وهو فقدان التوازن في كل شؤون الحياة . وإن كان في مقام مديح بالبذل والعطاء ، وسعة الجود ، إلا أنه يدعو إلى قيمة التوازن وذلك

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

بأن يكون الإنسان وسطا في الإنفاق فلا يكون مسرفا ، ولا يكون مقترا ، وهذا الممدوح من عاداته الإبادة فهو يفني المال بالعطاء والتفريق بين الناس ، كما أفنى الأعداء قتلا ، وكثرت تجاربه وتعرضه لصروف الزمان وتقلباته ، وقد خاب عذاله الذين يعذلون في بذل ماله ، ولا يجيب كف سائله لتعوده البذل والوجود بالمال . فهذه صفات العظماء في كل جيل وعصر .

أراد المتنبي بعد ذلك أن يصف الممدوح ببسطة النوال ، فضرب له ثلاثة أمثال : البدر - الشمس - البحر . فقال (١) :

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّفَتَّ رَأَيْتَهُ      يُهْدِي إِلَى عَيْنِكَ نُورًا ثاقِبًا  
كَالْبَحْرِ يَقْدِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا      جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَابًا  
كَالشَّمْسِ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا      يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبًا

هذا الممدوح من الكرم بحيث غمر عطاؤه الناس فنفعه عام للناس مثله في ذلك مثل البدر ، يستضيء به كل الناس ، وفي سعة جوده وبذله كالبحر . وهو وافر العطاء والنوال للقريب والبعيد .

وقد استطاع المتنبي في هذه الأبيات أن يكون الصورة من مكونات مشرقة تتناسب والموقف هنا - موقف مخاطبة أمير ، ومدحه - فجعل أغلب مكونات صورته ، الشمس - البدر . فهذا الممدوح كالشمس في كل ما تحمله لفظة الشمس من دلالات ، فهي العطاء ، والضوء ، والبعد والفائدة . كذلك البدر والبحر .

هذه الصورة توحى لنا بصورة أخرى من مدائح شاعرنا حين يقول (٢) :

حَقُّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تَزُورَكَ مِنْ عَلِيٍّ      وَتَعُودَكَ الْأَسَادُ مِنْ غَابَاتِهَا  
وَالجِنَّ مِنْ سُرَاتِهَا وَالوَحْشُ مِنْ      فَلَوَاتِهَا وَالطَّيْرُ مِنْ وُكُنَاتِهَا  
ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً      كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .



ففي هذه الصورة مكونات طبيعية اعتمدها المتنبي في مديحه فرأى أن من حق الكواكب أن تزور ممدوحه لأنه مماثل لها في العلو ، وكذلك الآساد لأنها تشبهه في الشجاعة ولعموم نفعه كل هذه الأجناس تتألم لعلته ، وقد انفرد هذا الممدوح عن سائر الناس بحسن المآثر ، وفاقهم بالمناقب والمحامد ، فكان منهم بمنزلة البيت البديع من القصيدة .

وهذا المعنى يذكّرنا بقوله في صورة أخرى من مدائحه<sup>(١)</sup>:

رَأَيْتَكَ فِي الدِّينِ أَرَى مُلُوكًا      كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالٍ  
فَإِنَّ تَفِيقَ الأَنَامِ وَأَنْتَ مِنْهُمْ      فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

هذا الممدوح يفضل الملوك كما يفضل المستقيم المعوج ، ثم قال : "إنه فاق الأنام وفاقهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وقد احتج لدعواه حين قال "فإن المسك بعض دم الغزال" فقد أبان أن لما ادعاه أصلا في الوجود ، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لا يعد من جنسه ، إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة ، بوجه من الوجوه ، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دما البتة"<sup>(٢)</sup>. الإسراف في كل شيء صفة ذميمة ، ولكن المتنبي يرى أن الإسراف في

الجدود ، وكذلك في قتل الأعداء لا يعد عيبا من هذا المنطلق يقول<sup>(٣)</sup>:

أَعْطَى فَقُلْتُ لِجُودِهِ مَا يُقْتَنَى      وَسَطًا فَقُلْتُ لِسَيْفِهِ مَا يُؤْلَدُ  
وَتَحَيَّرْتُ فِيهِ الصِّفَاتُ لِأَنَّهَا      أَلْفَتْ طَرَائِقَهُ عَلَيْهَا تَبَعْدُ  
نَقَمٌ عَلَى نَقَمِ الزَّمَانِ يَصْبُهَا      نِعْمٌ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي لَا تُجْحَدُ  
فِي شَأْنِهِ وَلِسَانِهِ وَبَنَانِهِ      وَجَنَانِهِ عَجَبٌ لِمَنْ يَتَفَقَّدُ  
أَسَدٌ دَمُ الأَسَدِ الهَزْبِ خِضَابُهُ      مَوْتُ فَرِيصِ المَوْتِ مِنْهُ تُرْعَدُ

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٥١ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص ١٢٣ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٥٥-٥٧ .

أصبح الإسراف في العطاء أشبه بظاهرة عامة ، يشعلها التنافس بين كبار الدولة في العصر العباسي حتى باتت صفة من صفات المدح عند شعراء ذلك العصر ، فهذا الممدوح قد أسرف في العطاء حتى يظن الشاعر أنه سيعطي جميع ماله ، وعند لقاء الأعداء أسرف في القتل حتى ظن شاعرنا أنه سيقتل كل مولود ، وبذلك تكون المقتنيات جميعاً لجوده ، والنسل كله لسيفه ، مبالغة في المديح ، وكما أسرف هذا الممدوح في الجود والشجاعة ، أسرف المتنبي في مديحه فجعل المادحين يقفون وقد حارت أوصافهم ، كيف تحصى فضائله ، لأن فضائله بعيدة عن الأوصاف ، لاتدرك . أولياء هذا الممدوح يعتزون بذلة أعدائه لما يستفيدونه من الغنائم بنكبة هؤلاء الأعداء ، خصاله كلها محمودة ، وكلها عجب لأنها لم تكمل لأحد سواه ، لشجاعة هذا الممدوح يصرع الأسد العظيم ويتلطح بدمه ، وهو موت لأعدائه حتى إن الموت يخافه ، صورة الإسراف في العطاء والقتل تتكرر عند المتنبي<sup>(١)</sup>:

إِذَا ضَرَبَ الْأَمِيرُ رِقَابَ قَوْمٍ      فَمَا لِكِرَامَتِهِ مَدَّ النَّطُوعَا  
فَلَيْسَ بِوَاهِبٍ إِلَّا كَثِيرًا      وَلَيْسَ بِقَاتِلٍ إِلَّا قَرِيعَا  
عَمَامٌ رَبَّمَا مَطَرَ إِنْتِقَامًا      فَأَقْحَطَ وَدَقَّهُ الْبَلَدُ الْمَرِيعَا

فهذا الممدوح غاية في كرم النفس وعلو الهمة ، فهو لا يهب من المال إلا الكثير ، ولا يقتل إلا الشريف العظيم ، هذا الممدوح كالغمام في النعم والنقم فقد يكون في الغمام صواعق مهلكة ، وكذلك هو ربما أمطر نقمه على الأعداء فصير مطره البلد المريع قحطاً مجذبا لما يلم به من الدمار ، وما أظننا في حاجة إلى مزيد كما قال الدكتور محمد زكي العشماوي<sup>(٢)</sup> لكي نؤكد أن المتنبي قد استطاع أن يحول الموضوع التقليدي - المديح - إلى رؤية ذاتية يجسد فيها موقفه ورؤيته بحيث يصبح الموضوع ذاتاً والذات موضوعاً ،

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٦١-٣٦٣ .

(٢) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار النهضة العربية ، بيروت

١٩٨١ م ، ص ٢٤٨ بتصرف .

ويصدر العمل الفني من لحظة شعورية واحدة تناسب في أجزاء العمل وأطرافه وهذه بعض خصائص بنائه الفني ، وقد لا تتوافر لكثير من شعراء عصره .

يتبع المتنبي أسلوب المبالغة في طريقة عرضه لبعض صورته ، ومع ذلك لم يعدم الإبداع في مدحه ، ولم يتهاون في عرضه ، وكثيرا ما نجد له تصويرا يمتاز بالجدة والإبداع من ذلك قوله (١) :

ضَرُوبٌ بِأَطْرَافِ السُّيُوفِ بَنَانُهُ      لَعُوبٌ بِأَطْرَافِ الْكَلَامِ الْمُشَقِّقِ  
كَسَائِلِهِ مَنْ يَسْأَلُ الْغَيْثَ قَطْرَةً      كَعَاذِلِهِ مَنْ قَالَ لِلْفَلَكِ ارْفُتِقِ  
لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى جُدْتَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ      وَحَتَّى أَتَاكَ الْحَمْدُ مِنْ كُلِّ مَنْطِقِ

يريد القول بأن ممدوحه شجاع في الحرب ، بليغ لدى القول قادر عليه ، حسن التصرف فيه مبدع ، كما أنه جواد كريم من عاداته وطبعه العطاء في كل وقت حتى أن سائله مستغن عن تكليفه العطاء مثله في ذلك مثل الغيث قطره مبذول لمن أرادته .

ولقد عم جود هذا الممدوح أهل كل ملة وأهل كل لغة إذ لم يخص به قوما دون غيرهم ، لذلك حمده كل من نال فضله وإحسانه بكل لغة وفي كل مكان . وهناك صورة أخرى يجمع فيها المتنبي بين بلاغة ممدوحه في الكلام وجوده حين يقول (٢) :

نَطِقْ إِذَا حَطَّ الْكَلَامُ لِثَامَهُ      أَعْطَى بِمَنْطِقِهِ الْقُلُوبَ عُقُولًا  
أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ      وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلًا

هذا الممدوح يعرف أن لكل حادث حديث فهو لا يتكلم إلا بالحكمة وبما يستفاد منه العقل . كما أنه جواد سخى ، تعلم الزمان من سخائه فسخا به ولولا سخاؤه الذي استفاده منه لبخل به على أهل الدنيا ، واستبقاه لنفسه .

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٥٤، ٥٥ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

وقد أحسن المتنبي حين جعل الجود والسخاء يعدي والعدوى غير مرغوب فيها لأنها عادة تكون في الأوبئة والأمراض غير أنه خرج بها إلى الفضائل والمكارم . حين جعل الممدوح يعدي الزمان بسخائه فيسوخو مثله . وهو يشيد هنا بقيمة الجود ، وقد بالغ في بعض أبياته وهو يمدح بقيمة الكرم من تلك المبالغات قوله (١):

كُلَّمَا قِيلَ قَدْ تَنَاهَى أَرَانَا كَرَمًا مَا هَتَدَتْ إِلَيْهِ الْكِرَامُ

فما هو الكرم الذي لم تهتد إليه الكرام عند أبي الطيب؟ هذا الممدوح كريم جواد وكلما قال الناس : بلغ النهاية في الكرم ، أبداع كرما لم يهتد إليه من قبله أحد من الكرام .

فالكرم من الفضائل الأخلاقية التي أصبحت تدل على قيمة الإنسان في عصر شاعرنا ، ونحن اليوم نكاد نفتقدها ، إذ أن القيمة ليست مجرد ما يرغب فيه ، ولكنها ماهو جدير بأن يرغب به ، والكرم قيمة جديرة بأن يرغب بها على مستوى ما ينبغي أن تكون قيمة أصيلة في نفوس العرب .

"من طبائع النفس البشرية ، أنها ميالة إلى حب الثناء ، عن طريق إحلالها السجايا والمزايا الخلقية والخلقية في المكانة اللائقة بها" (٢). وقد أدرك شاعرنا هذه الطبائع فمدح بالمزايا الخلقية والخلقية في صور كثيرة منها قوله (٣):

تَفْضَحُ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتْ	٢	الشَّمْسُ بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ		لَضِيَاءٌ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءِ
إِنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ ، وَابْيَضَاضُ	٢	النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ أَبْيَضَاضِ الْقَبَاءِ
كَرَمٌ فِي شَجَاعَةٍ وَذَكَاءٌ		فِي بَهَاءٍ وَقُدْرَةٍ فِي وَفَاءِ

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٢) فوزى عطوى ، المتنبي شاعر السيف والقلم ، ط/أولى ، بيروت ١٩٨٨ م ، ص ٤٧ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

استغل شاعرنا الناحية المشرقة من ممدوحه ، فالتمس العذر للونه ، وعده من المفاخر التي يشرف بها ، فالجلد ماهو إلا ملبس والعلة في النفس حين تكون بيضاء فهذا هو المطلوب . وممدوحه قد جمع إلى صفاء نفسه ومجده العظيم - جمع إلى كل ذلك فضائل خُلُقِيَّة حميدة ، منها الكرم ، والشجاعة ، والذكاء ، والقدرة والوفاء . فهذه الأمور أو الفضائل إذا جمعت في شخص لا يعيبه ماعداها من سواد لون أو غيره "فقد جعل المتنبي ممدوحه يفضح الشمس حين تذر بوجهه الأسود ، الذي جعل لصاحبه هذه الخلاصة من الشمائل من شجاعة إلى كرم إلى ذكاء ، إلى رونق وبهاء واقتدار وعزم" (١).

إن كان السواد في هذه الصورة مزية قد أسبغها المتنبي على ممدوحه وطوعها لمدحه . فإن هناك صوراً أخرى عرض فيها المتنبي وجه ممدوحه يبهز الألباب وضاءة وإشراقاً ، دون أن يعرض شاعرنا للون كما فعل في الصورة السابقة يقول (٢):

هَذَا الَّذِي حَلَّتِ الْقُرُونُ وَذَكَرَهُ      وَحَدِيثُهُ فِي كُتُبِهَا مَشْرُوحٌ  
أَلْبَابُنَا بِجَمَالِهِ مَبْهُورَةٌ      وَسَحَابُنَا بِنَوَاهِ مَفْضُوحٌ

فهذا الممدوح ذكره باق وحديثه خالد في الكتب يتناوله الدارسون بالشرح لأنه ينطق بالخبر الجميل ، لذلك يتداول الناس ذكره وأحاديثه للفائدة .

كما أن هذا الممدوح جمع إلى حسن الحديث والذكر الخالد جمال هيئة ، ووضاعة وجه ، حتى أنه يبهز ألباب معاصريه بجماله ، وسعة جوده . وقد تكررت صورة المديح بالجمال وإشراق الوجه عند المتنبي في غير موضع ، ولكن هذه الصورة رأيت أنها أقرب الصور إلى المعاني السابقة . وإن كان هناك صوراً أخرى من هذا النوع سنعرض لها إن شاء الله .

(١) محمد هاشم عطية ، المتنبي وكافور ، صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ص ٧٩ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

كان المتنبي في مدائحه يبحث عن التوازن النفسي بين مثاليات الذات وبين إمكان تحقيقها ، ولعله وجد في ممدوحه المثل الأعلى الذي يبحث عنه ووجد في فضائل القيمة العليا التي شغلته فقال (١):

إِلَى لَيْثٍ حَرَبٍ يُلْحِمُ اللَّيْثَ سَيْفَهُ      وَبَحْرٍ نَدَى فِي مَوْجِهِ يَغْرَقُ الْبَحْرُ  
وَإِنْ كَانَ يُبْقِي جُودَهُ مِنْ تَلِيدِهِ      شَبِيهَا بِمَا يُبْقِي مِنَ الْعَاشِقِ الْهَجْرُ  
فَتَى كُلَّ يَوْمٍ تَحْتَوِي نَفْسَ مَالِهِ      رِمَاحُ الْمَعَالِي لِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرُ  
تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ السَّحَابِ وَبَيْنَهُ      فَنَائِلُهَا قَطْرٌ وَنَائِلُهُ غَمْرُ

في هذه الصورة وغيرها من صور المديح "يستحضر شاعرنا شخصية مثالية ، يراها فارسا ممتطيا صهوة جواد في ساحات الوغى ، وإذاهدأ إلى ساعات السلم تثر الأموال بلا حساب" (٢). فهذا الممدوح شجاع جواد ، لا يبقي جوده من ماله إلا اليسير ، كما يبقي من العاشق بعد الهجر . إذ يتغير حاله وتضعف قواه . هذا الممدوح تعود تفريق أمواله فيما يورثه المجد والعلو ، من الذكر الحسن والهيبة ، فاق بعطائه السحاب ، إذ أن نائل السحاب ينقطع ، بينما نائله مستمر غدق .

بينما يقول في صورة أخرى إن السحاب الذي يشبه جود ممدوحه به ليفخر بذلك على غيره من السحاب لسعة جود هذا الممدوح وعظم عطايه (٣):

وَإِنَّ سَحَابًا جُودَهُ مِثْلُ جُودِهِ      سَحَابٌ عَلَى كُلِّ السَّحَابِ لَهُ فَخْرُ  
تشبيه المتنبي ممدوحه بالغيث والمطر والسحاب وأيضا بالأسد أسلوب تقليدي مألوف ، ولكن أن يقلب الأمور فيشبه السحاب والمطر ، وأيضا الأسد بممدوحه فهذا أمر أقره شاعرنا بل وكرره في أكثر من موضع . حتى لقد جعل السحاب الذي يشبه به جود ممدوحه يفخر على غيره من السحاب.

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) د. محمد التونجي ، المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس ، ص ١٦٣ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

وقد يباليغ في وصف كرم ممدوحه فيجعله فوق البحر والسحاب  
فيقول<sup>(١)</sup>:

لَوْ كُنْتَ بَحْرًا لَمْ يَكُنْ لَكَ سَاحِلٌ      أَوْ كُنْتَ غَيْثًا ضَاقَ عَنكَ اللُّوحُ  
وَخَشِيْتُ مِنْكَ عَلَى الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا      مَا كَانَ أَنْذَرُ قَوْمَ نُوحٍ نُوحُ

فالصورة واضحة والمعنى أن هذا الممدوح في العطاء لا يشبه بالبحر لأن  
البحر له ساحل بينما لا أحد لعطائه وجوده ، وكذلك لا يشبه بالغيث لأن  
الغيث يحمل الهواء في السحب من مكان لآخر وجوده يعجز عن حمله  
الهواء . فلو كان هذا الممدوح غيثا لخشى منه الطوفان الذي أنذر نوح  
قومه ، لأنه في العطاء والقتال لا يعرف الهدوء ولا القلة .

"المتنبي في كل حال يمدح ما يحب ، ويصف ما يتصور ، ويتدفق من  
ذاته على ذاته .. يتناول المعاني القديمة من كرم وعقل وحزم وشجاعة ،  
وما إلى ذلك ثم يمرها في شخصه بقوة وعنف ، وفي مرورها تلمس قلبه  
فتحتم ، وتلمس أعصابه فتتوتر ، وتمس خياله فتتضخم ، وتعصف بها  
ثورته فتأزم ، وينطق بها لسانه شهما من نار تترك وراءها ألف دوي ،  
ويخطها قلمه وإذا هنالك صرير شديد الوقع في أذن الأيام والليالي"<sup>(٢)</sup>. ومن  
الآيات الدالة على ذلك هذه اللوحة التي اشتملت على ألوان المديح القديمة  
كلها يقول<sup>(٣)</sup>:

أَلِفَ الْمُرُوءَةِ مُذْ نَشَأَ فَكَأَنَّهُ      سَقِيَ اللَّبَانَ بِهَا صَبِيًّا مُرْضِعًا  
نُظِمَتْ مَوَاهِبُهُ عَلَيْهِ تَمَائِمًا      فَأَعْتَادَهَا فَإِذَا سَقَطْنَ تَفْزَعًا  
تَرَكَ الصَّنَائِعَ كَالْقَوَاطِعِ بَارِقَاتٍ      وَالْمَعَالِيَ كَالْعَوَالِي شُرْعًا  
مُتَبَسِّمًا لِعُفَاتِهِ عَن وَاضِحٍ      تَغَشَى لَوَامِعُهُ الْبُرُوقَ اللَّمَعَا  
مُتَكَشِّفًا لِعُدَاتِهِ عَن سَطُوعٍ      لَوْ حَكَ مَنِكِبُهَا السَّمَاءَ لَزَعَزَعَا

- (١) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .  
(٢) حنا الفاخوري ، الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، المجلد الثاني ، ص ٤١٢ ،  
ط/ثانية ١٤١١ هـ ، بيروت .  
(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٥-٧ .

المروءة اسم جامع للخلال الحميدة ، والمتنبي هنا يثبتها للممدوحه فيقول إن هذا الممدوح ألف كل فعل طيب وكل مكرمة فكأنه لم يرضع سوى المكارم .

ولعل شاعرنا هنا يشيد بقوم هذا الممدوح ونسبه فهو كريم من أصل كريم . هذه المكارم والخلال متأصلة في نفس هذا الممدوح حتى عدت كالتمايم التي تعلق على الفتى اتقاء للعين وكأنه يأمن بها من الزمن وتقلباته فإذا لم يقم بهذه الخلال أصبح في خوف لأنه اعتادها . كالصبي إذا فقد التميمة شعر بالخوف - وإن كان في هذا المديح خروج من الروح الإسلامية - هذا الممدوح أتى من الفعال والصنائع ما يجلد ذكره فأياديه ونعمه مشرقة لامعة كالسيوف القواطع ، ومعاليه مرتفعة كالرماح لا يلق هذا الممدوح طالبي رفته وسائليه إلا متبسما مستبشرا بطلبهم لكرم نفسه وجوده . لا يسأم من السؤال لأنه متعود البذل والعطاء .

مقابل هذا الموقف اللين مع سائليه ، نجد له موقفا قاسيا مع أعدائه فهو يظهر لهم سطوة ، ويجاهر بالقدرة عليهم ولا يكاتمهم العداوة ، ولا يأخذهم بغرة استعمار لسطوته منكبا لما جعلها تزاحم السماء ، لأن الزحام لا يكون إلا بالمناكب . فالشجاعة حين توجب الشجاعة ، والكرم حيث يطلب الكرم ، قيمتان جليلتان أسبغهما شاعرنا على ممدوحه وهو يرى فيه مثال الإنسان القوي الكريم ، والذي يتمنى أن يكون كل أفراد مجتمعه صورة عنه .

فضيلة الكرم والشجاعة لم تغن شاعرنا في مديحه فاستلهم بقية الفضائل وحاكها رداء جميلا يتدثر به ممدوحه فقال<sup>(١)</sup> :

العَازِمَ اليَقِظَ ، الأَعْرَى العَالِمَ      الفِطْنَ الألد الأريحي الأروعا  
الكاتب اللبق الخطيب الواهب      الندس الفطن الهبرزي المصقعا<sup>(٢)</sup>

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٧ .

(٢) الندس : الفطن ، الهبرزي : السيد الكريم ، المصقع : الخطيب البليغ .



نَفْسٌ لَهَا خُلُقُ الزَّمَانِ لِأَنَّهُ      مُفْنِي النُّفُوسَ مُفَرِّقٌ مَا جَمَعَا  
وَيَدُّ لَهَا كَرَمَ الغَمَامِ لِأَنَّهُ      يَسْقِي العِمَارَةَ وَالْمَكَانَ البَلْقَعَا

كل هذه المكارم التي امتدح بها المتنبي ممدوحه تؤكد لنا أن مديح شاعرنا لم يكن يستهدف الشخص بقدر ما كان يستهدف المثل الأعلى أو القيم التي كان يتمنى المتنبي ترسيخها في نفوس الناس ، وقد حاول هنا تجسيد هذه القيم والصفات في شخص ممدوحه لاقتناعه واحساسه الداخلي بجدوى تلك القيم ، وحرصه على تمسك معاصريه بها ، فلم يترك صفة من الصفات الجليلة إلا وامتدح بها ، ثم تنبه إلى وجود شبه بين هذا الممدوح والزمن ، فكما أن من خلق الزمان إفناء الأشياء ، كذلك ممدوحه يفني أعداءه كما يفني ماله فهو جواد كثير الغارات ، وكذلك شبه ممدوحه بالغمام فهو يعطي الغني والفقير لا يفرق في عطائه بين أحد من الناس ، كما أن الغمام يسقي كل موضع - الذي به الناس والحالي دون تفريق - فالخير عنده يعم الكل . استطاع المتنبي أن يغمر القيم الممدوح بها كلها باحساس نابع من موقفه ورؤيته للحياة في ذلك العصر فأتى بها في قوالب مناسبة يقول بعد ذلك<sup>(١)</sup>:

أَبَدًا يَصْدَعُ شَعْبَ وَفِرِّ وَأَفِرِّ      وَيَلْمُ شَعْبَ مَكَارِمٍ مُتَّصِدَا  
يَهْتَزُّ لِلْجُدُوى اهْتِزَّازَ مَهْنَدٍ      يَوْمَ الرَّجَاءِ هَزَزْتَهُ يَوْمَ الوَعَى

هذا الممدوح يفرق شمل المال بالعطاء ، ويجمع مفرق المكارم في شخصه ، وقد جمع المتنبي في هذا البيت بين التطبيق والتجنيس "فالطباقي لديه يعطي تلويحاً موسيقياً هاماً ، إلى جانب ما فيه من تعميق للمعنى وتوضيح له"<sup>(٢)</sup>.

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٨ .

(٢) أيمن عشاوي ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص ٢٢٦ .

ممدوح المتنبي كريم سخي يهتز للعتاء والبذل كما يهتز السيف يوم الحرب وهذه صورة من صور المتنبي التي يجمع فيها بين الشيء وضده حين شبه اهتزاز ممدوحه للبذل يوم الرجاء ، وهذه صورة حسنة - صورة العطاء والبذل - بصورة اهتزاز السيف يوم الحرب - والحرب أمر كربه - وهذه سمة في شعره حين يجمع بين الشيء وتقيضه في آن واحد ، ربما يعود ذلك لإحساسه الداخلي وشعوره بالألم العظيم نتيجة إحساسه بما يظهره الشيء وضده من أمور قد تكون خافية .

"نجد في بعض مدائح المتنبي براعة تصوير ملحمي ورونق صياغة وإيمان بالقوة حلا لكل الأمور"<sup>(١)</sup>. انظر إليه يقول<sup>(٢)</sup>:

طَاعِنُ الطَّعْنَةِ الَّتِي تَطَعَنُ	الفَيْلَقَ بِالذُّعْرِ وَالذَّمَّ الْمُهْرَاقِ
ضَارِبُ الْهَامِ فِي الْغُبَارِ وَمَا يَرْهَبُ	أَنْ يَشْرَبَ الَّذِي هُوَ سَاقِي
ثَاقِبُ الرَّأْيِ ثَابِتُ الْحِلْمِ	لَا يَقْدِرُ أَمْرٌ لَهُ عَلَى إِقْلَاقِ

"يصور المتنبي شجاعة ممدوحه وهو يطعن الأعداء في المعركة ثابت كالطود ، باسم الثغر ، لأنه يحمل سلاحا وهو كفاء لحمله ، وأهل لأن يصمد في وجوه الأعداء نضالا"<sup>(٣)</sup>. ونزالا غير عابئ بالمنية فهو مؤمن بالموت لكن بطريق يرفع من قدره وماذاك إلا عن طريق القتال والنزال . هذا الممدوح لا يقلقه أمر لبعده نظره ، وسعة حلمه ورجاحة عقله ، ثم يمتدح قومه وعشيرته فيقول<sup>(٤)</sup>:

بَعَثُوا الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الأَعَادِي	فَكَانَ الْقِتَالُ قَبْلَ التَّلَاقِي
وَإِذَا أَشْفَقَ الفَوَارِسُ مِنْ وَقَعِ	الْقَنَا أَشْفَقُوا مِنَ الإِسْفَاقِ
كُلُّ ذِمْرٍ <sup>(٥)</sup> يَزِيدُ فِي المَوْتِ حُسْنًا	كَبْدُورٍ تَمَامَهَا فِي المُحَاقِ

- (١) خليل الموسى ، النزوع القومي في ذاتية المتنبي ، مجلة الحفجى ، العدد الثانى ، السنة السادسة عشر ، ص ٣٠ .
- (٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٠٤-١٠٥ .
- (٣) الحرب في شعر المتنبي ، ج ٢ ، ص ١٠١ .
- (٤) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٠٦-١٠٨ .
- (٥) الذمر : الرجل الشجاع .

جَاعِلٌ دِرْعَهُ مَنِيَّتَهُ إِنْ  
كَرَمٌ حَشَنَ الْجَوَانِبَ مِنْهُمْ  
وَمَعَالٍ إِذَا ادَّعَاهَا سِوَاهُمْ  
لَمْ يَكُنْ دُونَهَا مِنَ الْعَارِ وَاقٍ  
فَهُوَ كَالْمَاءِ فِي الشَّفَارِ<sup>(١)</sup> الرَّفَاقِ  
لَزِمَتْهُ جِنَايَةُ السُّرَاقِ

هؤلاء القوم بعثوا خوفهم إلى قلوب الأعداء قبل وصولهم بجيروتهم وقوة شكيمتهم ، إذا خاف الفرسان من وقع الرماح ، خاف هؤلاء القوم من الجبن وأن ينسبوا إليه . فتجلدوا وصبروا . حتى أنهم إذا قتلوا في طلب المجد والرفعة ازداد شرفهم ، فزاد حسن ذكركم بموتهم ، كالبذور التي تستفيد الكمال بالمحاق . كل شجاع من هؤلاء القوم يتقي العار والذكر السيء ولو بموته ، كما يتقى الفارس بالدرع الموت والهلاك ، ثم يعود ويؤكد على صفات الذات العربية فيقول إن هؤلاء القوم كرموا خشن جوانبهم على الأعداء لأن هذا الكرم يأبى عليهم أن يساموا الخسف ، ويقبلوا الإهانة ، ثم شبه ذلك الكرم بالماء فهو مع لينة وعذوبته إذا سقيته السيوف شحذت شفارها واستفادت صلابة ومضاء ، كذلك كرمهم فيه لين لأوليائهم ، وخشونة على أعدائهم ، كما أن لهم معال شريفة لم ينلها أحد سواهم ، فكأنها حصر عليهم ، فإذا ادعاها غيرهم نسب للخيانة والسرقة .  
"في القرن الرابع الهجري توسع المد الشعوبي ، وضعف سلطان الدولة العباسية وتراجع العنصر العربي ، وتراجعت معه القيم العربية نتيجة فقدان القوة التي تميمها فاستبدلت بقيم أخرى فرضتها الظروف الجديدة ، وقد أحس المتنبي بفقدان العربي قيم آبائه وأجداده ، فتشبث بالماضي المجيد"<sup>(٢)</sup> ، وأخذ يبحث عن شخصية تجمع تلك القيم وتدافع عنها وكأنه وجدها في ممدوحه الذي قال فيه<sup>(٣)</sup>:

- (١) الشفار : جمع شفرة ، حد السيف .  
(٢) خليل موسى ، النزوع القومي في ذاتية المتنبي ، مجلة الخفجى ، ٢٤ ، سنة ١٦ ، ص ٣٤ .  
(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٢٣-١٢٥ .

أَتَتْ الْغَرِيبَةَ فِي زَمَانٍ أَهْلُهُ      وَوَلَدَتْ مَكَارِمَهُمْ لِغَيْرِ تَمَامٍ  
أَكْثَرَتْ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ وَلَمْ تَزَلْ      عَلِمًا عَلَى الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ  
صَغُرَتْ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرَتْ عَنْ      لِكَأَنَّهَا وَعَدَدَتْ سِنًّا غُلَامٍ

الناس في الحياة وفي نظر المتنبى متفاوتو الأخلاق ، متباينو المشارب ، منهم من ساءت أخلاقهم فزعت نفوسهم إلى الهوان ، وهؤلاء لاخير فيهم ولامنفعة تعود على المجتمع الإنساني من ورائهم ، ومنهم من حسنت طباعه فقمع نفسه عن لذاتها ، وردعها عن شهواتها ، وعمل للمنفعة العامة ، ومن هذا الصنف - الثاني - ممدوح المتنبى فهو تام المكارم كالعلم في الفضل ، وأفعاله أكبر من أن تشبه بشيء ، لأنه لم يدع لأحد مزية عليه . هذا ماينبغي للإنسان أن يكون عليه في نظر المتنبى حتى يكون جديرا بالألفة يقول<sup>(١)</sup> :

مَلِكٌ زُهَتْ بِمَكَانِهِ أَيَّامُهُ      حَتَّى افْتَخَرْنَ بِهِ عَلَى الْأَيَّامِ  
وَتَخَالَهُ سَلَبَ الْوَرَى أَحْلَامَهُمْ      مِنْ حِلْمِهِ فَهَمُّ بِلَا أَحْلَامٍ  
وَإِذَا امْتَحَنَتْ تَكَشَّفَتْ عَزَمَاتُهُ      عَنْ أَوْحَدِيَّ النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ  
وَإِذَا سَأَلْتَ بَنَانَهُ عَنْ نَيْلِهِ      لَمْ يَرْضَ بِالْدُّنْيَا قَضَاءَ ذِمَامِ

فهذا الممدوح الذي تفتخر أيامه بوجوده فيها على سائر الأيام لكريم فعاله أدرك أن الحلم سيد الأخلاق ، ورأس الفضائل ، وصف الله به عباده الصالحين وامتدحهم عليه ، فاتصف به حتى ظن لرجاحة عقله وسعة حلمه أنه سلب الناس أحلامهم وضمها لحلمه ، فهذا الممدوح لانظير له في عزماته إذا سئل لكرمه بهم أن يعطي الدنيا كلها ولايرضيه هذا العطاء بل يود أن يعطي ويجود بأكثر منها .

فهذا الممدوح مثال للإنسان الجدير بالتوود لأن نفسه تطمح إلى الكمال ، وقلبه ثابت مشرب لنيل معالي الأمور ، في عصر قل أن يجد المرء فيه من كانت هذه مثله وقيمه في نظر المتنبى .

اعتمد المتنبي على القوة العامة في الأخلاق الحياتية ، القوة في الطباع الإنسانية ، القوة في معاملة بني الإنسان . لذلك نجد في بعض مدائحه روح الفارس العربي الذي يجد لذته في الحرب والقتال . والبذل والعطاء من ذلك قوله (١) :

هُمُ الْمُحْسِنُونَ الْكَرَّ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى      وَأَحْسَنُ مِنْهُ كَرُّهُمْ فِي الْمَكَارِمِ  
وَهُمْ يُحْسِنُونَ الْعَفْوَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ      وَيَحْتَمِلُونَ الْغُرْمَ عَنْ كُلِّ غَارِمٍ  
حَيِّوْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي نَزَالِهِمْ      أَقْلٌ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ  
وَلَوْلَا احْتِقَارُ الْأَسَدِ شَبَّهَتْهَا بِهِمْ      وَلَكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي الْبَهَائِمِ

صور المتنبي شجاعة ممدوحيه بصورة عدها محمود أبو ناجي (٢) : من الإعجاز الإنساني لصفاء ذهن شاعرنا وسمو تصوره ونبوغه ، إذ صور هؤلاء المقاتلين أبطالاً في الكر والفر ، وفوق ذلك أبطالاً في العطاء ، هذا من جهة ومن جهة أخرى التفت المتنبي إلى ناحية أخلاقية وهي العفو عن المذنبين وفك الأسرى ، وهذه أخلاقية الإسلام العظيمة بعكس ما فعله ويفعله جنود الإلحاد بالأسرى المسلمين ، إذ كانوا يفتكون بهم دون رحمة ولا عفو وما يحدث في أيامنا هذه من شنائع الملحدين وما يفعله هؤلاء بأمة الإسلام فتكا وقتلا واستباحة للأعراض ، يوضح فرق ما بين المسلمين وغيرهم ، من علامات حسن الخلق : أن يكون المرء كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، وهؤلاء القوم خلقهم الحياء ، إذ لا يفعلون ما يستقبحه العقل ، وهذا خلق شريف يمنعهم من فعل المحرمات ومن إتيان المنكرات ، ولكن حياءهم لا يمنعهم الشجاعة والإقدام فهم في الحرب صفاق الوجوه لا يلينون ، فهم أشد شجاعة من الأسود ، ولولا أن الأسد في نظر شاعرنا معدودة في البهائم لشبهها بهم في الشجاعة .

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٢) الحرب في شعر المتنبي ، ج ٢ ، ص ١٢٢ بتصرف .

وقد جمع المتنبي هنا بين وصفين متباعدين كعادته . جمع بين الحياء الخجول والشجاعة المتجهمه ، مما يقوي معانيه . ويختم الصورة بمدح شخص واحد منهم<sup>(١)</sup> :

إِلَى مُطْلِقِ الْأَسْرَى وَمُخْتَرِمِ الْعِدَا  
وَمُشْكِي ذَوِي الشَّكْوَى وَرَعِمِ الْمُرَاغِمِ  
كَرِيمٍ نَفَضْتُ النَّاسَ لَمَّا بَلَغْتُهُ  
كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمِ

هذا الممدوح من بين جماعته الممدوحين سابقا أبت فضائله وأخلاقه على المتنبي إلا أن يفردا بهذه الصورة . فمن فضائله أنه يمن على الأسرى فيطلق سراحهم ، ويحسن إلى ذوي الشكوى فيجيب شكواهم ، به يستغني عن الناس طرا ، إذ الناس قياسا به كالباقي من زاد المسافر إذا جف لافائدة منه . وقد اختار المتنبي كعادته لفظا - نفضت - يؤدي المعنى بطريقة توظف الأذهان ...

رزق المتنبي استعدادا فطريا للأداء البليغ ، تده حافظة قوية ، مزودة بثروة من ذخائر اللغة ، وينجده ذاكرة مسعفة ، وتسيطر عليه سلامة ذوق يتخير بها اللفظ ، ويسبك بها الأسلوب<sup>(٢)</sup> ، كل ذلك في ذكاء ، وطموح وخيال كشف عنها المتنبي في مجالات وصور عديدة منها على سبيل المثال<sup>(٣)</sup> :

مُحِبُّ النَّدَى الصَّابِي إِلَى بَدَلِ مَالِهِ  
وَأَقْسِمُ لَوْلَا أَنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ  
أَنْتَقِصُهُ مِنْ حَظِّهِ وَهُوَ زَائِدٌ  
يَجِلُّ عَنِ التَّشْبِيهِ لِأَلْكَفِ لُجَّةٌ  
وَلَا جُرْحُهُ يُؤَسِّي وَلَا غَوْرُهُ يُرَى  
صُبُوءًا كَمَا يَصْبُو الْمُحِبُّ الْمُتَيَّمُ  
لَهُ ضَيْغَمًا قُلْنَا لَهُ أَنْتَ ضَيْغَمٌ  
وَتَبَخَسُهُ وَالْبَخْسُ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ  
وَلَا هُوَ ضِرْغَامٌ وَلَا الرَّأْيُ مَخْدَمٌ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا حَدُّهُ يَنْبُو وَلَا يَتَشَلَّمُ

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٣

(٢) طه عبد الفتاح ، سر العبقريّة في المتنبي ، صحيفة دار العلوم ص ٦٠ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٤) المخدّم : السيف القاطع .

وَلَا يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ  
 أَلْذُّ مِنَ الصَّهْبَاءِ بِالْمَاءِ ذِكْرُهُ  
 وَأَعْرَبُ مِنْ عَنْقَاءِ فِي الطَّيْرِ شَكْلُهُ  
 وَلَا يُحْلَلُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ مُبْرَمٌ  
 وَأَحْسَنُ مِنْ يُسْرِ تَلْقَاهُ مُعْدِمٌ  
 وَأَعْوَزُ مِنْ مُسْتَرْفِدٍ مِنْهُ يُحْرَمُ

هذه المعاني والحلال الحميدة تغني بها شاعرنا ومدح بها ابن الرومي قبله في غير ماموضع<sup>(١)</sup>.. النفس الإنسانية لها نزعات شيطانية ولذات شهوانية فإذا هي تركت وشأنها تصبو وتسعى وراء لذتها ، فتتزل من الشر كل منزل وبالتالي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك ، وممدوح شاعرنا في النص السابق تغلب على نفسه وكبح جماحها وقادها بعقل راجح وفكر ثابت ، فمنعها من أطماعها الدنيوية ، وكفها عن الشهوات العرضية ، فأصبح بذلك بعيدا عن مواطن الشقاء والهلاك ، ففيه كرم لا يقاس وشجاعة لاتضاهي ، فجوده يفوق البحار ، وقوته تفوق الآساد ، ورأيه صائب كما أنه اختلف عن معاصريه بأخلاقه وفضائله . إضافة إلى اختلاف شكله وهيئته . فهو أغرب من العنقاء بين الطيور . كما أن ذكره وشهرته على الألسن ألد من الخمر ، وأحسن من اليسر الذي يصيبه الفقير بعد يأس من شدة كرمه لا يقصده أحد ويعود خائبا لأنه لا يحرم أحد من عطايه .

هذا هو الإنسان المثال في عين شاعرنا والذي تمنى أن يجده في كل معاصريه غير أنه حين افتقد هذه المثل والحلال في أناس عصره لم يجد بدا من تجسيدها وذلك من خلال مدائحها ، وقد اعتمد في هذه الصورة على ألوان من البديع ، مما قوى معانيه فأنت في أسلوب سهل ممتع ، وكان للمقابلات والتجنيس ، وأسلوب النفي والتأكيد ، شأن في الإيقاع الموسيقي المنسجم في هذه الأبيات .

(١) انظر مثلا الديوان ، ج ٤ ، ص ١٠٦، ٣٦ ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ .

في النص التالي يأتي المتنبي بمعان لائقة بمعلم نابه رائد فيقول<sup>(١)</sup>:

تَرَعَرَعَ الْمَلِكُ الْأُسْتَاذُ مُكْتَهَلًا      قَبْلَ اكْتِهَالِ أَدِيبًا قَبْلَ تَأْدِيبِ  
مُجْرَبًا فَهَمًّا مِنْ قَبْلِ تَجْرِبَةٍ      مُهَذَّبًا كَرَمًا مِنْ غَيْرِ تَهْذِيبِ  
حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نَهَايَتَهَا      وَهَمَّهُ فِي ابْتِدَآتٍ وَتَشْيِيبِ

يتمدح حلمه وأدبه وأنهما طبعاً فيه ، فقد نشأ مجرباً ، لفهمه ، ومهذباً بما طبع عليه من الكرم " وكل هذه معان لائقة بأهل العلم ، وإن كان أغرب بعض الغرابة - كما يقول الأستاذ الشكعة -<sup>(٢)</sup>: في المصراع الثاني من البيت الأخير : فقد جعل ممدوحه برغم أنه أصاب من الدنيا منتهى الآمال ، إلا أن همته لاتزال تصبو إلى أمور كثيرة ، وكأنما هو في أول الطريق ، تماماً مثل الشاعر الذي لا يزال في أول القصيدة مبتدئاً بالمطلع والتشبيب ، فهذا تصوير غريب ، ولكنه مقبول من شاعر يرى تسلسل الأيام والآمال شبيهاً بتسلسل بناء القصيدة التقليدية في نطاق المديح "

ثم ينطلق شاعرنا في خلع قلائد المديح على ممدوحه في نطاق حكمته السياسية التي من خلالها دبر أمور ملكه العريض فيقول<sup>(٣)</sup>:

يُدَبِّرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ      إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ  
إِذَا أَتَتْهَا الرِّيَّاحُ النَّكْبُ مِنْ بَلَدٍ      فَمَا تَهَبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ  
وَلَا تَجَاوِزُهَا شَمْسٌ إِذَا شَرَقَتْ      إِلَّا وَمِنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ  
يُصَرِّفُ الْأَمْرَ فِيهَا طِينُ خَاتَمِهِ      وَلَوْ تَطَلَّسَ مِنْهُ كُلُّ مَكْتُوبِ

"فالمتنبي هنا يرفع ممدوحه إلى مراتب مافوق البشر ، إذ جعله يتحكم في قوى الطبيعة ، فيحول بإرادته حدة الرياح الهوج إلى لين واستواء ، والشمس لاتغرب عن مصر إلا بإرادته بعد أن تستأذنه"<sup>(٤)</sup>.

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

(٢) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص ٢٦٨ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٩٤-٢٩٥ .

(٤) انظر محمد هاشم عطية ، المتنبي وكافور ، صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ص ٧٩



وقد كان لخيال المتنبي الخصب في هذه الصورة الدور الواضح في البيت الرابع جعل تصريف أمور المملكة بمجرد توقيع يقدمه هذا الممدوح بخاتمه حتى وإن كانت معالم هذا الخاتم مطمسة . وهذا دليل على حسن تصرف هذا الممدوح وحنكته السياسية .

وكأن المتنبي قد رأى ما يجري في عصرنا حيث أصبحت المعاملات الرسمية لا بد لها من قواعد وعلى رأسها توقيع أو ختم صاحب الأمر في أي حقل .

بعد هذه المكارم التي جسدها المتنبي لممدوحه في علمه وحلمه وسياسته الحكيمة لم يتخلص من طبيعته العربية وهي الإشادة بالكرم والسخاء الذي لا تشوبه منة ولا يكدره مظل فيقول (١):

كَأَنَّ كَلَّ سَوْأَلٍ فِي مَسَامِعِهِ      قَمِيصُ يَوْسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبِ  
قَالُوا هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْغَيْثَ قُلْتُ لَهُمْ      إِلَى غِيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّائِبِ  
إِلَى الَّذِي تَهَبُّ الدُّوَلَاتِ رَاحَتَهُ      وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ  
وَلَا يَرُوعُ بِمَغْدُورٍ بِهِ أَحَدًا      وَلَا يُفَزِّعُ مَوْفُورًا بِمَنْكُوبِ

لجود هذا الممدوح وكرمه يسر إذا سمع السؤال . سرور "يعقوب بقميص يوسف" فقد عد شاعرنا أثر السؤال في ممدوحه كأثر قميص يوسف على يعقوب - رد بصره إليه - هذا الممدوح فاق غيره في الجود والعطاء ، لا يتبع هباته منة ولا ينغصها بالمماطلة ، حسن السيرة في رعيته ، لا يظلم . لا يؤاخذ أحدا بجرم غيره حتى أن الكل يأمنه .

قريب من هذا النص قوله في موضع آخر يمتدح بنفس المعاني تقريبا (٢):

مَرْجُوٌّ مَنفَعَةٌ مَخُوفٌ أَذِيَّةٌ      مَغْبُوقٌ كَأْسِ مَحَامِدٍ مَصْبُوحٌ  
حَنَقٌ عَلَى بَدْرِ اللَّجَيْنِ وَمَأْتَتْ      بِإِسَاءَةٍ وَعَنِ الْمُسِيِّ صَفُوحٌ  
لَوْ فُرِّقَ الْكِرَمُ الْمُفَرَّقُ مَالَهُ      فِي النَّاسِ لَمْ يَكُ فِي الزَّمَانِ شَحِيحٌ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٩٥-٢٩٧ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٧٤ .

أَلْفَتَ مَسَامِعَهُ الْمَلَامَ وَغَادَرَتْ سِمَةً عَلَى أَنْفِ اللَّئَامِ تَلُوحُ

هذا الممدوح يحمد في كل وقت ، فكأنه يُسقى كأس المحامد غبوقاً  
وصبوحاً ، يفرق المال وكأنه حنقٌ عليه دون إساءة ، ولكنه يصفح عن  
المسيء ولا يؤاخذ به بجرمه ، لو فرّق كرم هذا الممدوح في الناس لصار الناس  
كلهم أسخياء ، مسمع هذا الرجل أهملت لوم من يلومه على الجود ، فلم  
يبال به ، ومضى على سخائه ، وغيره ممن أطاعوا اللئيم وأصغت مسامعهم  
إليه ، صاروا لئاما ، يُرى عليهم أثر اللؤم كما ترى السمة على الأنف .  
ولا يخفى ما في هذه الصورة من جمال وقوة سبك تُشغف الآذان ، وتمتع  
الأذواق . وقد كان لقوة الشاعرية في المتنبي ، ولغزارة مادته ، وسعة ثقافته  
وسلامة منطقته ، أثر بعيد الغور في سلامة تفكيره ، وجنوحه إلى الأسلوب  
المنطقي كلما زاول معنى من المعاني ، إذ لا يكتفي باللمحة العجلى ، بل يفكر  
ثم ينظم ، لذا تصل الحقائق والأخيلة على صورة منطقية محكمة ، راضها  
بيان طيِّع ، وصاغها شاعر ملهم ، فكان لها في النفس مستقر ووقع رائع  
خالد<sup>(١)</sup> .

وهذا دأب شاعرنا في كل الصور التي عرضناها مما يجلد القيم التي  
مدح بها وأثنى بها على ممدوحيه ، ويرغب في التمسك بها والدفاع عنها .

كان المتنبي يبحث عن القوة والبطولة ، والقيم الأصيلة التي عزت في  
عصره وأناسه ، وقد كان مثاله في كل ذلك الشخصية العربية الأصيلة .  
يقول<sup>(٢)</sup> :

بِمَنْ تَقْشَعِرُّ الْأَرْضُ خَوْفًا إِذَا مَشَى  
عَلَيْهَا وَتَرْتَجُّ الْجِبَالَ الشَّوَاهِقُ  
فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ يُخْشَى وَيُرْتَجَى  
يُرَجَّى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ

(١) محمود البشبيشى ، الحيوية في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ص ١٢٣ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

وَلِكِنهَا تَمْضِي وَهَذَا مُخَيِّمٌ" وَتَكْذِبُ أحياناً وَذَا الدَّهْرُ صَادِقٌ

هذا الممدوح يخاف منه في البأس والحرب حتى أن الأرض تهابه إذا مشى عليها ، وتتحرك الجبال خوفاً منه لشدة بأسه وقوته . وهو في حال السلم والحرب لاشبيه له سوى السحاب الداكن . مرجو مهيب ، فيه نفع وضرر ، بل هو يفوق السحاب ، لأنها تمضي ، وهو مقيم ، والسحاب قد تبرق ولكن دون مطر ، فتكذب أحياناً ، وهو صادق العطاء لا يتأخر .

وهذا الإنسان صنائعه معروفة تلهج بذكره المشارق والمغرب - الناس - ليس في الجود وحسب ، وإنما في القتال والشجاعة كما قال المتنبي<sup>(١)</sup>:

تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا لِيُنْسَى فَمَا خَلَّتْ مَغَارِبُهَا مِنْ ذِكْرِهِ وَالْمَشَارِقُ  
كَأَنَّكَ فِي الإِعْطَاءِ لِلْمَالِ مُبْغِضٌ وَفِي كُلِّ حَرْبٍ لِلْمَنِيَّةِ عَاشِقٌ  
فَمَا تَرَزُّقُ الأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ حَارِمٌ وَلَا تَرْتَقُ الأَيَّامُ مَا أَنْتَ رَاتِقٌ  
وَلَا تَرْتَقُ الأَيَّامُ مَا أَنْتَ فَاتِقٌ

لجوده وسخائه ينفق المال دون أن يتردد فكأنه يكره المال ، لسعة بذله وإقدامه وشجاعته كأنه عاشق للحرب بل عاشق للمنية يطلبها في كل حين . لا يتخالفه الأقدار فيما يصنع من رزق وحرمان ورتق وفتق فهي موافقة له . وقد حاول المتنبي أن يعبر عن الصورة المثالية للإنسان العربي في شخصية هذا الممدوح . فالعربي محب للكرم وشجاع مقدام في الحرب . وقد زاد المعنى قوة أسلوب النفي والتأكيد الذي اعتمده الشاعر . "أكثر النفوس البشرية ولعا بالثناء ، وحباً للمباهاة ، ورغبة في المفاخرة ، نفوس الفنانين من شعراء ، وأدباء ، ورسامين ، ومن إليهم ، لأن لهم من موهبتهم الفذة ، وثقتهم بذاتهم ، ما يجعلهم يعتقدون حيناً ، ويتوهمون أحياناً ، أنهم من غير طينة البشر"<sup>(٢)</sup>.

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٨٦-٨٩ .

(٢) فوزى عطوى ، المتنبي شاعر السيف والقلم ، ص ٤٧ .

والمتنبي شاعر فنان امتدح نفسه - فخرا - أثناء مديح غيره يقول (١):  
 فَلَمَّا رَأَيْتُ مُقْبِلًا هَزَّ نَفْسَهُ  
 إِلَيَّ حُسَامٌ كُلُّ صَفْحٍ لَهُ حَدٌّ  
 فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَحْرَ نَحْوَهُ  
 وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأُسْدُ

فالشاعر هنا يفخر بنفسه وإن كان الغرض المديح لشخص بعينه ، ولكن نفس المتنبي المتعالية أبت إلا أن تشارك ممدوحها صفات المدح ، فهو يريد أن يقول : إن ممدوحه شجاع وجواد كريم ، ورأى أن هاتين الصفتين هما أمهات الفضائل ، ومن خلالهما أشار لنفسه وأنه شجاع كما أنه كريم . إذ لا يعقل أن يقدم جبان على السيف ، ولا يعقل أن يقترب كذلك الجبان من الأسد فكيف به يعانقها . إلا إذا كان مفرط الشجاعة ، ويؤكد ذلك المتنبي حين ينفي عن سواه الإقدام على هذه الأفعال .

"هكذا كان شاعرنا يرى نفسه قبل أن يرى ممدوحه ، وأحيانا قد يضع نفسه وممدوحه على درجة واحدة من التساوي ، فالمتنبي كان يسعى إلى تحقيق غايات قصوى ، وكانت هذه الغايات ماثلة في ذاته ، فعثر في ممدوحه على المثل الذي تتجسد فيه تلك القيم ، فتم بذلك التزاوج بين الذات والمثل على مستوى القيم" (٢). انظر إليه يقول بعد ذلك (٣):

وَمَنْ بَعْدَهُ فَقْرٌ وَمَنْ قُرْبُهُ غِنَى  
 وَيَصْطَنِعُ الْمَعْرُوفَ مُبْتَدِئًا بِهِ  
 وَيَحْتَقِرُّ الْحُسَادَ عَنْ ذِكْرِهِ لَهُمْ  
 وَتَأْمَنُهُ الْأَعْدَاءُ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ  
 وَمَنْ عَرِضُهُ حُرٌّ وَمَنْ مَالُهُ عَبْدٌ  
 وَيَمْنَعُهُ مِنْ كُلِّ مَنْ ذَمَّهُ حَمْدٌ  
 كَأَنَّهُمْ فِي الْخَلْقِ مَا خُلِقُوا بَعْدُ  
 وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ الَّذِي يُذْنِبُ الْحَقْدُ

هذا الممدوح كريم جواد ، لامغمز فيه ، عزيز عزة الحر ، ماله مبذول في سبيل المجد يعطي المستحقين قبل سؤالهم ، ويمنع معروفه عن كل ساقط ، هذا الممدوح يعلم أن الحقد والحسد صفتان مذمومتان تأكلان حسنات

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٩٦-٩٧ .

(٢) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص ١٣٠ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

صاحبهما ، وهما منشأ العداوة والبغضاء ، وممدوح شاعرنا عاقل ، فك نفسه من تلك الأغلال ، وخلص من كابوس هاتيك الخصال ، فسعد حاله ، وفاز بالرضا والرضوان حين ترفع عن ذكر حساده حتى عدهم لم يخلقوا بعد فأعداء هذا الممدوح يأمنون جانبه لأنه عادل لا يرضى بالظلم ، ولكن عقابه يكون بقدر الذنب الذي يقتضيه المذنب .

"مديح المتنبي بالشجاعة والقتال نزعة عربية حرة في عصر عانى فيه العرب الإنقسام والتناحر ، ومكايد الفرس والترك ، فكان بذلك صاحب رسالة تدعو إلى تحرير العرب من ربقة العجم وتجديد حياتهم ، وذلك بردهم إلى مثلهم العليا السابقة"<sup>(١)</sup>. انظر إليه يصور ممدوحه بطلا مقداما لايهاب الموت . إذا ماوقف في ساحة القتال كانت وقفته أروع مثال على البطولة والثبات ، فكأنه في جفن الموت والموت عنه نائم<sup>(٢)</sup>:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِرَاقِفٍ      كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ  
تَمْرُ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً      وَوَجْهَهُكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمٌ  
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى      إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ : أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ

هذا الممدوح بطل مقدام لايهاب الموت ، بل من طبيعته أنه يقبل على الموت راضيا لإيمانه أن من طلب الموت وهبت له الحياة ، وصف شاعرنا ممدوحه ببعض قيم الفروسية التي تمثل غاياته القصوى ، فوصفه بالإقدام والتصميم ، وقوة العزيمة ، والوضوح غير المتخوف ، والفظانة التي تتجاوز حد العقل ، والشجاعة التي تتجاوز حد شجاعة الآخرين ، لقد استطاع المتنبي في هذه الأبيات كما يقول الأستاذ أمين ع شماوي<sup>(٣)</sup>: "وهو بصدد التعبير عن بعض جوانب الصورة المثالية للإنسان العربي . أن يعيد إلى

(١) د. زكى المحاسنى ، المتنبي ، دار المعارف بمصر ، ط/رابعة ١٩٧١م ، ص ٢٩ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٠١-١٠٣ .

(٣) انظر قصيدة المديح عند أبي الطيب المتنبي ص ٦٤ .

مضمون القصيدة ذلك الإيقاع الحماسي الذي كان يتردد في مدائح العصر الجاهلي".

هذا البطل الذي لايهاب الموت يحتقر كل ماعدا الشجاعة والانتصار فهاهو لايتأثر بمنظر القتلى والمنهزمين من الأعداء بل يشرق وجهه ويفتر ثغره عن ابتسامة النصر والفخر "وعندما صور المتنبي حالة الأبطال المنهزمين ، المتخنين بالجراح ، الذين تعلقو وجوههم الكآبة ، حسن أن يقابل تلك الصورة بصورة مضادة لها ، وهي صورة ممدوحه بوجهه المشرق وثغره المبتمسم ، رغم فداحة الخطب وهول الفاجعة ، فقد استفاد المتنبي من الجمع بين المتشابهات في البيت الأول كما استفاد من الجمع بين المتنافرات في البيت الثاني"<sup>(١)</sup>.

أظهر هذا الممدوح من العزم والإقدام والجلد على المخاوف ماتجاوز به حد الشجاعة والعقل إلى مايقول قوم من أنه يعلم الغيب ، ويعرف أعقاب الأمور قبل حلولها ، لذلك كان رابط الجأش لا يؤثر فيك منظر الجثث والقتلى ، وخيبة وانكسار المنهزمين .

في الأبيات السابقة صورة بيانية ، عفوية بسيطة ، غير أنها تنقل إلينا موقفا بطوليا قل أن نجده عند غير المتنبي .

يتابع بعد ذلك شاعرنا بقية صورته التي يمتدح بها هذا البطل العربي ، وقد تحكم في جيش الأعداء قتلا وأسرا ، فيقول<sup>(٢)</sup>:

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأُحْيِدِيبِ كُلِّهِ      كَمَا نَثَرْتُ فَوْقَ الْعَرُوسِ الدَّرَاهِمُ  
تَدَوَّسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الدَّرِيِّ      وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ

(١) محمد عبد الرحمن الهدلق ، الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي ، مجلة جامعة الملك

سعود ، الآداب ، مجلد ٦ ، ١٤١٤هـ ، ص ٤٢٩ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

"هذا البطل مغرم بمظاهر القوة ، ومن مظاهرها القتلى والجرحى وقد تفرقت جثثهم على الجبل . بمثل هذه المشاهد تطيب نفس هذا الممدوح وتطرب ، ومامعنى هذا أن يقتل الناس أمامه فحسب ، فالبطل إنسان ، وماهو بالجائع إلى الدم ، بيد أنه يرى الموت واجبا في الدفاع عن الكرامة وبلوغ المجد"<sup>(١)</sup>.

وكان للاستعارة في هذه الصورة أثرها "فحين اتفق في الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام ، كما يكون في الشيء المنشور ، عبر عنه المتنبي بالثر ، ونسب ذلك الفعل إلى الممدوح ، إذ كان هو سبب ذلك الانتثار"<sup>(٢)</sup>.

ثم يتابع بعد ذلك فيمدح بالناحية الدينية ويربط ذلك بالجهاد في سبيل الله فيقول<sup>(٣)</sup>:

وَلَسْتَ مَلِيكًا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ      وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرِكِ هَازِمٌ  
تَشَرَّفُ عَدْنَانٌ بِهِ لَارَبِيعَةٌ      وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لِأَعْوَابِ

يعتقد المتنبي أن الحرب بين المسلمين والروم في هذه الصورة ، ليست بين ملكين على أرض أو أطماع معينة ، بل هي حروب العقيدة الإسلامية التوحيدية أمام جحافل الشرك الأكبر في ذلك الوقت ، فبذلك هذه الحرب بين التوحيد والشرك .

من هذا المنطلق وجب أن تعتز العرب جميعا وتفتخر بقائد المسلمين في هذه الحرب - ممدوح الشاعر - فقد رفع شأنهم وأعلى في الدنيا ذكرهم ، وثبت على الحق دولتهم ، فالمعاني الإسلامية مستقرة في قلب شاعرنا . يقول<sup>(٤)</sup>:

(١) إنعام الجندي ، ذرّاسات في الأدب العربي ، ص ٢٥٨ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص ٥٨ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٠٧ .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ تَخَشَى إِذَا مَا حَلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ

فهذا الممدوح يدين بالسخاء ويعتقده كما يدين بالإسلام ، ويعد تحوله عنه كالردة عن الإسلام ، فيخاف التحول كما يخاف الردة التي عقابها القتل ودخول النار ، وبذلك يدرك ممدوح شاعرنا أن عليه مسؤولية خاصة عن تصرفات نفسه وسلوكه الشخصي ، وتمثل ذلك في تمسكه بدينه وحبه لحصال الخير ثم قال (١) :

وَقَدْ مَزَّقْتَ ثَوْبَ الْغِيِّ عَنْهُمْ وَقَدْ أَلْبَسْتَهُمْ ثَوْبَ الرَّشَادِ

هذا الممدوح أخرج قومه من ضلال المعصية إلى رشد الطاعة ، لأنه يعلم أن عليه مسؤولية عامة عن تصرفات غيره وسلوك الآخرين عملاً بالآية {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (٢) . وقوى هذا المعنى أسلوب البديع في المقابلة بين الغي والرشاد - التمزيق ، واللبس -

يسعى المتنبي جاهداً إلى ابتكار صور شعرية جديدة ، فيها توافقاً يتناسب مع طموحه وسعيه وبجته عن الجديد ، حين يقول (٣) :

عَرَبِيٌّ لِسَانُهُ ، فَلَسْفِيٌّ رَأْيُهُ ، فَارِسِيَّةٌ أَعْيَادُهُ  
كُلَّمَا قَالَ نَائِلٌ : أَنَا مِنْهُ سَرَفٌ ، قَالَ آخِرٌ : ذَا اقْتِصَادُهُ  
ظَالِمٌ الْجُودِ كُلَّمَا حَلَّ رَكْبٌ سِيمٌ أَنْ تَحْمِلَ الْبِحَارُ مَزَادَهُ  
مَا سَمِعْنَا بِمَنْ أَحَبَّ الْعَطَايَا فَاشْتَهَى أَنْ يَكُونَ فِيهَا فُؤَادَهُ

المتنبي في مديحه يشير إلى أحداث عصره وماساد فيه من أمور دخيلة على العرب ولكنه يطوع كل ذلك لمديحه فممدوحه عربي اللسان ، حكيم الرأي نظراً لانتشار علم الفلسفة في عهده ، كذلك متأثر بالفرس فأعياده

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٢٥

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٥٠-١٥٦ .



مستمرة ، كثير العطاء قد بلغ القمة في الكرم والجود . فكلما استعظم منه نائل يعد سرفا ، أعقبه نائل أعظم منه يعد النائل الأول الذي كان يستشرف اقتصادا بإضافته إلى الثاني<sup>(١)</sup> . ومبالغة في المديح وصفه بالظلم في الجود ، من شدة كرم هذا الممدوح وجوده يتمنى لو يعطي قلبه من ضمن العطايا ، قريب من هذا المعنى قوله يمتدح قيمة الكرم والجود<sup>(٢)</sup> :

تَشْبِيهُ جُودِكَ بِالْأَمْطَارِ غَادِيَةً      جُودٌ لِكَفِّكَ ثَانٍ نَالَهُ الْمَطَرُ  
تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً      كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورَهُ الْقَمَرُ

المتنبي يعلم أن نظام الحياة يقضي على الإنسان أن يسعى ويعمل لطلب الرزق من وجوهه المشروعة ، حتى لا يمد يده للناس . ولكنه هنا يرى أن ممدوحه يكفي الناس هذا العناء ، فهو كريم دائم العطاء بغير سؤال . حتى أصبح تشبيه جوده وعطائه بالأمطار ، جود ولكنه للمطر ، ينال المطر هذا الشرف حين يشبه عطاء هذا الممدوح به ، لأن هذا الممدوح في نظر المتنبي فاق المطر في الجود ، كما فاق الشمس في النور والضياء ، والشهرة ، فالشمس في نظر شاعرنا تكسب النور من طلعة هذا الرجل كما تكسب القمر منها نوره ، وهنا قلب للمقاييس الطبيعية ، ولكن المتنبي يحل لنفسه كل شيء في سبيل الارتفاع بممدوحه إلى مراتب تفوق البشر . وغرضه من ذلك الارتفاع بالقيمة التي يمدح بها ، وحث الناس في عصره على التمسك بها والدفاع عنها .

من المناقب التي عدها المتنبي لممدوحه وأشاد بها قيم العلم ، والفصاحة وحسن الخط والكتابة إضافة لبقية القيم التي تغنى بها مرارا ، يقول<sup>(٣)</sup> :

إِنَّ كُوتِبُوا أَوْ نَقُوا أَوْ حُورِبُوا وَجُدُوا  
فِي الْحَطِّ وَاللَّفْظِ وَالْهَيْجَاءِ فُرْسَانًا

(١) شرح مشكل شعر المتنبي ، ص ٣٢١ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٥٨-٣٦٠ .

كَأَنَّ أَلْسِنَهُمْ فِي النَّطْقِ قَدْ جُعِلَتْ      عَلَى رِمَاحِهِمْ فِي الطَّعْنِ خِرْصَانًا  
كَأَنَّهُمْ يَرُدُّونَ الْمَوْتَ مِنْ ظَمًا      أَوْ يَنْشَقُّونَ مِنَ الْخَطِّ رِيحَانًا

هؤلاء القوم خطباء مفوهون ، وكتاب فضلاء ، فرسان في الكتابة والبلاغة والحرب فكلامهم بالغ الأثر في النفوس ، وأسلحتهم ماضية نافذة ، مضاء ألسنتهم في النطق ، فكأن ألسنتهم قد جعلت خرصانا على رماحهم ، وهنا أتى بتشبيهه مقلوب وحول وجه الكلام مبالغة في مضاء ألسنة ومدوحه وذلاقتها حتى صارت الألسنة تشبه بها ، هؤلاء القوم لسهولة الحرب عليهم واسترواحهم إليها صار الموت عندهم لذيذا ، كالماء للظمآن ، وصارت الرماح شهية كالريحان الذي يشم . هؤلاء العظماء إن كانوا باطشين بأعدائهم مهابين في أعين الناس ، فإنهم بين أصدقائهم وفي مجالس إخوانهم دمثين رقيقين ، أحاديثهم حلوة ، تجذب القلوب إليهم ، فهم بذلك يفرقون بين العدو والصديق بحزمهم وبعد نظرهم يقول (١):

الكَائِنِينَ لِمَنْ أَبْغَى عِدَاؤَتَهُ      أَعْدَى الْعِدَا وَلِمَنْ أَحْيَتْ إِخْوَانًا  
خَلَائِقٌ لَوْ حَوَاهَا الزَّرْجُ لَانْقَلَبُوا      ظَمِي الشَّفَاهِ جِعَادَ الشَّعْرِ غُرَانًا  
وَأَنْفُسٌ يَلْمَعِيَّاتٌ تَجِبُّهُمْ      لَهَا اضْطِرَارًا وَلَوْ أَقْصَوْكَ شَانَا  
الْوَاضِحِينَ أَبْوَاتٍ وَأَجْبَنَةَ      وَوَالِدَاتٍ وَأَبَابًا وَأَذْهَانَا

هؤلاء القوم لهم محامد وخصال جميلة ، لو اتصف بها الزنج على قبح صورهم لغطت هذا القبح وصاروا مع سوادهم كأنهم بيض ومع غلظ شفاههم كأنهم ظمي الشفاه .

وقد استطاع المتنبى بنظرته الثاقبة وتعمقه في واقع الإنسان وأخلاقه ، أن يبصر الجمال والقبح ويشعرنا بأن الجمال الظاهر ماهو إلا نتيجة لجمال الأخلاق - الباطن - وهؤلاء القوم لهم أنفس ذكية فطنة . يحبهم المرء لأجلها حتى من عادوه لا يملك إلا أن يحبهم لما اتصفوا به من خلائق وفضائل ،

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٥٨-٣٦٠ .

ولأن الإنسان جبل على حب الجمال في كل شيء أصبح حب هؤلاء القوم ضرورة لجمال خصالهم وفطنة أنفسهم .

ثم يعرض لقضية النسب التي اعتاد العرب التمدح بها ، فيقول : إن هؤلاء القوم معروفو الآباء ، وأنسابهم طاهرة ، ووجوههم حسنة متهللة كرما ، كما أنهم مشرقو العقول والأذهان ، يخرج بعد ذلك من مديح الجماعة ، إلى الفرد ، فيختار من هؤلاء القوم فردا يغدق عليه من الفضائل والصفات الحميدة ، والقيم العربية ، ما يوحى بتعلق المتنبي وحبه لفضائل العرب وأخلاقهم التي يتمنى بعثها والتمسك بها في معاصريه . وهكذا . فممدوح المتنبي في أغلب أحواله بطل عظيم ، يفوق الواقع ، بل ربما يسمو على الممكن ، سواء في بأسه أو في كرمه ، فالخلتان متلازمتان في وجدان العربي ، فلاشجاعة بغير كرم ، ولاكرم بغير شجاعة ، وهما معا نسيج متلاحم في صورة الإنسان البطل عند شاعرنا يقول (١) :

أَنْتَ الَّذِي سَبَكَ الْأَمْوَالَ مَكْرُمَةً	ثُمَّ اتَّخَذْتَ لَهَا السُّؤَالَ خُرَانًا
عَلَيْكَ مِنْكَ إِذَا أُخْلِيَتْ مُرْتَقِبٌ	لَمْ تَأْتِ فِي السَّرِّ مَالٌ تَأْتِ إِعْلَانًا
فَإِنَّ مِثْلَكَ بَاهَيْتُ الْكِرَامَ بِهِ	وَرَدَّ سُخْطًا عَلَى الْأَيَّامِ رِضْوَانًا
وَأَنْتَ أَبْعَدُهُمْ ذِكْرًا وَأَكْبَرُهُمْ	قَدْرًا وَأَرْفَعُهُمْ فِي الْمَجْدِ بُنْيَانًا
قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِنُهَا	وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانًا

نسب المتنبي فضائل الأخلاق ، ومحامد الصفات لممدوحه ، في هذا النص . تلك الفضائل والصفات التي تحقق للبشرية غايتها من الأمن والسكينة والتي أوردتها الباري - عز وجل - في نصف آية من كتابه العزيز {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ} (٢) . هذه الفضائل التي لو سرت في مجتمع لساده الود وغشيته الرحمة ، وعمه الحب والإخاء . من تلك

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) سورة النحل : آية ٩٠ .

الفضائل التي حوتها نفس الممدوح الكرم وبذل المال فقد سبك أمواله وأحالتها مكارم ثم جعلها في أيدي الناس فكأنه اتخذ المحتاجين خزاناً لها . كما أن من محامد أخلاقه ، أنه لا يفعل في الخلاء ما لم يفعل في الملأ ، لأن الرقيب عنده في نفسه ، مثل هذا الممدوح يقصر الكرام عن مكارمه . ويفوق كل الكرام في الذكر والقدر ، والشرف والمجد ، حتى عد وجوده في الناس شرف لبني الإنسان لعظم أخلاقه تشرف الأرض التي يسكنها على غيرها فهذه الفضائل وهذا المديح نفى شاعرنا عن ممدوحه بقية المساويء التي تفسد المجتمعات وتشقى الأمم ، والتي أجملها سبحانه وتعالى ونهى عنها في النصف الآخر من الآية الكريمة : { ... وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (١)

البيت الأخير في النص السابق مع أبيات قريبة منه يوضح لنا أن المتنبي في كل فرصة يحاول أن يرفع من شأن ممدوحه ويجعل ماحوله يفخر به ، انظر إلى قوله (٢) :

أَكَارِمٌ حَسَدَ الْأَرْضِ السَّمَاءِ بِهِمْ وَقَصَّرَتْ كُلُّ مِصْرٍ عَن طَرَابُلسٍ

فالمعنى تقريبا نفسه . يقول إن هؤلاء القوم لفضلهم حسدت السماء الأرض لوجودهم عليها ، كما قصرت كل البلدان وتأخرت عن البلد الذي يسكنوه . كما قال (٣) :

كَفَى تَعَلًّا فَخْرًا بِأَنَّكَ مِنْهُمْ وَدَهْرٌ لِأَنَّ أَمْسِيَتَ مَنْ أَهْلِهِ أَهْلٌ

فالمعنى ذاته ، يقول يكفي قبيلتك فخرا أنك منها لفضائلك ومحامدك كما يكفي هذا الدهر الذي أنت فيه أنك عشت فيه . هكذا تتقارب معاني المتنبي فهو لا يترك فرصة لتأكيد المعنى إلا استغلها .

(١) سورة النحل : آية ٩٠

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ .

يعمد المتنبّي إلى توجيه الأنظار إلى عظمة ممدوحه الحربية وفخامة قدره وعلو همته فيقول (١):

صَاقَ الزَّمَانَ وَوَجَّهَ الْأَرْضَ عَنْ مَمْلِكِ  
فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ  
مِنْ تَغْلِبِ الْغَالِبِينَ النَّاسَ مَنْصِبُهُ  
مِلءِ الزَّمَانِ وَمِلءِ السَّهْلِ وَالجَبَلِ  
والبَرِّ فِي شُغْلٍ وَالبَحْرِ فِي حَجَلٍ  
وَمِنْ عَدِيٍّ أَعَادِي الْجُبْنِ وَالبَخْلِ

فالممدوح هنا كما يقول الأستاذ الشكعة (٢): "فيه من القوة الشيء الكثير لأنه يرفع من شأن هذا الممدوح بحيث يجعل الزمان في ضيق من أمره ، لأنه أحقر من أن يتسع لمثله ، ويجعل الأرض في حيرة من أمرها لأنها أضيق من أن تتسع لفضله وعظمته ، ثم يلحق المتنبّي هذه المعاني بمعان أخرى في بيت تال تصارعت فيه المحسنات بما حوى من تقسيم حسن بهيج ، فقد صور المسلمين فرحين بأمرهم لانتصاراته المتتالية وصور الأعداء خائفين وجلين ، فالبر مشغول بما حمل من الجيوش الجرارة ، وأما البحر وهو رمز الجود والكرم فإنه خجل لتقصيره إذا ما شبه بهذا الممدوح السخي الكريم".

هذه الشجاعة وهذا الكرم صفتان اجتمعتا لممدوحه ، ولكنه يرى أنهما سلوك اجتماعي متوارث فيرجع ذلك إلى سلف الممدوح حين يشير إلى أصله ويجعل من قبيلة الممدوح صفة يمتدح بها جماعته حين اشتق من قبيلة - تغلب - صفة - غالبين - فقد تغلبت قبيلة الممدوح على الناس نجدة وشجاعة ، ثم اشتق كذلك من جده - عدي - صفة العداوة ، فجعل أهل هذا الممدوح أعداء للبخل والجبن ، فهذا إنسان المتنبّي حين يكون أهلاً للمدح لا يترك شاعرنا صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذا الممدوح إلا نسج منها حلة يرتفع بها صاحبها عن غيره ، فالقبيلة والجماعة والنسب كلها عند المتنبّي أمور يمتدح بها ، وبهذا يجتمع لممدوح المتنبّي كل الأخلاق الحميدة ، فهو قد

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

(٢) أبو الطيب المتنبّي في مصر والعراقين ص ١٤١ .

جمع بين وظيفة دينية تخلص الروح من الخوف والقلق - الجهاد في سبيل الله - ووظيفة دنيوية تخلص النفس من الهموم بدحر الفقر - الكرم والعطاء - .

ثم يسترسل المتنبي بعد ذلك في وصف ممدوحه والإشادة بأخلاقه وفضائله ولكنه قبل ذلك يوضح أن هذا الممدوح خير قائد في خير أمة فيقول<sup>(١)</sup>:

إِنَّ الْهُمَامَ الَّذِي فَخَرَ الْأَنَامَ بِهِ      خَيْرُ السُّيُوفِ بِكَفِّي خَيْرَةَ الدُّوَلِ  
فهذا البيت مدخل إلى صفات الممدوح الأخرى التي يبدأ المتنبي بتعدادها صفة تلو أخرى وكلها من حميد الأخلاق وكريم السجايا .  
المتنبي في مدائحُه يشيد بالذات العربية ويفخر بها وبكل ما يمت للعروبة بصلة حتى اللباس يقول مشيراً للفرق بين اللباس العربي وغيره<sup>(٢)</sup>:

وَفِي صُورَةِ الرَّؤْمِيِّ ذِي النَّجْدِ ذَلَّةٌ      لِأَبْلَجٍ لَا تَبْجَانُ إِلَّا عَمَائِمُهُ  
تُقَبَّلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَةِ      وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُمُهُ وَبِرَاجِمُهُ  
قِيَامًا لِمَنْ يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كَيْتُهُ      وَمَنْ يَبْنِ أذُنِيَّ كُلَّ قَرَمٍ مَوَاسِمُهُ  
لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى      بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ  
أَجَلَّتْهَا مِنْ كُلِّ طَائِعٍ ثِيَابُهُ      وَمَوَاطِنُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلَاعِمُهُ

هذا العربي مشرق الوجه لاتاج له إلا عمامته ، عند مثول الملوك بين يديه تقبل بساطه لعظم شأنه وهيبته ، يرد بالطنع والضرب من عصاه إلى طاعته ، كما يرد من به داء بالكبي إلى الصحة ، لشجاعة هذا الممدوح وإقدامه في الحرب صورته المتنبي وله عسكران ، على أنه لايهمنا ما في هذه الصورة الكلية من صور جزئية ، بما فيها من استعارات وكنائيات بقدر ما يهمننا الصورة الكلية أو العامة وما فيها من تفتن في الابتكار ذكره له

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٥٣-٥٤ .

القدماء كما قال الأستاذ أيمن العشماوي<sup>(١)</sup>: "المتنبي هنا يريد أن يصف قوة جيش الممدوح وتعوده على النصر حتى أصبح لازمة من لوازمه ، فجعل له جيشين ، جيش من الخيل والفرسان ، وجيش من جوارح الطيور التي تعودت أن تسعى بسعي جيشه انتظارا لما تلقاه من مصاحبته لهذا الجيش من جثث الأعداء ، وقد جعل الشاعر الجيشين سحابتين<sup>(٢)</sup> تستظل إحداهما بالأخرى ، ورجح استغلال السحابة العليا بالسحابة التي تحتها تحقيقا للمعنى وإن كان قلبا للصورة الحسية ، ثم جعل السحابة السفلى تسقي السحابة العليا ، وهو أيضا أمر لا ترضاه النظرة الحسية ، بينما لم ير المتنبي أي غرابة في هذه الصورة ... " .

تعودت خيل هذا الممدوح أن تدوس كل طاغ من طغاة الأعداء ، حتى أن هذا الممدوح يسلب ثياب كل طاغ من ملوك العدو ويتخذ منها أجلة لحيته ، ويوطيء حوافرها وجه كل باغ فيهم ، وذلك إمعانا في قتلهم وبلوغ الغاية من الظهور عليهم ، وهي لاشك صورة للقوة طالعنا بها شاعرنا بأسلوب عظيم قوي ، وروح فدائية ، وعزة عالية مرغبا في القوة .

المعالى ضربين : طبعي (الفضائل النفسانية : كالشجاعة والكرم والفهم والعفة) ، ومقتنى : (كالمال والجاه والثروة) المتنبي كان على علم بهذه المعالى فلم يفته أن يمدح بها فقال<sup>(٣)</sup>:

إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِيَ بِالنَّدَى      فَإِنَّكَ تُعْطِي فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا  
فَقَدْ تَهَبُ الْجَيْشَ الَّذِي جَاءَ غَازِيَا      لِسَائِلِكَ الْفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا  
وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارًا مَجْرَبِيَا      يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا وَحَاشَاكَ فَاِنْيَا

يقول : إنما يجود الجواد ليحصل له العلو والشرف بالجود ، بينما ممدوح المتنبي يعلى من يعطيه ويشرفه . فإذا كان قصارى جهد أفضل الناس

(١) انظر قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، ص ١٩١ .

(٢) سحاب من العقبان يزحف تحتها      سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ .

اكتساب المعالي بالندى - العطاء - فإن هذا الممدوح يعطي المعالي فتدل البلاد وتكسب الأجناد ، فعطاياه تشرف المعطين ، فتفضي بهم إلى المعالي . وما كان سببا للمعلاة فهو معلاة<sup>(١)</sup>. فهذا الممدوح غاية في الجود والشجاعة والكرم ، بحيث لو سأله سائل نجيشا أتى يغزوه لوهبه له دون مماثلة ، ولأنه مجرب وعالم بالدنيا يحتقرها لعلمه أن مافيها مصيره الفناء .

قريب من هذه الصورة قوله<sup>(٢)</sup>:

يَرُوعُ رَكَائَةً وَيَذُوبُ ظَرْفًا	فَمَا نَدْرِي أَشَيْخٌ أَمْ غَلَامٌ
وَتَمَلِكُهُ الْمَسَائِلُ فِي تَدَاةٍ	وَأَمَّا فِي الْجِدَالِ فَلَا يُرَامُ
وَقَبْضُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وَعِزٌّ	وَقَبْضُ نَوَالِ بَعْضِ الْقَوْمِ دَامُ
أَقَامَتْ فِي الرِّقَابِ لَهُ أَيَادٍ	هِيَ الْأَطْوَاقُ وَالنَّاسُ الْحَمَامُ

هذا الممدوح جمع بين وقار الشيوخ ، وظرف الفتيان ، بالإضافة لذلك فهو جواد كريم ، ذو علم وفهم ، لا يلحق به أحد في الجود ولا ينافسه أحد في العلم ، قبول عطاءه شرف وعز لا أخذيه ، بينما عطاء غيره من اللئام عار وذلة ، نعم هذا الممدوح وأيديه قد أحاطت برقاب الناس ، كالأطواق في أعناق الحمام ، وقريب من هذه الصورة قوله في نفس المعنى<sup>(٣)</sup>:

إِذَا اسْتَعْطَيْتَهُ مَا فِي يَدَيْهِ	فَقَدْكَ سَأَلْتَ عَنْ سِرِّ مُذِيعَا
قَبُولِكَ مِنْهُ مَنْ عَلَيْهِ	وَالْأَيْتَدِيءِ يَرُهُ فَظِيْعَا

فهذا الممدوح مثل سابقه ، سريع الأريحية ، يعطي ما يملك ، ولا يضمن بما في يده ، هو مع جوده وشجاعته وبعد همته ، يعتبر الأخذ منه من عليه ويرى إذا عمد سائله للسؤال أن في ذلك أمر مشين له . فهو يريد أن يعطي قبل السؤال ، ولعل المتنبي بهذا يلفت نظر معاصريه من الأثرياء إلى صدقة السر وفضائلها دون أن يحتاج السائل لإذاعة طلبه ، وإراقة ماء وجهه .

(١) شرح مشكل شعر المتنبي ص ٢٨١ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٩٦ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .



دارت رحى العصر في القرن الرابع الهجري على كثير من صفات الخير في صدور الناس فصارت تطحن خيره ، وتدمر فضله ، حتى لم يبق منها في صدور كثير منهم إلا خيالات باهتة ، وأشلاء ممزقة . كل هذا على مرأى من المتنبى ومسمع فهاله ما آل إليه أمر القيم من تدهور فأخذ يحاول بعث هذه القيم بمداخه .. يقول (١):

فَتَى فَاتَتْ الْعَدَوَى مِنْ النَّاسِ عَيْنَهُ      فَمَا أَرَمَدَتْ أَجْفَانَهُ كَثْرَةُ الرُّمْدِ  
وَخَالَفَهُمْ خَلْقًا وَخُلُقًا وَمَوْضِعًا      فَقَدَّ جَلَّ أَنْ يُعَدَى بِشَيْءٍ وَأَنْ يُعَدِي

فهذا الممدوح كريم الخلق خال من العيوب ، إذ هو أجمل الناس خلقا وأنبهم خلقا ورتبة حتى فاق الناس ، وقد جعل المتنبى الرمد مثلا للعيوب المعدية . فقال : كثرت العيوب في الناس لكن هذا الممدوح سالم منها فلم تعده لشرف عنصره وصفاء جوهره . كما أنه لا يعدي بصفاته العظيمة أحد لأنها خاصة به وهي مافاق الناس بها . ثم أكمل فضائله فقال (٢):

أَأَحْزَمَ ذِي لُبٍّ ، وَأَكْرَمَ ذِي يَدٍ  
وَأَشْجَعَ ذِي قَلْبٍ وَأَرْحَمَ ذِي كَبِدٍ  
وَأَحْسَنَ مُعْتَمِّمٍ جُلُوسًا وَرِكْبَةً  
عَلَى الْمِنْبَرِ الْعَالِيِ أَوْ الْفَرَسِ النَّهْدِ

بهذه الصفات كلها تفرد هذا الممدوح عن غيره فهو حازم كريم ، شجاع ، رحيم ، بل هو أحسن وأجل الناس جميعا وقد عبر بلفظ معتم عن كل من يلبس العمامة - العرب جميعا - في جلسته أو في اعتلاء المنبر والفرس لاشبيه له . وقد اعتمد على أسلوب التفضيل في إقرار هذه الفضائل ونسبتها لممدوحه .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

وقريب من هذه الصورة والفضائل التي عدها شاعرنا لممدوحه قوله (١):

مُتَلِفٍ مُخْلِيفٍ وَفِيَّ أَبِيَّ  
عَالِمٍ حَازِمٍ شَجَاعٍ جَوَادٍ

فقد جمع المتنبي من الفضائل والقيم العربية أغلبها في بيت واحد حين رأى هذه القيم تندثر فما عاد الخير خيرا بشكله الحقيقي . فقد حرفته الأضواء وصحفته الآراء في ذلك العصر وغيرت الشهوات الفضائل والقيم فأين نوازع الجود ودوافع الكرم؟ وأين الإقدام والشجاعة؟ أين النجدة والمروعة؟

عصر المتنبي كان يفتقد كل هذه الحصال وهذه الأخلاقيات مما حدا بشاعرنا إلى التفتن في إحياء هذه الفضائل وبشتى ألوان المديح حتى يؤكد لنفسه وجود هذه المثل ، وإن كانت خيالا وأمنيات في نفسه ، لكنه لم يفقد الأمل في بعثها وترغيب النفوس فيها من خلال مداخه وتعظيمه لكل من حمل فضيلة أو ساعد على نشرها .

ممدوح المتنبي من العزة بحيث لا يتمنى شيئا لأن كل أمنياته طوع يديه كما أن خلقه الإسلامي لا يرضى بالغيبة في مجلسه أو كما يقول عنه المتنبي (٢):

تُمْسِي الأَمَانِيَّ صَرَعَى دُونَ مَبْلَغِهِ  
وَمَا سَمِعْتُ ، وَلَا غَيْرِي بِمُقْتَدِرٍ  
لأنَّ حِلْمَكَ حِلْمٌ لَا تَكَلَّفُهُ  
وَمَا ثَنَّاكَ كَلَامُ النَّاسِ عَنْ كَرَمٍ  
أَنْتَ الجَوَادُ بِلَا مَنٍّْ وَلَا كَدْرٍ  
أَنْتَ الشَّجَاعُ إِذَا مَالَمَ يَطَأُ فَرَسٌ  
فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لِي  
أَذَبَّ مِنْكَ لِزُورِ القَوْلِ عَنْ رَجُلٍ  
لَيْسَ التَّكْحَلُ فِي العَيْنَيْنِ كَالكَحْلِ  
وَمَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العَارِضِ الهَطْلِ  
وَلَا مِطَالٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا مَذَلٍ (٣)  
غَيْرَ السَّنُورِ وَالْأَشْلَاءِ وَالْقُلَلِ (٤)

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٦-٢١١ .

(٣) المذل : الضجر والقلق .

(٤) السنور : لباس من جلد كالدرع ، سميت به دروع الحديد ، القلة : أعلى الرأس .

يشير المتنبي في مديحه إلى سوء حال العصر الذي يعيش فيه . فقد رأى قوالب الخير في النفوس وقد استبدلت برذائل الشر ، ورأى الأحوال وقد تبدلت وسرت الغيبة والبهتان ، وفشت النيمة والآثام ، وانتشر الفجور وغدا الشح فضيلة والكرم مغرماً ورذيلة ، كل هذا أوحى لشاعرنا أن يعيد للإنسان العربي قيمه وعاداته الحميدة من خلال بعثها بمديحه لبعض من حافظ عليها . وقد تبين لشاعرنا مدى أهمية تلك القيم وتأصيلها في النفوس فأخذ يمدح بها . وفي هذه الصورة مدح بفضائل عدة منها الحلم ، وعدم الغيبة ، والكرم والجود الذي لا يتبعه منة ولا يكدره مماثلة ، والشجاعة التي لا تقاس . يقول الأستاذ زهدى الخواججا<sup>(١)</sup>: "العظمة والقوة تخلقان السبيل ، وتمهدان الوعر وكأن المتنبي غمس هذا القول بقرارة نفسه ، فعلمت بأهدابه ما يعتلج في دخيلته من إيمانه بالقوة سبيلاً لتحقيق الأمور الخطيرة" . فهذا الممدوح قد استطاع بقوته أن يترفع عن كلام الناس وعذلهم لكرمه ، فلا شيء يعترضه ، فهو كالسيل العرم يطغى على كل ما يصادفه ، ولن يقف أمامه شيء .

وقريب من المعنى السابق في الجود والكرم دون منة قوله في موضع آخر<sup>(٢)</sup>:

يُعْطِي فَلَا مَطْلَةَ يُكَدِّرُهَا      بِهَا وَلَا مَنَّةَ يُنَكِّدُهَا

فكان المتنبي يشير إلى ملمح مهم في عصره وهو قلة العطاء ، والمن به أو المماثلة والتسوية في الكرم والبذل . فامتدح بعكس هذه الملامح التي رآها في عصره آخذاً بالآية الكريمة<sup>(٣)</sup>: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} .

(١) موازنة بين الحكمة في شعر أبي الطيب والحكمة في شعر أبي العلاء ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٦٢

المسلم يدرك أنه مسؤول عن البشرية ، لأنه فهم من معنى الخلافة والعبادة والأمانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهم من كل هذا مسؤوليته العامة ووجد مصداق فهمه في قوله تعالى : **إِوَكَّدَلِكْ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** (١).

ويجتمع لدى المنتبي إيمان عميق بدوره هذا وإيجابيته ، فيستشعر قيمة الإيمان بالمثل العليا لأنها جزء من تحقيق ذاتية الإنسان (٢) فيمتدح بهذه المثل في قوله (٣):

<p>الذِّكْرِ الْجَعْدِ السَّرِيِّ الْهُمَامُ وَمِنْ حَاسِدِي يَدِيهِ الْغَمَامُ جُودًا كَأَنَّ مَالًا سَقَامُ أَقْبَحُ مِنْ ضَيْفِهِ رَأْتُهُ السَّوَامُ</p>	}	<p>الأديب المهذب الأصيل الضرب والذي ريب دهره من أساراه يتداوى من كثرة المال بالإقلال حسن في عيون أعدائه</p>
--	---	---

هذا المدوح ملك عظيم ، ماض في الأمور ، كريم شريف ، لا يحدث الدهر شيئاً إلا بإذنه ، جعل لهذا الملك أسرى ومنهم صروف الدهر ونوابه وقد أطلق هذا المدوح يديه بالبذل والكرم حتى صار السحاب ، حاسداً ليديه لقصوره عنهما في البذل والسخاء ، كأن المال الكثير سقام ، وبذله والإقلال منه دواء ، فهذا المدوح يبذل المال ليقبل وهذه صورة من صور المنتبي الفريدة .

هذا المدوح حسن كل صفاته حسنة ، ولكنه في نظر أعدائه لعظم صفاته وحميد فعاله أقبح من ضيف هذا المدوح في عيون ماله الراعي ، لأنه ينحر إبله للضيوف "بدأ فجعله حسناً على الإطلاق ، ثم أراد أن يجعله قبيحاً في عيون أعدائه على العادة في مدح الرجل بأن عدوه يكرهه ، فلم يقنعه ماسبق من تمهيدته وتقدم من احترازه في تلافى ما يجنيه إطلاق صفة

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣

(٢) د. أبو اليزيد العجمي ، حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم ، ت، ط/ بدون ، ص ١٥٧ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢١٨-٢١٩ .

القبح ، حتى وصل به هذه الزيادة من المدح ، وهي كراهة سوامه لرؤية أضيافه ، وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : "يقع النحس مضغوطة بين سعدين ، فيبطل فعله وينمحق أثره" (١).

هذا إنسان المتنبي وهذه حال المتنبي في المدح يطري صاحبه حتى تعد أيام هذا الممدوح كلها خير وسعادة ويشني على ممدوحه بما يراه حسن من الأفعال والحاصل الحميدة ، حتى لكأنه متزه عن الخطأ والعيوب . فهل كان هذا انعكاساً لنفسيته هو؟ أو عرضاً لمبادئه وقيمه التي آمن بها وترسخت في نفسه؟ أم هذه الصورة التي تمنى لإنسان عصره أن يكون عليها؟؟

أداء الحق ، ونصرة المظلوم ، وحماية الجوار ، وعزة الإنسان ، إضافة لكرامة الفرد ، وجمال الإحسان في كل شيء ، تلك هي الأخلاق الإسلامية بل هي أسمى ما تتطلع إليه البشرية في عصر المتنبي وفي كل العصور ، افتقد المتنبي هذه الأخلاق في معاصريه فأثنى بشيء منها على ممدوحيه يقول (٢):

أرى كل ذي ملكٍ إليك مصيره	كأنك بحرٌ والملوك جد أول
إذا مطرت منهم ومنك سحائب	فوابلهم طلٌ وطلك وابل
كريم متى استوهبت ما أنت راكب	وقد لقيت حرباً فإنك باذل
تدبر شرق الأرض والغرب كفه	وليس لها وقتاً عن الجود شاعل

الخير العميم الذي يتمثل في الجود والعطاء ، إضافة للشجاعة والإقدام وكل خلق كريم ، لا يميل مع الهوى ولا ينحرف مع الأغراض ، قوة في نظر شاعرنا ، وقد طرق هذا المعنى ابن الرومي (٣) وإن اختلف الأداء ، إلا أن هذا يشعرنا أن المثل الأعلى للإنسان كما كان مستقراً في وجدان ابن الرومي

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص ٢٥٣ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٣٦-٢٣٩ .

(٣) انظر ديوانه ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

فكذلك عند المتنبي يعبر عنه في المواقف المختلفة بمعان تتشابه وتتقارب عندهما ، فالتصوير هنا وهناك بارع قوي . وهذه المعاني قد صورها لنا المتنبي في لوحة فنية رائعة حين قال (١):

إِنَّكَ مِنْ مَعَشِرٍ إِذَا وَهَبُوا  
مَادُونَ أَعْمَارِهِمْ فَقَدْ بَخِلُوا  
فَلُوبُهُمْ فِي مَضَاءٍ مَا امْتَشَقُوا  
قَامَاتُهُمْ فِي تَمَامٍ مَا اعْتَقَلُوا  
أَنْتَ لَعْمَرِي الْبَدْرُ الْمَنِيرُ  
وَلَكِنَّكَ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى زُحْلٌ

يعطي شاعرنا كل مظهر من مظاهر الحياة موسيقاه الخاصة ، وألفاظه الخاصة ، والتناسب دائم رائع بين ألفاظه ومعانيه ، وهو وإن لم يأت في الصورة السابقة بجديد في المعاني إلا أنه استطاع أداء تلك المعاني بطريقة مميزة ، فقد امتدح أسلاف ممدوحه وعدهم قمة في الكرم ، لا يرضون بأقل من أعمارهم عطاء إذا سئلوا ، شجعان إذا لقوا ، جمع لممدوحه صفتين متقابلتين في تشبيهين رائعين ، فهو في الحسن والشهرة بدر يتفائل به أولياؤه ولكنه في الحرب - زحل - نحس يهلكهم دون رحمة . وقد عرض ذلك المتنبي في جزالة تلائم ما في هذا العرض من سهولة ويسر .

كل مجتمع ، وكل عصر له خبراته وله عاداته وتقاليده الإيجابية والسلبية والتعامل معها ينبني على أساس من ذاتيات الأفراد أو الفئات ، والعصر العباسي شاع فيه الترف والبذخ ، وبالتالي انتشرت وسائل اللهو والمجون ، ومن تلك الوسائل الغناء والشرب . سخر المتنبي كل هذا لمديحه ولم يغفله ، يقول (٢):

فَأَصْبَحَ بِالْعَوَاصِمِ مُسْتَقِرًّا  
وَأَضْحَى ذِكْرُهُ فِي كُلِّ أَرْضٍ  
تَخِرُّ لَهُ الْقَبَائِلُ سَاجِدَاتٍ  
وَلَيْسَ لِبَحْرِ نَائِلَةٍ قَرَارٌ  
تَدَارُ عَلَى الْغِنَاءِ بِهِ الْعُقَارُ  
وَتَحْمَدُهُ الْأَسِنَّةُ وَالشَّفَارُ

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٣٣ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

فهذا الممدوح جواد سخي ، جوده كالبحر لاقرار له ، اشتهر بين الناس بالكرم والجود ، فذكره وشهرته قد ملأ الآفاق ، حتى أصبح الجواري يتغنين بذكره في مجامع الغناء ودور الشرب ، لمنعة هذا الممدوح وشدته تخضع له القبائل وتثني عليه الرماح والسيوف لشجاعته وبسالته إضافة لجوده وكرمه .

ثم يمزج شاعرنا تلك الفضائل الخلقية بفضائل خلقية فيقول (١):

كَأَنَّ شُعَاعَ عَيْنِ الشَّمْسِ فِيهِ      فَفِي أَبْصَارِنَا مِنْهُ انْكِسَارُ

جلالة هذا الممدوح وعظم خلقه ، لا تملأ الأبصار منه ، إجلالا له لا يستطيع الناظر إليه أن يرفع بصره فيه هيبة له ، فكأنه بذلك الشمس لا يستطيع العين النظر فيها لقوة شعاعها . ثم يتابع سرد بقية الفضائل فيقول (٢):

وَأَنْتَ أَبْرٌ مَنْ لَوْ عَقَّ أَفَنَى      وَأَعْفَى مَنْ عَقُوبَتَهُ الْبَوَارُ  
وَأَقْدَرُ مَنْ يُهَيِّجُهُ انْتِصَارُ      وَأَحْلَمُ مَنْ يُحَلِّمُهُ اقْتِدَارُ  
وَمَا فِي سَطْوَةِ الْأَرْبَابِ عَيْبٌ      وَلَا فِي ذِلَّةِ الْعُبْدَانِ عَارُ

العفو أو الصفح عند القدرة من شيم الكرام ، والمتنبي يريد القول : أن ممدوحه من الكرام ، فأقْبى بصفات تدل على ذلك وامتدح بها ، منها العفو مع القدرة ، إذ ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ، فهذا الممدوح من أبر الملوك القادرين على البطش ولكنه أعفاهم ، وهو كذلك أقدر من يبتهج وينتشي بالنصر ولكنه أحلم الجميع لقدرته على كل هذه الفعال .. ثم يختم كل هذا بأن جعل ممدوحه رب وسطوته لأعيب فيها ، وجعل قومه عبيد وذلتهم له لأعار فيها .. وهذه عادة المتنبي حين يبالي في المدائح يقدم الأسباب والعلل حتى لا يكون في كل هذا حجة عليه .

ولعلنا بدأنا نلاحظ التشابه الوارد في مدائح المتنبي فمعانيه تقريبا واحدة تدور حول الشجاعة والكرم ، والحلم والذكر الحسن ، يدل على ذلك تقارب الكثير من المدائح وإليك بعض الصور التي تشكل مع هذه الصور تقاربا واضحا .

من الصور المتشابهة في مدائح المتنبي والتي تحمل معان واحدة تقريبا قوله (١):

وَتَزَيَّنْتَ بِحَدِيثِهِ الْأَسْمَارُ	أَنْتَ الَّذِي بَجِحَ الزَّمَانُ بِذِكْرِهِ
وَإِذَا عَفَا فَعَطَاؤُهُ الْأَعْمَارُ	وَإِذَا تَنَكَّرَ فَالْفَنَاءُ عِقَابُهُ
دَرُّ الْمُلُوكِ لِدَرِّهَا أَغْبَارُ	وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ الْمُلُوكُ مَوَاهِبُ

فهذه معان طرقها المتنبي من قبل وأكثر المديح بها ولكنه في كل مرة يأتي بها في صور مغايرة وكأنها تسمع لأول مرة ، فالذكر الحسن لهذا الممدوح والعفو والمكارم كلها معان دارت عليها مدائحه ، فالزمان يبتهج مفتخرا إذا مازكر هذا الممدوح في جملة أهله ، وتحسن الأسمار بالحديث عنه ، وعقابه هلاك ، وعفوه بترك القتل فكأن الأعمار من عطايه ، عطايا الملوك بالقياس إلى عطايا هذا الممدوح ، كاللبن القليل إلى اللبن الكثير ، ولكن الجديد الذي يطرقه المتنبي بعد هذه الفضائل ترفع ممدوحه عن العار والصغائر حين يقول (٢):

وَيَخَافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيْكَ الْعَارُ	لِلَّهِ قَلْبُكَ مَا يَخَافُ مِنَ الرَّدَى
وَيَحِيدُ عَنْكَ الْجَحْفَلُ الْجَرَّارُ	وَتَحِيدُ عَنْ طَبَعِ الْخَلَائِقِ كُلِّهِ
وَيَذِلُّ مِنْ سَطَوَاتِهِ الْجَبَّارُ	يَأْمَنُ يَعِزُّ عَلَى الْأَعِزَّةِ جَارُهُ

يتعجب شاعرنا من قوة ممدوحه وشجاعته فلا يخاف الموت بل يقدم عليه ، ولكنه يخاف العار ، ولعل من العار الجبن والفرار من الحرب ، وقد أراد شاعرنا أن يؤكد شجاعة هذا الممدوح فاختار هذا الأسلوب ليبدل به

(١)، (٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٩١-١٩٢ .



على مزايا ممدوحه وبسالته في مواقف البطولة ، ثم يرى من ممدوحه خلقا رفيعا يختلف فيه عن معاصريه ، فالطبع السائد في مجتمعه كله طبائع لا يقرها المتنبي وبالتالي ممدوحه معرض عنها ، يهرب من اللؤم وذنس الأخلاق ، كما يهرب منه الجيش العظيم لشجاعته وقوة عزيمته .

هذا الممدوح يعز في جواره الذليل لأنه كريم لا يغتصب لديه حق ولا يعتدى على من في جواره ، بينما يذل المعتدي وإن كان جبارا ، لأنه عادل لا يجرو أحد على الاعتداء على جاره ومن في عهده ، يؤكد هذا المعنى النص التالي<sup>(١)</sup> :

أَبْلَجَ لَوْ عَادَتِ الْحَمَامُ بِهِ	مَا خَشِيَتْ رَامِيًا وَلَا صَائِدًا
أُورَعَتِ الْوَحْشُ وَهِيَ تَذْكُرُهُ	مَارَاعَهَا حَابِلٌ وَلَا طَارِدًا
وَمُمَاطِرَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ مَعًا	وَأَنْتَ لِأَبَارِقٍ وَلَا رَاعِدًا

فهذا الممدوح عزيز الجانب ، مهيب ، من لجأ إليه أو استأمن بذكره أمن ، حتى الطير والوحش ، إذا كانت في حماه أمنت من الخطر الخارجي ، وهذا الممدوح يطر على أعدائه الموت بالقتل ويحيي أوليائه بالبذل والعطاء ، فهو بذلك مثل السحاب فيه الخير والشر ، ولكنه يختلف عنها بأنه لا بارق ولا راعد .

---

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

"المسلم يدرك أن عبوديته لله شرف وكرامة ، كما يدرك أن معنى العبادة الواسع يقتضيه أن ينظر إلى الناس بعين العطف ، وتحمل المسؤولية عنهم ، وهو بذلك يحقق انسانيته"<sup>(١)</sup>. وانطلاقاً من هذا المبدأ امتدح المتنبي من يجود بماله في سبيل الله ، ومن يقدم في الحرب دون جبن كل ذلك حين قال<sup>(٢)</sup>:

أَمِيرٌ أَمِيرٌ عَلَيْهِ النَّدَى      جَوَادٌ بَخِيلٌ يَأْنُ لَا يَجُودَا  
يُحَدِّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهًا      كَأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودَا  
وَيُقَدِّمُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَفِرَّ      وَيَقْدِرُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَزِيدَا

نفس معنى البيت الأول ورد عند أبي تمام من قبل<sup>(٣)</sup> وإن اختلفت الصياغة ، فالمتنبي يريد أن يبهر ممدوحه من جهة كما يقول الدكتور طه حسين<sup>(٤)</sup>: وكان صادقاً في تصويره ، فهو يصطنع المبالغة ، لكنه لا يتكلفها ليخدع بها ممدوحه عن نفسه وماله ، المتنبي يرى هذا الممدوح هو الأمير ، ولا يؤمر عليه سوى الجود والكرم ، كما أنه الجواد كل الجواد فلا يبخل على الناس إلا بالبخل ، وإذا مدح كره المدح وضاق به ، فكأنه يحسد نفسه ، ويقدم على كل شيء إلا على الفرار من الحرب ، حتى لا يرمى بالجبن والهزيمة كما أنه يقدر على كل شيء إلا على أن يزيد حظه من الفضيلة لبلوغه أقصاها .

ثم يتابع المتنبي بعقله الكبير ، وقلبه الثائر صفات ممدوحه ويشني عليه فيقول<sup>(٥)</sup>:

قَتَلْتَ نَفُوسَ الْعِدَا بِالْحَدِيدِ      حَتَّى قَتَلْتَ بِهِنَّ الْحَدِيدَا  
فَأَنْفَدْتُمْ مِنْ عَيْشِهِنَّ الْبَقَاءَ      وَأَبْقَيْتُمْ مِمَّا مَلَكَتْ النَّفُودَا  
كَأَنَّكَ بِالْفَقْرِ تَبْغِي الْغِنَى      وَبِالْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ تَبْغِي الْخُلُودَا

(١) د. أبو اليزيد العجمي ، حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم ، ص ١٦٠ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٣) ألا إن الندى أضحى أميرا      على مال الأمير أبي الحسين

(٤) مع المتنبي ص ٢٢٧ بتصرف .

(٥) الديوان ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

من كثرة فتك هذا الممدوح بعدوه استخدم الحديد - السيوف - حتى بلي وصار هشاً من الاستخدام فأهلك أعداءه وفرق ماله كأن الفقر عنده لفرط جوده هو الغنى . فهو غني بالله تعالى حيث أن المال مال الله ينفقه على الفقراء وذوي الحاجة ، فوصل بذلك الغاية في إدراكه قيمة المال حين ينفق يعلم أن إنفاقه في وجوه الخير يدخر له في ميزان حسناته .

كما أدرك أن الموت في سبيل الله هو سر خلود المؤمنين في الجنة لأنه يعلم أن المقاتلين في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون ، فطلب الموت وأقدم عليه دون خوف . هذه حقيقة الإنسان المسلم في نظر المتنبئ يجمع صفات الخير ويجعل من أعمال الحياة الدنيا امتداداً للآخرة ، وبالتالي يكسب المعالي في الدنيا . ويفوز بالرضوان في الآخرة .

بعد هذه الوقفات مع ممدوح شاعرنا نعود لنرى انطباع شاعرنا عن هذه الأخلاق ، فبعد أن عدد فضائل ممدوحه كان لابد له أن يختم صورته تلك بأبيات تجدد هذه الخلائق في معان قوية تستمد قوتها من مبالغات شاعرنا وطباقة ، حين يؤكد لنا أن القيم هي كل شيء للإنسان ، وبدونها لاعمى لانسانيته ، يقول (١) :

وَآيَةٌ مَجْدٍ أَرَاهَا الْعَيْدَا	خَلَائِقُ تَهْدِي إِلَى رَبِّهَا
حَقَرْنَا الْبِحَارَ بِهَا وَالْأُسُودَا	مُهَذَّبَةٌ ، حُلُوءَةٌ ، مُرَّةٌ
تَغُولُ الظُّنُونُ وَتُنْضِي الْقَصِيدَا	بَعِيدٌ عَلَى قُرْبِهَا وَصَفْهَا
وَلَسْتُ لِفَقْدِ نَظِيرٍ وَحِيدَا	فَأَنْتَ وَحِيدُ بَنِي آدَمِ

هذه القيم وهذه الأخلاق تعمل على تأكيد انسانية المرء ، ومن ثم السمو بها من درجة إلى أخرى أعلى منها . وهذا الممدوح أثبت وجوده لتحليه وتخلقه بهذه الفضائل . فأخلاقه من كرم وفضل وإقدام ، ومحامد شيمه دلت عليه ، فكانت آية مجده على غيره ، حلوة مع الأولياء ، مرة على

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

الأعداء ، قد حقر الناس البحار والأسود قياسا به ، لأنه يربو عليها في الجود والشجاعة ، هذه الخلائق التي للممدوح يصعب وصفها ، لأنها تفوق الظن وترهق القصيد ، حتى عد هذا الممدوح وحيدا لانظير له في هذه الحصال وهذه الأخلاق ، وقد أجاد المتنبي في هذه الصورة كغيرها فمعانيه واضحة مستوفاة ، يدركها الذوق ، وافية شاملة ، لاتبرح الأذهان ولاتفارق الخيال . انظر إليه يقول (١):

تَمْضِي الْمَوَاكِبُ وَالْأَبْصَارُ شَاخِصَةً      مِنْهَا إِلَى الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ  
 قَدْ حِرْنَ فِي بَشْرِ فِي تَاجِهِ قَمَرٌ      فِي دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أَظْفَرُهُ  
 حَلَوُ خَلَائِقِهِ شُوسِ حَقَائِقِهِ      تَحْصَى الْحَصَى قَبْلَ أَنْ تَحْصَى مَآثِرُهُ  
 تَضِيقُ عَنْ جَيْشِهِ الدُّنْيَا وَلَوْ رَحِبَتْ      كَصَدْرِهِ لَمْ تَبْنِ فِيهَا عَسَاكِرُهُ  
 إِذَا تَغَلَّلَ فِكْرُ الْمَرءِ فِي طَرْفٍ      مِنْ مَجْدِهِ غَرَقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ

لاتنظر العيون لغير هذا الممدوح فقد بهر الجميع بنور وجهه المشرق ، وقد تعجب الجميع واحتراروا في هذا البشر الذي في لبسه للتاج قمر ، وفي درعه ساعة الحرب ليث أظافره تقطر دما لكثرة قتلاه ، أخلاقه حلوة معسولة وحقائقه محمية ممنوعة لا يقدر أن ينال منها أحد ، فهي ممتنعة امتناع المتكبر ، كما أن مآثره عديدة لالتحصي فقد فاقت الحصى عددا ، كما أنه عظيم الحلم واسع الصدر ، بل هو أوسع حلما من الأرض ، قوته عظيمة وجيشه كبير ، حتى أن الأرض تضيق عنه ، أدنى مجد هذا الممدوح يستغرق الفكر والخواطر لمن أراد أن يصفه ، لأن فضائله وصفاته بلغت مجدا لا يطول سواه .. ولا يجفى ما في هذه الصورة من بناء في أدنى لكمال الصورة واكتمال المعاني بطريقة تمتع الأذواق وترضي العقول .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٣، ٩٠ .

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وصوره على أكمل صورة ، وزينه بالعقل والتدبير ، وكما أراد له هذا الخلق السوي ، لم يرض له ولم يقبل منه إلا الخلق الرضى ، فأصبح ضروريا تزكية النفس بمحامد الأخلاق . يقول المتنبي<sup>(١)</sup> :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ  
عَلَى الْمَدْفُونِ قَبْلَ التُّرْبِ صَوْنًا  
حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ الْمُزْنِ فِيهِ  
وَلَيْسَتْ كَالْإِنَاثِ وَاللَّوَاتِي  
وَلَوْ كَانَ النَّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا  
وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا  
عَلَى الْوَجْهِ الْمُكْفَنِ بِالْجَمَالِ  
وَقَبْلَ اللَّحْدِ فِي كَرَمِ الْخِلَالِ  
كَتُومِ السَّرِّ صَادِقَةُ الْمَقَالِ  
تُعَدُّ لَهَا الْقُبُورُ مِنَ الْحِجَالِ  
لَفُضِّلَتِ النَّسَاءُ عَلَى الرَّجَالِ  
قُبَيْلَ الْفَقْدِ مَفْقُودِ الْمِثَالِ

المقام هنا - رثاء - ولكن شاعرنا حوَّله للمديح بالصفات والمحامد الخلقية التي امتدحها ، فقد امتدح الجانب الخُلقي - جمال الوجه - والجانب الخُلقي . فهذه المرأة لم يغير الموت جمال وجهها ، وقد كانت قبل موتها مصونة ، وكان كرم الخلال يمنعها ويعفها عن كل ما لا يليق . وبعد أن وصفها بالحصانة والعفة وشبهها بماء المزن في الطهارة والنقاء ، جعلها كاتمة للسر ، وكتمان السر من أفضل الأخلاق وأكبر الفضائل ، به تصان الأعراس وتحفظ الأرواح ، ثم وصفها بصدق المقال مطلقا - وهذا أجل ما يمدح به المرء - بعد ذلك حلق شاعرنا إلى القمة في تفخيم مقامها حين جعلها تفوق غيرها من النساء . بل وفضلها على كثير من الرجال ، ولا يكتفي بذلك بل يحسن تعليله بمثال من طبيعة الحياة ، فيضرب لها مثلا بالشمس ويضرب للرجال مثلا بالهلال ، ويخرج من ذلك بأن الشمس وإن كانت مؤنثة خير من الهلال وإن كان مذكرا حين يقول :

وَمَا التَّائِبُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ  
وَلَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ

فالشرف عند المتنبى يثبت للمسميات من حيث أنفسها ، وأوصافها  
لامن حيث أسمائها .. يجتم هذه الصورة بأن جعل من هذه المرأة لعظم  
قدرها وكريم خلالها وحيدة لانظير لها . لذلك عد فقدها من أعظم الأمور .

لقد أحب المتنبي الجمال المطلق في كل شيء وتمنى أن يراه في  
ممدوحيه فمدح بما تمنى أن يراه فصاغ مديحه في نعوت قادت إليها موهبته  
الفنية . من تلك النعوت والأوصاف قوله (١):

قَوَّاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ      وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوْاقِيَا  
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ      وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

مال المتنبي في بعض مدائحه إلى المبالغات المبطنة والألفاظ التي تحمل  
عدة معاني ، وقد جعل ممدوحه في هذه الصورة مجرا ، ومن عداه ضحضا  
ووشلا ، وإنسان عين الزمان ، والناس كلهم مآق وحماليق . يقول الأستاذ  
الشكعة (٢): "الإنسان لا يمدح إلا بمحاسنه ، والسواد لم يكن مزية أبدا عند  
أسود حتى يمدح به ، كما أن العمى ليس حمدة عند الضرير حتى يثنى به  
عليه ، فإنه من أقسى الأشياء على المرء أن يذكر بعيب فيه ، حتى ولو كان  
القائل من الحصافة واللباقة بحيث يقلب العيب مزية ، والقبح إلى حسن ،  
والبشاعة إلى وسامة" .

ولكن المتنبي حين مدح بالسواد أتى بصورة شريفة تناسب مقام المديح  
فأشرف ما في العين إنسانها - سوادها - لأن حسن النظر إنما هو به ، وكذلك  
ممدوحه لزمانه كما إنسان العين ، أي أنه أشرف بني دهره ، وأعلى عامر  
عصره ، وإنما الملوك غيره لعين دهرهم كالبياض والمآقي . وحسن ذلك أن  
ممدوحه أسود .

ثم وإلى سرد بقية فضائل هذا الممدوح في نسق واقتدار فقال (٣):

تَرَفَّعَ عَن عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ      فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَذَارِيَا  
يُبِيدُ عَدَاوَاتِ الْبُغَاةِ بِلُطْفِهِ      فَإِنَّ لَمْ تَبْدُ مِنْهُمْ أَبَادَ الْأَعَادِيَا  
يَدِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلَّ فَاحِرٍ      وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٤٢٣-٤٢٤ .

(٢) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ، ص ٢٥٧ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٤٢٥-٤٢٦ .

هذا الممدوح أتي بالمكارم ابتداعا ، لم يسبقه غيره إليها وأشار بقوله عذاريا - إلى ذلك . فقد شبه المكارم بالفتيات العذارى وجعل الممدوح هو الوحيد الذي يقدم عليهن ، كما أنه يسلم سخائم الأعداء بلطفه وبرفقته ، وحسن معاملته فإن لم تذهب أحقادهم أبادهم دون رأفة ولارحمة . يقول : إن الناس يفخرون بالمنقبة الواحدة ، من الكرم أو الشعر أو الشجاعة ، وهذا الممدوح جمع الله له جميع المناقب وخصه بما تفرق في الناس من المزايا والمحامد .

ولكن مع جدة صور المتنبي في هذه الأبيات إلا أن أثرها في النفس لا يقاس بأثر بقية مدائحها ربما لأنه يوجه مديحه لغير عربي وقد عهد عنه حبه للعرب وتعصبه لهم واعتداده بالذات العربية .



في النصوص السابقة صور كثيرة مدح فيها شاعرنا بالصفات الخلقية والخلقية في آن معا ، وإن وردت تحت مبحث المديح بالصفات الخلقية فما ذاك إلا لأن الغالب فيها الناحية الخلقية ، أو الفضائل المعنوية ، ولكن في نصوص أخرى نجد المديح بالصفتين متساو بحيث لا نستطيع إيرادها تحت مبحث من هذين المبحثين\* ، لذا فضلنا إفرادها بمبحث خاص هو المديح بالصفات الخلقية والخلقية . من تلك النصوص التي زاوج فيها المتنبي بين الجانب الأخلاقي والجانب الخلقى قوله (١) :

وَلَوْ تَنَزَّلَ الدُّنْيَا عَلَى حُكْمِ كَفِّهِ  
أَرَاهُ صَغِيرًا قَدْرَهَا عَظْمُ قَدْرِهِ  
مَتَى مَا يُشِيرُ نَحْوَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهِ  
تَرَ الْقَمَرَ الأَرْضِيَّ وَالْمَلِكَ الَّذِي  
كَثِيرُ سُهَادِ العَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةِ  
لَهُ مِنْ تَفْنَى الشَّاءِ كَأَنَّمَا  
لَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرُهَا نَزْرُ  
فَمَا لِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَهُ قَدْرُ  
تَخِرَّ لَهُ الشَّعْرَى وَيَتَخَسَّفُ البَدْرُ  
لَهُ المُلْكُ بَعْدَ اللَّهِ وَالمَجْدُ وَالدَّكْرُ  
يُورِّقُهُ فِيمَا يُشْرِفُهُ الفِكْرُ  
بِهِ أَقْسَمْتُ أَنْ لَا يُؤَدِّي لَهَا شُكْرُ

صفات هذا الممدوح الخلقية والأخلاقية ، صفات فريدة عجيبة في عصر كعصر المتنبي ، فهو جواد لو كانت الدنيا في كفه لفرقها على الناس ، لأنه عظيم يرى قدر الدنيا حقيرة ولا يحفل بها . في وجهه نور يضاهاى نور القمر والشعرى فهو بذلك قمر أرضي . فالمقابلة والمجانسة التي بين الألفاظ في هذه الصورة ، وإِ كانت واضحة مثل (عظيم ، صغير ، قدرها ، قدره) إلا أنها قد صيغت ببراعة وحملت معنى انسانيًا ، استطاع شاعرنا في هذه الصورة كما في غيرها أن يوظف اللغة توظيفاً فنياً ، تمكن من خلاله أن يحقق القيمة الجمالية المتفاعلة مع رؤيته ، والتي كان لمعمارها شأن خاص عند المتنبي ، اختلف فيه تماماً عن غيره ، حتى صار عالمه اللغوي الخاص به (٢) .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٨، ٢٢٩ .

(٢) انظر أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص ٢٣٧ .

\* ولكن لقلة الصور والنصوص فضلنا إدراجها ضمن مبحث الصفات الخلقية .

لقد كانت مدائح المتنبي تسبغ على الممدوح ثوبا رائعا من البطولة ،  
والخلق الكريم ، وقد ارتفع شاعرنا بممدوحه إلى مستوى المثل والقُدوة  
بضخامة شعره ، وجزالة معانيه ، ولعلنا في هذه العجالة غير قادرين على  
الإلمام بكل مامدح به شاعرنا جامعا فيه الجانب الخُلقي والأخلاقى ، ومع ذلك  
لابد من المحاولة .

كثيرا ما يلجأ المتنبي في شعره إلى الإفراط ، شأنه في ذلك شأن كثير من  
الشعراء ، بل إن عصره كان عصر إفراط في كل شىء من ذلك قوله (١) :  
إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ وَالشَّمْسُ مِنْ حُسَادِهِ وَالتَّصْرُ مِنْ  
أَيِّنِ الثَّلَاثَةِ مِنْ ثَلَاثِ خِلَالِهِ مَضَتْ الدُّهُورُ وَمَا تَيْنَ بِمِثْلِهِ  
مَلَكَ الزَّمَانَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ قُرْنَائِهِ وَالسَّيْفُ مِنْ أَسْمَائِهِ  
مِنْ حُسْنِهِ ، وَإِبَائِهِ ، وَمَضَائِهِ وَلَقَدْ أَتَى فَعَجَزْنَ عَن نُّظْرَائِهِ

استطاع المتنبي إضافة لتغنييه بالأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية  
والإنسانية ، أن يجعل مدائح حديث نفس ، وحديث جماعة تنقل مشاعر  
النفس ، وتعالج قضايا المجتمع والناس ، لذلك غالبا ما نحس في مدائحنا  
حيال شخصية متشابهة كثيرا في الفروسية والكرم والأصل ، والقوة ، وإنما  
تتباين هذه الشخصيات عند شاعرنا في رجاحة العقل ، أو البطولة الفائقة ،  
وذلك في مجالات معينة (٢).

وفي هذا النص قد جمع المتنبي لممدوحه الفضائل الخُلقية والخلقية ،  
فراى أن لأحد يشبهه ، فقد فاق الشمس حسنا وشهرة ، وقد اقترن النصر  
به فأينما سار فهو منصور ، فهو أشد إباء للذل من النصر لأن النصر حليفه  
وفي مضائه يغلب السيف . بهذه الصفات وهذه المكارم تفرد ممدوح المتنبي

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) د. محمد التونجى ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص ١٦٣ بتصرف .

فلم يأت الزمان بمثله فيما مضى ، ولما أتى عجزت الدهور عن الإتيان بنظير له . هذا مثل قوله (١) :

لَمْ تَلَقْ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا      إِلَّا بِوَجْهِ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءٌ  
قَبَائِمًا قَدِمَ سَعَيْتَ إِلَى الْعَلَا      أَدُمُّ الْهِلَالَ لِأَخْمَصِيكَ حِدَاءً  
لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي مِنْكَ هُوَ

عَقِمْتَ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءً

فالمتنبي يرى أن لاجابة للشمس مع وجود هذا الممدوح لنور وجهه ووضاءة جبينه ، كما جعل الهلال نعلا لقدم هذا الممدوح لأنه في بلوغه المجد والعلواء ترفع عن الهلال ، كما أنه بفضائله وأخلاقه فاق الورى الذي هو منه في جماله وشرفه وعند أفضل أهله ولو لم يكن منهم لكانت حواء في حكم العقيم ولكنها به صارت ذات ولد .. لأنه جمع خلال الأفاضل ومكارم الأخلاق حتى كأنه جميع الورى . وهذا من مبالغات شاعرنا ، فقد جعل من المعنى في البيت الأول أمرا غريبا حين استعار للشمس وجهها ليس فيه حياء حين تظهر في مكان وجد فيه هذا الممدوح وكأنها تنافسه في الضياء والشهرة وكثيرا ما يعتمد المتنبي في أسلوبه على الاستعارة والتشبيه مما يزيد المعنى قوة ورسوخا في الذهن .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

الشاعر الموهوب هو الذي يتوصل بفنه إلى أعمق أعماق الإنسان ويظهر خفاياه في أداء عذب جميل ، ومن ثم يرتفع بقرائه إلى أرفع مدارج الكمال والجمال والمتعة ، وقد أفلح المتنبي في ذلك ، حين جعل من تصوير الجمال جمال سري يشعرنا بالقوة ، وقد ربط بين الجمال المعنوي والشكلي فقال (١):

إِذَا بَدَأَ حَجَبَتْ عَيْنَيْكَ هَيْبَتُهُ      وَلَيْسَ يَحْجُبُهُ سِتْرٌ إِذَا اخْتَجَبَا  
بَيَاضُ وَجْهِ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً      وَدُرٌّ لَفِظٍ يُرِيكَ الدَّرَّ مَخْشَبَا  
وَسَيْفٌ عَزِمَ تَرْدُ السَّيْفِ هَبَّتُهُ      رَطَبُ الْغِرَارِ مِنَ التَّامُورِ مُخْتَضِبَا

تنبه المتنبي إلى فطرة الإنسان وأنه يميل إلى المحسوس أكثر من غيره ، فاستطاع بذكائه أن يجعل من الصور الثابتة رسماً جميلاً يأسر القلوب بجماله فقد توصل إلى ذلك بغير الجمال ، فهو كثيراً ما يدخل الضياء والنور في صورته الثابتة ، فيحس القارئ كأنه أمام صورة منيرة ، كما يستفيد في صورته من ربط المعنوي بالحسي كي يقربه للسامع فينفعل معه ويرى بنفسه بدلاً من التخيل (٢). انظر إلى قوله وقد استخدم الطبيعة في صورته (٣):

الصَّوْمُ وَالْفِطْرُ وَالْأَعْيَادُ وَالْعَصْرُ      مُنِيرَةٌ بِكَ حَتَّى الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
تُرِي الْأَهْلَةَ وَجَهًا عَمَّ نَائِلُهُ      فَمَا يُخَصُّ بِهِ مِنْ دُونِهَا الْبَشَرُ  
مَا الدَّهْرُ عِنْدَكَ إِلَّا رَوْضَةٌ أَنْفٌ      يَأْمَنُ شَمَائِلُهُ فِي دَهْرِهِ زَهْرُ

فهو يمتدح بالنواحي الخلقية من دين وكرم وجود ، إضافة للنواحي الخلقية من بهاء وجمال فقد عم نور هذا الممدوح كل شيء لأنه في نظر شاعرنا جمال للدين والدنيا ، وقد عم نفعه جميع المخلوقات ، حتى أن أخلاقه أحسن ما في دهره ، وقد شبه الدهر بالروضة وجعل أخلاق هذا

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) أحمد عبد الله المحسن ، مقدمات سيفيات المتنبي ص ١٠٩ بتصرف ، دار العلوم ، ط / أولى ١٤٠٣ هـ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

الممدوح في دهره كالزهر في الروضة . يقول في صورة أخرى<sup>(١)</sup>:

أرى النَّاسَ الظَّلامَ وأنتَ نورٌ      وإنيّ منهمُ لِأليكَ عاشٍ

ضاقت نفس شاعرنا بأناس عصره وإن كان يرى في ممدوحه شخصاً يختلف عنهم في قيمه وبطولاته التي آمن بها ، ولكن ذلك لا يمنع تدمير المتنبي من بعض معاصريه حتى عرض بهم في كل مناسبة ، ففي هذا البيت يرى أن معاصريه بل الناس كلهم ظلام وممدوحه نور . وليس الظلام والنور الذين قصدهما شاعرنا هنا حقيقيين ، فهو يريد أن يشبه فساد الناس ويمتدح شخصاً واحداً رأى فيه مبادئ وقيم لازالت سليمة تلك القيم التي أحبها المتنبي وأشار لذلك في الشطر الثاني ، فالناس في عينه ظلام وممدوحه هو النور .  
نخلص من هذا الفصل إلى أن :

\* مديح المتنبي كان موجهاً للصفة أكثر من الشخص الممدوح ، لذا فإن مديحه مناسب للإنسان في كل زمان .  
\* عظمة نفس المتنبي وطموحه انعكست على شعره فأنت لغته وتراكيبه قوية جزلة .

---

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

# الفصل الثالث

### الفصل الثالث

الإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا -

نظراً للتقدم والتطور الحاصل في العصر العباسي والذي شمل كل شيء ، فقد حصل تطور في جانب الهجاء ، حيث بلغت الحضارة أوجها ، واستنفذ الإنسان طاقته في التحري عن كل ما يوسع آفاقه ويزيد ثقافته . إضافة إلى كل ما يعلي شأنه غير عابىء بالطريقة . فالخلت الأخلاق وتساوت الرذيلة في أحيان كثيرة بالنسبة إليه مع الفضيلة فظهر نوع جديد في الهجاء ، هذا النوع هو أكثر أنواع الهجاء تعقيدا ، وأعمقها تجربة إنسانية ، فهو الهجاء الذي يعلن تقمة الفرد على المجموع ، وثورته على ما يشهد في المجتمع من اختلال في المقاييس والقيم .. فبينما كان الهجاء القديم يتولى الدفاع عن القبيلة ، أصبح الهجاء في العصر العباسي يتولى الدفاع عن القيم والحقيقة ، وغدت مشكلة الشاعر العباسي مشكلة قيم وحضارة واستحقاق ، وأصبحت قضيته هي قضية العدالة الاجتماعية والمصير الإنساني<sup>(١)</sup>.

فابن الرومي يختلف عن شعراء الهجاء قديما في الموقف الذي صدر عنه كل منهم ، فالقدماء وقفوا في أمواجهم موقفا أخلاقيا ، أي أنهم ثلبوا مهجويهم بالقيم الفردية المنعكسة انعكاسا اجتماعيا ، كالبخل واللؤم ، والعار والهوان وغيرها . أما ابن الرومي فلم يقتصر في هجائه على تلك الحدود الأخلاقية ، أي على الخير والشر في الناس والفضيلة والرذيلة ، بل نظر في معنى أعمق : معنى السعادة والتعاسة ، والنجاح والفشل ، والعدل والظلم ، فالهجاء الأخلاقي استحال في بعض جوانبه إلى هجاء فلسفي ، وجودي<sup>(٢)</sup>.

(١) ايليا الحاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، بيروت ، بدون ، ص ٩٧، ٥٩٧ بتصرف .

(٢) ايليا الحاوى ، نفس المرجع ، ص ٥٨٦ ، وابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، بيروت ، ط/ثانية ١٩٨٠م ، ص ١٧٦ بتصرف .



إضافة إلى أنه يرى في هجائه للناس حقا لباطل فيه يقول<sup>(١)</sup>:  
 قِيلَ لِي : لِمَ ذَمَّمْتَ كُلَّ الْبَرَايَا      وَهَجَوْتَ الْأَنَامَ هَجْوًا قَبِيحًا؟  
 قُلْتُ : هَبْ أَنِّي كَذَبْتُ عَلَيْهِمْ      فَأَرُونِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَدِيحَا؟

فالناس في نظره ينوءون بالعورات والردائل ، ومياسم الضعة والتشويه والمنكر . حتى أنه لا يوجد بينهم من يستحق المديح في نظره .

ولقد تطرف ابن الرومي في هجائه كما تطرف - سابقا - في مدائحه ، فهو في الحالتين على حدود الإسراف في المغالاة ، فكما كان يمدح فيرفع إلى السماء ، فإنه أيضا يهجو فيخفض إلى الأرض . فجانب القدح والذم له شأن كبير في فنه الساخر ، اللاذع الموجه ، حتى يخرج من يذمه عن نطاق الإنسانية ، وسنعرض لجانب الهجاء عند ابن الرومي ، أو نعرض الإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا - وأظن أننا سنخرج بصورة لإنسان ذميم منفر تصور الإنسان القبيح في العصر العباسي تصويرا بشعا .

---

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

كان ابن الرومي في عداد القلة من الشعراء الذين نبهوا إلى آفات المجتمع وانتقدوا اختلاله ، ومن الآفات الأخلاقية التي ذمها وندد بأهلها البخل والنهم وله صور بديعة في ذلك منها قوله (١) :

إِذَا غَمَّرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدْتَهُ      يَزِيدُ بِهِ يُيساً وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ  
وَلَيْسَ عَجِيباً ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ      إِذَا غَمَّرَ الْمَاءُ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ

لقد وُفِّقَ شاعرنا كما يقول د. عبد الحميد جيدة (٢) : "وُفِّقَ باعطاء هذه الصورة عن البخيل الذي يجمع المال ، كلما زاد ماله ازداد جفافه وتصلبه ، وهولاً يدري ذلك لأن شهوة جمع المال قد طغت عليه ، وأفقدته دقة الحس فأصبح المال غايته الوحيدة لا يفكر إلا به ، فهو محور تفكيره ومأكله ومشربه فيزيده المال يساً بينما يشعر أن في زيادته رطوبة له وانعاشاً لنفسه وروحه ، ويقرب ابن الرومي إلينا صورة البخيل الذي يزداد صلابة بكثرة ماله بصورة الحجر الذي تغمره المياه فيزداد تصلباً" .

فالبخل من الظواهر الاجتماعية التي عاينها ابن الرومي في عصره وذمها وهجا أصحابها ، ورأى أن شخصية البخيل سالبة غير فاعلة لتحقيق مصلحة الجماعة يقول (٣) :

أَبْدَيْتَ صَفْحَةَ قَسْوَةٍ وَخَشَوْنَةَ      مِنْ دُونِ تَأْفِهِ نَيْلِكَ الْمَطْلُوبِ  
فَكَأَنَّكَ الْيَنْبُوتُ فِي إِبْدَائِهِ      شَوْكاً يَذُودُ بِهِ عَنِ الْخَرُوبِ  
لَوْ كَانَ نَائِلُكَ الْمَحْجَبِ نَائِلاً      لَعَذَرْتُ مَنَعَةَ بَابِكَ الْمَحْجُوبِ  
يَا ضَيْفَهُ : أَبْشِرْ فَإِنَّكَ غَانِمٌ      أَجْرَ الصَّيَّامِ وَلَيْسَ بِالْمَكْتُوبِ  
وَمَصْحَحُ الْأَضْيَافِ يَسْلُمُ ضَيْفَهُ      مِنْ كُلِّ دَاءٍ غَيْرَ دَاءِ الذَّيْبِ (٤)

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ١٤١، ١٤٢ .

(٢) الهجاء عند ابن الرومي ، بيروت ١٩٧٤م ، ط/بدون ، ص ٣٠٧ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٤) الذيب : كناية عن الجوع .

صفة البخل انتشرت في عصر ابن الرومي وذلك نتيجة لتكالب الناس على المادة ، حتى أن الأغنياء والتجار في ذلك العصر كانوا يتهربون من واجبات الضيافة ، وكان البعض يبخل بماله ويتكثر به حتى يعوض بها هوان أصله الاجتماعي ، وهذه الصفة - البخل - صفة ذميمة تتعارض مع المثل العربية في الكرم ، وما يحض عليه الاسلام ، وابن الرومي كناقد للقيم التي شاعت في عصره لاعتجب أن يهجو البخلاء في عصره ، ويذم البخل .. وله في ذلك صور عديدة تنفر من البخل وترغب في قيمة الكرم .. عرضها لنا بطرق مختلفة .

على أن له أبياتا "يصور البخل فيها تصوير سخرية داخلية ، زاعماً فيه أنه جبلة وطبع تخوف من الحاجة ، دون أن يخلو صاحبه من اللؤم وافتقار الكرامة ، ويتزع فيها إلى تحديد البخل تحديداً جامعاً ، مؤدياً له نموذجاً تحليلياً ، لا يخلو من الواقعية رغماً عن خلوه من الرؤية الشعرية" (١).

وقد يذهب بعض من حرموا قدرة الاستبصار والذوق ، إلى أن صور ابن الرومي السابقة في تصوير البخل وهجاء البخل ، مكررة أو معادة ، ولكنها في الحقيقة مختلفة فقد تلتقي بعض الصور الجزئية هنا مع مثيلاتها هناك - في نص آخر - من حيث المفردات لكن إيجاءها هنا غيره هناك ، مع تشابه المفردات أو تقاربها من تلك الصور قوله في البخل وصفة البخل (٢):

عَدُونَا إِلَى مَيْمُونٍ نَطْلُبُ حَاجَةً	فَأَوْسَعْنَا مَنَعًا وَجِيزًا بِلَامَطْلٍ
وَقَالَ اعْذُرُونِي إِنَّ بُخْلِي جِبِلَّةٌ	وَإِنَّ يَدِي مَخْلُوقَةٌ خَلَقَةَ الْقِفْلِ
طَبِيعَةُ بُخْلِ أَكَدَّتْهَا خَلِيقَةٌ	تَخَلَّقَتْهَا خَوْفٌ أَحْتِيَاجِي إِلَى مِثْلِي

(١) ايليا حاوى ، فن الهجاء ، ص ٥٥٨ .

(٢) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .

فابن الرومي هنا يصور البخل تصوير سخرية داخلية ، ويتزع فيها إلى تحديد البخل تحديدا جامعا ، مؤديا له نموذج تحليليا ، لا يخلو من الواقعية رغما عن خلوه من الرؤيا الشعرية العميقة ، ولا يكتفى بذلك فهو يلاحق المعنى ، ويقبله على كل الوجوه ، فيتبدى له من زاوية جديدة ، ويبدو له أن للمعنى الواحد علاقة بكل معنى آخر ، وبكل ظاهرة تقع عليها حواسه (١). يقول مصورا المعنى السابق بطريقة مختلفة (٢):

تَجَنَّبَ سُلَيْمَانَ قَفْلُ النَّدَى      فَقَدَ يَسَّ النَّاسُ مِنْ فَتْحِهِ

ابن الرومي يرى أن امساك اليد والحرص على المال مثل الخزانة التي عليها قفل محكم لا يفتح حتى لا تنفق الأموال ، وهو حين يهجو البخيل ويصف يده بالقفل ، إنما يدعو لإظهار المال وانفاقه بدلا من كثره ، من ذلك قوله (٣):

إِنَّ كَفَيْكَ لَقِفْلٌ      مَحْكَمٌ يَا بَنَ حُرَاشَهُ  
لَيْسَ يَنْجُو الْفَلْسُ مِنْ      كَفَيْكَ إِلَّا بِالْحُشَاشَهُ  
ضَيْقُ الصَّدْرِ بِخَيْلٍ      ضَيْقُ اللَّهِ مَعَاشَهُ

- نعوذ بالله من البخل وضيق الصدر - فإن البخل لا يؤرث سوى ضيقة الصدر ، ونفور من الجماعة والائتلاف ، خوفا على المال ، وحبا في الازدياد منه والحرص عليه ، وقد عرض لنا شاعرنا البخل وشبهه يد البخيل بالقفل في أكثر من صورة ، وفي كل صورة نلمس إيجاء جديدا ، وطريقة جديدة من غير تكلف ولا تعنت ، فلكل صورة عطرها الخاص وسحرها المميز لغة ومعنى ، وهذا من سمات شعر ابن الرومي الفنية ، حيث يلح على فكرة واحدة ، ويعرضها بصور فنية مختلفة . انظر إليه يعد البخل في نظر البخيل حكمة (٤):

(١) ايليا الحاوي ، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص ١٥٨ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٣)، (٤) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٣٧، ١٥٤ .

## هَلْ حِكْمَةٌ أَنْ قِفْلَ كَفِّكَ ۝ لَا يُفْتَحُ إِلَّا بِمِفْتَاحِ الْعُذْرِ؟!

"ابن الرومي في صورة الهزلية لم يقلع عن الطريقة التي كان يسلكها في رسم المشاهد ، وعن براعته في دقة المراقبة ، واثبات الحركة ، وبعث الصور البعيدة الايجاء ، وقد أفضت به دقة التصوير إلى تمثيل الدمامة في أتم أشكالها ، حتى كأنها تنطق بنفسها عن معانيها ، وجره حبه للتقصي إلى استقراء مقابح الذين يسخر منهم إلى نهايتها"<sup>(١)</sup>. ولعل من أشهر تلك الصور وصفه للبخیل وذمه للبخل ومنها قوله<sup>(٢)</sup>:

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ      وَكَيْسَ بِبَاقٍ وَلَا خَالِدٍ  
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ      تَنْفَسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ

فهو بذلك يتتبع العاهات النفسية والجسدية ويترسمها في غلوائه ، حتى يبدع لها نموذجاً إنسانياً ثابتاً نفع عليه في أي مكان وزمان .

انظر إلى صورة من صوره التي يذم فيها البخل ويهجو البخیل الذي لا يكرم ضيفه<sup>(٣)</sup>:

بَخِيلٌ يَصُومُ أَضْيَافَهُ      وَيَبْخُلُ عَنْهُمْ بِأَجْرِ الصَّيَامِ  
يَدُسُّ الْغُلَامَ فَيُولِيهِمْ      جَفَاءً فَيَشْتُمُ مَوْلَى الْغُلَامِ  
فَيَحْتَالُ بَخْلًا لِأَنْ يَفْطَرُوا      عَلَى رَفَثِ الْقَوْلِ دُونَ الطَّعَامِ  
لَقَدْ جَاءَ بِاللُّؤْمِ مِنْ خَصِّهِ      وَتَمَّ لَهُ الْبُخْلُ كُلَّ التَّمَامِ

والحق أن صور ابن الرومي هذه كلها وإن كانت تشير فينا إلى إحساس بالمتعة ، لكنها تتبع ما نستشرف إليه من إبداع صورة البخل على نحو ما يوحى قول ربنا تبارك وتعالى : {وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ} <sup>(٤)</sup>. فالوقاية تكون من أخطار تحبط عمل الإنسان وتهلكه ، وهذه

(١) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ط/عاشرة ، ١٩٨٠م ، ص ٥٣٩، ٥٤٠ ، المكتبة البولسية .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

(٣) الديوان ، ج ٦ ، ص ١١ .

(٤) سورة الحشر : آية ٩

الأخطار هي أخطار الشح التي لا تنتهي عند حد ، منها شح الغني على الفقير ومنها شح الغني على وطنه وعلى نفسه وأهله ، وكما يكون الشح بالمال وله ألف صورة وصورة يكون بالدم ، والنفس الشحيحة تعرف بفظاظتها ، وانطوائها كأنها تحجرت فانقطعت أو اصرها بالحياة ، وبالأحياء .. فهانت على نفسها كما هانت على غيرها<sup>(١)</sup>.

كَسَبْتُمْ يَسَارًا وَاكْتَسَبْتُمْ بِبُخْلِكُمْ  
شَنَارًا عَلَيْكُمْ بَاقِيًا غَيْرَ بَائِدٍ

فقد يحول بين المرء والكرم أمور منها ، ذلة النفس وتأخير واجب الضيف فإذا كان الإنسان ذليل النفس فقد تأبى عن الخير ، لذا فإن الناجين من آفة الشح - البخل - هم المفلحون في دنياهم ، والمفلحون في آخرهم ، لأنهم استجابوا لدواعي الفطرة الزكية وأطاعوا الله ، وتيقنوا من أنه الرزاق ذو القوة المتين .

كان ابن الرومي يؤمن بالحدود والقيم ، ومفهوم الإنسان وغايته من نفسه ومن الحياة ، كما كان يعي وظيفة المجتمع ، ومعنى الحضارة ، ويعز عليه أن يقيم في عصر افتقد فيه معنى الكفاءة والأخلاق ، فاغتصبت القيم ، واستحلت وداخلها كل دخيل ، ولم تكن تطيب له تلك الحياة الفاقدة الكرامة ، الضائعة الناموس ، لذا وقف من عصره موقف محاكمة ونقض ، لا يكتفى بالتعرض للفرد الواحد ، بل تعرض للمجتمع بكامله ، لأخلاقه ومبادئه وقيمه ، فقد تنكر له وأنكر عليه وأشار إلى كل ما فيه إشارة اتهام<sup>(٢)</sup>. وقد وصل شاعرنا إلى أسمى مراتب الهجاء الاجتماعي حين تناول ظاهرة اجتماعية تعيب المجتمع والإنسانية كلها فقال<sup>(٣)</sup>:

(١) د. محمود فياض ، محاضرات في أدب الدعوة ، ص ٩٠ بتصرف .

(٢) ايليا سليم الحاوي ، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص ١٦٩ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

رَأَيْتِ حَمَالًا مَبِينَ الْعَمَى  
مُحْتَمِلًا ثِقْلًا عَلَى رَأْسِهِ  
بَيْنَ جَمَالَاتٍ وَأَشْبَاهِهَا  
أَضْحَى بِأُخْرَى حَالَةً بَيْنَهُمْ  
وَكُلَّهُمْ يَصُدُّمُهُ عَامِدًا  
وَالْبَائِسِ الْمَسْكِينِ مُسْتَسْلِمًا  
وَمَا أَشْتَهَى ذَاكَ وَلَكِنَّهُ  
فَرَّ إِلَى الْحَمْلِ عَلَى ضَعْفِهِ

فابن الرومي في هذا النص لم يكن مرتاحاً للتفكك الاجتماعي الذي عم عصره ، ولم يعجبه تخلي معاصريه عن قيم الشهامة والمروءة التي تتجسد في مساعدة الضعيف ورعاية المحتاج . وهو يثور على مجتمعه والوضع الشاذ لمعاصريه ، وينعي عليهم وعلى مجتمعه التناقض العجيب وفقدان العدالة الاجتماعية ، ويعرض لفئة من أبناء عصره ، فينكر عليهم الهوان الذي يلاقونه ورضاهم بالذل بعد العز والشرف حين يقول (١) :

لَا أَحِبُّ الرَّئِيسَ ذَا الْعِزِّ يُضْحِي  
حَامِلٌ مِنَّةً لَهُمْ إِنْ كَفَّوهُ  
جَارُهُ وَالرَّجَالُ مُسْتَعْبِدُوهُ  
شَرُّهُمْ ، دَاخِرُهُ إِنْ اضْطَهَدُوهُ

فابن الرومي يرى أن الذل والهوان اللذين يلحقان بالإنسان لا يكونا إلا إذا فقد عزة نفسه وكرامتها . وهو هنا يثور على بعض معاصريه الذين رضوا بالهوان ويحثهم على الثورة والتمرد على البغي والطغيان الذي انتشر في عصره خاصة من الوزراء والحجاب الأعاجم .

وكأني بابن الرومي من خلال الصور السابقة ينقد المجتمع الظالم نقداً  
مرّاً بل يرفضه ..

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

وضع ابن الرومي يده على آفات المجتمع ، فرآه فئتين : فئة من السفهاء خفت عقولهم ، وفئة من ذوي الرجاحة ومن أجلاء الناس . يقول منتقداً مجتمعه<sup>(١)</sup> :

طَارَ قَوْمٌ بِخِفَّةِ الْوِزْنِ حَتَّى      لِحِقْوَا رِفْعَةَ يَقَابِ الْعُقَابِ  
وَرَسَا الرَّاجِحُونَ مِنْ جَلَّةِ النَّاسِ      رُسُوَ الْجِبَالِ ذَاتِ الْهَضَابِ

فَلِيطِرُ مَعَشَرَ وَيَعْلُو فِإِنِّي      لَأَرَاهِمَ إِلَّا بِأَسْفَلِ قَابِ  
لَأَعْدُ الْعُلُوَّ مِنْهُمْ عُلُوًّا      بل طفوا ، يمينَ غيرِ كِذَابِ  
جَيْفٌ أَتَنَّتْ فَأَضْحَتْ عَلَى س      اللُّجَّةِ وَالذَّرِّ تَحْتَهَا فِي حِجَابِ  
وَعُثَاءٌ عَلَا عُبَاباً مِنَ الْيَمِّ      وَغَاصَ الْمَرْجَانُ تَحْتَ الْعُبَابِ

مأبرع ابن الرومي في سخريته بما لا يرضاه في مجتمعه من ظلم . إن أصحاب التفاهة الذين كان ينبغي لهم أن يلزموا أماكنهم لاصقين بالأرض ، هم الذين أتاح لهم هذا المجتمع الظالم التفوق والامتياز ، وهياً لهم رفيع المناصب والثروة والجاه ، أما أصحاب العقول الراجحة من ذوي الحكمة والعلم ، فقد قعد بهم المجتمع الظالم عن إدراك ما يجب أن يدركوه بمواهبهم وقدراتهم ، فظلوا مبعدين عن كل خير .

ويتابع شاعرنا نقده لمجتمعه ، فيقول إن علو الأرزال اللئام هو طفو كما تطفو الأجسام الخفيفة على وجه الماء ، ولا يقف عند تصويرهم بالطفو بل إنه يظهر نوعية الأجسام الطافية فقال إنها جيف منتنة ، بينما كرام الناس كالدر الذي يبقى راسياً في قاع البحر ، وأرذال الناس كالأوساخ تطفو فوق الأمواج بينما المرجان النادر يغوص تحتها ، وهكذا زاوج شاعرنا بين الخيال والحقيقة<sup>(٢)</sup> .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٣١٤-٣١٥ .

(٢) عبد الحميد جیده ، الهجاء عند ابن الرومي ، ص ٢٨٨ بتصرف .



لم تخل الحياة الإنسانية في عصر ابن الرومي وأظنها لا تخلو في أي عصر وأي زمن من بواعث السخط ودواعي التذمر ، وابن الرومي رأى وأحس ما في عصره من ظلم وغبن وخلط بين الفساد والتناقض فراعته ذلك واستنكر من الإنسان هذه الأفعال فقال<sup>(١)</sup>:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَجَيْفَةٍ مَيْتَةٍ      وَطَلَّابُهَا مِثْلَ الكِلَابِ النَّوَاهِسِ  
وَأَعْظَمُهُمْ ذِمًّا لَهَا وَأَشَدُّهُمْ      بِهَا شَغْفًا قَوْمٌ طِوَالُ القَلَانِسِ

فهذه صورة الإنسان الذي يشغف بالحياة ، ويجد ويهرع ويتكالب ويطمع ، ويظلم ليغتم نعم الحياة قبل سواه . يهزأ به ابن الرومي لأنه يقترب ما يقترب ، ويطغى ويظلم من أجل جيفة ، ويعيب على الوزراء في عصره خاصة - تشبثهم وشغفهم بالدنيا مع ذمهم لها وكثرت عنهم بطوال القلانس ، وهي نوع من لباس الرأس شاع بين الوزراء والأعيان في العصر العباسي .

"التهجاء يقوم على أساس وجود مثل أعلى ينشده الشاعر ، فإذا تعارض هذا المثل مع شخص ، أو نظام اجتماعي ، دافع الشاعر عن مثله الأعلى عن طريق هدم النموذج المخالف ، من هنا كان في التهجاء قوة بناء إلى جانب مظهره الهدام ، ويظهر ذلك في التهجاء الاجتماعي بصفة خاصة"<sup>(٢)</sup> . ويظهر البعد الاجتماعي في قول ابن الرومي<sup>(٣)</sup>:

لَوْ تَرَاهُ ثَانِيًا مِنْ عَطْفِهِ      مَاثِلًا فِي السَّرَجِ مِنْ فَرْطِ الصَّلْفِ  
شَامِخًا بِالْأَنْفِ مِنْ نَخْوَتِهِ      فَهَوَ لَوْ يُسْتَرْعَفُ الخَلَّ رَعْفُ  
نَحْنُ أَحْيَاءٌ عَلَى الأَرْضِ وَقَدْ      خَسَفَ الدَّهْرُ بِنَا تُسَمَّ خَسَفُ  
أُصْبَحَ السَّافِلُ مِنَّا عَالِيًا      وَهَوَى أَهْلُ المَعَالِيِ والشَّرْفِ

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .

(٢) عبد الحميد جوده ، التهجاء عند ابن الرومي ، ص ٢٨٧ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .

يَسْفُلُ النَّاسُ وَيَعْلُو مَعْشَرٌ  
حَيْفٌ تَطْفُو عَلَى بَحْرِ الْغِنَى  
قَارَفُوا الْأَقْرَافَ مِنْ كُلِّ طَرْفٍ  
حِينَ لَا تَطْفُو خَبِيئَاتُ الصُّدْفِ

في هذه الصورة يهجو شاعرنا ذلك المرء المتكبر ، المتعظم بنفسه ظاهرا ويهجو مجتمعه إذ رفعه دون جدارة ، فهذه الأبيات وغيرها من صور ابن الرومي يذكيها شعور بالظلم والاختلال الاجتماعي في عصر انقلبت فيه الموازين عصر تكالب ودس واحتيال ، وفي هذه الصورة يظهر لنا ابن الرومي ساخطا على العصر وأبنائه ، طافح النفس بالمرارة والألم ، وقد رأى الأمور في غير نصابها .

على أننا لو رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فيما عرضا له من شؤون الخلق ومعاملاتهم ، لوجدنا ما يدل على مايردع الظالم عن غيه ويدل المسلم على الخير سواء في السلوك الإنساني الظاهر أو المعاملة الحسنة ، ونبذ كل مامن شأنه الفرقة والجفاء بين الناس ، كما يقول ابن الرومي الذي ساءه بعض المتكبرين<sup>(١)</sup>:

عَبُوسٌ إِذَا حَيَّيْتُهُ بِتَحِيَّةٍ  
إِذَا مَارَّانِي عَادَ أَعْمَى بِلَاعْمَى  
فِيَاكَ مِنْ كِبَرٍ وَمِنْ مَنْطِقِ نَزْرِ  
وَصَمٌّ سَمِيْعًا مَا بَادُنِيهِ مِنْ وَقْرِ

فأين هذا من تعاليم ديننا الحنيف الذي دعى للألفة والمحبة وأمر برد التحية بأحسن منها أو مثلها {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها}<sup>(٢)</sup>. فابن الرومي هنا يشكو من الخلق العام الذي تحدر إليه أبناء عصره حتى باتوا في غطرسة وكبر لا يتخلقون بأخلاق الإسلام ، ولا يتأدبون بالآداب العربية الأصيلة .

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) سورة النساء : آية ٨٦ .

وابن الرومي بهجائه يثير حقيقة القيم التي ينبغي أن يقدر بها الناس ،  
فلا يقتصرون على ما يجلبه لهم الدهر من مظاهر حمقاء ، بل لابد أن يصدر  
فعل المرء عن عقل وعلم وإلا فما لحياته فائدة ، يقول في بعض معاصريه  
الحمقى الذين اكتفوا من الحياة باللذة ولم يحفلوا بالعلم والأدب<sup>(١)</sup>:

طَوَّلْ وَعَرَّضْ بِلَاعَقْلِ وَلَا أَدَبٍ      فَيَسَّ يَحْسُنْ إِلَّا وَهُوَ مَصْلُوبٌ  
رَمَحْ طَوِيلٌ وَلَكِنْ فِي جَوَانِبِهِ      شَتَّى وَصُومٌ ، فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْبُوبٌ  
فَيْلٌ وَأَوْزَنُ مِنْهُ لَوْ يُوزَنُهُ      فِي الْجَنِّ وَالْعِلْمِ لَافِي الْجِسْمِ يَعْسُوبٌ

يجرد ابن الرومي المهجو من العقل ، والأدب ، فلا يحسن في عين  
الناظر إلا وهو مصلوب . فلئن طال وعرض وثقل وزنه ، فهو فارغ فراغ  
الأنبوب ، سخي ، لا علم له ولا حلم . "قابن الرومي يسلب مهجوه الفطنة  
والكياسة والعلم ، ويلصق به كل عيوب الحضارة التي يجمعها التبذل ،  
والتهالك على اللذات"<sup>(٢)</sup>. هذا وقد أصبح المجرد من المعرفة والثقافة في  
عصر ابن الرومي - الجاهل - لا وزن له ولا قيمة ، معرضا للهجاء والذم ،  
وابن الرومي ساءه الجهل الذي عم أبناء عصره واغتاظ منهم فهجاهم  
وقال<sup>(٣)</sup>:

وَأَعْجَبُ مِنْهُمْ مَعْشَرٌ لَيْسَ فِيهِمْ      بِشَعْرِي ، وَلَا شَيْءٍ مِنَ الشَّعْرِ مُعْجَبٌ  
بِرَازِينَ ، أَلْهَاهَا قَدِيمًا شَعِيرَهَا      عَنِ الشَّعْرِ ، تَسْتَوْفِي الْقَضِيمَ وَتَرْكَبُ<sup>(٤)</sup>  
مِنَ اللَّائِي لَا تَنْفَكُ تَجْرِي سَوَاكِنًا      بِفُرْسَانِهَا تَلْقَاءَ نَارٍ تَلْهَبُ  
وَأَعْجَبُ مِنْهُمْ جَاهِلُونَ تَعَاقَلُوا      وَكُلَّهُمْ عَمَّا يُتَمَّمُ أَنْكَبُ  
أَغْشَاءُ مَا فِيهِمْ أَدِيبٌ عَلِمْتُهُ      وَلَا قَابِلُ التَّأْدِيبِ حِينَ يُؤَدَّبُ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .

(٢) عباس العقاد ، ابن الرومي حياته من شعره ، ص ٢٣٤ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٤) برازين : جمع برزون وهو نوع من الدواب يتخلل بياضه سواد ، عظيم الحلقة  
غليظ الأعضاء .

شبه ابن الرومي معاصريه الذين لاعلم لهم بالشعر ولا تذوقه بالدواب التي تحاول الجري بفرسانها وهي ساكنة تجاه نار تلهب ، فيفشل هؤلاء القوم في الارتقاء إليه وملاحظته ، ثم يعلل عدم لحاقهم به تعليلا منطقيًا يؤيده شعره المميز ، إذ به ينتصر على نقصهم وجهلهم ، فما هم إلا خفافيش أو بهائم لا تفهم<sup>(١)</sup>:

خَفَافِيشَ أَعْسَاهَا نَهَارٌ بِضَوْوَيْهِ      وَلَاءَ مَهَا قَطَعُ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبُ  
بِهَائِمُ لَا تَصْغِي إِلَى شَدْوِ مَعْبُدِ      وَأَمَّا عَلَى جَافِيِ الحَدَاءِ فَتَطْرُبُ

فابن الرومي يعيب على معاصريه جهلهم وقلة فهمهم للشعر وتذوقه ويلقي عليهم الذنب في عدم فهم شعره لجهلهم بمعاني الكلام عامة . فهم كالبهائم التي لا يطر بها الجيد وكئي بشدو معبد - على الغناء أو الصوت الجميل وهو أشهر المغنين قديما كان ذا صوت حسن وغناء جميل - بينما يطر بهم صوت الحدأ .

في هجاء ابن الرومي انعكست حياة المجتمع والعصر بكل جوانبهما ، وهو انعكاس طبيعي لاتزييف فيه ولا مبالغة في التخيل كما يقول عبد الحميد جيده<sup>(٢)</sup>.. حيث يمكننا أن نقف على طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في عصره وطبائع الناس التي كونتها مؤثرات العصر ، فيعرض للسلطة والحكام ، ويتحدث عن الطغيان والجور وقسوة الحجاب من ذلك قوله<sup>(٣)</sup>:

وَمِنْ شِيَمِ الحُجَابِ أَنَّ قُلُوبَهُمْ      قُلُوبٌ عَلَى الأَحْرَارِ أَقْسَى مِنَ الصَّخْرِ  
وَأَنَّهُمْ لَوْ مَلَكَوا القَطْرَ أَوْ وَلُوا      خَزَائِنُهُ خَافُوا النِّفَادَ عَلَى القَطْرِ  
يَخَافُونَ أَنْ يَحْظَى سِوَاهُمْ بِحَظِّهِمْ      فَهُمْ مِنْ سُؤَالِ السَّائِلِينَ عَلَى وَحْرِ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) الهجاء عند ابن الرومي ، ص ٢٣٢ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٨ .

فابن الرومي هنا يهجو فئة من المجتمع الذي يعيش فيه وهي فئة الحجاب ، وهي فئة قاسية ، قلوبهم أقسى من الصخر كما يقول شاعرنا فقد كان يحس بكل مضطهد في مجتمعه ، وإن كان أحد المضطهدين الذين عانوا من ظلم المجتمع وهو إن اتخذ الهجاء سلاحا يدافع به عن نفسه وعن أمثاله أمام بطش القوة في عصر اختلت فيه جميع الموازين ، فلقد طلب الحق كما طلب العدل الاجتماعي وإن اختلفت الطرق التي سلكها في ذلك .

فابن الرومي ينكر الظلم والجبروت ويهجوه ممثلا في شخص أصحابه

من ذلك قوله (١):

أَيَّامَكُمْ يَا بَنِي الْجَرَّاحِ قَدْ جَرَحَتْ	كُلُّ الْقُلُوبِ فِيهَا مِنْكُمْ تَارُ
مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ تَمَّتْ رِيَاسَتُهُ	إِلَّا مَشُومٌ عَظِيمٌ الْكِبَرِ جَبَّارُ
لَأَقْدَسَ اللَّهُ بِالْإِقْبَالِ دَوْلَتَكُمْ	فَإِنَّ إِقْبَالَكُمْ لِلنَّاسِ إِدْبَارُ

من ذلك يمكن القول : أن هجاء ابن الرومي إنساني بالدرجة الأولى ،

إنه باختصار يعبر عن توتر القيم الحضارية والمثل العليا ، وتحكم الأغبياء ، والجهلة والمرائين ، والمنافقين ، بمصير الفقراء والبسطاء ، والفنانين ، كما عبر عن عدم التكافؤ الاجتماعي في ذلك العصر . فقد تحقق له أن عصره كان عصر تفكك واختلال (٢). ولعل ابن الرومي في هجائه الذين بيدهم السلطة أو الأمر كان يرمي إلى ردع الظالمين ، والأخذ على يد المفسدين الذين حرموه من أبسط حقوقه الإنسانية . أو هكذا يرى .

أَيَّلْتَمَسُ النَّاسُ الْغِنَى فَيُصِيبُهُمْ      وَأَتَلَمَسُ الْقُوَّةَ الطَّفِيفَ فَيَلْتَوِي؟

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .

(٢) د. محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص ١٢١ بتصرف .

فابن الرومي في عصره "من أعلام الفكر والواعين الأحرار الذين اضطهدهم ذوو السلطان ، لوعيتهم مصادر الظلم الاجتماعي ، ولتعبيرهم عن هذا الظلم بمختلف ألوان التعبير"<sup>(١)</sup>. وقد نجد لابن الرومي نصوصا تكمن قيمتها في أنها تعبر عن تجربته هو ، من ذلك رؤيته للصدقة في زمنه .

"من الظواهر الاجتماعية في عصر ابن الرومي التي هجاها ، وأظهر ضيقه بها فساد أخلاق الناس وقلة وفائهم حتى من بين من يظنهم الإنسان أصدقاءه"<sup>(٢)</sup>. وهو يرى أن للعصر دوره في فساد الأصدقاء ، ويطالب بتجنب صحبة الناس وعدم الاستكثار من الأصدقاء فيقول<sup>(٣)</sup>:

عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ  
فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ  
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ عَدَاً عَدُوًّا  
مُبِينًا ، وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ  
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ  
مُصَاحِبَةُ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّوَابِ  
وَلَكِنْ قَلَّ مَا اسْتَكْثَرْتَ إِلَّا  
سَقَطَتْ عَلَى ذَنَابٍ فِي ثِيَابِ

ابن الرومي يرى في إنسان عصره ذلك النموذج المتقلب ، والمتلون الذي لا يحسن أن يكون صديقا ، فهو نموذج يتجرد من كل قيمة إنسانية ، لذلك حذر منهم فهم ذئاب في ثياب ، كثير فيهم الغدر قليل منهم الوفاء .. وكثير هم الذين نخدع بصحبتهم ، ولاندرك حقائقهم ، لكن الكذب والنفاق لا بد أن يظهر وينكشف صاحبهما ولو بعد حين ، وعندها يزداد الإنسان خبرة وفهما لطبائع الناس ، وابن الرومي يعرض لنا ذلك في قوله<sup>(٤)</sup>:

وَإِخْوَانِي اتَّخَذْتُهُمْ دُرُوعًا  
فَكَانُواهَا ، وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي  
وَخَلْتُهُمْ سِهَامًا صَائِبَاتٍ  
فَكَانُواهَا ، وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي  
وَقَالُوا: قَدْ صَفَّتْ مِنَّا قُلُوبٌ  
لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ مِنْ وَدَادِي

(١) د. محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص ٤٥ .

(٢) عبد الحميد جیده ، الهجاء عند ابن الرومي ، ص ٣١١ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

وبعد أن حذر من الناس وانتقد الصداقة في عصره لفسادها علل ذلك ورأى أن الأصدقاء في مجتمعه لاهم لهم سوى الشماتة بالصديق وعدم الصبر عليه ، ويرى في ذلك فقدان العربي لقيمه وشمائله التي منها العفو<sup>(١)</sup> :

يا صاحباً رضي النذالة صاحباً      وغداً يعدُّ مؤاكلة أراقماً  
أبغضت من طعم الطعام فريقه      سمّ لديك فما تجامل طاعماً  
هلاً لفيئتك عند أول زلة      مني كريم العفو أو متكارماً

وليس هذا كل شيء . فإنسان عصر ابن الرومي لم يفقد إحساسه بالصداقة وأهمية الصديق فقط ، بل وصل الأمر بتغير نفسه واتصافه بالحيانة أنه أصبح كما يقول ابن الرومي يجد لذته في آلام الغير<sup>(٢)</sup> :

يضحك من كل ما بكيت له      كأن لذاته بالآمي

والبيت لا يحتاج في نظري لأي تعليق فقد أدنى ابن الرومي المعنى حقه فليس بعد التلذذ بالآلام الغير ، دناءة نفس وسوء أخلاق .

ابن الرومي "رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم ، والأنس بالأصدقاء والإخوان"<sup>(٣)</sup> ، ولقد كان من أكثر الشعراء إحساساً بمكانة الصديق وأهميته ، والصداقة عنده قيمة إنسانية عظيمة ، لكنه يتذمر من أولئك الذين لا يقدرّون الصداقة ، ولم يعرفوا إلا بالغدر والحيانة من ذلك قوله<sup>(٤)</sup> :

حلّو الصداقة مرّها فصديقه      شرق بماء إخائه متغصص  
ما إن يزال على هواي مخالفاً      ومعانداً للحق حين يحصص  
ترضيك جملة أمره في ودّه      لكنّها تشجيك حين تلخص

(١)، (٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ٧٥ ، ١١٣ .

(٣) عباس العقاد ، ابن الرومي ، ص ٢٣٩ .

(٤) الديوان ، ج ٤ ، ص ٥ .

فهذه الأبيات رائعة في معناها ، وقليلًا ما نجد مثل هذه المشاعر المركبة فهو يشير إلى ندرة الأوفياء في زمنه ويرى أن لاصديق على الحقيقة . وإن وجد هذا الصديق ورضيت منه بعض أحواله ، سيسوءك ماتبديه الأيام من هذا الصديق حين تلم بك ملامة لا تجده لذلك قال ابن الرومي (١) :

ولي أصدقاء كثيرٌو السلام	عليّ وما فيهم نافع
إذا أنا أدلجت في حاجةٍ	لها مَطْلَبٌ نازِحٌ شاسِعٌ
فلي أبدأ معهم وقفةٌ	وتسليمةٌ وقتها ضائعٌ
أولئك لأحييهم مؤنسٌ	صديقًا ولا ميتهم فاجعٌ

يرى شاعرنا أن الناس لئام ، لا يصاحبون المرء إلا في السراء ويتخلون عنه في الضراء ، فهم في رأيه يجسدون الطمع ، والخيانة ، لذا نراه يحذر غيره من الركون للأصحاب والأخلاء فما هم أهل للصدقة يقول (٢) :

رأيتُ الأخلَاءَ في دهرنا	بظَهْرِ المَوَدَّةِ إلا قليلاً
بطاءً عن المُبتَغى نصرهم	إلى أن يغادر شلواً أكيلاً
فإن حشدوا لأخ مرةً	أدلوا عليه دلالاً ثقيلاً
فلاتفرعن إلى نصرهم	وكُن للمظالم ظهراً ذليلاً

علاقة الصداقة كما يراها ابن الرومي علاقة إنسانية لها حرمتها توجب الولاء والمعونة بين أطرافها ، ولكن في عصر شاعرنا فسدت النفوس والنوايا فبات الإنسان لا يجد صديقاً صادقاً يركن إليه وقت الشدة بينما يجدهم بكثرة في وقت الرخاء والنعمة ، وابن الرومي كان على علم بطبائع الناس لذا حذر من الإكثار من الصحاب أو الاعتماد عليهم ، لعلمه أنهم قليلي الوفاء ، كثيري الخيانة والغدر . وهذه إشارة إلى فساد عصره .

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

(٢) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٩٦، ١٩٧ .



يقف ابن الرومي موقف المدافع عن القيمة الإنسانية المتمثلة في "فن الغناء" فهو يذهب إلى أن الجمال وحدة متكاملة لا تتجزأ ، لا يداني قبحا ولا يلازمه ولا يصدر عنه ، لذلك نراه يثار للجمال في شتى وجوهه ومظاهره حين يهجو أحد المغنين في عصره فيصور قبح صوته إلى قبح هيئته ومنظره فيقول (١):

وإنَّ تَبَدُّي بِصَوْتِ خَرٍّ سَامِعَهُ      لِلبَرْدِ مَيْتًا ، وَلَوْ دَرَعْتَهُ سَقْرًا  
تَخَالَهُ أبدأً مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِهِ      مَجَادِبًا وَتَرًا ، أَوْ بِالْعَا حَجْرًا  
كَأَنَّهُ ضَفْدَعٌ فِي لُجَّةِ هَرَمٍ      إِذَا شَدَا نَغْمًا أَوْ كَرَّرَ النَّظْرَا

فابن الرومي يهجو الصوت القبيح أيا كان مصدره ، فالأصوات المنكرة تجلب الهمّ والغم إلى قلب السامع ، نراه يهجو مغنيا آخر هجاء مرا يقوم على أساس التنكيل بصوته وهيئته فيقول (٢):

يَفْتَحُ فَاهُ مِنْ الْجِهَادِ كَمَا      يَفْتَحُ فَاهُ لِأَعْظَمِ اللَّقْمِ  
تَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ إِسَاءَتُهُ      كَأَنَّهَا مَسْحَةٌ مِنْ الْجَمَمِ  
يَسُودُ مِنْ قُبْحِ مَا يَجِيءُ بِهِ      حَتَّى كَأَنَّ قَدْ أُسْفَّ بِالْفَحْمِ  
يَشْدُو بِصَوْتِ يَسُوءَ سَامِعَهُ      تَبَارَكَ اللَّهُ بَارِيءُ النَّسَمِ  
أَبْحَ فِيهِ شُدُورٌ حَشْرَجَةٍ      مَنْظُومَةٍ فِي مَقَاطِعِ النَّغَمِ  
نَبْرَتُهُ غَصَّةٌ وَهَزَّتُهُ      مِثْلُ نَيْبِ التُّيُوسِ فِي الْغَنَمِ

يشير ابن الرومي هنا إلى أثر الصوت القبيح - الغناء - في النفوس . أثر سيء ، ووجه هذا المغني أسود من فرط إساءته للناس بغنائه ، كما أن صوته أبح متحشرج ، كأن به غصة يشبه صوت التيوس ، وهكذا انفعال شاعرنا بغيرته على الجمال الفني في الصوت والأداء فصاغ لنا هذا الانفعال في

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

(٢) الديوان ، ج ٦ ، ص ٩ - ١٠ .

صور فنية رائعة ، تبلغ حدا كبيرا من الدقة في الوصف والبراعة في السخرية من الابداع في ربط العناصر المصاحبة للغناء ، مثل وجه المغني وملاحه ، وأثر غنائه ، وهيئته في نفوس السامعين<sup>(١)</sup>.

لقد اعتمد ابن الرومي في هجاء صوت هذا المغني وهيئته التي يكون عليها عند غنائه ، اعتمد السخرية ، فتولى قبح الصوت - عاهة يسيرة - وفتق لها بتعليل كثير ، وأتى بتشبيهات غاية في البراعة ، وقد وفق فيها باستشارة التهكم والاستخفاف بالمغني وصوته .

"كان ابن الرومي فناناً بارعاً أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال ، فإذا قصد شخصا أو شيئا بهجاء صوّب إليه "مصورته" الواعية ، فإذا ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورة مهياة في الشعر تهجو نفسها بنفسها ، وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها"<sup>(٢)</sup>. من ذلك صورته في هجاء المغنيين والجواري ، وهو يدافع عن الجمال كقيمة يقول<sup>(٣)</sup>:

صوتها بالقلوب غير رقيق	بل له بالقلوب عنف وبطش
وتغني فتورث السمع وقرأ	فعليتها لمن تغتته أرش <sup>(٤)</sup>
تدعي غنة الشباب ويأبى	ذاك صوت لها جريش أجش
فإذا رقتة بالجهد منها	خلت أن في حلقها شعيراً يجش
تتاغى وعودها بنهيق	كنهيق الحمار ناغاه جحش

(١) عبد الحميد جیده ، الهجاء عند ابن الرومي ، ص ١٤٨ بتصرف .

(٢) عباس العقاد ، ابن الرومي حياته من شعره ، ص ٢٣٣ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

(٤) الوقر : الصمم . الأرش : الدية .

فابن الرومي هنا يشمئز من الصوت القبيح الذي يجلب الملل والضجر  
ويبعث على النفور الشديد ، ثم يجمع ابن الرومي بين قبح الصوت وقبح  
الهيئة عند الغناء في مهجوه ، فيسخر منه يقول (١) :

تَضَعُ الصَّوْتِ الَّذِي تَشْدُو بِهِ      غَضَّةٌ فِي حَلْقِهَا مُعْتَرِضَةٌ  
فَإِذَا غَنَّتْ بَدَأَ فِي جِيدِهَا      كُلُّ عِرْقٍ مِثْلَ بَيْتِ الْأَرْضَةِ

ويظهر لنا من صورته هذه معرفته بأصول فن الغناء حيث يعتمد على  
سهولة المخرج وطلاقة اللسان ولكن من يهجوها هنا جاهلة بأصول هذا  
الفن فهي تتكلف في غنائها ، وفي ذلك عنت لها ولسامعها كما قال (٢) :

إِذَا تَغَنَّتْ رَحَلَتْ نِعْمَةً      عَنْ أَهْلِهَا ، وَأَنْصَرَفَتْ غِبْطَةً  
فِي الصَّوْتِ مِنْهَا أَدَا بَحَّةً      تُوهِمُنِي أَنَّ بِهَا خَبْطَةً  
نَغَمْتُهَا نَغْمَةٌ مَزْكُومَةٌ      قَدْ جَمَعَتْ فِي أَنْفِهَا مَخْطَةً

فهذه المظاهر : سوء الغناء ، رداءة الصوت ، قبح الأداء تتضافر جميعا  
لتصور معنى واحدا ، هو معنى القبح الظاهر على وجه المهجو والمنبعث من  
صوته وغنائه . وابن الرومي في اعتكافه على تقليب المعاني ومزاوجتها  
واعتمالها في نفسه ، يقع على مظاهر وصور كثيرة يعبر بها عن القبح في كل  
مجالاته ، تدل في نفس الوقت على عمق إحساس شاعرنا بما حوله وحسن  
تصويره لكل ذلك .

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

ابن الرومي حين يهجو صوتاً كريها فإنه مجرد صاحبه من مذهبه الفني في الغناء كما حدث في هجاء مغنياً. فقد هجأ قبح صوته وفساد طريقة تعليمه للصبيان الضرب على الطنبور أو الغناء، في صورة فنية رائعة تبلغ حداً كبيراً من الدقة في الوصف والبراعة في السخرية حين قال (١):

أَبُو سَلِيمَانَ لَا تَرْضَى طَرِيقَتَهُ  
لَهُ إِذَا جَاوَبَ الطَّنْبُورُ مُحْتَفِلاً  
عِوَاءُ كَلْبٍ عَلَى أوتَارٍ مَنْدَفَةٍ  
وَتَحْسِبُ الْعَيْنُ فَكِّيهِ إِذَا اخْتَلَفَا  
وَأَقْدَرُ النَّاسِ أَسْنَانًا وَأَطْفُسَهُمْ  
لَأَفِي غِنَاءٍ ، وَلَا تَعْلِيمِ صِيَانِ  
صَوْتٌ بِمَصْرٍ وَضَرْبٌ فِي خِرَاسَانِ  
فِي قُبْحِ قَرْدٍ وَفِي اسْتِكْبَارِ هَامَانِ  
عِنْدَ التَّنْغَمِ فَكِّي بَغْلٍ طَحَّانِ  
وَأَشْبَهُ النَّاسِ أَخْلَاقًا بِإِنْسَانِ

اعتمد ابن الرومي في هذه الصورة الأسلوب التأليفي الذي يولّد الغلو من جمع معان عديدة في معنى واحد ، فقد مثل ضربه على الطنبور بعواء الكلب الممتزج بأصوات أوتار المندفة ، يضاف إلى ذلك قبح وجهه الذي يشبه قبح القرد ، وابن الرومي يعلم تأثير هيئة المغني على المستمعين لذا هجا وسخر من هيئة هذا المغني الذي ضم إلى هذا القبح الكبر والتعالى ثم يختم أبياته هذه بصورة ساخرة حين شبه فكيه وهو يغني بفكي البغل . يقول الأستاذ محمد حمود : "فتأمل كلمة طحان ، فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هي التي تمت بها أحسن تمام ، لأن السخر لن يستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء الممتع بغلا من بغال الطحانيين العجاف الجياع ، يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخرية وقوة التشبيه" (٢).

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٨٨ .

(٢) ابن الرومي ، الشاعر المغبون ، ص ١١٨، ١١٩ .

لقد كان للقيم نصابها بالنسبة لشاعرنا ، وهو لا يبرح يشكو من افتقادها وعبث معاصريه بها ، وقد تقم على مجتمعه وأناسه لتخليهم عن معنى الإنسان فيهم ، وغدا شعره مرآة لاقطة تنعكس فيها آفات العصر وعاهاته كلها .. إذ لم تكن تطيب له تلك الحياة الفاقدة للكرامة الضائعة الناموس ، لذا أرسل أهاجيه في مجتمعه وأبناء عصره (١).

وهجاء ابن الرومي لفئات المجتمع المختلفة دليل على مراقبته ونقده لشرائح المجتمع ، وكثيرا ما يفتح أعيننا على مثالب ونقاط ضعف في عصره ، لا تبعد كثيرا عن مثالب عصرنا ، ولكن من أين لنا بشاعر ناقد كابن الرومي يُصورها ويبرزها في صورة فنية هادفة؟؟

العربي في كل زمان يتفاخر بلغته ، وفصاحته ، فالعربية لغة القرآن ، ويفهمها كل العرب ، والعرب لم يعرفوا للعربية إلا أسلوبا واحدا قبل اختلاطهم بالعجم ، فالفصحى كانت سجية على كل لسان ، وفي العصر العباسي بعد الاختلاط بالأعاجم ، انتشرت اللكنة ، فكان الشاعر العربي ، يعتز بلغته وفصاحته ، ويسخر ويهزأ ممن يلحن بلسانه . وابن الرومي وإن كان أصله غير عربي ، إلا أن لسانه عربي فصيح ، تنبه لهذه العيوب - اللكنة والعجمة - فهجا أصحابها وعيّرهم بعدم فهم اللغة من ذلك قوله (٢):

وتجَارٌ مثلُ البهائمِ فازوا      بالمُنَى في النفوسِ والأجبابِ  
فيهمُ لُكنةُ النَبِيطِ ولكنَّ      تحتهَا جَاهِلِيَّةُ الأعْرَابِ

التناقض الاجتماعي الذي كان يسير في ظل الحضارة ورفي الحياة في العصر العباسي أتاح الفرصة لاختلاط العرب بغيرهم ، وظهرت نتيجة لذلك آثار سلبية في المجتمع منها انتشار العجمة وتقلد الأعاجم لبعض المناصب في

(١) ايليا حاوي ، فن الهجاء وتطوره ، ص ٥٧٦ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

الدولة ، فغاظ شاعرنا ذلك لأن العرب الفصحاء لامكان لهم في مناصب الدولة .. فلم يحفل بالسلطة وهو يهجو ويظهر مثالب عصره وبنيه ، وقد جمع لهؤلاء المهجويين نقيصتين الأولى تتعلق بلغتهم ولسانهم فهم أعاجم لا يحسنون النطق بالعربية ، والثانية أنهم في الجهل والتعسف وسوء تقدير الأمور كالأعراب الذين لا علم لهم ولادين في الجاهلية .

وأكثر ما يعيب ابن الرومي على صاحب اللكنة قول الشعر وهو في اللغة بليد يقول عنه (١):

لو كان حياً سليمان الذي اعترفت  
له الغواة وألقت بالمقاليد  
أعياه شعر أبي حفص بكنته  
حتى يبلد فيه أي تبليد

والذي يلفت نظرنا في هجاء ابن الرومي هو التأني والتدقيق في عرض صورته ، وأداؤها أداء جميلاً على الرغم من معناها القبيح أحياناً ، وهذا يرتفع بقيمة الهجاء عنده ، يقول في هجاء مغنية بها لثغة في اللسان ، فلا تخرج الحروف من مخرجها الصحيح (٢):

وتحيل الظاء ضاداً فإذا  
هي قالت : عظة ، قالت : عضة

وهذا يدل على أن لشاعرنا أدنا فنية تسمع الجمال وتقدر الفن في كل مصادره .. والغناء من الفنون الشائعة في عصره ، وحين يتنبه إلى عيب في نطق المغنية فهذا يدل على شدة حساسيته ودقة تصويره لعيوب وعاهات إنسان عصره .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

ابن الرومي في هجائه كان يطلب من أناس عصره أن يقدرُوا القيم بذاتها من دون نفعها وريحها ، لأنه رأى أن سبب تدني الأخلاق وفساد المجتمع يرجع إلى فقدان المرء لقيمه وأخلاقه الأصيلة ، يقول في هجاء الشعراء<sup>(١)</sup> :

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ مَسَبَّةً  
مِنَ اللَّهِ مَسْبُوبٌ بِهَا الشُّعْرَاءُ  
وَمَا ذَاكَ فِيهِمْ وَحَدَهُ بَلْ زِيَادَةٌ  
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُ الْأَمْرَاءُ

ابن الرومي في هذه الصورة يهجو آفة رأى أنها شاعت في مجتمعه وهي آفة الكذب . فهذه آفة اجتماعية رذيلة ، استمد شاعرنا معانيه في هذه الصورة من قوله تعالى : {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} (٢) . والظاهر من الأبيات أن مارمى إليه شاعرنا هو هجاء آفة الكذب بدليل ما ألحقه في البيت الثاني ، بأنهم لا يكتفون بقول ما لا يفعلون ، بل يقولون كذلك في مدائحهم ما لا يفعله الأمراء فليس من المعقول أن يطلق شاعرنا الهجاء لكل الشعراء وهو واحد منهم . ولكن هجاءه كان لصفة الكذب ، فهذه رؤية نقدية من ابن الرومي .

وقد تعددت الصور التي هجا بها آفة الكذب فمن ذلك قوله (٣) :

نَبِئْتُ أَنَّ رِجَالًا لَا خَلَقَ لَهُمْ  
وَلَا مَفْتَشٍ صِدْقٍ عِنْدَ تَفْتِيشِ  
مُسَلِّطِينَ عَلَى الْأَحْرَارِ فَحَشَهُمْ  
وَنَاكِلِينَ عَنِ الْقَوْمِ الْمَفَاحِشِ  
مِنْ كُلِّ مَقْبُوحٍ غَيْبِ الْوُدِّ ظَاهِرُهُ  
مَا شِئْتَ مِنْ حَسَنِ تَزْوِيقٍ وَتَرْقِيشِ  
يُنْفِشُونَ حَقِيرًا مِنْ أُمُورِهِمْ  
وَلَا تَرَى قَدْرَهُمْ فِي وَزْنِ تَنْفِيشِ

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .

وهنا يبدو ابن الرومي حَنِقًا على إنسان عصره ، لما يتصف به من رذائل في مقدمتها الكذب والبهتان ، والتحرش بالآخرين عن طريق إظهار مساوئهم وتحري القبيح من أعمالهم ، ومن ثم التشهير بهم ، ولعل شاعرنا في هذه الصورة يعاني من سخرية بعض معاصريه من شعره ، وهم لا يحسنون سوى الكذب واتهام الغير بالفحش . يؤكد هذا قوله في نص آخر (١):

وَقَدْ كَانَ مِمَّنْ يَشْهَدُ الزُّورَ مَرَّةً  
بِأَنْزَرِ مَنْزُورٍ وَمَا ذَاكَ بِالطَّلِقِ  
أَحَلَّ حَرَامَ الْمَدْحِ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ  
فَجَوْزِي حَرْمَانًا فَلَمْ يُؤْتَ مِنْ حَذَقِ

هكذا يصور ابن الرومي تخلي معاصروه خاصة منهم الشعراء عن قيمة إسلامية عظيمة - قيمة الصدق - سواء في الحديث أو الشهادة وهذا يدل على ضعف عام في الدين إبان عصره ، وقلة اهتمام الناس ورعايتهم له ، حتى تفتت رذيلة الكذب وباتت كما يقول ابن الرومي حرام أحله أناس عصره .

"التهجاء العميق المشحون بقوة عاطفية ذات لون نقدي ، يترك بالنفس مرارة وأسى ، أكثر بكثير من الأساليب القديمة القائمة على الألفاظ الشنيعة ، والأسلوب المباشر" (٢). وابن الرومي كان كثيراً ما يعتمد هذا التهجاء وهو يكشف لنا عن حقيقة مجتمعه ومعاصريه ، يقول مظهراً بعض عيوب معاصريه (٣):

ظَلَمَ الشَّعْرُ صَاعِدًا ، وَكَذًا كَمْ  
ظَلَمْتَهُ الْمُلُوكُ بِالتَّفْرِيسِ  
بَلْ هُوَ الظَّالِمُ الَّذِي ظَلَّ يَرْقَى  
رَاكِبًا مَرَكَبًا مِنْ التَّدْلِيسِ  
وَتَوَلَّى وَزَارَتَيْنِ فَأُضْحَى الـ  
حَقُّ غَضْبَانَ ظَاهِرُ التَّعْيِيسِ

فهذه الصورة لا تمثل واقع المهجو بقدر ما تمثل واقع عصره ، فالشاعر يتصدى للهجو ظاهراً ، فيما يثلب واقع عصره ضمناً ، عصره الذي لا يحل

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ .

(٢) عبد الحميد جیده ، التهجاء عند ابن الرومي ، ص ٣١٦ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٩٧ .



فيه المرء المحل اللائق به ، حيث عمّ الزيف والنفاق في ادعاء المرء ماليس له ، دون أن يرفض المجتمع ذلك ، بل قد يُطمع ذلك بعض الفئات أن يجاهروا بالظلم ، ومنهم فئة التجار الذين تعرض لهم ابن الرومي فقال (١):

رَبِّ أَطْلِقْ يَدَيَّ فِي كُلِّ شَيْخٍ      ذِي رِيَاءٍ بِسَمْتِهِ فَسْكَونُهُ  
تَاجِرٍ فَاجِرٍ جَمُوحٍ مَنْوَعٍ      يَرهِقُ النَّاسَ فِي اقْتِضَاءِ ديونِهِ  
جَمَعَ المَالَ بِالْعَدَالَةِ فِي الظِّ      نَطَاهِرٍ وَالْمَوْبِقَاتِ مِنْ مَمَكُونِهِ

ابن الرومي من خلال هذه الصورة وغيرها في هجاء ونقد المجتمع يعطينا صورة حية من مجتمعه ، ويعبر عن عيوب هذا المجتمع بطريقة فنية ، وقد كان إنساناً عندما تحدث عن عيوب المجتمع والعصر الذي عاش فيه ، واستعمل هجاءه ليدافع عن قيم الخير والحق آخذاً على أيدي المجرمين ، وابن الرومي تجاوز في هجائه الاجتماعي ، كل ما هو متوارث وتقليد ، فشعره عام لجميع الناس فكان هجاؤه الاجتماعي رسالة أخلاقية ، تحدث فيها إلى مجتمعه وأعلن عن نقائصه من أجل تقويمها والعمل على ترقى الإنسان في سلم الحضارة ، بأسلوب فيه قوة التصوير العاطفي المؤثر ، حين يصور مأساة الإنسان في المجتمع العباسي بل وفي كل مجتمع في أي مكان أو زمان (٢).

فهذه آفات وعلل تصيب الناس في المجتمع المريض ، ومجتمع شاعرنا كان مريضاً ، انتشرت فيه المفساد وساد الظلم ، حتى نقل إلينا ابن الرومي فقدان العدالة الاجتماعية في عصره من خلال أهاجيه للتجار والحجاب وذوي السلطة والنفوذ .

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٩٠-٢٩١ .

(٢) عبد الحميد جیده ، المرجع السابق ، ص ٣١٦، ٣١٩ بتصرف .

عصر ابن الرومي عصر منافسة في كل شيء ، من ذلك المنافسة في الشعر والصراع في جودته ، في زمن طغت فيه مظاهر الحضارة وشاعت وسائل اللهو من غناء وطرب وما إليها ، وهذه المنافسة لا تقوم إلا على الشعر والتندر به ، فهو معدنها الأصيل ، ولم يفت ابن الرومي أن يهجو الشعراء المعاصرين له ويعيب شعرهم . يقول (١) :

وَلَهُ أَبْيَاتُ شِعْرِ	أَلْفَتْ زَوْجًا وَفَرْدًا
جَمَعَ الْأَغْرَابَ طُرًّا	فِي قَوَائِيهِنَّ عَمْدًا
وَحُرُوفَ الْمُعْجَمِ الْخَلْفَةَ	أَحْصَاهُنَّ عَدًّا
سَرَدَ الْكَفَاتِ وَالْمِيمَاتِ	وَالدَّالَاتِ سَرْدًا
وَتَرَى الْمُخْفُوضَ مِنْهَا	يَطْرُدُ الْمَرْفُوعَ طُرْدًا

هذا المهجو في نظر ابن الرومي لاعهد له بالشعر وقواعده وكل مايفعله أنه يجمع حروف المعجم ويسردها وهو يوهم نفسه أنه يقول شعرا . ثم يهجو ابن الرومي معاصريه ويتهممهم بقلة الذوق وعدم الفهم حين يقرون مثل هذا النظم السخيف ويتجه لشاعر منهم فيقول (٢) :

كُلَّ شِعْرِ جَهَدَتْ نَفْسَكَ فِيهِ	وَتَكَلَّفْتَ نَظْمَهُ تَفْقِيحُ
لَمْ يَقُلْهُ إِلَّا مَوْطِنَ نَفْسِ	أَنَّهُ عِنْدَ بَثِّهِ مَصْفُوعُ
فَاتْرُكْ الشَّعْرَ وَارْتَدِّعْ مِنْ قَرِيبِ	وَاعِدُّ عَنْهُ إِلَى الَّذِي تَسْتَطِيعُ

يعد هجاء شاعرنا سلاحاً للدفاع عن القيم ، في عصر لا يرحم ولا يقدر القيم ، وابن الرومي ينبري بهجائه يدافع عن تلك القيم ويرى أن تقديرها يكون بأداء الأكفاء لها لا من هم دونها ، والشعر عنده قيمة ليس لأي أحد قدرة عليها ، وحين يرى هؤلاء المتشاعرين يتكلفون نظمه لا يتردد في هجائهم انتصاراً للجمال ومطالبة بتحقيق التقدم والرقى للإنسان في سلم الحضارة ، في

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

في ذلك يقول إيليا حاوي : "أنه يطلب من الناس أن يقدرُوا القِيم بذاتها من دون نفعها وربحها"<sup>(١)</sup>.

وعندما يرى منظراً قبيحاً ، أو يسمع صوتاً كريهاً ، أو حتى كلاماً ثقيلاً كأولئك المشاعرين الذين يتكلفون نظم الشعر، كل ذلك كان يثير شاعرنا ويستفزه ويرى فيه مناقضاً للجمال الذي أحبه وتصبّاه ، فلا يملك نفسه من هجاء كل ذلك منتصراً للجمال ومعرضاً بالقبح وأهله في شتى صورته وأشكاله .

والشاعر يدرك أن الهجاء لابد أن يصدر عن ثقافة اجتماعية ، ومصادر يعرف منها سقطات الناس وعوراتهم ، وقد كان في هجائه يؤرخ للتطور الاجتماعي في عصره .. وفي بعض صور هجائه تبدو لنا سعة معارفه وثقافته ، يقول مصوراً حياة بعض مدعي العلم ومظهرها لمثالب إنسان عصره الجاهل<sup>(٢)</sup>:

وَتَلَبَّسَتْ فَرُوءَ الْفَرَاءِ	لَوْ تَلَفَّتْ فِي كِسَاءِ الْكِسَائِيِّ
سَيَبُوءِيهِ لَدَيْكَ رَهْنُ سَبَاءِ	وَتَخَلَّتْ بِالْخَلِيلِ ، وَأُضْحَى
وَدِ شَخَّصًا يُكْنَى أبا السَّوْدَاءِ	وَتَكُونَتْ مِنْ سَوَادِ أَبِي الْأَسِّ
العلم إلا من جُمَلَةِ الْأَعْبِيَاءِ	لَأَبَى اللَّهُ أَنْ يَعُدَّكَ أَهْلًا

اعتمد ابن الرومي في هذه الصورة على ألوان البديع من جناس وطباق . مع اقتداره على انتقاء الألفاظ ، بحيث لا يظهر للتكلف فيها أثراً .. وهو يعيب على بعض معاصريه الجهل وسوء الفهم . مستعرضاً الأعلام

(١) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٥٤٦ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٨٧ .

المشهورين في علوم اللغة والأدب ، وهو يرى أن من الجهل ادعاء العلم ،  
كما أن من الجهل كثرة الحفظ دون وعي أو فهم ، يقول في ذلك (١) :

فإن يقل: إنني رويتُ فكالدَّفْ	تَرَ جَهْلًا بِكُلِّ مَا عَتَقَدَهُ
أَنشُدْتَهُ مِنْطَقِي لِيَشْهَدَهُ	فَغَابَ عَنْهُ عَمَى وَمَا شَهَدَهُ
وَقَالَ قَوْلًا بَغِيْرَ مَعْرِفَةٍ	إِفْكًَا فَمَا حَلَّ إِفْكَهُ عَقَدَهُ
وَلَا أَنَا الْمَفْهَمُ الْبَهَائِمِ وَالطَّ	يِرَ سَلِيْمَانُ قَاهِرَ الْمَرْدَةَ
مَا بَلَّغْتَ بِي الْخَطُوبُ رُتْبَةً مَنْ	تَفْهَمُ عَنْهُ الْكِلَابُ وَالْقِرْدَةَ

هنا يجرد ابن الرومي مهجوه من أهم قيمة في عصره وهي قيمة العلم  
والفهم ، فمعروف أن العصر العباسي عصر ازدهار العلم واتساع الثقافة ، بل  
هو عصر تنافس في الأدب والعلم ، فمن أشد ما يوصم به الانسان ويهجا به  
- في عصر بلغت العلوم فيه مرتبة عظيمة - أشد ما يهجا به الجهل .

وشاعرنا يشبه مهجوه في كثرة حفظه دون فهم ما يحفظ بالدَّفتر الذي  
تُمْلأ أوراقه بالعلوم دون أن يعي هو مافيها ما ثم يشبه أفراد عصره الجهلة  
بالبهائم التي لاتفهم ما بل ويجعل منهم الكلاب والقردة نكاية بهم وتندرا  
واستخفافا بعقولهم .

الذي دفع شاعرنا إلى مثل هذا الهجاء أن بعضهم كان يستهين بشعره ،  
فتألم لذلك ، حين رأى من ليس بأهلٍ للنقد والأدب ينتقد شعره . فثار وكان  
هجاؤه هو المنتفس الوحيد لغضبه وثورته .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

التطور الفني لهجاء ابن الرومي يتضح في الهجاء الساخر الذي استهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه ، وقد اعتمد شاعرنا على فن أصيل في رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية ، وقد استعان فيه الشاعر بكل معارف عصره وبجميع عناصر الفكاهة والهزل الشائعة بين الناس في ذلك العصر منها قوله في السواد<sup>(١)</sup>:

وَجْهَكَ . يَا جَعْفَرَ . فِي قُبْحِهِ  
كَأَنَّمَا تَأْوِي إِلَيْهِ الدُّجَى  
مَحَلُّوْكَ أَحْسَبُ دِيَابِجَهُ  
أَوْلَىٰ مِنَ الْعَوْرَةِ بِالسَّتْرِ  
إِذَا هِيَ انْفَضَّتْ عَنِ الْفَجْرِ  
أَسْفَفْتَهُ مِنْ حُمَمِ الْقِدْرِ

فابن الرومي يرى القبح عورة . كما يرى في السواد قبح ، وله في ذلك صور كثيرة حسبنا منها ما يدل على موقفه من القبح . يقول في وجه قبيح .. مصورا نواحي القبح فيه من لون إلى نمش إلى غيره ، يتهم بصاحبه ويقول عنه ليس أهلا للعشق . ويتساءل في سخرية بماذا يمكنه أن يُعشق<sup>(٢)</sup>:

لَيْتَ شِعْرِي بِمَا تَظُنُّكَ تُصْبِي  
أَبْوَجْهِ كَأَنَّهُ وَجْهُ قَرْدٍ  
أَيُّ حِرْزٍ فِيهِ مِنَ الطَّيْرِ أَنْ لَوْ  
فِيهِ خَدَّانِ أَنْمَشَانِ بَعِيدَا  
نَمَشَةٌ فَوْقَ صُفْرَةٍ فَتَرَاهُ  
أَمْ بِقَدِّ كَأَنَّهُ قَدِّ زِقٍّ  
قَلْبٌ وَدَانٌ يَا كَسِيرَ الْجَنَاحِ؟  
حَائِلُ اللَّوْنِ خَامِدُ الْمِصْبَاحِ؟  
جَعَلُوهُ فَزَاعَةً فِي قِرَاحِ  
نِ لَعَمْرِي عَنِ حُمْرَةِ التَّفَاحِ  
كُونِيمِ الذَّبَابِ فِي اللُّقَاحِ<sup>(٣)</sup>  
زَيْدٌ عَرَضًا بِبَطْنِكَ الْمُنْدَاحِ

مَعَشْرٌ أَشْبَهُوا الْقُرُودَ وَلَكِنْ  
خَالَفُوهَا فِي خِفَّةِ الْأُرُوحِ

من يتأمل هذه الصورة يرى كيف استطاع شاعرنا أن يخرج بوصف يكاد يكون متكاملًا لفئة من الناس في عصره - الخصييان - فبعد أن استنكر عليهم ولعهم بالمغنيات ، أخذ يلتقط عيوب أحدهم التقاطا سريعا ناقدا ،

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٦٤، ٦٣ .

(٣) الونيم : سلح الذباب ، اللقاح : نبت يشبه الباذنجان .

فشوّه تشويهاً غريباً ، ولم يتركه إلا بعد أن جعل منه سخرية للناس ،  
ومصدراً للضحك ثم أجمل ذلك بأن عقد وجه شبه بين فئة الخُصيان وبين  
القرود ، وجعل السمة الوحيدة التي يمتاز بها الخُصيان عن القرود هي خفة  
الروح .

ابن الرومي في هجائه يقدم لنا نماذج إنسانية موجودة في مجتمعه  
لايلصق بها عيوباً من خياله ، ولكنه يرى أنها بالفعل تحمل كل نقائص  
عصرها أو نقائص الإنسانية بوجه عام ، ويعرضها لنا بطريقة تمتعنا ونطرب  
لها ، من ذلك قوله (١):

وَصَلَعٌ فِي وَاحِدٍ؟	أَقْصَرٌ وَعَوْرٌ
نَاهِيكَ مِنْ شَوَاهِدٍ	شَوَاهِدٌ مَقْبُولَةٌ
مُسْتَعْمَلُ الْمَقَافِدِ	تُخْبِرُنَا عَنْ رَجُلٍ
حَتَّى قَائِمًا كَقَاعِدٍ	أَقْمَاهُ الْقَفْدُ فَأَضَّ

تُرى أكان ابن الرومي بهذه الصورة الساخرة الهازئة ، ينتقم من  
الناس ، أم من القبح في أي صورة كان؟ ابن الرومي حين يتتبع العاهة  
الجسدية ويقرنها بالعاهة النفسية ، فهو يجسد بها حقارة النفس ونذالتها ،  
فالمهجو هنا لم يخلق قميئاً ، ولكن كثرة الصفح على قفاه جعله على هذه  
الصورة ، وقد جمع ابن الرومي في صورته هذه الإبداع الفني إلى السخرية  
التي لاحد لها ، إلى العمق في الأداء . كما في الصورة التالية (٢):

دَحْدَا حَةُ الْخَلْقَةِ حَدْبَاؤُهَا	قَامَتْهَا قَامَةٌ فَقَاعَةٌ
قَصِيرَةٌ الْقَامَةِ مَقْصُوعَةٌ	لِلْقَمَلِ فَوْقَ الطَّبْلِ قَصَاعَةٌ
تَطْفُرُهَا مِنْ قِصْرِ فَاؤَةٍ	...

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

مَشُؤُومَةٌ لِلْخَيْرِ حَصَادَةٌ  
تَضِلُّ فِي السَّرْبَالِ مِنْ قِلَّةٍ  
لو أَنَّهَا مِلْكِي وَلِي ضَيْعَةٌ  
أَقْبَحُ بِذَاكَ الْخَلْقِ مِنْ مَنْظَرٍ

لَكِنَّهَا لِلشَّرِّ زَرَّاعَةٌ  
كَصَعُوقَةٍ فِي جَوْفِ قَفَّاعَةٍ (١)  
نَصَبْتُهَا لِلطَّيْرِ فزَّاعَةٌ  
وَزَعٌ فِيهِ الْقُبْحُ أَوْزَاعَةٌ

ابن الرومي في هذه الصورة يستخدم العاهة - القصر - لتصوير عاهة المهجو النفسية في سخرية وقسوة واستهانة بالمهجو ، فهو يجرده من كل ما يصله بانسانيته ، حتى يعده عاهة تشوه الحياة وتسيء إلى الوجود ، وهذه مقدرة شاعرنا الفنية في إحالة العاهات إلى رسوم كاريكاتورية ضاحكة ، وقد جمع في هذه الصورة للمهجو أغلب صفات الحقارة ، وأظهر العيوب الجسدية حتى تمني أن لو كان له ضيعة وكانت هذه الإنسنة ملكة ليجعل منها نصبا - خيالا - يفزع الطيور فلا تقع على أرضه .

كان لابن الرومي قدرة على التهكم ، وبراعة في الخيال لابتداع الصور المضحكة اللاذعة ، ودقة في التصوير ، تتناول القبح في أخفى مظاهره ، وتعرضه في أمانة تفضح عيوبه بجلاء (٢). فعين ابن الرومي الناقدة وروحه الساخرة الفكهة تتمثلان في مواطن كثيرة من هجائه ، يقول في هجاء أصلع (٣):

يَأْيُهَا الْهَارِبُ مِنْ دَهْرِهِ  
أَدْرَكَكَ الدَّهْرُ عَلَى خَيْلِهِ  
يَسُوقُ مِنْ نَفْرَتِهِ طُرَّةً  
إِلَى مَدَى يَقْصُرُ عَنْ ثَيْلِهِ

(١) قفاعة : واحدة قفاح : نبات متفقع كالقرون صلابة إذا يبس ، يقال له كف الكلب .

(٢) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٥٣٢ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٥ ، ص ١١٧ .

فوجهه يأخذ من رأسه  
مثل الذي يرقع من جيبه  
أخذ نهار الصيف من ليله  
وهياً بما يأخذ من ذيله

هذه الصورة وصل فيها الفن إلى ذروته ، فهو يصف هذا الإنسان الذي يهرب من دهره عندما يغطي صلعته بشعر مؤخرة رأسه ، وهو بذلك يدل على عجز الإنسان عن تغيير الواقع ، فهو لا يستطيع أن يهرب من الدهر فالدهر يلحقه أينما ذهب ويظفر به ، وقد وصل ابن الرومي إلى قمة الجمال الفني في البيت الثالث ، فخياله الحصب هو الذي أتى بهذه الصورة الجميلة ، فقابل بين الوجه والنهار من ناحية البياض وبين الشعر والليل من ناحية السواد ، ثم بين نهار الصيف الطويل ووجه الأصلع الذي يكبر تجاه رأسه ، وبين ليل الصيف الذي يقصر ويتراجع كما تتراجع إلى الوراء شعيرات هذا الأصلع . فاستطاع شاعرنا أن يخلق هذه المقابلات بخياله الخلاق النابض بالحس والحياة وأتى بالوصف كالخيال دقيقاً حياً نابضاً بالحياة ، وكوّن لنا لوحة فنية خالدة<sup>(١)</sup>.

وابن الرومي ينتقم للجمال مما يشوّهه . يقول في قينة قبيحة<sup>(٢)</sup> :  
لها جبهة فيها سطوح نصيف  
كان بقايا المسك في صحن خدها  
وصدع لها غالي بنصف رغيف  
بقايا سماد في جدار كنيف

وهذه الصورة دليل على براعة شاعرنا التي تكون في سخره حين يشبه صورة محسوسة ، أو يخلق من خياله صورة معنوية ، فهو يحكم التشبيه ، كما يحكم خلق الصورة . وهو في هجاء هذه القينة ، وغيرها من صوره الساخرة والمشوهة ، أظهر لنا قدرة عجيبة في التصوير ، دفعته إلى رسم تلك الصور في الغالب حدة في شعوره بالجمال ، جعلته يشمئز ويشور لمراى كل قبح ، وذلك لفرط إحساسه بالجمال ونفوره من القبح ، لأن الجمال يولد القوة في النفس ، بينما الضعف يكون من مصادره القبح .

(١) عبد الحميد جیده ، الهجاء عند ابن الرومي ، ص ٣٨٢، ٣٨٣ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٦٢، ٢٦٣ .



ابن الرومي في هجائه يُخرج من يذمه عن نطاق الإنسانية ، انظر إليه يشبه المهجو بالكلب ، ثم يفاضل بينهما ، فإذا للكلب صفات تميزه عن المهجو ، كل ذلك بأسلوب ساخر وهجاء موجه لاذع يقول (١):

وَجْهَكَ يَا عَمْرُو فِيهِ طُولُ	وَفِي وُجُوهِ الْكِلَابِ طُولُ
فَأَيْنَ مِنْكَ الْحَيَاءُ قَلَّ لِي	يَا كَلْبُ وَالْكَلْبُ لَا يَقُولُ
مَقَابِحَ الْكَلْبِ فِيكَ طَرًّا	يَزُولُ عَنْهَا وَلَا تَزُولُ
وَفِيهِ أَشْيَاءُ صَالِحَاتٍ	حَمَاكَهَا اللَّهُ وَالرَّسُولُ
وَالْكَلْبُ وَافٍ وَفِيكَ عَدْرٌ	فَفِيكَ عَن قَدْرِهِ سَفُولُ
وَقَدْ يَحَامِي عَنِ الْمَوَاشِي	وَمَا تَحَامِي وَلَا تَصُولُ
وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ سُوءٍ	قَصَّتْهُمْ قِصَّةٌ تَطُولُ
وَجَوْهَهُمْ لِلْوَرَى عِظَاتٌ	لَكِنَّ أَقْفَاءَهُمْ طُبُولُ

فهذا المهجو فقد كل ما يربطه بالإنسانية من خلق ، فهو لئيم غادر ، ورث اللؤم عن آبائه وأجداده ، وهو عالة على الوجود ، وفي هذا الهجاء يجيئ إلينا أن ابن الرومي ينحدر إلى أعماق المهجو ، فيدرس نفسه ، وينقل عنها هذه الصورة الشوهاء ، فكأن التشويه في نفس المهجو ، وابن الرومي لا يُعنى بمدى جدارة المهجو بالهجاء ، وإنما يصب جهده في تجريده من كل القيم حتى لهو فارغ من المعنى ، ولهو زيادة على الحياة لا مكان له فيها مثل الطلل ، أو البيت الذي لا معنى له في القصيدة ، بل هو زيادة تشوّه القصيدة مثل ما يشوّه المهجو الحياة ، وقد لجأ كعادته إلى تفسير المعنى وتقليبه على كل وجوهه (٢).

مَا إِنْ سَأَلْنَاكَ مَا سَأَلْنَا	إِلَّا كَمَا تُسْأَلُ الطَّلُولُ
مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُ	مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُ
بَيْتٌ كَمَعْنَاكَ لَيْسَ فِيهِ	مَعْنَى سِوَى أَنَّهُ فُضُولُ

(١) الديوان ، ج ٥ ، ص ١٨٧ .

(٢) إنعام الجندي ، دراسات في الأدب العربي ، ص ١٠٦ بتصرف .

فابن الرومي شديد السخرية ، تواتيه الصورة الفنية ، فتزيد من قسوة هجائه ، وتعيته الكلمة التي ترد في مكانها من المعنى . يقول في نفس المعنى السابق (١) :

مَا أَنْتَ إِلَّا خِيَالٌ طَافَ طَائِفُهُ      وَلَا هَجَائِيكَ إِلَّا هَجْرٌ وَسَنَانٌ  
قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُ شَيْئًا فَأَهْجُوهُ      حَتَّى أَزَالَ ظُنُونِي فِيهِ حُسْبَانِي

فهذا المهجو تجرّد من كل قيمه وفضائله حتى غدا كالحيال الذي لا قيمة له ، وابن الرومي يترفع عن هجائه لأنه لا يراه شيئاً ، وهو بذلك يجرح مهجوه حين يرى أن الهجاء فيه خسارة وهذا منتهى الطعن والازدراء .

العيوب الخلقية منها ما يتصل بالشكل العام للإنسان ، من قصر ولون ، وعيب في الوجه ، أو الأنف ، وهي عند ابن الرومي نماذج عديدة ووفيرة ولكننا سنجتزئ بعض صورته من هجاء صاحب أنف ضخمة يقول (٢) :

عَلَيْكَ وَجْهُ كَسَاهُ اللَّهُ لَعْنَتَهُ      كَأَنَّ خُرْطُومَهُ خُرْطُومُ خَنْزِيرٍ

الإنسان يركز على الوجه لأنه مركز الجمال والهيبة ، ومركز الوجه الأنف ، وهذه خطورة الأنف في هجاء ابن الرومي فهو لا يرمز بالأنف إلى الأنفة وإنما إلى قبح الشكل ، فإذا تحمل إنسان ما وجه هذا المهجو ثم حدثه أو جالسه فالطامة الكبرى من ذلك الأنف المشوه كل ذلك يصوره شاعرنا بسخرية فيقول (٣) :

وَإِذَا جَلَسْتَ آذَى خَشَا      مَكَّ مَنْ يَضُمُّ الْمَجْلِسُ  
وَإِذَا نَهَضْتَ كَبَا بِوَجْدٍ      هَكَ لِلْجَبِينِ الْمِعْطَسُ  
فَالْأَنْفُ مِنْكَ لِعَظْمِهِ      أَبْدَأَ لِرَأْسِكَ يَعْكِسُ  
إِنَّ كَانَ أَنْفَكَ هَكَذَا      فَالْفِيلُ عِنْدَكَ أَفْطَسُ

(١) الديوان ، ج ٦ ، ص ٢٠١ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٦٣ .

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

مقدرة ابن الرومي الفنية أتاحت له أن يُعنى بالوصف في أهاجيه كما استطاع أن يستقصي أوصاف المهجوين معاينة أو خيالا ، ومن ثم الوصول إلى معاني جديدة<sup>(١)</sup>. فمن ذلك قوله في صاحب الأنف الطويل<sup>(٢)</sup>:

سَمِعْتُ بَعْمَرُو الْجِنِّي قَدَمًا      وَلَمْ أَرَهُ يَكُونُ مَعَ الْأَنْبِيسِ  
فَأَظْهَرَهُ الْإِلَهُ لَنَا بِعَمْرُو      أَبِي الْخَرْطُومِ ذِي الْأَنْفِ الرَّئِيسِ  
نَفِيسٌ فِي الْأَنْوْفِ عَلَى خَسِيسٍ      وَقَدْ تَجِدُ النَّفِيسَ عَلَى خَسِيسِ  
إِذَا عَيْنَاكَ قَوِيلَتَا بِعَمْرُو      ذَكَرْتَ حَدِيثَ طَسْمٍ أَوْ جَدِيسِ

وهكذا فقد تبين من هذه الصورة وغيرها أن التصوير الفني عند ابن الرومي لا يخلو من الذكاء ، يسعفه خيال متحرك جبّار ، له قوة على الإيحاء تضمّن القليل من الألفاظ عوالم من المعاني لاتحد . يقول<sup>(٣)</sup>:

فِي وَجْهَهَا مِنْ أَنْفِهَا رُؤْشَنٌ      أَمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ؟  
أَقْسَمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ لِي أَنْفُهَا      قَطَطْتُ مِنْ خَرْطُومِهِ قَطَّةً

ابن الرومي في هذا النص لم يقصد إلى أية إثارة فنية ، وإنما قصد تسجيل المشهد الذي أمامه ، ولكن في شيء من التهكم والسخرية حتى أقسم لو كان له أنفها لقط منه قطعة ، أي لطوله لا يرضى أن يتركه على ما هو عليه لأنه يرى في طوله قبحاً لا يطيقه ، ويتعجب من ترك صاحب الشرطة لها ولأنفها .

لقد توافرت في ابن الرومي مقدرة على التصوير ، ظهرت في هجائه فهو يخلق صوراً جديدة ، ويبتكر زوايا معينة يركز عليها . امتاز معها بقدر كبير من الحساسية ، والمهارة في تركيب تلك الصور ، وتأليفها ففي الإئتلاف

(١) عبد الحميد جیده ، الهجاء عند ابن الرومي ، ص ٣٤٨ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٦٦ .

جمال . يقول في ذم الروائح الكريهة في مهجويته (١):

تَنَفَّسَ فِي وَجْهِهِ فَكَدَّتْ أُمُوتٌ      وَأَعْرَضَ عَنِّي سَاعَةٌ فَحَيِّتُ  
وَأَتَنَّنِي حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنِّي      وَحَقَّقِمَا يَا صَاحِبِي خَرَيْتُ

فهذا ابن الرومي حين يلتقط نواحي النقص في هجائه ويلج عليها بريشة فنان ساخر ، فقد بالغ في وصف سوء رائحة فم هذا المهجو حتى كاد يموت حين تنفس في وجهه ، وعد انصرافه عنه حياة له .. وكأنه ينفي عن مهجوه الثقافة الإسلامية أو عدم اتباع تعاليم الدين الذي أمرنا بالنظافة في كل شيء وحض على استخدام السواك لتطهير الفم وتطيب رائحة النفس . ولا يكتفي بذلك بل نراه في صورة أخرى يهجو مغنية فيصف رائحتها الكريهة وبتهمها بالقدارة والنجاسة :

بَخْرَاءُ، وَقِصَاءٌ، فِي مَغَابِنِهَا      نَنْ "مَجِيفٌ" ، فَكَلَّهَا عُدْرَهُ (٢)  
لَا تَغْسِلُ الدَّهْرُ كَفَهَا قَدْرًا      فَكَفَّهَا طَوْلَ دَهْرِهَا غَمْرَهُ  
تَحْرَمُ الْمَاءَ مِنْ نَجَاسَتِهَا      فَهِيَ . يَدَالِدُ الدَّهْرُ كَلَّهُ . ذَفْرَهُ (٣)

فليس من الضروري أن تكون العاهة جسمية ، بل ربما كانت عاهة معنوية ، كما عرض لنا ابن الرومي في الصورة السابقة ، وغرضه من كل ذلك هجاء النموذج وتصويره تصويراً ساخراً ، وتشريحه بطريقة فنية تبعث على الضحك .. يقول في مغنية جمعت العديد من صور القبح :

كَنَزَ اللَّهُ فِي كُنَيْزَةٍ نَتْنًا      خَالِصَ النَّوْعِ لَيْسَ مِمَّا يُغَشُّ  
بَخْرٌ يَصْدَعُ الصَّفَا، وَخُشَامٌ      وَصَنَانٌ ، فَإِنَّمَا هِيَ حَشٌّ (٤)

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

(٢) البخراء : التي تصدر من فمها رائحة كريهة .

الوقصاء : قصيرة العنق .

العذرة : ببس النجو .

(٣) ذفرة : رائحة كريهة . انظر الديوان ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

(٤) الصنان : الرائحة الكريهة ، الحش : المرحاض .

فَإِذَا مَا تَحَدَّثَتْ أَوْ تَغَنَّتْ      طَفِقَتْ أَنْفُ النَّدَامَى تَخَشُّ  
 رِيحَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ رِيحُ مَيِّتٍ      بَاتَ فِي الْقَبْرِ ثُمَّ أَبْدَاهُ نَبَشُ  
 تَنَفَّرُ الْأَنْفُسُ السَّوَائِنُ مِنْهَا      حِينَ تَدْنُو فَإِنَّمَا هِيَ وَحْشٌ (١)

أرأيت كيف يثار شاعرنا للجمال في شتى صوره حين يهجو القبح أيا  
 كان مصدره . فهذا نابع من شخصيته التي تكره القبح وتنشد الجمال في كل  
 شيء والتي يستحيل أن تسكت على مالاترضاه .

---

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ .

من الظواهر الاجتماعية التي لم يرض عنها ابن الرومي وهاجمها في شعره قلة التدين ، وقد ابتلي في عصره بأناس يطيلون لحاهم ويطلقونها إظهارا للورع وإخفاء للنوايا الخبيثة ، فهجاهم وشهر بهم من ذلك قوله (١) :

إِنْ تَطُلْ لِحْيَةَ عَلِيٍّ وَتَعْرُضْ  
عَلَّقَ اللَّهُ فِي عَذَارِيكَ مِخْلَةَ  
أَلْقَهَا عَنْكَ يَاطْوِيلَةَ أَوْ لَا  
لِحْيَةَ أَهْمَلْتَ فَسَأَلْتَ وَفَاضَتْ  
فَاتَّقِ اللَّهَ ذِي الْجَلَالِ وَغَيْرِ  
أَوْ فَقَصِّرْ مِنْهَا فَحَسْبُكَ مِنْهَا

فَالْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ  
وَلَكِنَّهَا بَغْيِرٍ شَعِيرِ  
فَاحْتَسِبْهَا شَرَارَةً فِي السَّعِيرِ  
فَالِئْهَا تَشِيرُ كَفُّ الْمَشِيرِ  
مُنْكَرًا فِيكَ مُمْكِنُ التَّغْيِيرِ  
نِصْفُ شَبْرٍ عَلَامَةٌ التَّذْكِيرِ

اعتمد الشاعر على لفظي "مخلاة" و"حمار" اللتين تمثل كل منهما صورة في غاية القبح والزراية . فصاحب اللحية الطويلة التي لادين تحتها ولاخلق بل رياء وشهرة-حمار-لأنه يحترم نفسه بكبر لحيته وكذلك الذين يحترمونه ويتهيبونه في نظر شاعرنا أغبياء مثله ، لأن هذا المطيل للحيته وهؤلاء المحترمون له اقتصروا في فهم الرجولة وقيمة الإنسان على مظهر خارجي يقترب به إلى الحمار ذي المخلاة ، وقد عرض ابن الرومي هذه المعاني بأسلوبه التفصيلي الساخر ، فذكر شبه المخلاة باللحية ، لكنه أردف بملاحظة كان يراها كما يقول إيليا حاوي : ضرورة في أسلوبه الجامع الواضح ، إن مخلاة هذا المهجوليس فيها شعير ، وهذا أسلوبه الذي يتميز بالتقاط اللمع والجزئيات ، فالشعير لا يذكر مع الإنسان ، ولكنه ذكره امتدادا للسخرية والتحقير - كما أن كف المشير ملاحظة حسنة مشهودة ، توصل بها الشاعر ليمثل معنى الغرابة والترويع (٢) . ونراه يتصدى للمعنى ذاته في صورة أخرى فيقول (٣) :

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

(٢) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٥٠١ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

وَلِحْيَةٍ يَحْمِلُهَا مَائِقٌ	مِثْلُ الشَّرَاعِينَ إِذَا أُشْرِعَا
تَقْوَدُهُ الرِّيحُ بِهَا صَاغِرًا	قَوْدًا عَنيفًا يَتَعَبُ الْأُخْدَعَا
لَوْ غَاصَ فِي الْبَحْرِ بِهَا غَوْصَةً	صَادَ بِهَا حَيْثَانُهُ أَجْمَعَا

هذا مثال حي لارتفاع معاني ابن الرومي ، بعضها على هام البعض الآخر وقد غاظ شاعرنا من إنسان عصره ذلك الزيف والخداع والنفاق حين يطيل لحيته إظهارا للتقوى والدين بينما يخفي في نفسه رذائل ومفاسد ، والصور أو التشبيهات التي شبه اللحية بها في هذا النص - الشراعين - شبكة الصياد . واستنباط المعاني التي تحدث بها ابن الرومي حول اللحية هي وليدة تأمل وتحديق في كل ما يحيط به في المجتمع .

ونحن وإن كنا نورد مثل هذه الصور عند ابن الرومي مما يطعن في الدين والمظهر الديني ، إلا أننا لانواقفه على السخرية بالملتحنين ولكن عذرنا هنا أننا تقدم دراسة فنية لهذه النصوص غير ملتزمين بما يرمي إليه هذا الطعن أو ما يمكن أن يطرأ على هذا الهجاء من نقد وتهكم ، ونحن مع شاعرنا في عدم إعفاء اللحية دون عمل يرضي الله أولاً ثم المجتمع ثانياً . وإلا فما الفرق بين مسلم ملتحي وغيره من الملتحنين أيضاً . إذ لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالعمل الصالح .

فالعصر العباسي عصر كثر فيه الفساد والبعد عن الدين ، وأصبح النفاق والرياء سمة أهل العصر ، حتى أصبح كثير من الناس يتخذ من اللحا مظهرا للورع ويخفون تحتها النوايا الخبيثة . يتعرض ابن الرومي لتلك القلة ويصف لحاهم بطريقة ساخرة مثيرة للضحك ونحن سنكتفى ببعض النصوص التي تظهر فيها براعة شاعرنا ودقة تصويره ، وإن كنا لانريد الخوض في موضوع اللحية والتدين<sup>(١)</sup> :

ولحية سائلة منصبة  
شهباء تحكي ذنب المذبة

ابن الرومي هنا يحرص على الصور الطريفة ، والأحداث المبتكرة التي تستبطن معاني لاتتضاءل عرفا عن معاني الهجاء النفسي . فهو حين يهجو صاحب اللحية ويتندر بطول لحيته ، إنما يهجو تدينه ويظهر نفاقه للمجتمع . وهو كعادته يكرر المعنى ويلح عليه بصور مختلفة ، ويحاول أن يقنع السامع أو القارئ بالتعليل ، ويتصدى للموضوع ويلح به مرارا يقول فيمن أطالوا لحاهم رياء ، وهو يطعن في التدين الكاذب ، والنفاق ، إذا لم تكن اللحية مظهرا للورع والتقوى<sup>(٢)</sup> :

إذا عرّضت لحية للفتى  
وطالت وصارت إلى سرتيه  
فنقصان عقل الفتى عندنا  
بمقدار ما زاد في لحيته

هذا إضافة إلى صور كثيرة تعرض فيها ابن الرومي لأولئك الذين يطيلون لحاهم بغير علم ولا فقه ، وصورهم صورا ساخرة وتندر بهم وبلحاهم .

غير أن ماقدّمنا من صور تفي بالغرض في هذا المجال . وقد كان باعث الهجاء عند ابن الرومي أحيانا كثيرة ، هو تغيظه من حماقة إنسان عصره وجهله لمواضع الفخر الحقيقي فيه ، لقد كانت ثورة ابن الرومي كما يقول إيليا حاوي ، ثورة إنسان العقل والمعرفة الحريص على الكرامة

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٤٥١ .



الإنسانية ألاّ تزيف ، وتنمى إلى من لا ينتمون إليها بفعل حقيقي من حريتهم وكفاءتهم . فشاعرنا ليس عالما اجتماعيا ، بل هو ثائر اجتماعي يطلب حق الأدب والعلم وفضائل النفس<sup>(١)</sup> . إذ ليس من الطبيعي أن يجلب الناس من ليس بأهل للإجلال والتكريم ، فقط لأن مظهره يدعو لذلك . لقد عد ابن الرومي ذلك من النفاق والرياء ، إذ يحكم على المرء من مظهره وينسى جوهره . ولعله عانى من هذه المعاملات في عصره ، والأحكام الجائرة في مجتمعه الظالم الذي لا يقيس الناس بفضائلهم ولا يعرف قيمة للعلم والأدب .

نظر ابن الرومي إلى مجتمعه ، فاستنكر قيوده وأعرافه ، ونظر إلى إنسان عصره فوجده خاليا من القيم ، صار يغدر بأخيه ، ويختان نفسه ، ويظلم غيره ، لا يزره ضمير من دين ، ولا وازع من قانون ، وحق لابن الرومي أن يزهّد في أناس عصره ، ويملهم . يقول معلّلا زهده في الناس واعتزالهم<sup>(٢)</sup> :

وزهدني في الناس معرفتي بهم      وطول اختباري صاحباً بعد صاحب  
فلم ترني الأيام خلا يسرني      بواديه إلا ساءني في العواقب  
ولا صرت أدعوه لدفع ملامة      من الدهر إلا كان إحدى النوائب

فابن الرومي يبدأ بوصف تجربته عامة وتحسّسها ، فقد زهد في الناس لعلمه ومعرفته بطبائعهم ، ثم يشرع بعد الوصف العام بالتفصيل ، والتخصيص ، فمن الأسباب التي جعلته يزهّد فيهم ، اختباره لهم ، فلم يجد فيهم صاحباً يسره أولاً إلا ساءت عواقبه وأظهر له وجهه الآخر عند الملمات وبدلاً من تقديم العون يكون مصيبة تضاف لمصائب الدهر .

(١) ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص ١٦٥ ، فن الهجاء ، ص ٥٦٨ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٤١١ .

مالبت ابن الرومي أن رأى الصورة الأولى للإنسان - الممدوح - تتضاءل في نظره وتتصاغر حتى تلاشت واضمحلت ، واستقرت الصورة الأخرى لإنسان عصره - المهجو - صورة القبح والصغار تعظم وتكبر . ففزع من ذلك وسجل فزعه هجاء مقذعا لبني عصره فقال<sup>(١)</sup>:

بَلَوْتُ طُغُومَ النَّاسِ حَتَّى لَوْ أَنَّنِي      وَجَدْتَهُمْ أَحْلَى مَذَاقًا مِنَ الشَّهْدِ  
لَقَدْ آنَ أَنْ أَسْلَاهُمْ وَأَمَلَّهُمْ      فَكَيْفَ وَمَا لَاقَيْتُ مِنْهُمْ أَخَا رُشْدٍ؟  
وَكَيْفَ وَقَدْ جَرَّبْتُ مِنْ طَبَقَاتِهِمْ      تَجَارِيِبَ تَدْعُو النَّفْسَ فِيهِمْ إِلَى الزُّهْدِ؟

تبدو في هذه الصورة سعة معارف ابن الرومي وكثرة تجاربه ، وتفاعله مع بني عصره ، فقد استطاع بصفاء ذوقه وجمال خياله ، أن ينقل لنا إحساسه وخبرته ويصور لنا حقيقة الصِّراع بين الناس في عصره ، كما مثل لنا تناقض مجتمعه ، وماساد في عصره من مظاهر الحضارة وألوان الفساد ، والظلم واغتنام الملذات ، حتى افتقد في عصره الناس ، فلا أحد يُرَجَى لمدح ، أو يستأهل هجوا<sup>(٢)</sup>:

آيَسْتُ مِنْ دَهْرِي وَمِنْ أَهْلِهِ      فَلَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُرْضَى  
إِنْ رُمْتُ مَدْحًا لَمْ أَجِدْ أَهْلَهُ      أَوْ رُمْتُ هَجْوًا لَمْ أَجِدْ عَرَضًا

فابن الرومي يعيش في عصر لا قيمة للإنسان فيه ، حتى أنه لا يجد من هو أهل للمدح ، ولا من يستأهل الهجاء ، وشاعرنا من خلال هجائه لعصره وأفراد مجتمعه يعبر عن عجزه عن التكيف مع واقع عصره ، وعدم رضاه عن معاصريه .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٦٣ .

كان ابن الرومي يكثر من فن التصوير الهزلي ، والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية ، والمشابهات الدقيقة ، وأغلب الظن أن مصدر هذا الفن في هجائه هو ولعه بالجمال ، وشدة نفوره من القبح ، فهو هجاء جمالي وفني خالص<sup>(١)</sup>. يقول في ذم عيون بعض من هجاهم :

حَوْصَاءٌ ، حَوْصَاءٌ ذَاتَ عَيْنٍ      زُرْقَاءٌ فِي زُرْقَةِ الْمَضِيرَةِ<sup>(٢)</sup>  
فهذه عيناها ضيقة وغائرة ، وبها زرقة وآخِر أعور فهو في عوره شبيه بالدجال يقول فيه<sup>(٣)</sup>:

وَكأَنَّكَ الدَّجَالُ مِنْ      عَوْرٍ وَإِعْوَابٍ هُنَاكَ

فهذا الرجل في نظر شاعرنا لم يكتف بقبح ظاهره فهو إضافة إلى عور عينه ، معور - أي قبيح السريرة - أو به ريبة.

وابن الرومي إذ تعرّض للعاهات الجسدية لا يخرج في هجائه عن السخرية ، فيتناول العاهة ويكبرها ويجعل منها صورة مشوهة للمهجو . ولكنه في هجاء العاهات النفسية يقتصر على اشتقاق المعاني من ذاتها ومن العلاقة العميقة الخفية التي توثق بينها وبين سواها ، يقول<sup>(٤)</sup>:

رُقَادَكَ لَا تَسْهَرُ لِي اللَّيْلَ ضَلَّةً      وَلَا تَتَجَسَّمُ فِيَّ حَوْكُ الْقَصَائِدِ  
أَبِي وَأَبُوكَ الشَّيْخَ آدَمَ تَلْتَقِي      مَنَاسِبُنَا فِي مَلْتَقَى مِنْهُ وَاحِدٍ  
فَلَا تَهْجَنِي حَسْبِي مِنَ الْخَزْيِ أَنْتِي      وَإِيَّاكَ ضَمَّتْنَا وَوَادَةَ وَالِدِ

فهذه الأبيات قالها في شاعر هجاء ، تعرض له فأجهز عليه ابن الرومي كعادته حين يتعرض لبعض من يهاجونه فيجهز عليهم إجهازا بما يتفق له من

(١) د. محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص ١٠٥ بتصرف .

(٢) حوصاء : ضيقة العينين ، حوصاء : غائرة العينين . انظر الديوان ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .

(٣) الديوان ، ج ٥ ، ص ٢٢ .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

معان تترجح بين السخرية الهازئة والحقد المشوب بقليل أو كثير من اللؤم .  
كما يقول إيليا الحاوي : فهو يتكلف هجاء نفسه عن ذلك الشاعر ، وحسبه  
أن ينتمي وإياه إلى آدم ولو لم يكن آدم يحمل في صلبه نطفة ذلك الشاعر ،  
لامتنع عنه الشر حين يقول :

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي صُلْبِ آدَمَ نُطْفَةٌ لَخَرَّ لَهُ إِبْلِيسُ أَوَّلَ سَاجِدٍ

وكان ابن الرومي يزعم أن ذلك المهجو هو أصل الشر والبلاء ،  
وإنه لولاه لما طرد آدم وذريته من الجنة . فابن الرومي تولى هذا المعنى  
المتداول - قصة آدم وإبليس - وأناط به أقذع معاني الهجاء من قدرته على  
تقليب المعنى وتأويله وتأويلا ماسخا<sup>(١)</sup>.

يقول العقاد : "الإفحاش وليد الحضارة ، والغلو في الإفحاش وليد  
التهتك في الحضارة ، متى غلا الشاعر في القذف بأدناس التبذل والخلاعة  
فهناك عيبان محققان : أحدهما - لاشك - عيب البيئة التي أشاعت تلك  
الأدناس أو جعلت الذم بها ذما هينا على الأسماع ، فلا بد للشاعر من المبالغة  
والإغراق .. والثاني نبحت عنه في قائل الهجو ومدمنه ، فإنه لولا عيب فيه  
لما اضطر إلى الهجاء ولا أدمنه وأفرط فيه"<sup>(٢)</sup>. ومن أمثلة فحشه في الهجاء  
قوله<sup>(٣)</sup>:

بَخْبِخْ ، بَخْبِخْ لِأُمَّكَ مَا أَسْوَرُ	هَمَّاتِهَا إِلَى الْعَلْيَاءِ
نَاقَضَتْ مَرِيَمَ الْعَفَافَ ، فَلَمَّا	قَاوَمَتْهَا سَمَّتْ إِلَى حَوَاءِ
فَانْتَحَتْ فِي الرِّثَا تُكَاثِرُ حَوَاءَ	عَدِيدِ الْبَنَاتِ وَالْأَبْنَاءِ

(١) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٥٤٩ بتصرف .

(٢) ابن الرومي حياته من شعره ، ص ٢٣٥ .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٧٨ .

فهذا هو اللون القاتم من هجاء ابن الرومي كله إقذاع وسب وهتك للأعراض .. وإن كانت الصورة السابقة فيها شيء من الطعن الخفي إلا أن له صوراً أخرى شديدة الفحش ونحن نتورع عن ذكر تلك النصوص . ولكن لابد من الإشارة لبعضها وعلى من أراد التوسع الرجوع للديوان .

من صورته التي يظهر فيها الفحش قوله يطعن في نسب مهجوه (١):  
 كَيْفَ أَهْجُوا امْرَأً كَرِيمًا لَيْمًا      وَاحِدَ الْأُمِّ خَلْفَةَ الْآبَاءِ؟  
 كَيْفَ أَهْجُوا مُذْبَذَبًا بَيْنَ شَتَّى      لِإِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ؟  
 كَيْفَ أَهْجُوا مَنْ فِيهِ مُجْتَمَع      الْأَنْسَابِ طُرًا ، وَمُلْتَقَى الْأَحْيَاءِ؟

فابن الرومي له أهاج بلغت درجة من الفحش والإقذاع . وكلها يتعرض للأعراض ويطعن في الأنساب ، وقد أسرف شاعرنا في الفحش ، وبسط لسانه بسطاً بذيئاً في أعراض مهجويه ، أيّاً كانوا ، رجالاً ونساء ، في غير ما تخرج ، ولم يجد من عصره ما يجد إسرافه في هذا المجال ، فهو عصر التبذل والإخطاط ، فأتى بأشنع من كل ما أتى به شعراء الهجاء (٢).

وديوانه مليء بصور كثيرة الفحش . شديدة البذاءة .

عَجَبًا لِصُورَتِهِ وَكَيْفَ تَشَابَهَتْ      مِنْهَا الْمَعَالِمُ وَهِيَ شَتَّى الْجَوْهَرِ  
 لَوْ جَاءَ يَحْكِي لَوْنُ كُلِّ أَبٍ لَهُ      رَأَيْتُ جِلْدَتَهُ كَيْمَنَةَ عَبْقَرٍ (٣)

المطلع على ديوان شاعرنا يجد فيه أعظم صور البذاءة يتمطى بها في كل وجه ويسوقها في كل سبيل ، مما لا يسيغه الذوق ، ويأنف من ذكره المتأدب ولا قبل لنا بالتمثيل عليها لصراحتها ، ولافتقادها الصفة الفنية ، ولكن نكتفي بما أوردناه من صور هي بعض هجائه الفاحش البذيء .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٢) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٥٣٢ بتصرف .

(٣) اليمنة : ضرب من برود اليمن . انظر الديوان ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

## الفصل الرابع

الفصل الرابع

الإنسان في رؤية المتنبي - قادحا -

في هجاء المتنبي يظهر الوجه الآخر للإنسان ، نرى الكائن الحقير الذي يقف مضادا للكائن العظيم الذي تغنى به المتنبي في مدائح ، ينغمس في عيوب هي عكس فضائله السابقة ، فالكرم الطبيعي الأصيل يقابله عار كبير هو البخل ، فالبخيل يسىء معاملة قصاده ، ويغدر بضيوفه ، وهذا الإنسان المهجو ، حقير جبان يخاف ملاقاته الكماتة ، ويفر عند النزال ، قليل العقل ، موصوم بالغباء والغفلة ، وقلة العلم ، بل الجهل والبلاهة ، كما أنه عبي ركيك القول لا يحسن مخاطبة الناس ، يثير الضحك والسخرية كلما تكلم ، كذوب حلاف ، لا يفى بوعدده ، لا يصلح للأجداد ، مواهبه لا تجعله جديرا إلا بأحط الأعمال ، ذليل النفس خانع ، يتظاهر بالعزة ولكنه لا يصلح لها ، لأن نفسه دنيئة ، ضعيف اليدين ، والضعف من أكبر العيوب<sup>(١)</sup>. وشر من كل هذا أن الإنسان في نظر المتنبي فقد قيمه العربية الأصيلة "وفقد القوة في كل شيء ، وأصبح صورة نموذجية للاستسلام والإذعان لما تأتى به الأيام ، فهو جاهل أحمق ، ضعيف التفكير ، قد أطفئت فيه ومضات الذكاء والحس السليم ، وهو صغير النفس تشغله توافه الأمور ، فقد أبسط تقاليد الحياة العربية : تذوق الشعر ومعرفة اللغة ، دفعه الصغار إلى رذائل الأمور من حسد ونميمة ، ولم يبق له سوى مراقبة الآخرين ، بعد أن حادت نفسه عن طريق الفعال الكبيرة"<sup>(٢)</sup>.

فالمتنبي شاعر يؤمن بالقيم الإسلامية وبالقواعد الأخلاقية التي وضعها القرآن ، ويرى في القوة حماية لتلك القيم والأخلاق ، وبها يمكن إصلاح الفاسد ، فعز عليه أن يحل الضعف محل القوة في عصره ، وتنحل القيم ،

(١) المحصول الفكري للمتنبي ، ص ١٧٢ بتصرف .

(٢) صدقي إسماعيل ، تجربة المتنبي ، مقدمة موجز ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ،

اختصره سليمان العيسى ، ص ٣٦ .



وتفسد الأخلاق ، فانبرى يهجو إنسان عصره ويسلبه فضائله النفسية ، مع تركيز على نواقصه الجسدية ، ومع ذلك فقد حافظ المتنبي على طابعه الكلاسيكي في هجائه الخالي من الفحش ، فلانكاد نجد له سوى بعض أبيات انحدر فيها نحو المستوى الشعبي ، السائد في عصره . فقد كان يترفع عن البذاءة والفحش في الهجاء لأن شعره يعبر عن تنازع القيم في عصر كثير الاختلال ، لأكرامة للإنسان فيه .

لم يؤخذ المتنبي بمظاهر الحضارة في عصره ، لأنه تناول جذور هذه الحضارة فبدت له أشكالا باهتة لامتت إلى العنفوان العربي بصلة ، فدان حضارة عصره ، واعتبرها هي التي أفسدت أخلاق الإنسان ، وقتلت في نفسه بذور التحرر ، وورثت إنسان عصره الجبن والاستغراق في اللذة ، والصغار ، من أجل ذلك هجا الإنسان في عصره بل هجا العصر بأسره فقال (١) :

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلَهُ      فَأَعْلَمُهُمْ فَدَمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ  
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٌ      وَأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ  
وَمِنْ نَكَرِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى      عَدُوًّا لَهُ مَامِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ

نظر المتنبي حوله فوجد الرعية مظلومة يسودها كثير من الرذائل التي تجثم على حياة الناس حين تلح عليهم الخطوب ، وغاظه منهم قبولهم الضيم وعدم ردهم لهذا الوباء ، فهجاهم ألذع الهجاء واشتد حنقه على زمانه وخصال أهل زمانه الكريهة فمثل شاعرنا في هذا النص اختلال القيم والمقاييس في عصره ، فالعالم غبي ، والحازم وغد ، والكريم كلب ، والبصير أعمى ، والشجاع قرد ، أي أن القيم والأخلاق انعدمت في ذلك العصر ، وعاد الناس إلى التوحش ، ولقد دل على بهيمية أبناء عصره من خلال الألفاظ التي نسبها إليهم ، كالكلب والقرد والفهد وما إلى ذلك .. والبيت

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٩٢، ٩٣ .

الأخير عميق الدلالة على واقع نفسية شاعرنا لأنه يعبر عن مشكلة الحر الذي يعيش في قوم قد تخلوا عن فضائلهم وقيمهم" (١).

وحين يخص المتنبي أهل عصره بهذا الذم ، فكأنه يصدق مذهبنا إليه من أن عصور التغير الكبرى تزلزل الإنسان زلزلة يفقد معها قيمه ، ويضيع منه الطريق ، وقد يكون هذا الواقع في ذاته محنة ، لكن الأبعد منها في الإيجاع أن لا يرى الإنسان الحر بدا من صداقة عدوه الذي يزدريه (٢).

هكذا يتضح أن هجاء أبي الطيب المتنبي لأبناء عصره ، وتنازعه معهم كان رد فعل صريح حين رآهم يعبثون بكل ماقدسه من قيم ومثل عليا ، كما كان استنهاضا لهممهم وحثا لهم على نفض غبار الذل والظلم عنهم ، فالعداوة بينه وبين معاصريه ، عداوة معنوية نفسية ، إنها عداوة الحر للعبد عداوة المتعلم للأمي ، والشجاع للجبان . وما إلى ذلك من مناقضات خُلقية ونفسية . كان يهدف من وراء ذلك إلى إصلاح الفرد ومن ثم إصلاح المجتمع وبعث قيمه الأصيلة ، "أعانه في ذلك أنه كان صاحب صوت ضخم لا يرتفع به حتى يحدث جلبة شديدة" (٣).

الأخلاق ، والآداب ، والعادات الإسلامية هي الطابع المميز للشخصية المسلمة سواء كانت رجلا أو امرأة . والمتنبي يرى بل يؤكد أن التفریط في تلك الأخلاق التي يعتز بها المرء ويقوى مصدر ضعف والضعف يتولد من الإسراف ، وحين يقول (٤):

إِذَا غَدَرْتُ حَسَنَاءُ وَقَتَّ بِعَهْدِهَا      فَمِنْ عَهْدِهَا أَنْ لَا يَدُومَ لَهَا عَهْدُ  
وَإِنْ عَشِقَتْ كَانَتْ أَشَدَّ صَبَابَةً      وَإِنْ فَرَكَتْ فَأَذْهَبُ فَمَا فَرَكُهَا قَصْدُ

(١) إيليا الحاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٥٩٨ .

(٢) وردت بعض ملامح هذا التغير الذي أصاب الإنسان في العصر العباسي في التمهيد .

(٣) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف بمصر ، ط ٩/تاسعة

١٩٤٣م ، ص ٣٤٩ .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٠٤، ١٠٥ .

وَإِنْ حَقَدَتْ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا رِضًا      وَإِنْ رَضِيَتْ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا حَقْدٌ  
كَذَلِكَ أَخْلَاقُ النِّسَاءِ وَرُبَّمَا      يَضِلُّ بِهَا الْهَادِي وَيَخْفَى بِهَا الرُّشْدُ

فكأنما يقرأ أخلاق المرأة من كتاب مفتوح ، وقد وفق غاية التوفيق .  
فالمرأة لاتعرف التوازن والاعتدال ، لأنها إذا أحبت أسرفت ، وإذا أبغضت  
أسرفت ، وهي تتلف حياتها وحياة الرجل بهذا الإسراف ، وكأنه يدعو  
لمبدأ التوازن الذي به تقوى النفوس وتستقر .

وقد يتحامل المتنبي على أخلاق النساء حين يقول (١):

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي      ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامٌ

ولاغرابة أن يقدم لنا المتنبي صورة سيئة عن المرأة وأخلاقها ، فالناس  
في عصره بشكل عام فاسدون ، والجوانب السلبية في المرأة لا بد أن تظهر  
للناس ، ولكن المتنبي كعادته لا يخص إنسانا بعينه فيعمم هنا الغدر على جنس  
حواء والتقلب وتجاوز حدود المعقول دائما .. ولعل شاعرنا يتناسى أن من  
بين النساء اللاتي يصف أخلاقهن بهذا السوء . من قال عنها وفضلها على  
الرجال :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا      نَفَضْتُ النِّسَاءَ عَلَى الرَّجَالِ

ولكنها نفس المتنبي ورؤيته للناس في عصره ، فهو يؤاخذ كل بعمله ،  
وينكر على الإنسان ترديه في الموبقات والمفاسد ، دون أن يفرق في ذلك بين  
الذكر والأنثى ، كل همه أن ينتشل إنسان عصره من أسباب الضياع  
والهلاك ، ويرده إلى القيم المثلى ، والطريقة المستقيمة ، وسلاحه في ذلك  
الشعر والمنطق العذب . ولعل المتنبي في تحامله هذا على المرأة يؤكد قول  
أنيس المقدسي (٢): "مع أننا نجد في العصر العباسي بعضا من النساء الراقيات  
علما وثقافة ، وأنا نجد في كتب التاريخ شواهد على ذلك ، لانجد الأدب  
يعكس لنا من حالة المرأة ما يجعلها في مقام رفيع ..."

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

(٢) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة

السابعة عشرة ١٩٨٩م ، ص ٥٥ .

حين أخذت القيم تنعزل عن السلوك في العصر العباسي ، أخذت تتسرب علل وآفات توهن العزائم ، وتحجب المثل الأعلى وتأذن لليل أن يغشى النهار ، أو هكذا رأى المتنبي حين قال<sup>(١)</sup>:

يَرَى الْجَبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ      وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّيِّمِ  
وَكُمْ مِنْ عَائِبِ قَوْلًا صَحِيحًا      وَآفَتُهُ مِنْ الْفَهْمِ السَّقِيمِ  
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الْآذَانَ مِنْهُ      عَلَى قَدَرِ الْقَرَائِحِ وَالْعُلُومِ

سوء الطبع وصغر الهمة ، أحد أبرز ملامح الضعف في عصر المتنبي ، وقد تعلل نظرتة هذه بأنها مقاومة مقصودة لبعض مظاهر التحلل التي أخذت تغزو الحياة الاجتماعية آنذاك ، متبديدة في أشكال مختلفة حتى غاضت الهمم ووهنت الكلمة قولاً وتلقياً .

ولعل في هذه الصورة كما في غيرها انتفاضة من المتنبي على الجهل الذي انتشر في عصره والذي رأى فيه موتاً للإنسان حين قال<sup>(٢)</sup>:

أَمَاتَكُمْ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمْ الْجَهْلُ      وَجَرَّكُمْ مِنْ خِفَّةِ بِكْمِ النَّمْلِ

صدق شاعرنا إن الجهل موت ، كما أن العلم حياة ، ولكن تصوير المتنبي للجهل بالموت لحقته صورة أبلغ وأعظم إذ جعل الجهل سبباً في الهوان والخفة حتى أن الجاهل لا وزن له ولا قدر ، والجهل بالشعر وعدم تذوقه يلحق بصاحبه الزرابة والتنقيص في نظر المتنبي فيقول<sup>(٣)</sup>:

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ عَرَوْا بِذَمِّي      وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا  
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرٌّ مَرِيضٍ      يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزَّلَالَا

في أسلوب حكيم يقول : إنه داء لحساده ، وأعدائه يسقمون به حسداً لذا لا يمكن أن يحمده لأن مثلهم معه كالمرريض الذي يجد الماء الزلال مرا

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ .

(٢)، (٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٧٨، ٣٤٤ .

لمرارة فمه ، كذلك هؤلاء إنما يذمونه لنقصانهم وغبائهم ، وعدم إدراكهم

فضله وقيمة شعره . فالنقص مستول عليهم ، وهم كما يقول :

لَوْ أَنَّ ثَمَّ قُلُوبًا يَعْقِلُونَ بِهَا  
أُنْسَاهُمْ الذُّعْرَ مِمَّا تَحْتَهَا الْحَسَدَا

ويرى المتنبي أن معاصريه ، الذين انتقدوا شعره وعبأوا كلامه لاعقل

لهم ولافهم ، وإلا لعلموا ما تحمل أبياته من تهديد ووعيد ، ولشغلهم ذلك

عن الحسد له ، وهو متأثر في ذلك بالآية الكريمة {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }<sup>(١)</sup>.

هجاء أبي الطيب بعيد من أن يكون فيه نكتة لطيفة أو شيء من

الظرف وإنما هو تهكم حاد جارح يعجب أكثر مما يضحك . وكثيرا ما نجد

عنده صوراسخرية حين يجعل من مهجوه أضحوكة شوهاء فيصبيه بخلقه

وخلقه ومزلقته الاجتماعية . وينتفع شاعرنا من ردائل مهجوه في تأكيد

صورة الإنسان العظيم في نظره لأن هذه الردائل منطقية تماما في تضادها مع

الفضائل فيقول<sup>(٢)</sup>:

وَيَعِيشُ حَاسِدُهُ الْخَصِيَّ الْأَوْكَعُ

وَقَفَا يَصِيحُ بِهَا أَلَا مَنْ يَصْفَعُ

أَيْمُوتُ مِثْلُ أَبِي شُجَاعٍ فَاتِكُ

أَيْدٍ مُّقْطَعَةٌ حَوَالِي رَأْسِهِ

وَأَخَذَتْ أَصْدَقَ مَنْ يَقُولُ وَيَسْمَعُ

وَسَلَبَتْ أَطِيبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

أَبْقِيَّتْ أَكْذَبَ كَاذِبَ أَبْقِيَّتِهِ

وَتَرَكْتَ أَنْتَنَ رِيحَةٍ مَذْمُومَةٍ

لقد أفلح المتنبي في تصوير نموذجين متقابلين للإنسان ، حتى لكأننا

نراهما بأعيننا ، فنسخط للصورة الكريهة ، وننتشي بالصورة الحسنة . وفي

هذه الصورة كما في غيرها ، نرى أن المتنبي لا يثور على فلان بقدر ما يثور

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٩

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٩ .

على الضعف والاستكانة في الإنسان . كما أنه لا يجد فلانا بقدر ما يجد القوة المتمثلة في الأخلاق والسيرة الحسنة ، وحين يشكو خلو الدنيا من الكرام ، وعموم اللؤم والفساد في الناس ، فيقول<sup>(١)</sup> :

تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهَمُومُ	أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمُ
يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الْجَارُ الْمُقِيمُ	أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَكَانُ
عَلَيْنَا وَالْمَوَالِي وَالصَّمِيمُ	تَشَابَهَتْ الْبَهَائِمُ وَالْعَبْدَى
كَأَنَّ الْحَرََّ بَيْنَهُمْ يَتِيمُ	حَصَلَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَيْدِ
مَقَالِي لِلأُحَيْمِقِ يَا حَلِيمُ	أُخِذْتُ بِمَدْحِهِ فَرَأَيْتُ لَهُوًّا
مَقَالِي لِابْنِ آوَى يَا لَيْتِمُ	وَلَمَّا أَنْ هَجَوْتُ رَأَيْتُ عَيْتًا
وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلَوْمُ	إِذَا أَتَتِ الْإِسَاءَةُ مَنْ لَيْتِمُ

يتضح لنا أن حقد الشاعر على البشر ناشيء من إصرارهم على المفسد وتخليهم عن سبل الخير والرشاد ، حتى التبس عليه الناس بالبهائم لعموم فسادهم ولؤم طباعهم وجهلهم ، فالحر بينهم مهان مجفو كاليتيم ، وإن كان تعنيف المتنبي لمعاصريه ، وللشعر عامة كما يقول د. زهدي الخواجا : تعنيف أشبه أن يكون تعنيف الأب لابنه الخائف على مصيره ، الراغب في توفير الخير له ، وتخليصه من المآزق والآثام<sup>(٢)</sup> ، وقد صرح المتنبي بهذا الهدف في غير ماموضع من ديوانه .

صور المتنبي إنسان عصره في بعض أحواله فكان أدنى جدا من أخط حيوان ضراوة وغدرا ، ولم يسكت شاعرنا عما حاق بالإنسان ، وما برز بينه وبين أخيه من تظالم وتصارع ، وقد يعتصره الألم حين يرى الإنسان في عصره وقد تخلى عن قيمه وأصالته فيشبه إنسان عصره بالصنم ويقول<sup>(٣)</sup> :

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٨٢، ٢٨٣ .  
 (٢) موازنة بين الحكمة في شعر أبي الطيب والحكمة في شعر أبي العلاء ص ٤٩٢ بتصرف  
 (٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٩١، ٢٩٣ .

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إِبْنِي كُلَّمَا نَظَرْتُ  
أُسِيرَهَا بَيْنَ أَصْنَامٍ أَشَاهِدُهَا  
تَوَهُّمَ الْقَوْمِ أَنَّ الْعَجَزَ قَرِينَا  
وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً

إِلَى مَنْ أَخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمٍ  
وَلَا أَشَاهِدُ فِيهَا عِفَّةَ الصَّنَمِ  
وَفِي التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَى التَّهَمِ  
بَيْنَ الرَّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ

في هذه الصورة يرى المتنبي أن الإنسان في عصره بات خليقا بكل ما في اللغة من صفات الوضاعة التي ما وضعت في اللغة إلا لوجود مقابله في الإنسان حين يتخلى عما به يعز وما يجله عن مرتبة الحيوان ، بل لقد يرى المتنبي أن الأصنام إذا قيست بإنسان عصره عفيفة ، فهي وإن كانت لاتنفع إلا أنها غير موصوفة بالقبائح والفضائح ، والناس لا يعفون عن المنكر والقبیح . ثم يلتفت إلى ملمح مهم ، فبعد أن كانت صلة الرحم من أقوى الروابط وأفضل المكارم ، أصبحت المصلحة هي الرابط الوحيد الذي يربط أفراد المجتمع ، فترك الإنصاف يدعو إلى التقاطع بين الناس ولو كانوا ذوي رحم ، فما الظن بمن لا رحم بينهم . لقد أصبح سوء المعاملة في عصر المتنبي هو ديدن الناس ، وهم بذلك يبتعدون عن تعاليم الدين ، وإلا فأين هم من قوله تعالى : { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ } (١) . { وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } (٢) .

هذه الصورة التي صور بها المتنبي إنسان عصره جعلته يقف إلى جوار الفتاة الكريمة ويقرها على إشار الموت عن الزواج . ويعلل ذلك بقلة الكفاية في الرجال ، يقول (٣) :

وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْوًا      ذَاتُ خِدْرِ أَرَادَتِ الْمَوْتَ بَعْلًا

(١) سورة محمد : آية ٢٢

(٢) سورة الأنفال : آية ٧٥

(٣) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ .

إن عصرا افتقد فيه الرجال والأكفاء حتى تؤثر الفتاة الموت على الزواج ، لهو عصر فساد وشر ، وقد جد شاعرنا في كشف الغشاوة التي رانت على أبناء عصره ، وشخصياتهم العامة ، بما فيها الجوانب الاجتماعية والثقافية وأيضا الفنية ، مشاركة منه في استعادة الشخصية العربية وصنع حضارة إسلامية تقوى بقوة الإنسان .

إن المتنبي حين يتجاوز الإنسان القبيح في الهجاء إلى التنديد بالزمن ذاته ، يشكو الخلق العام الذي تحدر إليه الإنسان بعدما أدبه الإسلام وهذبه ورقاه ، وظن أنه سيصبر على تكاليف هذا الرقي زمنا طويلا ، وإذا بالإسراف يرده إلى ماتنكره قيم الإسلام ، فيخون ويغدر ويكذب ، ويتخلى عن إنسانيته كما قال المتنبي<sup>(١)</sup>:

أَوْ عَاشَ ، عَاشَ بِلَاخُلُقٍ وَلَاخُلُقٍ	إِنْ مَاتَ مَاتَ بِلَا فِقْدٍ وَلَا أَسْفٍ
خَوْنَ الصِّدِيقِ ، وَدَسَّ الْغَدْرِ فِي الْمَلَقِ	مِنْهُ تَعَلَّمَ عَبْدٌ شَقَّ هَامَتَهُ
مَطْرُودَةً كَكُؤُوبِ الرُّمَحِ فِي نَسَقِ	وَخَلَفَ أَلْفِ يَمِينٍ غَيْرَ صَادِقَةٍ
صِفْرًا مِنَ الْبَاسِ مَمْلُوءًا مِنَ النَّزَقِ	مَا زِلْتُ أَعْرِفُهُ قِرْدًا بِلَا ذَنْبٍ
لَا تَسْتَقِرُّ عَلَيَّ حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ	كَرَيْشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيْحِ سَاقِطَةٍ

إنسان عصر المتنبي أحمق لا يشفيه من حمقه إلا الموت وحين يموت لا يترك أثرا بعده ، ولا يشعر الناس له بفقد ، لقد عد المتنبي وجود مثل هذا الإنسان الأحمق عالية على البشرية ، إذ لا يعرف إلا الرذائل ، حتى أشبهه القرد بغير ذنب ، خلت نفسه من الشجاعة وامتلاّت حمقا وطيشا فلا يلبث على حال واحدة ، ويتبع ذلك بنقائصه الجسدية فيقول<sup>(٢)</sup>:

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .



تَسْتَعْرِقُ الْكَفَّ فَوَدِيهِ وَمَنْكِبَهُ  
فَسَائِلُوا فَاتِلِيهِ كَيْفَ مَاتَ لَهُمْ  
وَأَيْنَ مَوْجِعُ حَدِّ السَّيْفِ مِنْ شَبَحِ  
لَوْلَا اللَّثَامُ وَشَاءُ مِنْ مُشَابَهَةِ  
وَتَكْتَسِي مِنْهُ رِيحَ الْجَوْرِبِ الْعَرِيقِ  
مَوْتًا مِنَ الضَّرْبِ أَوْ مَوْتًا مِنَ الْفَرَقِ  
بِغَيْرِ رَأْسٍ وَلَا جِسْمٍ وَلَا عُنُقِ  
لَكَانَ الْأَمَّ طِفْلٍ لُفًّا فِي خِرْقِ

فهذا هجاء مقذع ، استخدم فيه المتنبي الصور الساخرة . هذا المهجو صغير الرأس قصير العنق حتى أن الكف تستوعب رأسه ، راحته ننته ، جبان يموت خوفاً قبل أن يموت من الضرب . وهو لدمايته وصغر قدره ، كأن لأعضاء له . ويؤكد على دور الأصل فيرى أن كل فعل يقوم به المرء له صلة بأصله ، وهذا المهجو لئيم من أصل لئيم ، والمتنبي وهو يهجو هذا الهجاء الساخر إلا أنه يبدي الأسف على إنسان عصره الذي وصل به القبح إلى درجة فقد فيها كل مقوماته الإنسانية ، وهو في طي هجائه يتمنى أن يسود مجتمعه أمثلة ونماذج جميلة تشعر بالقوة التي طالما نشدها وسعى إليها .

"في شعر المتنبي لون من الفكاهة اللاذعة ، يظهرها أحيانا على مرآة شعره تهكما لاذعا ، وهجوا مقذعا ، أخاذا ، يكون فعلها في النفس بعيد المدى ، عميق الأثر"<sup>(١)</sup> . ويعرض في هجائه طائفتين من القبائح والردائل جسمية ونفسية ، من ذلك قوله<sup>(٢)</sup> :

يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى  
بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرَّقَى  
وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجَوَ الْوَرَى  
فَأَمَّا بِزِقِّ رِيَّاحِ فَلَا  
وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ  
وَشِعْرٌ مَدَحَتْ بِهِ الْكَرْكَدَنْ  
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ  
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ

(١) محمود البشبيشى ، الحيوية في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ص ١٢٩ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ١٦٧، ١٦٨ .

وَتَلِكَ صَمُوتٌ وَذَا نَاطِقٌ  
إِذَا حَرَّكَوهُ فَسَا أَوْ هَدَىٰ  
وَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ  
رَأَىٰ غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَىٰ

رأى المتنبي أن هناك ترابط بين العيوب الخلقية والعيوب الجسدية  
"فالحقير تنسجم خسة نفسه مع قبح جسمه ، فالنفس عند شاعرنا دائما هي  
الأساس ، وتأتي قبل الجسم وتضفي من بهائها أو بشاعتها عليه" (١).

والمتنبي يخرج في هذه الصورة من الهجاء الشخصي إلى الهجاء  
الاجتماعي ، ولكنه لا يستخف بالناس لأنهم ناس بل لأنهم رضوا بالمخازي ،  
ولم ينهضوا للمعالي فهو يحتقر الناس المهملين المفرطين الخانعين للظلم والفساد  
وعد مديحه لمن لا يستحق المدح هجوا للناس الذين أحوجوه لمدحه ، ويرى  
أن لافرق بين من ضل بعبادة الأصنام ، ومن خضع لسلطان العجم ، بل  
الفرق أن الأصنام صامتة . وهذا السلطان ناطق بكل ماهو قبيح ورذيل ،  
والحق أن المتنبي كما يقول الدكتور الشكعة "يؤمن بمذهب القوة إيمانا عميقا  
جارفا غير آبه بالنتيجة ولو كانت الموت الأحمر" (٢). ولعل من القوة التي  
آمن بها شاعرنا أن يعرف الإنسان قدر نفسه ، لأن من لم يعرف قدر نفسه  
غرورا وإعجابا بها خفيت عليه عيوبه ، فيرى الناس من عيوبه ونواقصه  
ماليراه ويستقبحون منه ما يستحسن ، بذلك "عالج شاعرنا أطرافا من علل  
الإنسانية مبينا لأدوائها ، ويدلى بكثير من الآراء التي تزيد من خيرتنا  
بالإنسان وطباعه والحياة وتصاريقها ، تعينه في ذلك عين واعية بصيرة" (٣).

ولعل ظروف مجتمع المتنبي وأحداث عصره التي كانت من الضخامة  
والتنوع والقسوة ، بحيث تجعل الفرد على مفترق طرق ، تدعوه للاختيار  
ولاخاذ المواقف الجريئة ، وإلا سيندفع في تيارها ، ويفقد قيمه وأخلاقه

(١) المحصول الفكري للمتنبي ، ص ١٧٤ .

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ٤٢٥ .

(٣) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٣٤٧ .

المتوارثة . وهذا ما أظهره المتنبي في شعره سواء في مقام المديح أم في الهجاء .  
فقد كان يهتف بإنسان عصره أن يحافظ على قيمه وخلقه .

عصر المتنبي عصر ذل وهوان ، لا قدر فيه للأكفاء ، بل الأذلاء  
والخصيان هم المتسلطين ، ومن أظهر أبيات الهجاء عند المتنبي والتي تدل  
على هوان المسلمين وانحطاط العصر قوله (١):

مِنْ آيَةِ الطَّرْقِ يَأْتِي نَحْوَكِ الْكَرَمُ  
جَارَ الْأَوْلَى مَلَكَتْ كَفَاكَ قَدْرَهُمْ  
لَأَشْيَاءَ أَقْبَحَ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذَكَرٌ  
أَيْنَ الْمَحَاجِمِ يَا كَافُورُ وَالْجَلَمُ  
فَعَرَّفُوا بِكَ أَنَّ الْكَلْبَ فَوْقَهُمْ  
تَقْوَدُهُ أُمَّةٌ لَيْسَتْ لَهَا رَحِمٌ

هذه صورة شديدة الدلالة على واقع الهجاء في شعر المتنبي - الهجاء  
الاجتماعي - الذي يكثر فيه التصدي للقيم والعدالة الاجتماعية حين يرى أن  
تحكم الأمي قليل القدر بالأحرار فجيعة وعقاب لأعظم الآثام ، ويهجو  
الشعب الذليل الذي قبل بتسلط العبد القزم عليه فيقول (٢):

سَادَاتُ كُلِّ أَنَاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ  
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تَحْفُوا شَوَارِبِكُمْ  
وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ الْقَزَمُ  
يَا أُمَّةً ضَحِكْتُ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَّمُ

في هذه الأبيات يتعمق المتنبي شعور بالأسى كما قال الدكتور شوقي  
ضيف (٣): فالظلم يلقي بأثقاله على الشعب ، وهو جاثم لا يتحرك ، ولا يرد  
الظلم والطغيان ، وتتجسد لشاعرنا أسباب المحنة ، وأنها تعود إلى ما أصاب  
العرب في أخلاقهم ، وفي كرامتهم . فهي قبل أن تكون محنة سياسية محنة  
خلقية ، جعلت الناس أضعف من أن يثوروا ، وقد تطلبت هذه المحنة من  
شاعرنا حربا أشد وأعنف من حرب السيوف والرماح ، حربا يحمل فيها  
الناس على خلقية قويمة جديدة ، يرسم فيها المثل العربية رسما يجسدها لهم  
ويرفعها أمامهم شعارات يتمثلونها في حياتهم ومعاملاتهم ، ليكونوا بذلك  
جديرين بالحياة ، وفي الوقت نفسه يصور فيهم النقائص التي جعلتهم يخنعون  
لظالمهم ، محاولا بذلك تحفيزهم حتى يحطموا الظلم ، ومذكيا فيهم الشعور

(١)، (٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٨٠، ٢٨١ .

(٣) فصول في الشعر ونقده ، ص ٨٥، ٨٦ بتصرف .

بكرامتهم ، ويذكرهم أن عليهم أن يتقيدوا بتعاليم الدين في كل أمور حياتهم ، ولا يقتصرون على الأمور الجانبية من الدين كحف الشوارب ، وإعفاء اللحي ، كما هو الحال في العصر الحديث حين شغل الناس أنفسهم ببعض الأمور الجانبية في الدين ، وتركوا أهم غاياته وكأن النفوس بدأت تفرغ من الدين ويستولي عليها الوهن والفساد ، وإذا استشرى هذا المرض في النفوس ، مرضت الأجسام وفسدت الحياة .

صورة الأحدب والجاحظ عند ابن الرومي يقابلها صور عند المتنبي إلا أن قوتها عند المتنبي توحى بعدم الابتسام حين يقول (١) :

وَجَفُونَهُ مَا تَسْتَقِرُّ كَأَنَّهَا  
وَإِذَا أَشَارَ مَحَدَّثًا فَكَأَنَّهُ  
وَتَرَاهُ أَصْغَرَ مَا تَرَاهُ نَاطِقًا  
وَالذَّلُّ يَظْهَرُ فِي الذَّلِيلِ مَوَدَّةٌ  
وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ  
أَفْعَالٌ مِّنْ تِلْدِ الْكِرَامِ كَرِيمَةٍ

مَطْرُوفَةٌ أَوْ فَتٌّ فِيهَا حِصْرَمٌ  
قَرْدٌ يُقَهِّقُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ  
وَيَكُونُ أَكْذَبُ مَا يَكُونُ وَيُقْسِمُ  
وَأَوْدٌ مِنْهُ لِمَنْ يَوَدُّ الْأَرْقَمُ  
وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ  
وَفِعَالٌ مِّنْ تِلْدِ الْأَعَاجِمِ أَعْجَمُ

فالمتنبي في هذه الأبيات يذكرنا بتلك النماذج المشوهة التي ألفتها في شعر ابن الرومي ، غير أن المتنبي في هجائه كالمارد الذي يطأ تحت قدميه أقزام الحقارة والدناءة والصغر في الناس (٢).

يغتاظ المتنبي من عصره المتآكل المختل أشد الغيظ ، ويرى أن ما يصدر عن الإنسان من فعل هو في الحقيقة نابع من حسبه ونسبه ، فكريم النسب حسن الفعال ، ولئيم النسب سيء الأفعال . والفنان قد ينظر إلى

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٥٦ ، ٢٦١ .

(٢) إيليا الحاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ص ٦٠١ بتصرف .

القبح فينقله على حقيقته ، كما ينظر إلى الجمال في رسمه بريشة أو كلمة ، أو لحن موسيقى ساحر ، وإجاده في تصوير القبح أو الجمال ، هي التي تحقق جمال الفن على أرقى مستوياته . ولعل شاعرنا أجاد في رسم القبح وتصويره في هذه الأبيات كما أجاد في رسم صور الجمال المختلفة من قبل .

ولايفوتنا أن هناك فرق بين الفنان أو القاص وبين الشاعر ، فالفنان قد يستهدف ظاهرة أو شخصية ويحلل أخلاقا بفلسفة ، فيسبب لها ويوميء إلى نتائجها . في حين أن الشعر انطباع سريع وخواطر الشاعر لايعول عليها في دراسة الإنسان ، لأن شعره ذاتي ويصدر عن ذاته ، وأحكامه لايصح أن تكون كلها حاجة للإصلاح .. والمنتبي كان يكيل لكل إنسان بالمكيال الذي يناسبه .. وإن كان في هجائه نوع مكشوف . حين يذكر من الألفاظ ماينبو عن الذوق والأدب ، ونسك عن التعرض لهذا النوع الذي تظهر فيه بذاءة لسان المنتبي ، ولعل ذلك يعود إلى اختلاط العرب بالفرس وشيوع بعض ألفاظ الفحش<sup>(١)</sup>.

المنتبي وهو يعبر عن تقمته على واقع السلطة والمجتمع في عصره ، يغالي في احتقاره لأولئك الحكام ، كما يغالي في احتقار الخانعين الذين رضوا بحكم الظالمين ، إلا أنه بالرغم من ذلك يسمو غاية السمو ، حين يتحقق له فساد الحكام واستبدادهم ، كما يتحقق له أن القوم الذين يتحكمون برقابهم هم أذلاء خانعون ، ويرى أنهم غير جديرين بالحياة فيقول<sup>(٢)</sup>:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِنَدَا الزَّمَنِ      يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ  
وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ      شَرٌّ عَلَى الْحَرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ  
حَوْلَى بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقٌ      تُخْطَى إِذَا جُنَّتْ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنْ

(١) انظر أمثلة على ذلك في الديوان ، ج ١ ، ص ٣٣١ ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ وغيرها .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٤١ .

في هذه الصورة يعلن شاعرنا تمرده على المجتمع كما يعلن ثورته على الفساد والضعف والظلم ، فكل من حوله صغار ، بل بهائم أغبياء ، والمتنبي بذلك يقترب غاية الاقتراب من ابن الرومي كما يقول إيليا الحاوي<sup>(١)</sup> :  
"الذي يعتقد أن الدهر لا ينفك يأخذ حق الكرام للؤماء ، وأن الأغبياء يلعبون في ظله الماكر" . فالناس في نظر المتنبي سواء في النقائص والمعائب والشور ، حتى أن المرء لا يأمن على نفسه بينهم . فهم جهال أعداء لذوي الفضل حاسدين لهم كما يقول<sup>(٢)</sup> :

لَا أَقْتَرِي بَلَدًا إِلَّا عَلَى غَرَرٍ      وَلَا أَمُرُّ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَغِنِ  
وَلَا أَعَاشِرُ مِنْ أُمَّلَاكِهِمْ أَحَدًا      إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثْنِ  
فَقَرُّ الْجَهُولِ بِلَا عَقْلِ إِلَّا أَدَبٍ      فَقَرُّ الْحِمَارِ بِلَارَأْسٍ إِلَى رَسَنِ

أي عصر هذا الذي تحول ناسه إلى وحوش صغار النفوس حتى لا يأمن المتنبي على نفسه فيه ، فلا يزور البلاد إلا وهو يتوقع الهلاك لأن نفوس معاصريه امتلأت حقدا وحسدا ، لا بد أنه عصر ساد فيه حكام ظالمون آمن المتنبي بوجوب قتلهم وسفك دمائهم ، بل وسحقهم كما يسحق رأس الوثن فلموت أولى أن يقضي عليهم فهم مفسدة للنظام الاجتماعي ، وهم من ناحية تبديد لزمان العالم الذي ينبغي أن يملأ بالقيم الإيجابية ، وهذه الفئة من المجتمع جمعت إلى الجهل وفقر العقل سوء الأدب ، ولعل شاعرنا في هذه الابيات لا يكشف عن وصف ظاهرة اجتماعية محددة بحدود زمانية أو مكانية فحسب ، إنما يكشف عن رؤية إنسانية شاملة<sup>(٣)</sup> . فهو يندد بالجهل وسوء الأدب كما يندد بالفساد والانحلال الخلقي الذي يصيب الإنسان في كل زمان وكل مكان . ولعل الإنسان في عصرنا هذا أحق أن يوصف بنظرة المتنبي هذه

(١) فن الهجاء وتطوره عند العرب ص ٥٩٦ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٤٢ .

(٣) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص ١٢٦ بتصرف .

بعد أن انغمس في لذاته ولم يأخذ من الحضارة سوى الوجه القبيح فاقتنى السليبيات وابتعد عن الصالحات .

الناس في العصر العباسي غشيتهم غواش ، وصارت أخلاقهم وآدابهم وعاداتهم ، كأنها صرح عظيم تسكنه الأشباح ، وقد حاول المتنبي حين رأى ما انتهت إليه الأخلاق والآداب والفضائل في عصره . أن يرد الناس من حوله ويدلهم بواسطة الكلمة - الشعر - إلى ينابيع الأخلاق والقيم الأصيلة ، وإن كانت بطريق غير مباشر حين يقول (١) :

مَنْ حَكَّمَ الْعَبْدَ عَلَى نَفْسِهِ	أَنُوكُ مِنْ عَبْدٍ وَمِنْ عَرْسِهِ
عَنْ فَرَجِهِ الْمُتَنَبِّيِ أَوْ ضِرْسِهِ	الْعَبْدُ لَا تَفْضُلُ أَخْلَاقُهُ
وَلَا يَعْصِي مَاقَالَ فِي أَمْسِهِ	لَا يُنْجِزُ الْمِيعَادَ فِي يَوْمِهِ
مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فِي رَأْسِهِ	فَلَا تَرْجُ الْخَيْرَ عِنْدَ امْرِئِي
بِحَالِهِ فَاَنْظُرْ إِلَى جَنْبِهِ	وَإِنْ عَرَكَ الشَّكُّ فِي نَفْسِهِ
إِلَّا الَّذِي يَلُومُ فِي عَرْسِهِ	فَقَلَّمَا يَلُومُ فِي ثَوْبِهِ
لَمْ يَجِدِ الْمَذْهَبَ عَنْ قَنْسِهِ	مَنْ وَجَدَ الْمَذْهَبَ عَنْ قَدْرِهِ

يشير المتنبي إلى تحكم الفساد في حس الناس حين أساءوا اختيار الحاكم ورضوا أن يحكموا عبداً أحمقاً جاهلاً على نفوسهم ، لأن العبد في نظر شاعرنا لاخلاق له ولافضل .

على الرغم من أن الأبيات السابقة في الهجاء ، وترتفع إلى مستوى عال من الأداء في فن الهجاء فإننا نخطيء إذا وقفنا عند الهجاء الشخصي وحده ، وتركنا ماتحت الكلمات من معان تظهر في تركيز المتنبي على آفات عصره ، من خيانة وكذب وإفساد الأمانات ، وهي تكشف عن أشياء في نفس

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣١١ ، ٣١٣ .

شاعرنا تجسد ما يعتريه من ألم لما كان يسود مجتمعه من رذائل وخيانات ، عاقت صلة الناس ببعضهم وساءت معها علاقاتهم الاجتماعية ، وحالت دون استمرار التقدم الأخلاقي .. وكثيرا ما نجد الإنسان الوضيع في شعر المتنبي وقد اتصف بصفات ظاهرة تدل على قبح نفسه ، حتى ليرفع المتنبي عن هجائه كما قال (١) :

وَلَيْسَ جَمِيلاً عَرَضُهُ فَيَصُونَهُ  
وَيَكْذِبُ مَا أَذَلَّتْهُ بِهِجَائِهِ  
وَلَيْسَ جَمِيلاً أَنْ يَكُونَ جَمِيلاً  
لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْهَجَاءِ ذَلِيلاً

وهذا حال الإنسان الوضيع ذليل لا يهاب جانبه ، ولا يكثر له ، كاذب حقير . وقد ساعد المتنبي على ذلك قوة شخصيته ، واعتداده بنفسه ، وإيمانه بشعره وافتخاره به .

ربما يكون التدهور الذي أصاب الإنسان في عصر المتنبي جراء الترف والانغماس في الشهوات ، أدى إلى انحلال الأخلاق ، واندثار القيم ، فالإنسان الذي أتخمته النعم في زمن المتنبي وقبيل زمنه ، صار كما وصف القرآن أمثاله : { كَانَهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَ يَا يُوفُكُونَ } (٢).

ولم يكن شاعرنا مرتاحا إلى مجتمعه وأناس عصره ، فعبر عن ذلك بدمه لمعاصريه حين أشار إلى مساوئهم وتسفلهم . من ذلك قوله (٣) :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ضَيْفُهُمْ  
جُودُ الرَّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ  
عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ  
مِنَ اللِّسَانِ فَلَكَانُوا وَلَا الْجُودُ

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٨١ .

(٢) سورة المنافقون : آية ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .



مَا يَقْبِضُ الْمَوْتَ نَفْسًا مِنْ نَفُوسِهِمْ  
 مِنْ كُلِّ رِخْوٍ وَكَاءِ الْبَطْنِ مُنْفَتِقٍ  
 إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ تَتْنِهَا عُدُ  
 لَافِي الرَّجَالِ وَلَا النَّسْوَانِ مَعْدُودُ  
 لاشك أن الشاعر وهو يصور رذائل مهجويه ، بلغ غاية الإسراف  
 والمستحيل ، حين جعل الموت يقبض عودا لينتزع به أرواحهم لشدة قرفه  
 وتقززه منهم ، لقدارة أنفسهم ولؤم أخلاقهم .

"إن الكراهية هي التي فتقت للشاعر هذه الصورة المقذعة ، وهذا يدلنا  
 على أن الشعور والخيال كانا متوحدين في نفس الشاعر . الأول فاض بالحق  
 والثاني أبدع الصورة المشوهة الماسخة"<sup>(١)</sup>. وحين رأى المتنبي أن مهجوه قبيح  
 النفس تذكر دمامته وتفاصيله الجسمية فأضافها إلى نقائسه المعنوية ، ثم ينكر  
 على أهل مصر طاعتهم لعبد خائن فيقول<sup>(٢)</sup>:

أَكْلَمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ  
 صَارَ الْخَصِيَّ إِمَامَ الْإِيْقِينَ بِهَا  
 أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ  
 فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ  
 فَكَدَّ بِشِمْنٍ وَمَاتَغْنَى الْعَنَاقِيدُ  
 نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَن تَعَالِبِهَا

فالمتنبي لا يقف في هجائه عند شخص بعينه بل يتعداه إلى من ينقادون  
 للعبد ويولونه أمرهم ، ويأتي بالفاظ تطعن في مهجوه ويعيره بأعظم صفات  
 يعتز بها الإنسان كالرجولة والحرية ، ويتهم أهل مصر وساداتها في رضوخهم  
 لحكم العبد الخصي بأنهم غافلون عن الأراذل حتى عاثوا في أموال الناس  
 وأختمهم الشعب ، وهو بذلك يحث المصريين على الثورة والتمرد على حكم  
 غير العرب الأحرار . وجريا على أسلوبه الشائع في استنفاد المعنى على دفعات  
 ومراحل ، نراه يتابع حديثه عن عبودية مهجوه - كافور - ، وقد جعل من  
 البديع مطية لبلوغ غرضه - الهجاء - حين قال<sup>(٣)</sup>:

(١) إيليا حاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٦١٤ .  
 (٢)، (٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٤٤، ١٤٧ .

لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودٌ  
 إِنَّ الْعَبِيدَ لِأَنْجَاسٌ مَنَاقِيدُ  
 يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مَحْمُودٌ  
 وَأَنَّ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودٌ  
 تُطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرَّعَادِيدُ  
 لِكَيْ يُقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودٌ  
 لِمُسْتَضَامٍ سَخِينُ الْعَيْنِ مَفْتُودٌ

الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ  
 لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ  
 مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنِ  
 وَلَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فُقِدُوا  
 وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدِ الْمُثْقُوبَ مِشْفَرُهُ  
 جَوْعَانٌ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيُمَسِّكُنِي  
 إِنَّ امْرَأَةً أُمَّةً حُبَلَى تَدْبِرُهُ

يرى المتنبي أن الطبع في الإنسان يغلب التطبع . وقد عبر بألفاظ توافق مقتضى هجائه وإقذاعه ، وعندما يحذر الناس من شراء العبد دون عصا يساق بها ، فهو يريد القول : أن العبد لا يستحق العرش وإنما العصا ، وذلك لأن المتنبي يرى أن كثيرا من العبيد لئام النفوس ، لذا ينبغي أن يعاملوا وفقا لطباع أنفسهم .

وفي هذه الأبيات نلمس ملمحا من ملاح مأساة شاعرنا وهي مأساة القيم التي انهارت وتناقضت وتبدلت ، حتى أصبح أخط الناس ملكا يستبد بالأحرار والأشراف . فهذه مشكلة اغتصاب القيم ، كما أنها مشكلة تقدير الإنسان بإنسانيته . وهذا يدل على أن العصر فعلا عصر تدهور وانحطاط (١) . ويمضي شاعرنا يتهكم ويسخر من مهجوه وينكر على أهل مصر انقيادهم وطاعتهم له ، ويصفهم بالجين ، والخوف من من لاهيبة له ، وقد جعلهم عضاريط ، أي أنهم يشتغلون بطعامهم وهذان النعتان كما يقول إيليا الحاوي : "يمثلان أحقر ما يمكن أن ينعت به إنسان عصرئذ . فإن الرجل

(١) إيليا الحاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٦١٧ بتصرف .

الذي يعمل ليأكل هو رمز للشخص الذي انهارت نفسيته وطموحه ، وزالت شهامته ، فلم يعد يهمه شرف العيش ، بل لقمته أكانت ذليلة أم شريفة . هذا الشخص خاصة بالنسبة للمتنبى لا قيمة له إطلاقاً لأنه يعتقد أن قيمة الإنسان في طموحه وشرفه وكبر نفسه<sup>(١)</sup>. وهذا المهجو لشدة صغاره ، ولنقص في شعوره بالذات كما يرى المتنبى ، يريد أن يقلد العظماء ، ولكن بماذا؟ بأن يبقى المتنبى عنده ويكسب مجداً من قربه وفي ذلك افتخار من المتنبى بشعره وأن الكل يطلب أن يخلد بشعره .

حارب الإسلام التفاضل في الجنس أو اللون أو الثروة ، وسوى بين العبد والسيد ، كما سوى بين الأبيض والأسود ، والعربي وغير العربي ، بل لقد رفع العبيد والموالي إلى مقام الإمارة وقيادة الجيش والإمامة في الصلاة ، وجعل التفاضل في التقوى ، ولكن المتنبى متأثر بواقع عصره - عصر الطبقات - والتميز نراه يهجو إنسان عصره في شخص عبد - كافور - متهكما بلونه وساخرًا من جنسه في أكثر من موضع يقول<sup>(٢)</sup>:

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرَمَةً  
أَقْوَمُهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ  
أَمْ أَدْنُهُ فِي يَدَيْهِ النَّخَّاسِ دَامِيَّةٌ  
أَمْ قَدْرُهُ ، وَهُوَ بِالْفَلَسِيِّنِ مَرْدُودٌ  
أَوْ لَى اللَّئَامِ كُوَيْفِيرٌ بِمَعْدِرَةٍ  
فِي كُلِّ لُؤْمٍ وَبَعْضِ الْعُذْرِ تَفْنِيدُ  
وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةٌ  
عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخَصِيَّةُ السُّودُ

يرى إيليا الحاوى<sup>(٣)</sup> أن هذه الأبيات تشتمل على ملاحم المأساة التي تختلف مظاهرها عصراً بعد عصر ، وهي مشكلة الذل الذي يستبد بالشرف ، الجاهل الذي لافضائل له وقد قدر له أن يستبد بذي الفضائل . الخصي

(١) المرجع السابق ، ص ٦١٨ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٤٧، ١٤٨ .

(٣) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٦١٩ بتصرف .

الذي يستبد بمن يعتزون برجولتهم ، جمعها المتنبي في هذه الصور المتوالية فرأينا لفظة "الأسود" تجتمع مع لفظة "الخصي" ثم تلحق بها لفظة "النحاس" و"الآباء الصيد" وخاصة لفظة "الفحل" التي استنفد بها المتنبي جميع ما في نفسه من احتقار لذلك الإنسان الذي تمثل للمتنبي فيه مسخا ، إنه الإنسان عندما يشتد ساعده وتنحط نفسه ورجولته وأخلاقه .

ونحن نرى أن قيمة الإنسان لا تحدها أية اعتبارات عرقية أو وراثية . وفهم الأخلاق بهذه الطريقة ، يتنافر مع الإسلام الذي يرد التمايز بين البشر إلى التقوى ، إذ أن قيمة الإنسان مرتبطة بالإنسان نفسه من حيث سلوكه في الحياة وتحرره من النقائص ، وقد أشار المتنبي نفسه إلى أن قيمة الإنسان تنبع من ذاته حين افتخر بنفسه وفعاله لا بأصله ونسبه وهو القائل<sup>(١)</sup> :

لأَبْقَوْمِي شَرَفْتُ بَلِّ شَرَفُوا بِي      وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ ، لِأَبِجِدُودِي

فهذه دعوة من المتنبي للإنسان أن يفخر بنفسه لا بأصله ونسبه ولكنه في الصورة السابقة يهجو متناسياً دعوته هذه فيهجو بوضاعة النسب وحقارة الأصل ، ونحن لانقره على ذلك ، فإنما المرء بأخلاقه وفعاله لا بأصله وهيئته . فهذه أمور لا يد للمراء فيها ، فوجب ألا يؤاخذ عليها .

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

في أزمان الضعف تهن الروابط بين الناس ، ويسود الشك ، وتنعدم الثقة بينهم ، ويتلاشى كل ما يعصمهم من التنافر والبغضاء ، ويصيرون مثل بيت متصدع آيلة جدرانه للسقوط .. وقد فشت هذه الآفة حقا في عصر المتنبي فقرع شاعرنا طبول الخطر لبني قومه حتى يتجنبوا أسباب الاختلال ، و يضيقوا منافذه ، ولكنه رأى في إنسان عصره صورة مجسمة للظلم والعدوان فقال<sup>(١)</sup>:

إِذَا سَاءَ فَعَلُ الْمَرءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ      وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمٍ  
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ      وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمٍ

الفعل القبيح يبدأ بوهم ، ثم يكون عادة ، فالخطأ منشؤه وهم والإنسان الذي يظن بالناس سوءا يعاني من خلل يكون هذا الخلل في نفسه أو في خلقه ، وحكمه على الناس وسوء ظنه لا يمكن أن يزول قبل أن يصلح مابه من خلل ، فلم لا يحب الناس وكأن المتنبي يدعو في هذه الصورة للحب ويناشد إنسان عصره بالحلب فلو كان سيء الظن محبا للناس ، عطوفا على الضعفاء منهم لما أساء الظن بهم . ولكن وكما قيل - السىء يسىء الظن - وهنا يقع الإنسان في دوامة الشك فلا يميز عدوه من صديقه . ولعل شاعرنا لم يجد لدعوته قبولا ، ولم يسمع لها صدى في مجتمعه فأعاد النظر فيمن حوله فرأى من إنسان عصره ما جعله يحذرهم ويحذر من خداعهم وغدرهم فقال<sup>(٢)</sup>:

وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتُشِمَّتَهُ      شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغَرْبَانِ وَالرَّخِمِ  
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ      وَلَا يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرٌ مُبْتَسِمِ  
غَاضَ الْوَفَاءِ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَّةٍ      وَأَعْوَزَ الصِّدْقِ فِي الْإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

فالمتنبي حين يقنط من الإنسان هذا القنوط الذي يجعله لا يرى في الناس صادقا ، ولا وفيا ، بل يرى فيهم شرا خالصا ، قد يكشف عن نفسه ، فيطلعنا غير قاصد على ما استقر في نفسه من رؤية يائسة للإنسان ، وأسقط

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

على الآخرين جام سخطه وكرهه ، ولعل السبب في ذلك العبقرية المتمردة ، والطموح إلى السطوة والغنى ، وهذا الطموح هو الذي يولد العداوة المتجاوزة الحدود ، والسخط على الآخرين وإساءة الظن بهم ومن ثم حجب الرائع والجميل في الإنسان .

إن الأمر في نظر شاعرنا ومن خلال صورته في الهجاء ، هو أمر الروح والضمير ، والرغبة الصادقة الصحيحة في حياة تتوازن فيها حياة الإنسان وعلاقته بربه ومع نفسه ومجتمعه .

الصدقة قيمة إنسانية تعني التمازج بين الأفكار والطباع ، والنظرة للحياة بصورة عامة بين طرفين . وقد تمر الصداقة بمحادث تقطع أوصالها ، كما تمر بمرحلة هادئة يحكمها العقل فتدوم . ولكن أن يخلو الزمن من الأصدقاء ، وتنعدم الصداقة وحين لا يجد الإنسان من يركن إليه ، فهذا أمر يدل على سوء الحال التي وصل إليها البشر ودناءة أخلاقهم . كما يدل على تقاطع أواصر المحبة بين أفراد المجتمع وعدم التلاؤم . ولعل عصر المتنبي كان عصر يأس وتقاطع مما آل بشاعرنا إلى القول<sup>(١)</sup>:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا      وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيًا  
تَمَنِّيَتَهَا لَمَّا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى      صَدِيقًا ، فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيًا

تظهر عظمة المرء إذا تركته الحياة بلا أهل ولا صديق ، فتحداها وتحمل مصائبها ثابت الجنان قوي العزيمة ، ولكن حين يتمنى العظيم الموت خلاصا من الحياة التي لا صديق فيها ، ولا عدو .. فهذا يشعرنا بمدى التدهور والفساد الذي ساد في العصر العباسي حتى بات الإنسان يتمنى أكره الأمور إلى قلبه وهو الموت لأنه وصل إلى حالة من اليأس يصعب معها البقاء لندرة الأصدقاء الأوفياء وهذا المعنى كرره المتنبي حين قال<sup>(٢)</sup>:

وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      إِذَا عَظَّمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٤١٧ .

(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

فهذا يدل على قلة الخير في الناس . وأن الأصدقاء الأوفياء لا يعرفون إلا في أوقات الشدة ، ولكن في عصر المتنبي لوجود لهم وهذا شر عظيم كما قال (١) :

شَرُّ الْبِلَادِ مَكَانٌ لَأَصْدِيقٍ بِهِ      وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصِمْ  
الوفاء للصديق من أخلاق العرب ، والمتنبي يعلم أن من الوفاء للصديق عدم توجيه أي شيء إليه يؤذيه ، لذا رأى أن أبغض الأماكن ما يكثر بها الفساد والشر لأن هذه الآفات إنما تكثر حين يفتقد الإنسان من يعينه على مصائبه ويقف إلى جواره يسديه النصيح ، وعصر شاعرنا خلا من هذه القيم . وما أجدر عرب اليوم أن يتمثلوا قيم أجدادهم التي افتقدوها المتنبي في أبناء عصره ، من حسن معاشرة الأصدقاء والتأدب معهم ، وما أقرب عصر المتنبي من عصرنا في انحطاط القيم ، وتدني الأخلاق .

ونحن لانغفل أثر اللغة التي استخدمها المتنبي في اشباع صورته التي تضمنها هجأؤه ، ومدىحه - من قبل - فقد أحاط بخصائصها ودقائقها مما كان عوناً له على الأداء الرائع البديع ، في شتى أغراضه .

صدقنا رؤية المتنبي للإنسان في زمنه وبعد زمنه فعصور التغيير قد بعثت قيم الإنسان وانحطت بأخلاقه بحكم التقدم الحضاري المزيف . ولعل رؤية شاعرنا للإنسان في عصره تنطبق إلى حد ما على إنسان العصر الحديث وقد يكون هذا من أسباب خلود شعر المتنبي ، فالعواطف مشتركة بين الناس والتغير الذي يصيب الأخلاق مرفوض يقول (٢) :

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَيْبٌ      فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتَهُمْ وَدَاقَا  
فَلَمْ أَرَوْدَهُمْ إِلَّا خِدَاعًا      وَلَمْ أَرْدِينَهُمْ إِلَّا نِفَاقًا

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

هذا تصوير دقيق رائع ذكي لما آل إليه الإنسان في عين المتنبي .. إنه يوحي لنا بمقدار الخور الذي أصاب الروح حين يصبح الناس على وتيرة واحدة من الفساد والتدني الخلقي وحين يتغشى النفاق ويسود الخداع بينهم فكيف يستدام بمثل هؤلاء حضارة ، أو كيف يجري نهر الحياة قويا جياشا؟! الواقع أن عصرا هذه أخلاق أهله ، لا بد أن يكون عصر ضعف وظلمة ، والمتنبي بعد خبرته بالناس ومعرفته بهم لا يجد ما يقابل به غفلتهم وخداعهم سوى 'الرحم يرويه منهم غير راحم لهم فيقول<sup>(١)</sup>:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا      وَبِالنَّاسِ رَوَى زُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ  
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ      وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بِأَثْمٍ

قد يستحيل الكره إلى ازدراء ، وإذا كره الإنسان قد يرجع عنه إذا اعتدل المكروه . أما إذا ازدري فبهيات أن يعود ، وشاعرنا هنا ازدري الإنسان ، ورسم له صورة عجيبة حين غابت عن هذا الإنسان فضائله وضميره ، فضاهى أشد الحيوان ضراوة ، فلم يجد سوى القتل ، وسفك الدماء ، دون رحمة ولاشفقة ، لأنه في عصر افتقدت فيه كل معاني الرحمة والرافة .

وبعد فهذه الشواهد تؤكد لنا حقيقة عصر المتنبي وماساد فيه من ظواهر التدابر والتحاقد وغيرها من الظواهر الذميمة التي تروج في عصور التغيير الاجتماعي ، والتخلف ، وما برحنا نجد مثل هذه الظواهر بين الناس في عصرنا هذا ، وهو مؤشر لفساد القيم واختلالها ، وكأن المتنبي كان بعيد الرؤية حين استهدف الإنسان في هجائه وفي النظرة الشاملة له في كل زمان ومكان . ولعل هذا ينقض مقاله أنيس المقدسي<sup>(٢)</sup>: من أن التجدد في المعاني - في العصر العباسي - انحصر في مجاري البديع ولم يتعدا إلى الفنون الخيالية

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٢) أمراء الشعر العربي ، ص ٩٧ بتصرف .



المبنية على معرفة أوسع في الكون والإنسان . فالمتنبي بهذه النظرات يؤكد حقيقة عكس كلام المقدسي .

آمن المتنبي بأن العطف على الآخرين يكمن في العمل على تحريرهم من كل ما يعوق تقدمهم ، كما آمن أن السلام في حياة الجماعة هو إيقاظ القوة في نفوسهم ، من أجل تجسيد القيم الإنسانية السامية ، يقول متحسرا على العرب حين خارت قواهم ورضخوا لحكم الأعاجم مستنكرا عليهم ذلك<sup>(١)</sup> :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا	تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ
لَأَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ	وَلَا عَهْودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَّمٌ	تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمٌ
يَسْتَخِشْنَ الْخَزَّ حِينَ يَلْمُسُهُ	وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ

هنا هجوم مقابل حب . هجوم على حكم الأعاجم ، وحب للعرب وأحقيتهم في الحكم ، وفي هذه الصورة يثور المتنبي على العرب ويرفض حكم الأعاجم ويبين للعرب أنه لن يكتب لهم فلاح ماداموا قد ذلوا لهم ورضوا حكمهم ، ويعرض بالعبيد الذين استعلوا على العرب ، وأحالوا حياتهم شقاء وظلما ، حتى لكأنهم كما قال الدكتور شوقي ضيف<sup>(٢)</sup> : غنم سائمة لا تملك من أمرها شيئا ، وأي عبيدهم أولئك الحكام إنهم في الدرك الأسفل من صور الإنسانية ، فلا أدب عندهم ، ولا كرم ، ولا عهود ولا ذمم ، ولا أمان لهم ، ويسخر منهم شاعرنا حين يذكرهم ، أنهم كانوا عبيدا جفاة غلاظا ، لا يعرفون سوى الحياة الخشنة القاسية ، بل الحياة الوحشية التي تطول فيها الأظفار ، فإذا لبسوا الحرير وجدوه خشنا جافيا ، وذهبوا يملأون الأرض شرا ونكرا ، كل ذلك تهكما بكبريائهم .

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٧٩، ١٨٠ .

(٢) فصول في الشعر ونقده ، ص ٨٢ بتصرف .

وهنا يؤكد المتنبي على ضرورة التآلف بين الحاكم والرعية ، وأن أي تنافر أو تباين في الأمور الاجتماعية أو اختلاف في الطبائع واللغة لا يمكن أن يصلح معه حال السياسة . لذا وجب أن يحكم العرب عربي لأعجمي حتى يكتب لهم الفلاح .

وشاعرنا يرى أن الهوان كل الهوان أن يرضى عربي بالذل ، فرجع شعارات توحى بالثورة على حكم الأعاجم وتندد بمن رضي العيش تحت وصايتهم . وله بيت يدل على أن أناس عصره لافرق بينهم وبين القروود حين قال<sup>(١)</sup>:

وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَحْفَلٍ      فَهَأَنَّا فِي مَحْفَلٍ مِنْ قُرُودٍ

فالناس كانوا في عين شاعرنا أناسا حين لم يرضوا سوى بحكم العرب ولم يرضخوا للأعاجم ولكن حين حكموا عليهم العبيد والأعاجم باتوا في نظره قروودا وأوباشا لا يحفل بهم ولا يكلف نفسه عناء التفكير فيهم .

يرى المتنبي أن المعايير الأخلاقية انعدمت في عصره ، وأصبح الناس لا يميزون بين الحق والباطل ، وإنما هم كالأنعام أو هكذا صورهم في قوله<sup>(٢)</sup>:

أَرَى أَنْاسًا وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ      وَذِكْرَ جُودٍ وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ  
وَرَبُّ مَالٍ فَقِيرًا مِنْ مَرُوتِهِ      لَمْ يُثِرْ مِنْهَا كَمَا أَثَرَى مِنَ الْعَدَمِ

أحس المتنبي بالكوارث التي تلح على بني عصره ، وعبثا استشارهم فلم يستمعوا له فكأنهم غنم يصرفهم الرعاة الباطشون ويغضب شاعرنا لذلك ، ويرى أن هؤلاء الناس ليس لهم من إنسانيتهم سوى الصورة ، إذ لا عقل لهم ويستنكر رضوخهم للظلم ، وتخليهم عن مبادئهم وقيمهم العربية الأصيلة

(١) الديوان ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٥٦ .

وينعي على معاصريه استكثارهم للمال وفقدهم للمروءة ومعاني الجود ،  
ويلحق بهذا الشاهد ، شواهد أخرى جيدة تنم على إحساس الشاعر بعصره ،  
وهوان الناس في زمنه منها قوله (١) :

فِي النَّاسِ أَمْثَلَةٌ تَدُورُ ، حَيَاتُهَا      كَمَمَاتِهَا وَمَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا  
هَبْتُ النِّكَاحَ حِذَارَ نَسْلِ مِثْلِهَا      حَتَّى وَفَرْتُ عَلَى النَّسَاءِ بِنَاتِهَا

أي عصر هذا الذي وجد فيه أناس حياتهم ومماتهم سواء؟ قطعاً لا بد  
أن يكون عصر الخلال وتفسخ ، وهذا شاهد على استخفاف شاعرنا بأهل  
عصره ، وذمه إياهم ، بأنهم أموات كالأحياء ، أو أحياء كالأموات ،  
ولذلك خاف أن يتزوج فينسل مثلهم .

ولم يزد المتنبي على تسجيل ظاهرة الحقارة في بني عصره ، وليته فعل  
ودل على مصدر الحقارة فيهم ، ليرجنا من التساؤلات عن فسولة الناس في  
زمنه وتدني أخلاقهم ، بل يزيد الأمر سوءاً فيقول (٢) :

مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْلٍ عَصْرِ يَدْعِي      أَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بِأَقْلٍ  
فهذا شاهد مهم في الدلالة على ما تستهدفه من نظرة الزراية والتنقيص  
على أهل عصره ، إذ لا يفرقون بين العالم والجاهل .

من خلال هذه الشواهد ، يتحقق لنا أن أبا الطيب كان يتسخط على  
المجتمع والعصر الذي رأى فيه القيم تختل والفضائل تنحط ، كل ذلك  
ونفسه تتحرى عن الحقيقة الكبرى ، وما يتفرع عنها من مظاهر العدل والخير  
واتزان القيم والمقاييس الأخلاقية ، فكأنه بذلك يلزم نفسه بعث القيم العربية  
في نفوس معاصريه ، كما يلزم نفسه أن يعيد إلى عصره الذميم ، النبل  
والأخلاق الإنسانية الكريمة .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٢) الديوان ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

"رأى المتنبي الحياة صراعا مستمرا ومتداولاً بين الناس ، والإنسان في هذه الحياة في قتال مستمر ، وصراع يسيطر عليه مبدأ القوة ، والإنسان في صراعه مع الإنسان يكشف عن لؤم طبع ، وفساد نفس ، وخذاع خلق ولا يكتفي الإنسان بمصائب القدر في الحياة بل يزيد عليها من فعله مصائب إلى مصائب"<sup>(١)</sup>. وقد نستطيع القول : إن المتنبي يسيء الظن بالإنسان أيما إساءة ، وكأنما لم يلق منهم خيراً فيقول<sup>(٢)</sup>:

كُلَّمَا أُنْبِتَ الزَّمَانُ قَنَاءً      رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانًا

وَمَرَادُ النَّفُوسِ أَصْغَرَ مِنْ أَنْ      نَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانَى

يرى شاعرنا أن الإنسان لا يكتفي بمصائب الدهر ، بل يزيد عليها ويضيف إليها مصائب بعداوته لغيره ، لكن المتنبي الشقي بإنسان عصره الواحد عليه . لأنه لم يجد فيه مايلبي مثاليته - ويشبع طموحه إلى حياة متكافلة ومجتمع قدير ، يعود إلى نفسه ويحذر بني عصره ، حين يدرك حقيقة الحياة الدنيا ، وأنها متاع الغرور ، وأن الصراع بين الإنسان والإنسان ضلالة ونزق ، والفجور مستقر في النفوس استقرار التقوى فيها ، في البيت الثاني يرى أن مراد النفوس أصغر ، إذا زالت عنه الغواشي ، وتذكر الموت والقبر .

كان عصر المتنبي مزيجاً من الغنى المترف ، والفقر المدقع ، ولعل الفقر تسبب في ظهور بعض الصفات الرذيلة ، كالكذب والغدر والخيانة والنفاق والدسائس ، فظهر أثر ذلك المجتمع في شعر المتنبي حين رسم صورة حية لنموذج معين في عصره الذي يكتنفه الرياء والنفاق وإظهار غير ما في الباطن<sup>(٣)</sup>. يقول مصوراً ذلك<sup>(٤)</sup>:

(١) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، ص ١٢٤ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٧١، ٣٧٢ .

(٣) أحمد عبد الله المحسن ، مقدمات سيفيات المتنبي ، ص ٨٢ بتصرف .

(٤) الديوان ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ  
أَهْلَ الْحَفِيزَةِ إِلَّا أَنْ تُجَرَّبَهُمْ  
إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا  
وَفِي التَّجَارِبِ بَعْدَ الْغَيِّ مَا يَزَعُ

كان المتنبي في هذه الصورة أكثر احتياطا في تعبيره ، فهو لا يذم الناس جميعا لكنه يذم أكثرهم ، فبعد تجاربه وخبرته بالناس طبعي ألا ينخدع بهم وبمظاهره فقد تغيرت النفوس ، واتصف الإنسان بصفات قبيحة فقد فرغ ضميره وخلت نفسه من القيم والآداب التي ورثها عن الأديان والثقافات السابقة ، وانتكس بفعل ما وصله من عادات وانغمس في لذاته وعاد أقل من الحيوان وضاعة ، وأصبح لا يتصف إلا بأسوأ الصفات وأحط الأخلاق ، فكل ما حصله في حضارته لم يعنه في السيطرة على نفسه ، فظل كحشرة لاتنهض حتى تسقط وتقع حسيرة .

بعد أن كان رأى المتنبي في الناس أن أكثرهم مخادعون ، إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا ، عاد إلى ذم الناس جميعا وأمعن في ذلك "يوم تمثل له الناس تماثيل من خبث يتقنع بالوداد ، ومن لؤم يتستر بنبل الخلق"<sup>(١)</sup>. حين فسدت نفوسهم وباتت تنطوي على الخبث فقال<sup>(٢)</sup>:

فَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خَبَا  
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ  
جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتْسَامِ  
لِعَلِمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ  
وَآنْفُ مِنْ أُخِي لِأَبِي وَأُمِّي  
إِذَا مَالَمَ أَجْدَهُ مِنَ الْكِرَامِ

في هذه الصورة ينعي المتنبي خصال الآباء والأجداد التي استحالت في عصره إلى أشكال منحطة ، حين غلب اللؤم على أفراد عصره متناسين خلق أجدادهم وفضائلهم التي تحلت بها نفوسهم الكبيرة من إباء الضيم ، والشعور بالكرامة ، والبسالة والكرم الفياض ، ويعيب على معاصريه هذا التخلي ،

(١) فوزى عطوى ، المتنبي شاعر السيف والقلم ، ص ٦١ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

ويرى أن ذلك عيباً في أخلاقهم ، ولكن العيب الحقيقي حين يكون الإنسان قادراً على التخلق بالفضائل والترفع عن الدنيا ولكنه ينجرف في تيار الانحلال ، فكثرة التلاوم والمؤاخذات ، وشيوع التنافر ، وسوء ظن الإنسان بأخيه الإنسان ناشيء من ثبوت الأنماط الأخلاقية التي تمتد من الواقع منتهية إلى المثل الأعلى الذي تتكامل فيه الفضائل ، وحين يفتقد تكون هذه النظرة للإنسان .

قد يكون ثمة ظواهر غاشية من مخايل المنعة في مجالات مختلفة من نشاط الإنسان ، ربما تكون العلوم والفنون لا تزال تتحرك حركتها فينخدع بها من لا يدقق النظر ، ولعل المتنبي أراد منا أن ندقق النظر في الحكم على الإنسان حين قال<sup>(١)</sup>:

وَالنَّاسُ قَدْ نَبَذُوا الحِفَاظَ فَمُطْلَقٌ	يَنْسَى الَّذِي يُؤَلَى وَعَافٍ يَنْدَمُ
لَا يَخْدَعَنَّكَ مِنْ عَدُوٍّ دَمْعُهُ	وَارْحَمَ شَبَابَكَ مِنْ عَدُوٍّ تَرْحَمُ
يُؤْذِي القَلِيلُ مِنَ اللَّئَامِ بِطَبْعِهِ	مَنْ لَا يَقِلُّ كَمَا يَقِلُّ وَيَلُومُ
الظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ	ذَا عِقَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

كأن المتنبي واجه دمار الخلق ، وفناء القيم ، وتعري الإنسان أمام عينيه لأول مرة عن حقيقة مريعة ، وهي أن الإنسان لم يعد إنساناً ، وأية مأساة أعمق من أن تقف النفس أمام الشعور بفراغ الإنسان من قيمه؟ فكأن المتنبي يريد القول : أن الظلم مركب في الإنسان ، لأنه رأى الناس في عصره يتظالمون . وهو في تحذيره يكشف عن جوانب الضعف في الإنسان ، لاليقتله بل ليقويه ، كما يقول<sup>(٢)</sup>:

(١) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٥٢، ٢٥٣ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧ .

رَأَيْتُمْ لَا يَصُونُ الْعِرْضَ جَارَكُمْ      وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرَعَاكُمْ اللَّبَنُ  
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَلٌ      وَحَظُّ كُلِّ مُجِبٍّ مِنْكُمْ ضَغْنٌ  
وَتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ      حَتَّى يَعْاقِبَهُ التَّنْغِيسُ وَالْمِنَّهُ

في هذه الصورة لأثر للتكلف الذي يخرج النص عن جماله وجاذبيته "وقد خرج المتنبي هنا من المعنى الجزئي إلى حديث عام يكشف عن رؤية إنسانية شاملة للإنسان ، لانراها موقوفة على أفراد بعينهم في عصر بعينه ، وإنما هي قضية الإنسان في كل عصر ، حينما يعلو شأنه فيكثر حساده" (١). وهذا القول من أوجع ألوان الهجاء ، فالمتنبي يصف مهجوه بالتقصير في حق الجوار ، وعدم الإجارة كما يصفه بالبخل والغدر والمن ، والمتنبي يدرك ماتعنيه هذه القيم - حسن الجوار ، الكرم مع الجار - للعربي . كما يدرك أن التقصير فيها والذم بنقصها يعد رذيلة وعار في جبين من قصر فيها . من هذا الباب كان هجاء المتنبي أشد إيلا ما ووقعا في النفس لأنه يثلب المرء ويجرده من كل فضيلة ومكرمة ، وكأن كلماته سهام قاتلة .

"كان المجتمع الذي يعيش فيه المتنبي على جانب من التأخر والاضطراب عزز في نفسه هذا العزوف عنه ، واعتباره إياه شرا لا يركن إليه ، وتبدو صفات هذا المجتمع من خلال شعره ، صورة نموذجية للفساد والانهيال ، فقد صور في كثير من العمق والقوة ملامح هذا المجتمع المنهار" (٢). من ذلك قوله (٣):

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ      وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّتٌ ضِخَامٌ  
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ      وَلَكِنْ مَعِدُنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

- (١) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص ١٢٥ .  
(٢) صدقي إسماعيل ، تجربة المتنبي ، مقدمة موجز ديوان المتنبي شرح اليازجى ، اختصره سليمان العيسى .  
(٣) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٩٠، ١٩١ .

أَرَانِبُ غَيْرَ أَنَّهُمْ مُلُوكٌ      مُفَتَّحَةٌ عِيُونُهُمْ نِيَامٌ  
بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ الْقَتْلُ فِيهَا      وَمَا قَرَانُهَا إِلَّا الطَّعَامُ

من خلال هذه الملاح نستطيع أن نتبين صورة المجتمع السليم الذي كان يعيش كنموذج في نفس المتنبي "فكأنه يريد أن يخلق من أهل عصره رجالا مناضلين ، ويباعد بينهم وبين كل ماهو مثبت للهمم ، ومع ذلك فإذا نظر حوله لم يجد إلا الضعفاء والجناء ، فإذا هو على عيشه بينهم ، يتفرد دونهم بأخلاقه وأهدافه فهم أشبه مايكونون بعصرهم" (١). وهو بينهم كالذهب حين يخرج من الرغام .

ولقد ظهرت تقمة شاعرنا على أصحاب السلطة في عصره حين وصفهم بأنهم أرانب في المكر والحقارة ، وقد رسم صورة تدل على غباء هؤلاء المسؤولين حين قال : "مفتحة عيونهم نيام" وصور خولهم ، حين يقتصرون على التنعم بالطعام ولا يجدون للعلی ، ولا يكدون في سبيل تحقيق الغايات الكبيرة . فهم في نظر شاعرنا غير جديرين بالمناصب التي اغتصبوها ، وتجول نفس شاعرنا جولات في معانيه فيذم الناس والحياة ، ويغضب لنفسه التي وجدت بين أناس يقول فيهم (٢):

وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالكَلامُ      خَلِيلُكَ أَنْتَ لَأَمَّنْ قُلْتَ خَلِيَّ  
وَأَشْبَهْنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ      وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ  
لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمْ مُقَامُ      وَلَمْ أَرِ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي  
فَلَيْسَ يَفُوتُهَا إِلَّا الْكَرَامُ      بِأَرْضٍ مَا اشْتَهَيْتَ رَأَيْتَ فِيهَا

إنسان المتنبي هو خليل نفسه في عصر افتقد الصدق وأصبح المجتمع ميدانا للأثرة والنفاق والأذى ، وقد أدرك شاعرنا ما بين أجزاء الكون من

(١) إنعام الجندي ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٢٤٤ .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ١٩٢، ١٩٤ .



ترابط ووجوه شبه ، فالطغام الذين يتسلقون على أكتاف غيرهم إلى المناصب العليا رغم هوانهم على أنفسهم وعلى الله ، مثل الغبار المتعالى في الجو رغم تفاهته وهذه ظاهرة خطيرة كما يقول محمد عبد العزيز الكفراوي ، لأنها وليدة خيال جامع وفكر ثاقب متحرز<sup>(١)</sup>.

الجانب المظلم في إنسان المتنبي جانب شديد الوضاعة ، فقد يكون الإنسان عنده جيانا لئىما ، كاذبا غادرا ، فاسقا مرائيا ، كما يقول<sup>(٢)</sup>:

أَمِينًا وَإِخْلَافًا وَغَدْرًا وَخِسَّةً      وَتَعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي التَّلْعِ، إِنِّي  
وَجَبِنًا ، أَشْخَصًا لَحْتًا لِي أُمَّ مَخَازِيَا      وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلْوَنُكَ أَسْوَدٌ  
رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا      وَيَذْكُرُنِي تَخْيِيطُ كَعَبِكَ شَقَّةُ  
مِنَ الْجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا      وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحًا  
وَمَشِيكَ فِي ثَوْبٍ مِّنَ الزَّيْتِ عَارِيَا      بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا

لقد لخص المتنبي أبرز صفات القبح في بيت واحد ، فالإنسان المهجو عنده جملة مخاز تنحط بصاحبها عن قدر الإنسان ، وتنأى به عن مستوى الرجولة ، وقد تمثلت فيه القبائح والردائل حتى خيل إلى شاعرنا أن هذا المهجو تجسيد للمخازي جميعها ، ولعل شاعرنا يفتاظ من هذه الردائل التي كانت شائعة في عصره وفي الناس جميعا ، ولكن غيظه يشتد حين يرى من هم مثال العلم والعبقرية ، يخضعون لأمي جاهل لا يميز بين البياض والسواد ، كما لا يميز بين المدح والهجاء .

"والمتنبي في هذه الصورة لم يكن أقل تنبها للمنكر من ابن الرومي ، فهو يتلقف مواضع الضعف فيمن يهجو ، لذلك نراه يذكر تشقيق رجليه

(١) الشعر العربي بين الجمود والتطور ، ط/ثانية ١٣٧٨هـ ، نهضة مصر بالفجالة ، ص ١٧٢ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٤٣٢، ٤٣٤ .

بتأثير مشيه عاريا ، ويتندر عليه تندرا مسرفا حتى يجوله إلى قرد تتسلى به  
الشواكل ، ويتحول المتنبي في هجائه من السخط إلى الهزاء ، حتى يسحق  
مهجوه بعنفه<sup>(١)</sup> ، يقول :

فَإِنْ كُنْتُ لَأَخِيرًا أَفَدْتُ فَإِنِّي      أَفَدْتُ لِحَظِّي مِشْفَرِيكَ الْمَلَاهِيَا  
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة      لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْجِدَادِ الْبَوَاكِيَا

وإن كان المتنبي قد جمع في هذا النص بين العيوب الخلقية والعيوب  
الخلقية فقد اتخذ من عرض القبح بمعناه الواسع ، ومجالاته الشاملة في المشاعر  
والسلوك وسيلة لتهديب النفس ، وتربية المجتمع بحيث تشتاق نفس المتلقي  
إلى الجمال وتصبو له ، وتنفر من القبح ، وفي ذلك حث على الخير ، وبعد  
عن الشر في كافة صورهما .

الإنسان الدنيء ، متهم بكل النواقص في نفسه وأهله ، فهو شاذ ، مظلم  
الأصل ، بل الفساد متأصل في أهله ، وعرضه مستباح ، والمتنبي يرى أن  
العظيم كبير من كبار . والحقير صغير من صغار ، كما يرى أنه أخذ عن أهله  
لؤم طباعهم وخسة فعالهم ، كما أخذ نقيضه المجد عن قومه وزاد عليه<sup>(٢)</sup> .

والمتنبي يجمع إلى الصفات الخلقية صفات وقبائح خلقية فيقول<sup>(٣)</sup> :

لَحَا اللَّهَ وَرَدَانَا وَأَمَّا أَتَتْ بِهِ      لَهُ كَسَبُ خِنْزِيرٍ وَخُرْطُومٌ ثَعَلَبَ  
فَمَا كَانَ فِيهِ الْغَدْرُ إِلَّا دَلَالَةً      عَلَى أَنَّهُ فِيهِ مِنَ الْأُمَّ وَالْأَبِ

على أن المتنبي وهو يهجو ويمجد مهجوه من كل مكرمة وفضيلة  
وينسب له كل رذيلة لا يفوته القبح الظاهر ، فجمال الوجه وحسن الهيئة في  
نظر شاعرنا تزيد في الهيئة وتدل على الخصال المحموده ، وقبح الوجه

(١) إيليا حاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص ٦٠٥ . ٤ ، الديوان ج ٤ ص ٤٢٤

(٢) المحصول الفكري للمتنبي ، ص ١٧٣ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

والدمامة تسقط الهيبة ، وتدلل على الخصال الذميمة ، والمتنبي يعرض ببعض تلك النقائص فيقول (١) :

فَيَا بَنَ كَرَّوْسٍ يَا نِصْفَ أَعْمَى      وَإِنَّ تَفَخَّرَ فَيَا نِصْفَ الْبَصِيرِ  
تُعَادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لُكْنٍ      وَتُبْغِضُنَا لِأَنَّا غَيْرُ عُورِ  
فَلَوْ كُنْتَ امْرَأًا يُهْجَى هَجُونًا      وَلَكِنَّ ضَاقَ فِتْرَةٍ عَن مَسِيرِ

في هذه الصورة تبرز ريشة الرسام الساخر ، الذي يشبه ابن الرومي إلى حد كبير ، فهذا المهجو جمع إلى الرذائل الخلقية نقائص جسدية ، فهو أعور ، وثقيل اللسان . إضافة إلى أنه ليس له عرض يهجي ، لذلك قل عن الهجاء في عين المتنبي .

وقمة السخرية أن يهزأ بمن يدعون المعرفة بالشعر وهم عن فهمه بعيدون كل البعد ويشبههم بالأعمى من غير عكاز فيقول (٢) :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ      شَعْرَاءٌ كَأَنَّهَا الْخَازِبَانِ  
وَيَرَى أَنَّهُ الْبَصِيرُ بِهَذَا      وَهُوَ فِي الْعُمَى ضَائِعُ الْعُكَّازِ

فهذا أسلوب المتنبي حين يسخر من إنسان عصره ، يصوره في أقبح الصور ، ويهزأ من كل أفعاله ويضع من قدره إلى الدرك الأدنى ، ويجعل منه نموذجاً للحقارة والضعف .

(١) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

إذا كان النجاح في حياة الإنسان غاية، فلامراء أن وسائله ، وأسبابه تتعلق بالمرء ذاته وبالعلاقة الاجتماعية بينه وبين الآخرين ، ويستحيل أن تتم هذه الغاية دون أن تمر ببعض العقبات والعوائق ، وقد عانى المتنبي من بعض معوقات نجاحه ، كالحسد الذي مني به من قبل بعض الشعراء الذين كانوا ينافسونه على منزلته الشعرية ، يقول في ذلك<sup>(١)</sup>:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُويعِرٌ      ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ  
لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ      وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاكِ مِنْهُ هَارِلُ  
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ      وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ  
وَمَا تَلِيهِ طِبَّتِي فِيهِمْ غَيْرَ أَنْبِي      بَغِيضٌ إِلَيَّ الْجَاهِلُ الْمُتَعَاكِلُ

فالمتنبي يشدد النكير عليهم ، ويحتقرهم ، ولا يراهم أهلاً لمصاولته ، فلا يحفل بهم ، ويكرر المعنى في موضع آخر ، مؤكداً عدم احتفاله بهم ، فهم أهون عليه من ذلك . بل هم حين يقلدونه ، ويحاولون اللحاق به في الشعر مثل القروء التي تحاول تقليد الإنسان في كل شيء إلا في النطق ، إذ تعجز عن النطق مثل الإنسان ، يقول :

يَرُومُونَ شَأْوِي فِي الْكَلَامِ وَإِنَّمَا      يُحَاكِي الْفَتْرَى فِيمَا خَلَا الْمَنْطِقَ الْقِرْدُ  
فَهُمْ فِي جُمُوعٍ لَا يَرَاهَا ابْنُ دَأِيَةٍ      وَهُمْ فِي ضَجِيحٍ لَا يُحِسُّ بِهَا الْخُلْدُ<sup>(٢)</sup>

هؤلاء المتشاعرين في جموع قليلة ، لا يبصرها الغراب مع حدة بصره ، ولا يسمع أصواتهم الخلد مع حدة سمعه ، فهم غاية في الحقايرة ودقة الشأن ، من هنا كان هجاء أبا الطيب وجه من وجوه الفخر والعتو في شعره ، فلا مجال في نظره للمقارنة بينه وبين غيره لعظمة شأنه . وليس كالذي يقول عنه<sup>(٣)</sup>:

(١) الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .  
(٢) ابن دأية : الغراب ، الخلد : نوع من الفأر أعمى . انظر الديوان ، ج ٢ ، ص ١١٠  
(٣) الديوان ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

لَمَّا نُسِبَتْ فَكُنْتَ ابْنًا لِغَيْرِ أَبِي  
 سُمِّيَتْ بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ تَسْمِيَةً  
 مُلَقَّبٌ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَيُكْرَهُ بِهِ  
 ثُمَّ امْتَحِنْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَىٰ أَدَبٍ  
 مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ لِالذَّهَبِ  
 يَا أَيُّهَا اللَّقْبُ الْمُلقَى عَلَى اللَّقْبِ

استغل المتنبي هنا اسم المهجو ، فأخذ يكيل إليه صفات الهجاء ويجرده من فضائله فيرى أن لاعقل لديه ولاأدب ، كما أن لأصل له ولانسب . من هنا سمي بالذهبي ، وهذه التسمية ليست مشتقة من الذهب ، بل من ذهاب العقل ، ثم يقول إنه شين وعار للقب ، فلقبه ملقى على عار وخزي . وهذا من هجاء المتنبي غير المستحسن .

بعد هذا كله نستطيع القول : أن الهجاء في العصر العباسي تطور تطورا كبيرا في معانيه وأهدافه ، وأسلوبه وألفاظه ، وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذي يدل على طاقة فنية مبدعة ، وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل ، وروح مرحة ضاحكة ، وهذا التطور كان أمرا لا بد منه خضوعا للعوامل المختلفة التي أثرت في تطور المجتمع نفسه ، واختلاف معايير وقيمه . والمتنبي حين يقول (١) :

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

فهذا يدل على اتساع وتطور خطير في آفاق الفكر العربي ، فبينما كان القدامى يحمدون التعقل والتدبر ، فرحين بما يصل إليهم من آثاره أخذ المتنبي يشكو غرقه في ذلك الخضم الواسع ، وينشد النجاة منه ويحسد الواقفين على شواطئه حيث الأمن والدعة ، والغفلة . هذا يؤكد أن الثقافة الحديثة في عصره كانت شرا على أهلها حيث فتحت أعينهم على ماحولهم من

مشاكل ومفارقات ، غفل عنها الجاهلون فاستراحوا وأراحوا ، على حين أطالوا هم التفكير فيها ، والأسى لها ، فأتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس معهم<sup>(١)</sup>.

كل ذلك يمثل يقظة الشاعر لما يدور حوله ، وإحساسه بخطر قوى الشر المتكتلة في كل جهة من جهات الحياة ، وإصرارها على أن يكون لها الغلبة والسلطان ، مما يجعل أزهد الناس في الصراع مضطرا إلى أن يخوض ضدها حربا مدمرة ، محافظة على شرفه واحتفاظا بحياته ، أو هكذا أراد المتنبي أن يعبر عن تغير الأوضاع في عصره .

من الشواهد والصور السابقة تبين لنا أن هجاء المتنبي مقذع مؤلم ، امتاز بتلك القوة التي تتغلغل في أجزائه ، هي قوة نفس الشاعر العاتية ، كما امتاز بنقمتة على عصره وبنبيه ، ثم في اشمئزاه من المهجو واحتقاره له حتى لا يكاد يخاطبه إلا بصيغة التصغير ، وهذه الشواهد كلها توحى إلينا أن بوادر الانحلال والتخاذل ، وضعف العزائم والهمم ، قد طفق يغزو هذا الجيل - جيل المتنبي - وأن الأمر أجل من أن يكون هذا الذم بين الشاعر وآحاد بذواتهم ، بل هو النذير بأن الناس قد فقدوا مابه يعززون وتعز حياتهم ، ومابه ينحون نحو الجد لما هو أرقى وأفضل ، ومابه يكون الإنسان أهلا لخلافة الله في الأرض ، وتكون حياته متزهة عن أسباب الاختلال ، قوية زاخرة ، مثمرة ، آمنة .

هجاء المتنبي السابق ، هو نذير الفن الصادق ، بأن ليلا مدلهما كان وشيك الحلول ، وأن نهار الأمة المنيع المتماسكة كان وشيك الزوال .

(١) محمد عبد العزيز الكفراوى ، الشعر العربى بين الجمود والتطور ، ص ١٤٨ بتصرف.

يبدو أن الذي يسترعي انتباه القارئ لديوان المتنبي هو القصائد أو الأبيات الظاهرة في القدح .. بيد أن هناك صورا كثيرة أخرى في ثنايا قصائد أخرى ، وأبيات لاتندرج عناوينها تحت القدح ، ولو لم يكن هناك ما يصرفنا عن الروية والأناة في انتخاب مثل هذه الشواهد لخرج لنا هذا الفصل مبحثا مستقلا بذاته ، غير أن الوقت والحجم يلزماننا بالاكْتفاء بهذه العجالة من أبيات القدح عند شاعر عظيم مثل المتنبي .

والمدقق لا تخفى عليه الصلة بين الإنسان عند المتنبي مدحا وقدحا ، فالإفراط في المدح يقابله إفراط في القدح ، ولا يقال هذه علة من العلل الفنية لدى الشاعر ، بل هي علة تلتبس لها أسبابها الوجيهة في طبيعة العصر ، وما كان عليه الإنسان ، فلعل ظروف مجتمع المتنبي وأحداث عصره التي كانت من الضخامة والتنوع والقسوة ، بحيث تجعل الفرد على مفترق الطرق ، تدعوه للاختيار واتخاذ المواقف الجريئة ، وإلا سيندفع في تيارها ، ويفقد قيمه وأخلاقه ، وهذا ما حاول إظهاره المتنبي في شعره سواء مديحا أو هجاء ، فقد كان يهتف بإنسان عصره أن يحافظ على تلك القيم والأخلاق ، في عصر متقلب كالعصر العباسي .

فهو كما أسلفنا<sup>(١)</sup> عصر الإفراط والتفريط ، ومن طبيعته عدم التوازن والتردد بين النقيضين .

(١) انظر التمهيد : أبرز ملامح العصر العباسي سياسيا واجتماعيا .

# الفصل الخامس

## موازنة



## الموازنة

تشمل :

أولا : القيمة الاجتماعية في صور الشعراء .

ثانيا : القيمة الفنية في صورهما .

العصر العباسي من أقوى عصور التغيير في تاريخ البشر عامة ، ولعل من أبرز ملامح ذلك العصر وأخطرها هي التعبير عن العلاقة بين مآل إليه المجتمع الجديد وبين طبيعة الإنسان ، إنها قدرة الشاعر على تحديد عناصر وملاحم العصر والتعبير عن المنحنى الجديد للحياة عن طريق رؤيته لهذه العناصر ، وقد كان لمعظم شعراء هذه المرحلة مواقفهم الفكرية من الحياة والفن ، وكانت لهم رؤيتهم الخاصة ، ونقدهم للمجتمع وتمردهم عليه ، ومن ذلك الحين أصبح المجتمع موضوعاً للتأمل ، فأصبح الشاعر يحلل التجارب الموجودة حوله ويسمو بها ، ولم يكن الشعر بديلاً عن الدين بل كان وصفاً للحياة ونقداً لها وإحساساً بهاء فيه النقد والثورة والتمرد والتغيير وخلق موقف عقلي أو فكري يجعل من الممكن أن يكون للشعر هدف أو غاية تعمل على تغيير الواقع<sup>(١)</sup>.

وقد كان ابن الرومي والمنتبي من أوائل الشعراء الذين فطنوا إلى هذا الفهم الجديد للشعر ، وحرصوا على نقل هذا الواقع الجديد إلى المتلقي جاعلين منه مداداً لأقلامهم تأسيًا بالقرآن الكريم الذي جعل النفس البشرية بكل ما يعتلج فيها من خير وشر موضوعاً للعبارة ، وتقويماً للإنسان .

وقد كان لخيالهما الخصب دوره في النفاذ إلى بواطن الأشياء ، فقد يقيمان علاقات جديدة بين الأشياء ، ويبرزانها في إطار مختلف عن الواقع المعروف ، يظهر هذا في الاعتماد على التشبيهات والمجازات بأنواعها في صورهما .

(١) محمد زكى العشماوى ، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، ص ١٠١ بتصرف .

وفي هذا الفصل سنقوم بعقد موازنة بين رؤيتهما الفكرية كما سنوازن بين رؤيتهما الفنية - أو الصور التي أدى بها كل من الشاعرين معانيه .

"والطريف أن ابن الرومي والمتنبي ، على ما في الأول من ضعف ، وما في الثاني قوة ، يلتقيان في النظرة إلى الدهر والناس .. وأغلب الظن أن عناصر عبقرية هذين الشاعرين تكاد تكون واحدة وإن تباينت تباينا كبيرا في الرباط الذي يؤلف بين تلك العناصر فهذا الرباط هو القوة عند المتنبي ، وهو الضعف عند ابن الرومي" (١).

---

(١) محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص ١٥٩، ١٦٠ .

## أولاً : القيمة الاجتماعية في صور الشعراء :

الشعر الجاهلي بما فيه من قيم فرض نفسه على العصور الأخرى فوجدنا الشعراء يمدحون إذا مدحوا بصفة أو قيمة من تلك التي امتدح بها شعراء العصر الجاهلي ، وإنما يتفاضل الشعراء في طريقة أداء وعرض تلك القيمة أو تناولها ، فقد يولّد كل شاعر من نفس الصفة أكثر من صورة ويختار الصورة التي يتخيلها أبلغ في الأداء .

"فالشعراء مثلاً يتناولون الشيء الواحد (قيمة ما) معجبين به ولكن سبب الإعجاب أو مستواه يختلف بينهم ، فإذا بصور أدبية متباينة للشعور الواحد في أصله ، المتعدد بتعدد المشتركين فيه"<sup>(١)</sup>. فالمعاني متوارثة منذ العصر الجاهلي ربّما لم يزد عليها الشعراء المتأخرون شيئا وإنما المدار والتفاضل بين الشعراء هو طريقة العرض فالصور الخيالية هي معرض التجديد والبراعة .

وفي حين أنّ المدائح تختلف على حسب الممدوحين ، فمنهم الملوك والوزراء والكتاب وقادة الجيوش . ولكن حين ننظر في مدائح ابن الرومي أو المتنبي فإن مايعيننا هي نظرة الشاعر للإنسان - مادحا - بعيدا عن كونه خليفة أو وزيرا أو قائدا ، فالشخصية ذاتها لاتهمنا لذا فنحن نكتفى بإيراد المعاني والنصوص خالية من الإشارة إلى الأشخاص الذين قيلت فيهم ، لأن الملاحظ في مدائح ابن الرومي والمتنبي أنّهما يحاولان رسم صورة مثلى للإنسان ، والشاعر العظيم بموهبته يحاول أن يصل إلى أعماق الإنسان ليكشف عن فطرته ، وماتأصل فيها من خير أو شر ، فيحاول أن يظهر

(١) أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، ط/سابعة ١٩٦٤م ، مكتبة النهضة المصرية ،

الإِنسان من الرِّدائل وِجِبِّه في الجميل ، ليس بالطريقة التقريرية ، وإنما عن طريق الأدب العظيم الذي لا يمكن أن يكون عاملاً من عوامل إفساد الحياة ، لأن الأدب نتاج إنسان عظيم ، يتوخى البحث عن القيم الجمالية ، والقيم الجمالية إصلاح لإفساد .

وفي العصر العباسي استطاع المديح أن يشتق لنفسه مضامين جديدة إلى جانب مضامينه القديمة ، فإذا كان مداره المعنوي قديماً حول صفتي الكرم والشجاعة بصفة أساسية ، مع كل ما يمكن أن يبتكر الشاعر من تنويعات في إيراد هاتين الصفتين ، فإنه في العصر العباسي لم يلتزم دائماً بالدوران حول هذا المدار ، فقد أصبح الشعراء يلتفتون إلى المعاني التي تتفق وطبيعة عمل الممدوح ، معان جديدة كان لابد أن تدخل في مجال المديح<sup>(١)</sup> .

وقد التفت الشاعران إلى الصفات الخلقية المتوارثة والتي مدح القدماء بها من جمال الوجه وحسن الهيئة - المعاني الحسية - وجمال المرأة ، ولكن لكل شاعر منها خصيصة اختص بها عن غيره سواء معاصريه أو الشعراء السابقين .

وابن الرومي حين تعرض للصفات الخلقية وامتدح بالمعاني الحسية قرنهما بالصفات المعنوية فقلما نجد له أبياتاً يمدح فيها بالمعاني الحسية دون أن يربطها بالمعاني الروحية - المعنوية - فقد يأتي بمعان متداولة ويضيف عليها من جديد ، فقد يُقيد المعنى كما في قوله يمدح بصفات متوارثة ومعان سابقة :

فَيَاقَمراً يُنيرُ بِلأفولٍ      وَيَاشَمساً تُضيءُ بِلأغروبٍ<sup>(٢)</sup>

(١) عز الدين اسماعيل ، في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص ٣٥٩ بتصرف .

(٢) انظر الفصل الأول ، الصفات الخلقية في مديح ابن الرومي .

فالعرب اعتادت المديح بالقمر والشمس ولكن ابن الرومي قيّد هذا المعنى حين التفت إلى صفة الاستمرارية ، فجعل من ممدوحه قمراً لا يَأْفُل ، وشمساً لا تغرب ، فهذا هو الجديد الذي أضافه شاعرنا لتلك المعاني المتوارثة ، كما أن ابن الرومي حاول الخروج عن التقليد في تناول المعاني الموروثة ، وذلك عن طريق إضافة شيء من ثقافته وروح عصره ، نلمس ذلك حين حاول أن يرقى 'بغزله ووصفه للمرأة إلى مرتبة لا ينافسه فيها أحد ، فنظر للمرأة من خلال الطبيعة كما نظر للطبيعة من خلال المرأة<sup>(١)</sup>.

كما التفت ابن الرومي إلى جمال الصوت وامتدح حسن الغناء وبين أثره في النفس ، مُتخذاً من ترابط الحواس وتبادلها وسيلة إلى بلوغ غايته ، وقد أجاد العقاد حين قال عنه قد بلغ مرتبة الموسيقيين<sup>(٢)</sup>. فقد كان يملك حسّاً موسيقياً ، وكان له ذوق خاص في الغناء وتقدير الصوت .

فرؤية ابن الرومي للإنسان - مادحا - تشمل الجانب الحسي ، وهو الجانب الذي مدح فيه شاعرنا بالصفات الشكلية أو الحسية ، والشيء الجديد الذي أضافه ابن الرومي لهذا الجانب غير ماتعارف عليه الشعراء وتوارثوه ، هو تقييد المطلق من المعاني ، والنظر للطبيعة وما فيها ومحاولة وصف المرأة من خلالها ، ساعده في ذلك دقة ملاحظة ، ويقظة حس .

أما الجانب الآخر وهو الجانب الخُلُقِيّ في مدائحُه فسنعرض له بعد أن نرى المنتبهي ونظرتَه للجانب الحسي في الإنسان والمرأة خاصة .

(١) انظر الديوان ، ج ٦ ، ص ١٧٣ .

(٢) ابن الرومي حياته من شعره ص ٢٩٠ .

فكما أن ابن الرومي مدح بصفات وقيم متوارثة عن الشعراء العرب وكل ماأضافه شيء يسير يدل على شخصيته وثقافته هو . فإن المتنبي كذلك ورث عن سلفه من الشعراء معاني المديح ، وأسبغ عليها من ثقافته وشخصيته الشيء الكثير .

فهو لم يهمل الجانب الحسي في مدائحه ، وإن كان المتنبي قد انصرف بشعره عن الغزل ووصف المرأة إلا أن له أبياتا تظهر لنا إعجابه بالجمال الخُلقي فيمدحه ويصوره تصويرا لا تقا بشاعر يبحث عن القوة في كل ماحوله .. والحق أن المتنبي في وصفه للجمال الظاهر لم يضيف جديدا إلى ما عرف عند الشعراء السابقين .

وأغلب أبياته التي عرض فيها للجمال الحسي كان مصدر الجمال فيها كما يقول الأستاذ حسن علوان<sup>(١)</sup> السبك الحسن والموسيقى البديعة .

والرؤية التي انفرد بها المتنبي عن غيره من الشعراء للمرأة في جمالها الحسي ، هو البساطة والحسن الطبيعي الذي خلقت به يدل على ذلك أبياته التي امتدح فيها البدويات وقدم في الحضريات وأشاد بالحسن الطبيعي الذي لازيف فيه ولا تجميل ، وندد بالحضريات اللاتي يستجلبن الحسن بأدوات التجميل ، حين شبه البدويات بالآرام وشبه الحضريات بالمعيز ، والبون شاسع بين الصنفين<sup>(٢)</sup> .

وهذا فيه إشارة إلى شخصية أبي الطيب التي لاتقبل الزيف والتصنع .

(١) انظر المرأة في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

(٢) انظر الديوان ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

والمتنبي مع ذلك لم يحفل بالجمال الحسي وإن كان وردت له أبيات في الغزل ووصف المرأة تشيد بالجمال ولكن كمظهر من مظاهر القوة ، التي طالما سعى لها شاعرنا ومجدها . وكأن المتنبي هو الذي قال : "إن الجمال الجسماني سحابة رقيقة ، تطير بها بردوة الهواء ، أو هضبة ثلجية تذيبها حرارة الشمس ، ومأحب المحبون قط في الصور الجميلة جمالها وروثها ، بل جمال النفوس الكامنة في طياتها!! ولا أبغض المبغضون في الصور الدميمة قبحها ودمايتها ، بل قبح النفوس المستكنة فيها!! فإذا اختلف العنوان على الكتاب في إحدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسي على صاحبه" (١).

هذا ماتفرد به المتنبي عن غيره وإلا فأكثر غزله من النوع الحسي على عادة الشعراء السابقين . ولا نريد الخوض في مسألة صدق المتنبي في غزله وإحساسه بالمرأة لأن الكثير من النقاد أفاضوا في هذه المسألة من قبل .

في العصر العباسي أخذت موضوعات الشعر تتجدد تجددًا واسعًا في معانيها ، وتعرض بصورة أدق وأعمق ، كما أخذت تدخل عليها إضافات كثيرة ، لم يقف الشاعر العباسي عند ذلك ، فقد أخذ يُنمي بعض جوانب هذا الشعر حتى تخرج منه فروع جديدة كثيرة أولها : مثالية الشيم العربية الرفيعة التي كان يصف بها الشعراء ممدوحيهم ، فقد تناولوا هذه الشيم ، وأخذوا يفردها بمقطوعات أو قصائد ، مجردونها لها محللين ، مفكرين ، ملاحظين ، وابن الرومي والمتنبي شأنهما شأن أي شاعر عباسي ، تناولوا تلك الشيم شيمة شيمة ، فنجد في مدائحهما ، قطعة في تصوير الكرم ، وأخرى في تصوير الحلم ، و قطعة في تصوير الحياء ، وأخرى في تصوير الصبر ، والتنفير

(١) ادمون روستان ، الشاعر أوسيرانودي برجرانك ، ترجمة مصطفى لطفى المنفلوطي شرح وتقديم اسماعيل اليوسف ، ط /أولى ١٩٨٦م ، ص ١٧٦ .



من اليأس ، وقطعة أو قصيدة في الشجاعة والإقدام . إلى آخر تلك القيم والشمائل العربية<sup>(١)</sup>.

وعادة ابن الرومي الحرص على المعاني وتوليدها ، فقد اشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولم يكتف بها بل مازال يقلبها ويغوص عليها ويكتشف موضوعات أخرى تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، فهو وإن كان ساير من سبقه في موضوع المدح بالصفات المتوارثة من شجاعة وحكمة وكرم وحلم ، وذكاء وعدل وشرف محتد ، وغيرها . إلا أنه أفرد منزلة خاصة للمكر والدهاء ليدل على ضرورة هذه الخصلة وشيوعها بين أبناء عصره ، فقد مدح أشتاتا من ذوي المقامات ، بينهم الوزير ، والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف ، فكان الدهاء صفة تتكرر في مدح كل واحد منهم .

فإنسان ابن الرومي - مادحا - هو في الواقع انسان ضعيف ليس للقوة فيه مجال لأنه اعتمد على صفة الكيد والختل والدهاء ، والإنسان حين يعتمد لهذه الصفات يكون ضعيفا لا يقوى على مواجهة العصر ومافيه من تقلبات ، ولعل القلاقل والدسائس والاضطرار الدائم إلى اتقاء الشر ، ومداراة الأقوياء هي التي دعت لوجود هذه الصفة وبروزها في عصر ابن الرومي . ولكن لاننكر أن شخصية الممدوح كانت تكسوها بعض صفات شخصية الشاعر ، وابن الرومي في مدائحه التي تحفل بالمقاطع التأملية في الحرص والإيمان والشرف وقيمة الناس ، وتقلب الدهر والمجتمع المتفاوت الطبقات ، الظالم الميزان ، يبشر بالمتنبي مع فارق بسيط هو أن هذه الأنغام تصدر عن

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص ١٨١ بتصرف .

ابن الرومي وهي أشبه مايكون بنواح أرملة مستضعفة ، بينما تصدر عن المتنبي صدور الزئير عن أسد جريح<sup>(١)</sup>.

وكما مدح ابن الرومي بالصفات والشيم العربية المتوارثة ، فكذلك فعل المتنبي . فمن أبرز المعاني التي امتدح بها المتنبي : معاني التفرد والسيادة والسخاء وتشبيه الممدوح بالبحر ، ومعنى البطش والشجاعة ومواكبة الطير للجيش ، وسواها من المعاني التي كان ينعث بها غالبية ممدوحيه ، وقد كانت معانيه عميقة لأنها تصدر عن تفاعل نفسه مع الحياة والأحداث أو عن وصف للمعارك والبطولات ، وقد عرف المتنبي كيف يزاوج بقوة بين المعنى العميق والعاطفة القوية ، مما أتاح له القدرة على إقامة المشاركة الوجدانية بينه وبين سامعيه ، مع أن عاطفته قد تنوعت بتنوع الأشخاص والموضوعات فهو صادق العاطفة في مدح سيف الدولة ، كاذبها في مدح كافور<sup>(٢)</sup> . ولانريد الاستطراد في بحث الصدق والكذب في العاطفة فقد تعرض لها الكثير من النقاد ولاأظن أننا سنضيف جديدا .

فمدح المتنبي يصلح مدرسة لتربية النفوس الكبيرة ، رغم مايشوبه أحيانا من غلو ممقوت ، فيه فخامة وبراعة تنوعت بتنوع الممدوحين ، فكما بالغ شاعرنا - المتنبي - وصنوه - ابن الرومي - في حديثهما عن الشجاعة والكرم . فقد انزلقا كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل<sup>(٣)</sup> : كذلك إلى مبالغات في وصف مكانة ممدوحهم الدينية . غير أن المبالغة الأولى لا ضرر منها ، أما المبالغة الثانية فقد كانت في بعض الأحيان تثير الشبهات .. وإن

(١) محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص ٩٩ بتصرف .

(٢) محمد حمود ، المتنبي ، ص ٨٩، ٩٠ بتصرف .

(٣) في الأدب العباسي ، الرؤية والفن ، ص ٣٦٣ بتصرف .

كانت مبالغات ابن الرومي أقلّ وطئاً من مبالغات المتنبي حيث لم تزد عن تشبيهات بشهر الصيام ، ووصف للزهاد .

"فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلوا ، وأبعدهم فيه همّة ، حتى لو قدر ماأخلى منه بيتا واحدا ، وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه في غنى ، وله في غيره مندوحه"<sup>(١)</sup>. من ذلك قوله في أحد ممدوحيه :

لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صِرْنَ شُمُوسَا	لَوْ كَانَ ذُو القَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ
فِي يَوْمِ مَعْرَكَةِ لِأَعْيَا عِيسَى	أَوْ كَانَ صَادِفَ رَأْسٍ عَازَرَ سَيْفَهُ
مَا انشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى	أَوْ كَانَ لُجَّ البَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ
عُبِدَتْ فَصَارَ العَالِمُونَ مُجُوسَا	أَوْ كَانَ لِلنَّيْرَانِ ضَوْءٌ جَبِينَهُ

وغير ذلك من مدائحه المبالغ فيها ، وفخره بنفسه ، حين شبه نفسه تشبيهات مبالغ فيها<sup>(٢)</sup>، ليس هذا مجال الحديث عنها .

تجدد موضوعات الشعر القديمة في العصر العباسي ، هيأ للشعراء التوسّع في معاني الهجاء ، ومافيه من الأخلاق المذمومة ، فتناولوها بالبسط والتفصيل ، فقد عرف الشعر العباسي لونا آخر من الهجاء ، كان أخفّ وقعا ، ولم يكن يتجاوز حدّ السخرية من المهجو ، وإثارة الضحك ، وفيه مجال واسع للتفنن ، ويحتاج إلى قدر غير يسير من الذكاء والفتنة ، فحين أن السب والقذف لا يحتاجان من الشاعر إلّا إلى معجم لغوي بذيء ، بينما يحتاج التصوير السافر المضحك إلى محيلة خصبة نشطة ، تعرف كيف تجسّم العيوب في صورة مثيرة<sup>(٣)</sup>. وربما كان هذا هو اللون الأعم في هجاء ابن

(١) ابن رشيقي ، العمدة ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٢) كأني دحوت الأرض من خبرتي بها كأني بني الإسكندر السد من عزمي

(٣) عز الدين اسماعيل ، في الأدب العباسي ، الرؤية والفن ، ص ٣٨٦ بتصرف .

الرومي ، تسعفه في ذلك قدرته البارعة على استغلال العيوب الجسدية ، مع أن في هجائه جانب اجتماعي يزري فيه ابن الرومي بمجتمعه وينتقده ، حين يعرض لأشخاص معاصرين له فينتقد أخلاقهم وبعض تصرفاتهم ، ويظهر عيوبهم ، فكأنه يشير إلى مجتمعه الذي سادت فيه تلك الرذائل ، على أن هناك مأخذا على ابن الرومي في هجائه حين يهجو أشخاصا بالفقر ، والقبح حيث أنه تناسى أو غاب عنه أن الإنسان لا يد له في وضعه الاجتماعي - الغنى والفقر - ولم يخلق نفسه - فيكون قبيحا أو جميلا - ومن ثم لا يمكن أن يحاسب على صورته وإنما يحاسب على أعماله وسلوكه . ونحن نستدل بهذا النوع من هجاء ابن الرومي على نفسيته ، فهذا النوع ليس له ما يبرره من حيث القيم الاجتماعية ، وإنما دوافعه شخصية متشائمة غريبة ، وهي شخصية شاعرنا ، والحق أن الهجاء الذي برع فيه هو اللون الذي ابتعد عن الأسلوب الجارح ، وعن سبِّ الأعراض والظعن في الدين ، هو اللون الذي اتجه إلى التحليل النفسي حيناً ، وإلى النكات الفكاهة المرحة حيناً آخر ، وهو الأقرب إلى طبيعة الفن الأدبي الراقى<sup>(١)</sup>. نقصد بذلك صورته الساخرة التي قال عن طبيعتها وأثرها النويهي : "أول أثر لصور السخر والهجاء عند ابن الرومي علينا أنها تحملنا على الضحك الشديد ولكن إن اكتفينا بالضحك وظنناها لا تقدم سواه وانصرفنا عنها فما قدرناها حق قدرها ، إنما تقدرها قدرها حقا حين ينتهي ضحكنا فنعود إليها مرة أخرى ، فإذا بها تثير فينا شعورا مختلفا ، شعورا يصعب التعبير عنه فيه الرثاء لهذا المتألم المجروح ، والرثاء لغيره من المتألمين المجروحين ، بل فيه أيضا الرثاء لهذا البخيل أو الدنيء أو السفيفه أو الثقيل أو الشهواني الذي يسخر الشاعر منه ، فيه الرثاء للإنسانية جمعاء ، والعزاء لنا نحن أيضا عن آلامنا ومصائبنا ، ثم

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٧ بتصرف .

ينتهي بنا هذا الشعور إلى الاستهانة بها جميعا ، والعلو عليها جميعا ، وذلك هو عزاء الأدب الأعظم" (١).

هذه الملاحم أهم ما يميز هجاء ابن الرومي ، وإن كان في قدحه للإنسان أضاف بعض الأمور الجديدة ، كما حدث في مديحه حين مدح ببعض القيم الموروثة وزاد عليها بأن مدح بقيم اشتقها من الموروث ، أو استحدثت في عصره فطوعها لمديحه ، وربما يرجع ذلك لثقافته الأخرى غير العربية ، أو ربما لأنه كان يعيش بخياله في عصر غير عصره .

وفي النهاية - فالإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا - إنسان ذميم منفرد لو قُدر لشاعرنا أن يحول صورته في القدح إلى رسوم وصور زيتية لأقام بها أظرف معرض للإنسان القبيح في العصر العباسي .

وهو لم يحفل بالحياة من الناحية الأخلاقية إلا بقدر ما ترتبط القيم الأخلاقية بتحقيق الإنسان لغايته تحقيقا مثاليا ، كاملا . لذا كان مديحه خلوا من العاطفة ، فغايبته الأولى من مديحه هي الحصول على عطاء الممدوح .

بينما نجد أبياته في الهجاء مقدمة على غيرها من أغراض شعره " وإذا قابلنا بين أبياته في الهجاء الشخصي وأبياته التي هجا بها بعض ذوي العاهات النفسية ، تبين لنا أنه يتعمد في النوع الأول من الهجاء الأحداث الطاغية بحيث يقتصر ابتكاره عليها ، كما كان يقتصر في النوع الثاني على اشتقاق المعاني من ذاتها ومن العلاقة الخفية التي توثق بينها وبين سواها" (٢).

(١) محمد النويهي ، ثقافة الناقد الأدبي ، ص ٣٣٥ .

(٢) إيليا حاوي ، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص ١٦٧ .

والعناصر الموسيقية الفنية إلى جانب الخيالية والفكرية واللغوية ، في شعر ابن الرومي تُسبغ على صورته ثوبا جماليا شائقا وتبتعث ألوانا من الانفعالات في نفوس المتذوقين .

بينما ورث المتنبي القيم المتداولة في الشعر العربي قبل أربعة قرون فمدح بها وقده وذم بما هو ضدها ، وهجاؤه فخر مقلوب فقد كان يهجو أعداءه بضم ما يفخر به أو يمدح به أوليائه .

وكما رأينا المتنبي يباليغ في التهويل والتضخيم حين يمدح نراه وقد أولع بالتصغير والتحقيق في قدحه وهجائه ، فإذا ازدري شيئا أو رجلا حقيرا فذلك كما يقول العقاد : "ازدراء يشوبه الضغن ويضاعفه ظل العظمة الملقى عليه ، وإذا عادة المبالغة في الاستصغار موصولة بعادة المبالغة في التضخيم ، أو هي هي ولكن تختلف ناحية النظر طردا وعكسا على حسب اختلاف الشيء المنظور إليه . وأكثر ما يرى المتنبي مُصغِّرا حين يهجو مغيظا محنقا ، أو يستخف متعاليا محتقرا" (١).

وهو إذا لم يُصغِّر عدوّه المهجو باللفظ صغّره بالمعنى كما في قوله :  
يُؤذِي القليلَ من اللئامِ بطبعه      مَنْ لا يقلُّ كما يقلُّ ويلؤمُ  
فكان أعداؤه اللئام عنده شيئا قليلا . "وله في الهجاء القول الممض والكلام المر حتى أن بيتا واحدا من هجائه كان يقوم مقام القصيدة الطويلة في الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المحز ، فهو حين يقول :  
فلو كُنتَ امرءًا تهجى هَجَوْنَا      ولكنَّ ضاقَ فِترٌ عن مَسِيرِ

(١) مطالعات في الكتب والحياة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط/أولى ، ص ١٨٩ .

فهذا منتهى ما يصل إليه الاحتقار ، فهو ليس برجل يؤبه له حتى يهجى لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتر أقل من أن يتسع لمسير" (١).

وشاعرنا المفتون بالقوة التي هي محك الأخلاق ، وبوتقة الفضائل كثيرا ماتغنى بالوفاء والكرم والصدق والشجاعة ، ومدح هذه الخصال فيمن يمدحهم ، وعدّها أجمل صفات القوة ، وهو حين يقول :

وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّادِقِ قَلِيلَةٌ      وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مَنْ لَا يُجَرَّبُ

فإنه يشير إلى ندرة الأصالة والكرم في الرجال ، أليس هذا التعريض بين صفات الرجال وصفات الخيل ، وقلة الرجال الصادقين كقلة الخيل الجيدة في عصره؟ ومعظم صور المتنبي يجمع فيها بين الفكرة والتصوير . "والقوة عنده هي أصل الأخلاق والفضائل والمحور الذي تدور عليه المحامد والمناقب . وهو يحيط بأمور كثيرة في شعره - مدحه ، قدحه - ولكنه يطبعها جميعا بهذا الطابع" (٢).

والمتنبي في شعره لم يحتفل بالصور والألوان سواء في المدح أو في القدح فجمال الصورة وحسن الثياب لم يكن يعنيه . فحسب ممدوحه من الجمال الشرف والاستقامة ، ونقاء النفس وترفعها عن الرذائل والمفاسد ، ولا يفوته بذلك شرف المبدأ وعزة النفس وإباء الضيم ومتى يفقد الإنسان هذه القيم والفضائل يفقد في نظر المتنبي إنسانيته ويتخلى عنها .

(١) على الجارم ، سر نبوغ المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ع/الرابع ، ص ٧٤ .

(٢) عباس العقاد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

وقد عبر شاعرنا عن ذلك كله - مادحا وقادحا - بطريقة تدل على عمق فكري ، وسعة خيال ، وصدق إحساس ، ساعده في ذلك ملكة لغوية متفوقة وقد أدت هذه العناصر وظيفتها الابداعية والفنية وذلك عن طريق الموازنة بين الفكر والفن ، ومن ثم تحقق لصور شاعرنا جمالها الفني .

ونستطيع أن نتبين في صورته - سواء في مقام المدح أو القدح - خصلتين فئيتين هما كما يقول الدكتور طه حسين : القوام الفني لشعر المتنبي يسرف فيهما أحيانا ويقتصد حيناً ، وهي المطابقة والمبالغة ، يستخرج منهما فنونا من الجمال تؤثر في العقل والذوق والحس جميعاً فتنشئ شيئاً من الموسيقى اليسيرة الحلوة في أكثر الأحيان فالمتنبي يحسن المقابلة بين الأضداد كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التي يختارها للدلالة على تلك الأضداد ، ومن ثم يضعها في مواضعها اللائقة<sup>(١)</sup>.

وللمتنبي قدرة فائقة في استخدام الطباق والتقسيم والمزاوجة والتجنيس فهو حين يقول :

على قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ      وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ  
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا      وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

"فقد وظف اللغة توظيفاً خاصاً لتحقيق قيمة صوتية وإيقاعية هي في حد ذاتها قيمة جمالية ، تكشف عن مزايا أسلوبه ، ولو كان أمر الصياغة عند المتنبي قد وقف عند بلوغ الشكل الإيقاعي وحده لما كان له هذا التأثير وإنما الذي زاد من قيمته أنه يصلنا في ذات الوقت بالرؤية التي ينقلها إلينا عبر الكلمات أو مادتها أو شكلها الإيقاعي"<sup>(٢)</sup>.

(١) مع المتنبي ، ص ٥١،٥٠ بتصرف .

(٢) د. محمد زكي عشاوى ، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ،



فالمقابلة بين الألفاظ قد صيغت ببراعة ، ثم قد حملت معنىً إنسانياً وكشفت عن حقيقة عامة من حقائق النفس مما يحقق التكامل بين عناصر الصوت والمعنى<sup>(١)</sup>.

\* نتيجة :

من كل ماتقدم يتضح لنا أن ابن الرومي حين يمدح يخص بمدحه إنساناً بعينه ، وحين يهجو يطعن كذلك في شخص واحد ، أما المتنبي فحين يمدح يمدح الإنسان في كل زمان ومكان حين يتصف بالقيم والفضائل الحميدة كذلك قدحه موجهاً للإنسان كونه إنساناً ، لا يأبه للشخص نفسه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥١ بتصريف .

## ثانياً : القيمة الفنية في صور الشعراء :

استخلاص صورة الإنسان في كلا حاله عند ابن الرومي والمتنبي هو هدفنا الذي نتوخى الوصول إليه لكن ينبغي أن نعي أننا لسنا علماء نفس أو علماء اجتماع ، وإنما نحن نبحت عن الحقيقة الاجتماعية والنفسية من وجهة نظر الشاعر .. فنحن في دراستنا للأدب نبحت عن الحقيقة والجمال معا.

الحقيقة : من خلال تلك القيم الاجتماعية التي امتدحها الشاعر أو هجاها . والجمال : من خلال الصور والأخيلة التي صور بها تلك القيم وأدى بها المعاني . فالجمال في كل شيء مصدر للإحساس بالقوة ، فكما أن العلم يؤدي إلى قوة العقل ، فإن الفن والأدب يؤديان إلى قوة الروح ، فالقيم والآفات الاجتماعية في مجال المدح أو القدر عند ابن الرومي والمتنبي عُبِّرَ عنها بصور فنية رائعة ، بحيث لا نستطيع أن نفرق بين القيمتين - أي بين المعاني والصور التي عبرت عنها وظهرت بها - .

والقيمة الفنية في صور الشعراء كثيرة وحيث أن موضوع البحث لا يعنى بالناحية الفنية فقط كان أيسر الجهد أن أسلك في هذا الجانب طريقاً بعد قبلي ، فأعول على من سبقوا إلى درس شعر ابن الرومي ، وشعر المتنبي درساً لغوياً ، أو درساً بلاغياً ، أستجلى فيه جمال المجازات والكنائيات والتشبيهات ، والإيجاز والإطناب ، وما يكون من ألوان البديع ، ألتمس الصور الفنية من خلال ذلك ، صنيع بعض المعاصرين الذين يكتفون بالدراسة الفنية لشعر شاعر ما ، وتحكيم معايير البلاغة فيه ، دون ربط ذلك بالناحية الاجتماعية .

ولأُمّاري في أن هذه المعالجات كلها مفيدة ، وتوطىء لدراستي هذه وتعين عليها . إلا أنني أرى أنّ فصلها عن القيم الاجتماعية ، والاكتفاء بمحصر جمال العمل الأدبي في تطبيق المعايير البلاغية المتعارف عليها فيه حجب ومصادرة لجانب آخر من الجمال الذي يمكن اكتشافه بشيء من المعرفة وزيادة الوعي .

فالصورة باعتبارها المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية ، ومن الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل ، يمكن أن تكون مجالاً ثرا للدراسة الأدبية ولست أدعى الإمام بجميع تفاصيلها عند الشاعرين في هذا الفصل ، ولكنني أصبو إلى الإشارة لبعض صورهما .

ففي العصر العباسي استقرت الأمة العربية وغنيت وأخذت في التفكير الهادئ والافتنان في وسائل العيش ، وتغيرت كثير من تقاليد الاجتماعيات وربما فشا في المجتمع اللهو والعبث وانحلت مقاييس الأخلاق فنشأ عن ذلك حياة عصرية تمتاز بسعة المعارف ، وجمال الخيال ورفاهية العيش وصفاء الذوق ، فإذا موضوعات جديدة ومعان مبتكرة عميقة ، وأخيلة بديعة وأساليب عذبة موسيقية ، فقد امتاز العصر العباسي بحياة ترف شامل ، ومناظر جميلة وفنون مختلفة وحرية اجتماعية كانت لها آثارها في الأدب عامة والشعر خاصة<sup>(١)</sup> . من هنا تنوعت صور الشعراء وتباينت أذواقهم ، فكان لا بد أن تختلف الصور لدى شاعر مسلم كابن الرومي ، عنها لدى شاعر متكبر قوي الشكيمة كالمتنبي ، فحين يريد ابن الرومي أن يُقنع ممدوحه بكفاءته واستحقاقه النوال والتقدير مكتفياً بالقول :

(١) د. أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، ص ٨٤، ٨٥ بتصرف .

مَنْ يَحِينُ عَصَا مُوسَى وَذَلِكَ أَنْتَى      ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ النَّدى فَتَضَحَّضَا  
فِياليتَ شِعْرِي إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ الصَّفا      أَيَّبَعْتُ لِي مِنْهُ جَدَاوِلَ سِيَّحَا؟!

نجد المتنبي يعن في إظهار قوة ومدوحه وشجاعته فيصور المتصدي له رجلاً فظاً غليظاً لا يعرف الله لكثرة ما يسفك من دماء ، فإذا رأى ممدوح المتنبي عاد إلى صوابه وذكر الموت المحتم فنطق الشهادة!!

وَرَبِّ مَرِيدٍ ضُرَّه ضَرَّ نَفْسِهِ      وَهَادٍ إِلَيْهِ الْجَيْشَ أَهْدَى وَمَاهْدَى  
وَمُسْتَكْبِرٍ لَمْ يَعْرِفْ اللَّهَ سَاعَةً      رَأَى سَيْفَهُ فِي كَفِّهِ فَتَشَهَّدَا

ثمة ملاحظة يجدر التنويه بها . وهي أن الشاعرين اتفقا في الهجاء فقد كان كل منهما سليط اللسان قدير التصوير ، يأتي ذلك كله من براعتهمما اللغوية التي سهلت عليهما إلباس المهجو بأقبح الألفاظ ، وأكثرها سخرية ، وتزيين قول الواحد منهما بأنفر الحروف التي تضطر السامع إلى الضحك على المهجو . وكلاهما قد استخدم اللغة والأسماء والهيئة والأصل والنسب بهجائه ، وعرض بالنساء وبالأهل امعاناً في الأذى والإهانة . مع أن لكل منهما طريقتة وذوقه الفني<sup>(١)</sup>.

إن وراء الشكل والمعنى القريب في الصور السابقة عند الشاعرين سواء في المدح أو القدح ، قيمة جمالية بعيدة الغور ، رفيعة الجمال ، متجددة المذاق ، وهي في تصوري قيمة استمدتها الشاعران من أحداث عصرهما وتطور المعارف والعلوم إضافة إلى ماتوارثه الإنسان العربي من قيم وأخلاق تجلت في أفعالهم كما تجلت في أقوالهم .

ولما كانت غايتي في هذا الفصل هي الموازنة بين الشاعرين في الرؤية والصورة الفنية ، فلامنص إذاً من درس القيمة الفنية للكشف عن آفاق الجمال في صور الشاعرين والبحث عن أسرارهم .

(١) د. محمد التونجي ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص ١٨٨ بتصرف .

فقد نُعجبُ بصور الشعارين سواء في مقام المدح أو مقام القدح وتوحي إلينا لغتها غدقا من المشاعر ، ويستحوذ علينا مافيهما من جاذبية وجمال ، ولكن يبقى في النصوص شيء مالايشكفه إلا وصلها بصاحبها - الشاعر - فتزداد سطوعا وإشراقا .

إذ أن هناك فروقا شخصية بين الشعارين تجعل وراء جمال كل نص صاحبه بذوقه وثقافته ، وطريقته الخاصة في الابداع الفني ، إن هذه الصلة لايمكن الإغضاء عنها ، ولاالغض منها في تقويم العمل الفني ، وهى بلاريب تعين على الإحاطة به وبلغته ، والقدرة الواعية على تحليله ، ولانغفل مع كل هذا عنصري الزمان والمكان .

فابن الرومي فنان رهيف الحس ، لايجب العنف شأن الفنانين ، ولكنه عاش في عصر غلبت عليه القسوة وطبع العنف طابعه على أفراد المجتمع ، إلا أن هذا العنف لم يُنفِ إحساس ابن الرومي بالجمال وتذوقه له ، والتعبير عنه في شتى صورهِ ، تعينه دقة ملاحظته وقوة ذاكرته ، وسعة خياله وعمق تفكيره .

وقد عبر ابن الرومي عن معانيه بأسلوب خاص تميز به ، فهو بدون شك يقدّم المعنى على المبنى ، فلم يجعل اللفظ شغلا شاغلا في صناعته ، ولم يحفل به إلا لأداء المعنى الذي يريده ، ولهذا سلم من لعب الجناس اللفظي والمحسنات المموهة مع أنه نشأ في العصر الذي نشأت فيه هذه المحسنات<sup>(١)</sup>.

(١) محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص ٨٢، ٨٣ بتصرف .

وقد كان ابن الرومي حين يمدح يتناسى الشخص الذى يمدحه ، ويرسم أبهى صورة للجمال والكمال الإنسانى ، وكأنه يحدد صورة مثالية للجمال الذى كان له فى ذائقته سر وسحر خاص ، فهو ليس بالجمال الذى يُرى فيملاً العين ، كما أنه ليس بالجمال السهل البسيط ، بل إنه الجمال الذى يملأ الكيان والوجود بعد أن يبهر العيان ، وابن الرومي بحكم ثقافته وتجاربه يُقوِّمُ الجمال تقويماً علمياً ونفسياً وحضارياً ، ويتذوقه تذوقاً نهماً كأنه يسرى فى دمه ليصل إلى الإحساس المطلق بهذا الجمال ، فيزين به قصائده ، لقد كشف عن سر تلك اللذة التي يحدثها الجمال فى النفس<sup>(١)</sup>.

ولم يقف عند ذلك . بل لقد تحدث عن الأثر الذى يحدثه الشيء الجميل فى النفس ، حين عرض لصورة من صور الجمال وهي الأصوات الجميلة ووقعها فى النفس . فقد كان له معها شأن كبير هو أقرب إلى التحليل والتعليل ، وهو حين يشبه أثر الصوت فى النفس بأثر منظر طبيعي يرسخ بذلك الإحساس بالجمال ويذكرنا بقول العقاد : "التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوبة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لاغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً . وكانت النفوس تواقه إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة"<sup>(٢)</sup>.

(١) صفية السودانى ، الوصف فى شعر ابن الرومي ، ص ٣٤٨ بتصرف .

(٢) انظر محمد مندور ، الشعر المصرى بعد شوقي ، ص ٥-٧ ، نقلًا عن محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبى الحديث ، ط/أولى بدون ، الفجالة ، ص ٤٤٧ .

فالقيمة الفنية لصور ابن الرومي الشعرية أنها تعمل على تنظيم رؤيته الإنسانية وتكشف عن المعنى الأعمق للحياة والوجود كما عرفه والمتمثل في الخير والجمال من حيث المضمون والمبنى بطريقة إيحائية رائعة من حيث الشكل . فصوره ليست على مستوى واحد من الوضوح والإبهام في مدائح وأهاجيه ، بل تختلف اختلافا بينا ، ذلك لأن له في بعض موضوعات المديح صور عديدة تشترك حواسه جميعها في الاستمتاع بها ، كما أن له في موضوعات الهجاء صوراً أخرى تتراسل فيها جميع حواسه ، وبذلك تكثر الصور وتنوع وتتداخل ، ولكن مع ذلك فابن الرومي لم يحتفل باللفظ إلا لأداء المعنى ، فهو لا يعتمد إلى أدوات التصوير كثيرا ، لذا جاءت لمحاته من البديع يسيرة ، لأنه مشغول بتوليد المعاني واستخراج خفاياها ، فقد كان همه رسم لوحة فنية والتعبير من خلالها عن مكنونات نفسه . وقد نجح في إلباس القيم الأخلاقية والاجتماعية ألفاظا ترغّبنا فيها ومن ثم الدفاع عنها كما استطاع أن يلبس قيما أخرى ألفاظا تنفرنا منها وبالتالي محاربتها ، وهذا هو دور الفنان الأصيل .

"والمتنبي شاعر جمع في نفسه الغرابة إلى الطبيعة ، وفي شعره الثورة إلى التقليد ، امتازت معانيه بالقوة ، والإجمال البعيد عن التفريع والتفصيل الذي نجده عند ابن الرومي" (١).

رأى الحياة من حوله صغيرة حقيرة ، فتطلع إلى المجد والبطولة وتطلع حياة أفضل لأنه يحمل بين طياته نفسا عظيمة ، فمدح وأوصل ممدوحه للذروة العليا ، لأنه كان يرى نفسه من خلال ممدوحه .. وقد كان ينشد المثل الأعلى للإنسان في عصره فلا يجده إلا في شخصه ولكنه يجسد فضائل

(١) محمد حمود ، المتنبي ، ص ٨٧ ، ط / أولى ١٩٩٣ م .

تلك النفس لمدوحه ، وقد كان بذلك شديد التغلغل في طوايا النفس البشرية ، شديد التفهم لأحوال الزمان والمكان ، عالج الكثير من قضايا مجتمعه بشعره ، فعرض للعادة وأثرها في الحياة ، كما عرض للنقص وأثره في أحكام الإنسان وتلون مظاهره ، وميل الطبيعة البشرية إلى الظلم ، وما إلى ذلك من الأمور التي هي من صميم علم النفس .

كان للمتنبى نوازع نفسية خاصة ، فقد كان يرغب في الملك ويطمح إليه ، ولعله كان مسرفا في طموحه ، هذا الاسراف انعكس على شعره ، فهو حين يمدح يجد القيمة ذاتها إما للمحافظة عليها وتأكيدها في نفوس العامة مثله في ذلك مثل شعراء العصر الجاهلي بشكل عام ، فقد كان مديحهم موجها إلى القيم أكثر منه إلى الأفراد . أو لأنه كان يدرك أن معاصريه تخلوا عن هذه القيم التي يمدح بها وكان يرى أنه خير من يمثلها ، وبما أنه كان يعد نفسه لملك عظيم فقد رأى أنه لابد لإشاعة هذه القيم والتغنى بها حتى يلفت نظر معاصريه إليه باعتبار أنه الوحيد الذي حافظ على قيم العروبة-كما يفعل بعض المعاصرين حين يدخلون دائرة الانتخابات-، وقد كان المتنبى من أولئك الذين يكبرون أنفسهم أولا ، ويثقون بمواهبهم ، فقد جعل عزمه مطية أمله وأمله فوق نفسه ، ونفسه فوق متناول الآمال فقد كان في جميع أوجه حياته ، يرى أن الحق للقوة ، وأن المجد لا ينال إلا تحت ظل السيوف (١). فهو كالملك الجبار أو كالشجاع الجريء كما قال عنه ابن رشيق (٢).

وقد كان لعنصري العظمة والقوة في نفس شاعرنا أثرهما الواضح على شعره الذي أصبح قويا بيعث النفس على قراءته ، وروايته ، تبعا للغريزة الانسانية التي تفتن بالقوة ، وتتلمس مظاهر العظمة .

(١) على الجارم ، طموح المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ص ٦٨ بتصرف .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ١٣٣ .



يتضح من كل ماتقدم أن ابن الرومي والمتنبي في أخيلتهما وأسلوبهما في صياغة صورهما جمعا عبقرية الرسم إلى فن التصوير ، "والفرق بين الرسم والتصوير : أن الرسم تخطيط ، والتصوير تعبير ، والرسم نقل ، والتصوير ابتكار ، والرسم تصميم هندسي ، والتصوير هو لغة العواطف ، والمعبر عما يجيش في الخواطر ، ويتغلغل في نواحي النفس الحساسة ، والرسم أقرب إلى العلوم النقلية الهندسية ، والتصوير فن جميل ، يتجلى فيه وحي الضمائر ، وإلهام السرائر ، وأساس الأول الفكر والعلم ، ودعمه الثاني الوجدان والفن الجميل" (١).

وعلى هذا يمكننا القول: إن ابن الرومي شاعر الخيال الرقيق ، والجمال الوثيق ، والوجدان الرقيق ، والمتنبي شاعر الهمة العالية ، والأمل الضخم ، والحكم الحيوية الخالدة ، والفلسفة الاجتماعية الصادقة . وبهذا كتب لشعرهما الخلود .

والحق أن الشاعرين قد عَنِيَا بتصوير الحقائق العصرية في صدق وإخلاص ، وكان تصويرهما للحقائق والقيم الاجتماعية أو الأخلاقية تمثيلا وتفسيرا لها ، ولم يكن نقلا دقيقا ، على أنهما اختلفا في أشياء كثيرة سواء في مقام المدح أو القدح ، فقد اختلفا في الشخصية والمزاج ، والنشأة ، والسيرة ، والزمان والمكان ، وفي الصلة بمن يمدحون ، وفي البحور العروضية ، وقد كان كل منهما طرازا خاصا في صورته ، حتى تفاوتت درجاتهما الفنية في صورهما .

(١) عبد الحميد حسن ، الخيال في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ع/الأول ، ص ٩٤ .

وفي شيء من الإجمال يمكننا القول :

(١) إن ابن الرومي كان أضيّق من المتنبي في أفقه العاطفي في مجال المدح لأن مديحه كان طلباً للجمال ، ولعل المتنبي يتفق معه في مدائحه لكافور التي لانلمس فيها من صدق العاطفة شيئاً إلا أنه كان أوسع أفقا وأسمى عاطفة في مدائحه لسيف الدولة وفاتك . أما في مجال القدح ، فقد كان ابن الرومي يكره كل ماهو ضد الجمال ، ويسلط عليه قدرته على السخرية ، فقد نفر من القبح والدمامة وعمل منهما مثلاً أعلى للسوء في لوحات فنية رائعة ، تقوم على البراعة في تجسيد المعايب الخلقية والخلقية في دعوة صريحة منه للبعد عن كل ماهو قبيح ومزري . وقد يلتقى المتنبي مع ابن الرومي بعض الشيء في تجريد المهجو من الصفات الانسانية ، إلا أن ابن الرومي يتناول المهجو كفرد ، بنكتة لاذعة مضحكة ، وسخرية فيها من الدعابة والقسوة الشيء الكثير ، بينما المتنبي يخلق من مهجوه نموذجاً لنوعية معينة من الناس لها صفات خاصة ، تميزهم عن البشر الأسوياء في صور قوية متميزة<sup>(١)</sup>.

(٢) كان الخيال عند كلا الشاعرين ، متناسباً مع أفقهما العاطفي في جهة ، ومع شخصية الممدوح أو المقدوح فيه من جهة أخرى . فابن الرومي في تكوين أخيلته يميل للوجدان ، فقد كان في حياته العقلية والحسية ممن يستسلمون للوجدان ، وقد كانت انفعالاته النفسية وتموجاتها الوجدانية موجهة توجيهاً لينا رقيقاً نحو جميل المظاهر ، أو رشيق المناظر ، أو نحو العواطف المقرونة بالحنان ، والرفق والصدقة ، والوداعة والمواساة ، ولين الجانب ، والنسيب والتشبيب ، أو نحو آلام تحقيق غيره فتهتز لها عواطفه أسي ، أو نحو الطرب بنعيم الحياة ومسراتها .

(١) إنعام الجندي ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٢٦١ بتصرف .

بينما الذي يقود المتنبي في تكوين أخيلته هو الفكر ، ولم يكن جانب الوجدان هو البارز في حياته ، بل كان الذي يملأ قلبه هو مطامحه البعيدة وآماله الواسعة ، وهمته القوية ، فنحن لانتصور المتنبي إلا وقد تحفزت همته وغلت مراحل مطامعه ، فزى القلب الطموح ، والهمة الوثابة التي تحاول أن تتخذ نفقا في الأرض أو سلماً في السماء ، وأن تخلق فتزاحم الكواكب في أبراجها ، أو تنقض فتقتنص مانال بني الإنسان ، مما لم تشأ الأقدار أن تمكن له فيه ، فالذي يقوده في حياته هو إرادته وفكره ، والذي يقوده في خياله في أكثر الأحوال هو الفكر . لهذا نجد أكثر أخيلته خلوا من العنصر الوجداني ، والتموجات العاطفية ، وإن كان له طائفة من الأخيلة عليها مسحة ظاهرية من رقة الوجدان ، ولكن هذا ليس طبعه الشامل<sup>(١)</sup>.

(٣) وإذا رجعنا إلى الأسلوب فإننا نلاحظ الوضوح متوافرا في جميع الصور ، والقوة أظهر عند المتنبي ، والجمال متجليا عند ابن الرومي ، وسبب ذلك شخصية الشاعرين المختلفة ، وصدى الحقائق في نفوسهما وكيفية تلقي الأحداث فالوضوح للعقل ، والقوة للشعور ، والجمال للذوق .

(٤) كان لقوة الشاعرية في ابن الرومي والمنتبي ، ولغزارة مادتهما ، وسعة ثقافتهما ، وخبرتهما بفن الشعر ، أثر بعيد الغور في معرفة ما يصلح لكل معنى من البحور والألفاظ والقوافي ، وبالتالي يجري المعنى البديع واللفظ المطابق ، والخيال الرائع في سُنن واحد مع موسيقى الشعر والقافية ، ولقد اجتمعت هذه الصفات في شعرهما ، وبلغا به الذروة ، فليس عجيبا أن يجيا ، وتستفيض روايته<sup>(٢)</sup> ..

(١) عبد الحميد حسن ، الخيال في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ع/الأول ،

ص ٨٤ بتصريف .

(٢) محمود الشبيشي ، الحيوية في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ص ١٢٩ بتصريف .

ويمكن الاكتفاء بهذا القدر ، فلا يفهم مما ذكرت أني فاضلت بين  
الشاعرين مفاضلة عامة ، بل وقفت عند هذه الأمور التي ربما أجملت الموازنة  
بينهما ليس غير .

خاتمه

## خاتمة

على الرغم من مشقة البحث وعنائه إلا أن مرافقة الإنسان في العصر العباسي ومحاولة العيش في نفس ظروفه وبيئته كانت ممتعة لأنها تمت عبر الكلمة - أية كلمة - الشعر الذي تركه لنا شعراء تلك الحقبة التي يجيل إلى بعد الفراغ من البحث والدراسة أنها كانت حقبة فريدة في عصور الأدب العربي وإن كان هناك شبهة بينها وبين عصرنا هذا ، إلا أن العصر العباسي كان عصر القلق والشك والحماس والتوتر والتشاقف والتأمل ، ولكونه كذلك فقد أنجب من المواهب ما يعز نظيره في غير عصور التوتر والتوهج ، وإن كنت قد آثرت ابن الرومي والمنتبي في دراستي هذه فهذا لا يمنع وجود الكثير من المواهب الأخرى والعبقريات التي أنتجها هذا العصر ، ولكن شاعرين مثل ابن الرومي والمنتبي يضيفان على عناء البحث والدراسة متعة لا توصف ، فضلا عن أننا نخرج بعد كل قراءة لشعرهما ودراسة لفتنهما بنفس أكثر جمالا وروح قد امتلأت حبا وخيرا وأملا ، وذهن وجد في شعرهما محصلة هائلة من الخبرات الإنسانية العظيمة ، كما أنهما من الشعراء القلة الذين نقرأ إنتاجهم الأدبي فلانشعر بالاغتراب بل العكس تمتلئ ذواتنا بالقوة والفخر جراء الانتماء العربي الذي يوحى به شعرهما .

كما أن لهذين الشاعرين قدرة عجيبة في التواصل مع المتلقي أيا كان حاله وأيا كانت ثقافته .

من أهم نتائج هذا البحث أو - الدراسة الأدبية - أن الدافع الديني أهم مصدر للطاقة الدافعة للإنسان كي ينجز فعلا ما - تغير جذري اجتماعيا - يترتب عليه استحالة الوصول إلى مجتمع جديد إلا إذا حدث تغيير عميق في الضمير الإنساني وظهر شيء جديد يدافع عنه الناس إيمانا به وتمجيда له . هذه النتيجة توصلت إليها أثناء استعراض عصور التغير الكبرى في التمهيد .

مع تعاقب صور ابن الرومي والمتنبي ومحاولة استجلاء صورة الإنسان من خلال رؤيتهما وصورهما التي كانت تهمس في آذاننا بعبقريتهما ، يشد ابداعهما الفني بمجامع قلوبنا ، فنجد عواطفنا تتحرك نحو الإنسان في عصرهما بالرحمة حيناً وبالاشفاق عليه حيناً آخر ، وتهتز مشاعرنا مأخوذين به ومبهورين بعظمته وكريم خلاله من جانب .

فقد تجلت لي صورة الإنسان الكريم النسب ، المسلم القوي ، الفيلسوف المحنك ، الفارس العالم ، المجاهد الشجاع ، الصابر النبيل ، التقى الزاهد ، الأبى الوفي ، جمع مكارم الأخلاق كلها ، وجدت فيه صفات الكمال الإنساني - حين يمدحه أي من الشعارين . ثم وبقدر القوة وبنفس الإحسان أجد صورة أخرى توحى بمدى التناقض في الإنسان ، حين أجد صورة إنسان قاسى في حياته الكثير من الكيد ، وتعامل بالحسة والدسائس ، والشديد من الظلم والمكر والحسد باختصار وجدت صورة مسخ بشري تجمع نفسه كل المخازي والردائل والسقطات ، فكان أخط من أوضع حيوان . فلانملك أمام تلك الصورة الشوهاء إلا التقزز ، والإعراض عنها . هكذا كان حال الإنسان في العصر العباسي في رؤية شاعرينا ، ففي المدح كان لا يضاهاى قد بلغ قمة المجد والكمال الإنساني ، وفي حال القدح أيضا لا يضاهاى لأنه أحقر من أن ينظر إليه أو يؤبه له .

لقد كان الإنسان في ذلك العصر موزعا بين أمور شتى لا يملك الاختيار لنفسه ، وجد نفسه فجأة يخرج من الصحراء إلى التمدن فرأى أن من التمدن أن يغير نفسه بأن يتخلى عن قيمه ومبادئه كما يغير ملبسه ولو وعى حقيقة الحضارة لعلم أنها لا تقوم إلا على الأخلاق والقيم أولا ، ولا يكتب لها الاستمرار إلا بدعامتين : هما الدين والأخلاق .

ولقد نجح ابن الرومي والمتنبي وأفلحا في إيصال حقيقة الإنسان في عصرهما وإظهارها للقارئ والباحث بصورة تشهد بعبقريتهما ودقة حسهما الفني ، وهذه تجربة إنسانية فريدة قادرة على أسر الوجدان والعقل ، بل

قادرة على تمثيل وتصوير النفس الإنسانية في كل أحوالها ، وقد عبر كلا الشعارين عن كثير من ألوان الصراع الإنساني كما حاولا من خلال شعرهما التصدي لألوان الفساد المستشرية في ذلك العصر ، فقد كان الفساد عاما ، والفسق منتشرًا ، حتى في أرقى مدن الدولة وأشهرها ، لقد كان عصر الشعارين باختصار مرحلة هي نقطة بين الكمال والانحلال ، بين الحرص على الدين غيرةً ، وإعلان الفجور تبجحًا ، ظهر لنا ذلك جليا في مدائح الشعارين وأهاجيهما ، من ذلك قول المتنبي حين رأى سيف الدولة يعزف عن الحمرة ويترك الكأس من يده احترامًا لوقت الأذان :

ألا أذنّ فما أذكرت ناسي                      ولا ليئت قلباً وهو قاسٍ  
ولا شغل الأمير عن المعالي                ولا عن حق خالقه بكاسي

والحق أن رؤية ابن الرومي والمنتبي للإنسان كانت متأثرة بأوضاع عصرهما وتقلبات أحواله ، واشتراكهما مع كثير من الشعراء السابقين في كثير من المعاني سواء في المدح أو القدح لم يطمس موهبتهما الخلاقة ، فقد رأينا الكثير من المعاني المبتكرة في صورهما السابقة فوجدنا إبداعا يشرق في دقة عرض للموضوع التقليدي ، لقد كان عنصر القوة ، عنصرا مشتركا بين صور الشعارين سواء في مقام المدح أو مقام القدح ، فكان كلا منهما يبحث عن القوة سواء في الجمال أو الغنى أو الشجاعة حتى في الصور التي كانت هجاء للإنسان كان الغرض من وراء الهجاء فيها البحث عن القوة والبعد عن الضعف في أي شكل من أشكاله ، وقد عرض الشعاران الفضائل ومكارم الأخلاق في مدائحهما بطريقة توحى بالقوة وتولد الرغبة في التحلي بتلك القيم والمحافظة عليها ، لتقوى أنفسنا ، لأن النفس مفطورة على حب الخير والجمال وفي هذه الصفات قوة ، والإنسان بطبعه يسعى للقوة ..

كما عرضا لنا الرذائل والآفات الاجتماعية بطريقة توحى بالبغض والكره والزرارية رغبة في الابتعاد عن الرذائل والشر لأن في هذه الصفات يظهر ضعف الإنسان ، وقد عرضا لنا بطريقة تبغضها إلينا وذلك رغبة في تقليم أظافر الشر في الإنسان .



وقد تبين لي من خلال درس وتحليل صور الشعراء أن عاطفتهم في مقام المديح لم تكن صادقة . فالأول - ابن الرومي - كان يحدوه الخوف والطمع وقد ظهرت هذه الرغبة في معظم مدائحه ، فقد كان خلوا من كل عاطفة أو إحساس بالحب تجاه من يمدح .

وكذلك المتنبي فقد كان يبيع عواطفه .. فقد كان زعيم المتكسبين بمدائحه صراحة .. وإن كنا نجد له قصائد تظهر صدق عاطفته فقد كانت مقصورة على سيف الدولة وفاتك الرومي .

أما في مقام - القدح - فقد تكون عاطفة الشعراء صادقة بعض الشيء وذلك أنهما كانا يرومان تخليص الإنسان من الرذائل ، وانتشاله من وهدة الضياع والانحلال الأخلاقي . ولو اقتصر الهجاء عندهما على تصوير المساوىء الشخصية أو الاجتماعية وعرضها بقلب يثير فينا الكراهية لتلك المساوىء لبلغ هجاؤهما درجة راقية في الشعر العربي . ولكن لديهما كثير من الهجاء الذي هو من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص ، أو كرامة أهله ، لالقصدي إصلاحياً بل تشفياً أو تفاخراً . والهجاء الفني يقتضي أمرين : الفكاهة أو الدعابة ، وحسن التصوير . الأول : يرفعه عن الحشونة والاقذاع . والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة .. وربما وفق الشعراء في بعض صورهما إلى هذه الأمور .

كما تبين لي بعد الدراسة والموازنة ، أن الصور الفنية الرائعة عند ابن الرومي أقوى وأظهر منها عند المتنبي .

وإن التقيا في جزالة العبارة ودقة التصوير ، وقد استطاع كل منهما أن يجمع في صورته بين أعظم الحقائق الإنسانية ، وبين الصياغة الرائعة الدالة على صدق الشعور وجمال الخيال ..

يصعب علي أن أضع القلم وتحط رحالي بحثي ودراستي للإنسان في صور ابن الرومي والمتنبي ، فقد عايشت الإنسان في عصرهما من خلال شعرهما معايشة أبكتني وأضحكتني ربما أكون محقة في فهم الإنسان والتعاطف معه

جِراء أوضاع عصره ، التي تُذكرني أوضاع عصرنا ، وتصور لي إنسان هذا العصر ولكن افتقد شاعراً أوتي رهافة حسّ ابن الرومي أو حكمة المتنبي ليقدّم تصويراً لاثقا بالإنسان في هذا العصر ، هذا لم يمنعني من التساؤل : ترى لو قدّر لشاعر كابن الرومي أو المتنبي التواجد والعيش في عصرنا هذا ماالذي سيقوله وأي صورة سيرسم للإنسان؟؟ في اعتقادي أنه لن يسمح لقلمه ولالفكره بالخوض في ارهاصات هذا الزمن ولأخلاق إنسانه .. هذا والله أعلم .

وربما يكون الشاعران استطاعا بقدرتهما العجيبة أن ينفذا إلى عقلي ويؤثران على عاطفتي وأنا أقرأ الإنسان في شعرهما .  
\* اقتراح :

بعد أن انتهت هذه الدراسة اتضح لي أن الإنسان موضوع متجدد ولكنه لم يُشبع دراسة . من خلال دراستي هذه أوصي أن يُدرس الإنسان في شعر عصره بأكمله ، أو نثره . أي دراسة أدبية شاملة في عصر مستقل كالعصر الحديث مثلا .

كما اتضح لي أن جانب الصورة الفنية في شعر المتنبي مثلا لم يحظ بدراسة مستقلة إلى الآن .

هذا ماخرجت به من هذه الدراسة والله أسأل أن أكون قاربت الصواب .. وإلا فهذا جهدي وعلى الله التكلان .

الفهارس

## الفهارس

تشمل :

- (١) فهرس آيات القرآن الكريم .
- (٢) فهرس المصادر والمراجع .
- (٣) فهرس الموضوعات .

## فهرس آيات القرآن الكريم

رقمها الصفحة

الآية

### سورة البقرة

٤	٧	﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة
١٨٢	١٤٣	﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس
٣	٢٠٤	﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا
٩٥	٢٤٧	﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم
١٨١	٢٦٢	﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

### سورة آل عمران

١٢٤	١٦٩	﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء
		عند ربهم يرزقون

### سورة النساء

٢١١	٨٦	﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها
-----	----	--

### سورة الأنعام

٩٣	٧٦	﴿ فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال
		لأحب الآفلين
		فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم
		يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رءا الشمس
		بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى
٩٣	٧٨	برىء مما تشركون ... ﴿

رقمها	الآية	الصفحة
<u>سورة الأعراف</u>		
٢٥٣	١٧٩	﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ... ﴾
١٢٢	١٩٩	﴿ اخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ... ﴾
<u>سورة الأنفال</u>		
١١٩	١٧	﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ... ﴾
١٧٠	٢٥	﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ... ﴾
٥٢	٥٨	﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ... ﴾
٢٥٥	٧٥	﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ... ﴾
<u>سورة النحل</u>		
١٠٠	٥	﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع وتأكلون ... ﴾
١٠٠	٦	﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... ﴾
		﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى ... ﴾
١٧٣	٩٠	﴿ عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ... ﴾
<u>سورة الإسراء</u>		
		﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ... ﴾
٥٥	٢٩	﴿ ملوما محسورا ... ﴾
٢	٧٠	﴿ ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ... ﴾
<u>سورة الكهف</u>		
٤	٥٤	﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ... ﴾

		<u>سورة المؤمنون</u>
٥٦	٣	لم والذين هم عن اللغو معرضون .
<u>سورة الفرقان</u>		
٣	٤٤	لم إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا
٣	٦٣	وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا
<u>سورة الشعراء</u>		
٢٢٤	٢٢٤	والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون
<u>سورة الأحزاب</u>		
٣	٧٢	إنه كان ظلوما جهولا .
<u>سورة فاطر</u>		
١٠٠	٢٧	ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود .
<u>سورة محمد</u>		
٢٥٥	٢٢	لم فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . . .
<u>سورة الحشر</u>		
٢٠٦	٩	لم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . .

رقمها الصفحة

الآية

سورة المنافقون

٢٦٤ ٤

﴿كأنهم خشب مسندة ﴾

سورة المعارج

٣ ٢١-١٩

﴿إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا  
مسه الخير منوعا ﴾

سورة عبس

٣ ١٧

﴿أقتل الإنسان ما أكفره ﴾

سورة الانفطار

١٠٠ ٨

﴿في أى صورة ماشاء ركبك ﴾



## فهرس المطادر والمراجع

### (أ) الكتب :

(١) القرآن الكريم

(٢) إبراهيم المازنى

كتاب : حصاد الهشيم

المطبعة العصرية بمصر ، الطبعة السابعة ١٩٦١م .

(٣) ابن الأثير - ضياء الدين -

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر

تحقيق أحمد الحوفى ، بدوى طبانة ، دار نهضة مصر ، ت.ط/بدون .

(٤) ابن خلكان - أحمد بن محمد بن أبى بكر -

وفيات الأعيان

تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ج ١ ، ١٩٦٨م ، ج ٣ ،

١٩٧٠م ، ت.ط/بدون .

(٥) ابن رشيق - أبى على الحسن القيروانى -

العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده

تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة

الرابعة ١٩٧٢م .

- (٦) ابن قتيبة - أبي محمد عبد الله بن مسلم -  
أدب الكاتب  
تحقيق محمد الدالي ، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .
- (٧) أبو اليزيد العجمي  
حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم  
ت.ط/بدون .
- (٨) أحمد أمين  
ضحى الإسلام  
طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ م .
- (٩) أحمد الشايب  
أصول النقد الأدبي  
مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ م .
- (١٠) أحمد عبد الله المحسن  
مقدمات سفيات المتنبى  
دار العلوم ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .
- (١١) إنعام الجندي  
دراسات في الأدب العربي  
دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

(١٢) أنيس المقدسى  
أمراء الشعراء العربى فى العصر العباسى  
دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٩م .

(١٣) أيمن محمد زكى العشماوى  
قصيدة المديح عند المتنبى وتطورها الفنى  
دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

(١٤) إيليا سليم الحاوى  
فن الهجاء وتطوره عند العرب  
دار الكتب اللبنانى ، بيروت ، ت.ط/بدون .

(١٥) إيليا سليم الحاوى  
ابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره  
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

(١٦) إيليا سليم الحاوى  
فى النقد والأدب ، الجزء الثالث  
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٠م .

(١٧) الترمذى - الإمام أبو عبد الله محمد بن على الحكيم -  
أدب النفس  
تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح ، طبعة أولى ١٤١٣هـ .

(١٨) جرجى زيدان  
تاريخ التمدن الإسلامى  
مراجعة الدكتور حسين مؤنس ، طبعة دار الهلال ، بيروت .

(١٩) حسن إبراهيم حسن  
تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى  
دار النهضة المصرية ١٩٥٩م ، القاهرة ، بدون .

(٢٠) حسن الشماع  
المرأة فى غزل أبى الطيب المتنبى  
الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

(٢١) حنا الفاخورى  
تاريخ الأدب العربى  
المكتبة البولسية ، طبعة عاشره ١٩٨٠م .

(٢٢) روفون جيست  
ابن الرومى حياته وشعره  
ترجمة حسين نصار ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، بدون .

(٢٣) زكى المحاسنى  
المتنبى  
دار المعارف بمصر ، طبعة رابعة ١٩٧١م .

(٢٤) زهدى صبرى الخواجا  
موازنة بين الحكمة فى شعر أبى الطيب المتنبى والحكمة فى شعر أبى  
العلاء المعرى  
دار الأصالة ، الرياض ، طبعة أولى ١٣٩٨ هـ .

(٢٥) زهدى صبرى الخواجا  
الجانب الخلقى فى الشعر الجاهلى  
دار الأصالة ، الرياض ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ .

(٢٦) سليمان العيسى  
موجز ديوان المتنبى - شرح اليازجى -  
دار طلاس بدمشق ، بدون .

(٢٧) سهيل عثمان ومنير كنعان  
المحصول الفكرى للمتنبى  
دار الإرشاد ، ت.ط/بدون .

(٢٨) شوقى ضيف  
تاريخ الأدب العربى ، العصر العباسى الأول  
دار المعارف ، طبعة سادسة ، بدون .

(٢٩) شوقى ضيف  
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى  
دار المعارف ، طبعة تاسعة ، ١٩٦٠ م .

(٣٠) شوقي ضيف

فصول فى الشعر ونقده

دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية ، بدون .

(٣١) صلاح الدين بسيونى رسلان

القيم فى الإسلام بين الذاتية والموضوعية

دار الثقافة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

(٣٢) طه أحمد إبراهيم

تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع

دار الندوة ، جدة ، ط/بدون .

(٣٣) طه حسين

مع المتنبى

دار المعارف بمصر ، ط/الثانية عشرة ، بدون .

(٣٤) عباس محمود العقاد

ابن الرومى حياته من شعره

دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة سابعة ١٩٦٨م .

(٣٥) عباس محمود العقاد

مطالعات فى الكتب والحياة

دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٣هـ .

(٣٦) عبد الحميد جیده

الهجاء عند ابن الرومی

المكتب العالمی ، بیروت ، ١٩٧٤م ، ت.ط/بدون .

(٣٧) عبد القاهر الجرجانی

أسرار البلاغة

تحقیق محمود محمد شاکر ، دار المدنی ، جدة ، طبعة أولى ١٤١٢هـ .

(٣٨) عز الدین إسماعیل

فی الأدب العباسی . الرؤية والفن

دار النهضة العربية ، بیروت ، طبعة أولى ١٩٧٥م .

(٣٩) علی بن سیده الأندلسی

شرح مشكل شعر المتنبی

تحقیق محمد رضوان الدایة ، دار المأمون للتراث ، ت.ط/بدون .

(٤٠) فالینتینا إیفاشینا

الثورة التكنولوجية والأدب

ترجمة فخری لیب ، بیروت ، ط/بدون .

(٤١) فوزی عطوی

المتنبي شاعر السيف والقلم

دار الفكر العربي ، بیروت ، طبعة أولى ١٩٨٨م .

(٤٢) محمد التونجي

المتنبى مالىء الدنيا وشاغل الناس  
عالم الكتب ، طبعة ثانية ١٤١٣ هـ .

(٤٣) محمد حمود

ابن الرومى الشاعر المغبون  
دار الفكر اللبناني ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٤ م .

(٤٤) محمد حمود

أبو الطيب المتنبى  
دار الفكر اللبناني ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٣ م .

(٤٥) محمد زكى العشماوى

موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى  
دار النهضة العربية ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨١ م .

(٤٦) محمد عبد العزيز الكفراوى

الشعر العربى بين الجمود والتطور  
دار نهضة مصر ، الفجالة ، طبعة ثانية ١٣٧٨ هـ .

(٤٧) محمد غنيمى هلال

النقد الأدبى الحديث  
دار نهضة مصر ، الفجالة ، الطبعة الأولى ، بدون .



(٤٨) محمد النويهي

ثقافة الناقد الأدبي

بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

(٤٩) محمود حسن أبو تاجي

الحرب في شعر المتنبي

دار الشروق ، جدة ، طبعة ثانية ١٤٠٠هـ .

(٥٠) مصطفى الشكعة

أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين

عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

(٥١) مصطفى الشكعة

فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين

عالم الكتب ، بيروت ، طبعة ثانية ١٩٨١م .

(٥٢) مصطفى لطفى المنفلوطي

من الأدب المترجم : الشاعر أوسيرانودي برجراك

رواية للشاعر الفرنسي آدمون روستان ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

(٥٣) نوري حمودي القيسي

الأديب والالتزام

دار الحرية ، بغداد ، طبعة أولى ١٤٠٠هـ .

(ب) الدواوين :

- (١) ديوان ابن الرومي . في ستة أجزاء  
تحقيق عبد الأمير على مهنا ، دار الهلال ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١هـ.
- (٢) ديوان المتنبي . في أربعة أجزاء  
وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، طبعة  
ثانية ١٤٠٧هـ .
- (٣) ديوان زهير بن أبي سلمى  
دار بيروت للطباعة والنشر ، طبعة أولى ١٤٠٦هـ .
- (٤) ديوان حسان بن ثابت  
دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨١هـ/١٩٦١م ، ط/بدون .
- (٥) ديوان أبي تمام  
شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر  
١٩٧٠م .
- (٦) ديوان صفي الدين الحلبي  
دار صادر ، بيروت ، ط/بدون .

(ج) الدوريات :

- (١) صحيفة دار العلوم  
أبو الطيب المتنبي بعد ألف سنة . السنة الثانية محرم ١٣٥٥ هـ ، العدد  
الرابع ، الجزء الأول ، السنة الثالثة ، ربيع الأول ١٣٥٥ هـ ، العدد  
الأول ، الجزء الثاني .
- (٢) مجلة جامعة الملك سعود بالرياض ، كلية الآداب  
مجلد رقم ٦ ، عام ١٤١٤ هـ .
- (٣) مجلة الخفجي  
العدد الثاني ، السنة السادسة عشرة .
- (٤) مجلة العربي  
العدد ٢٢٦ رمضان ١٣٩٧ هـ .

(د) الرسائل والمحاضرات العلمية :

- (١) الوصف فى شعر ابن الرومى  
رسالة ماجستير فى الأدب العربى ، مخطوطة ، مقدمة من أصفية  
السودانى ، إشراف أ.د./طه نعمان ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم  
القرى ١٤٠٥هـ .
- (٢) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى  
رسالة دكتوراه فى الأدب والنقد ، مخطوطة فى مجلدين ، مقدمة من  
د.على على صبح ، جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ١٣٩٣هـ ، إشراف  
أ.د/عبد المنعم خفاجى .
- (٣) دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية  
مجموعة محاضرات مخطوطة للدكتور محمود عبد ربه فياض ، ألقىت على  
طلاب السنة التمهيديّة بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام  
١٤١٢هـ .
- (٤) دراسات فى الأدب العربى فى العصر الحديث  
مجموعة محاضرات مخطوطة للدكتور محمود عبد ربه فياض ، ألقىت على  
طلاب السنة التمهيديّة بكلية اللغة العربية عام ١٤١٤هـ .

## فهرس الموضوعات

<u>الصفحة</u>	
	شكر وتقدير .....
أ - و	المقدمة .....
١٥-١	<u>التمهيد</u> : .....
٢	الدراسات السابقة حول الموضوع .....
	الإنسان باعتباره محورا مهما في عصور التغير
٦	الاجتماعى .....
٧	التغيرات الاجتماعية ودورها في تغير القيم .....
١٠	العصر العباسى وأبرز ملامحه .....
١٣	ابن الرومى والمتنبى سبب اختيارهما .....
٩٦-١٦	<u>الفصل الأول</u> : [الإنسان في رؤية ابن الرومى - مادحا -]
٣٢-١٩	الصفات الخلقية في مدائحه .....
٨٦-٣٣	الصفات الخلقية في مدائحه .....
٩٦-٨٧	الصفات الخلقية والخلقىة معا .....
١٩٩-٩٧	<u>الفصل الثانى</u> : [الإنسان في رؤية المتنبى - مادحا -] .....
١١٣-١٠٠	الصفات الخلقية في مدائحه .....
١٩٩-١١٤	الصفات الخلقية .....
٢٤٦-٢٠٠	<u>الفصل الثالث</u> : الإنسان في رؤية ابن الرومى - قادحا - .
٢٨٧-٢٤٧	<u>الفصل الرابع</u> : الإنسان في رؤية المتنبى - قادحا - .....
٣١٥-٢٨٨	<u>الفصل الخامس</u> : الموازنة .....
٣٠٤-٢٩١	القيمة الاجتماعية في صور الشاعرين .....
٣١٥-٣٠٥	القيمة الفنية في صور الشاعرين .....

<u>الصفحة</u>	
٣١٦	..... خاتمة
٣٢١	..... : <u>الفهارس</u>
٣٢٢-٣٢٥	..... فهرس آيات القرآن الكريم
٣٢٦-٣٣٧	..... فهرس المصادر والمراجع
٣٣٨-٣٣٩	..... فهرس الموضوعات الإجمالية